I L A N P A P P E

إيلان بابيه

فكرة إسرائيل

تاريخ السلطة والمعرفة

ترجمة: محمّد زيدان

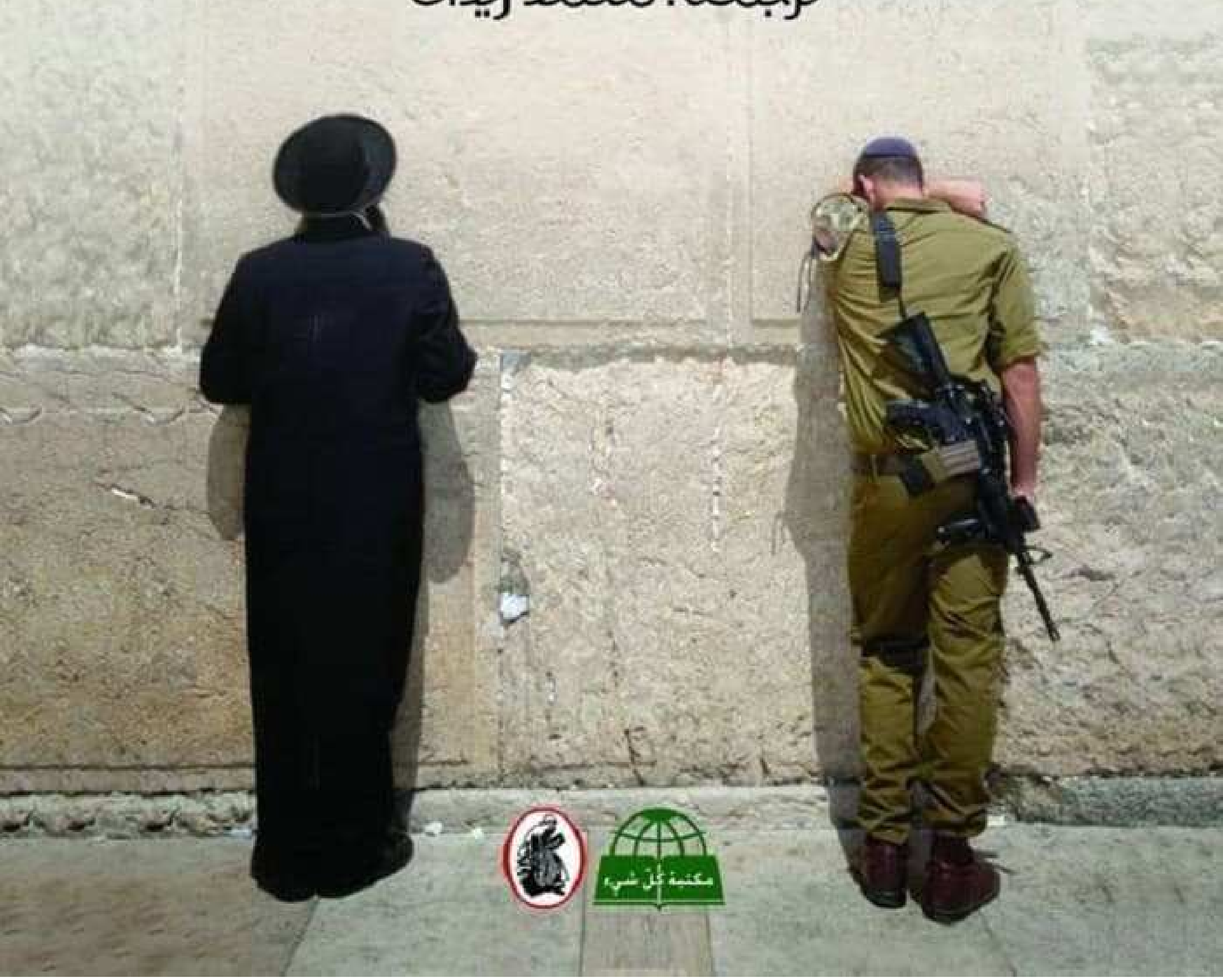

مكتبة كل شيء

T H E   I D E A   O F   I S R A E L

أفكار دراسات
THOUGHT - STUDIES

فكرة إسرائيل تاريخ السلطة والمعرفة

في هذا الكتاب، يأخذنا المؤرّخ **إيلان بابيه** إلى جذور هذا التناقض، ويعرض، بشكل عميق ساخر، تناقضات فكرة إسرائيل مع التاريخ والواقع، ويحدّثنا عن مسيرة هذه الفكرة منذ أن كانت مجرّد مشروع حتّى أصبحت فكرة تدافع اليوم عن وجودها ممثّلةً بالدولة والكيان بدءًا من سعيها لتغيير التاريخ بالقوّة، واختراع أدب وثقافة ملصقة بأرض ليست أرضها الطبيعيّة، حتّى الوصول لتحويلها إلى سلعة أو مشروع إعلاميّ يتمّ تسويقه في العالم لإقناع نفسه أوّلاً، قبل العالم، بأنّه مشروع طبيعيّ، وأنّ إسرائيل فكرة إنسانيّة طبيعيّة، وهذا السعي لا يخلو من المتناقضات الّتي تبدو أحيانًا طريفة حتّى في أسلوب تطبيقها والتفكير فيها.

عبد الله معروف

بالرغم من تفوّق إسرائيل عسكريًا واقتصاديًا على الفلسطينيين، إلّا أنّه ما زال للفلسطينيّين رواية من اللازم أن تُروى، ولا بدّ أنّ العالم سيقبلها يومًا ما. واليوم، وبخلاف ما كانت عليه الحال في مطلع الثمانينات، فإنّ السرديّة الصهيونيّة للتاريخ - بعيدِه وقريبِه - أضحت تعدّ، في أنظار الكثيرين حول العالم، نوعًا من البروباغاندا، بينما بدأت حقيقة الّذي جرى وما زال يجري في فلسطين تتجلّى وترى النور أكثر فأكثر.

إيلان بابيه

مكتبة كلّ شيء
info@kol-shee.com
www.kol-shee.com

46 عامًا في خدمة الثقافة العربية
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
http://www.airpbooks.com

ISBN 978-614-419-617-5
9 786144 196175

فكرة إسرائيل

تاريخ السلطة والمعرفة

هذه هي الترجمة العربيّة الكاملة لكتاب
THE IDEA OF ISRAEL
A History of Power and Knowledge
©Ilan Pappe
Verso Books, 2014

فكرة إسرائيل : تاريخ السلطة والمعرفة / فكر - دراسات
إيلان بابيه / مؤلّف إسرائيليّ منشقّ
ترجمه عن الإنجليزيّة : محمّد زيدان / مترجم من الأردنّ
الطبعة الأولى ، 2015
حقوق الطبع محفوظة ©

مكتبة كلّ شيء
info@kol-shee.com
www.kol-shee.com
مكتبة كلّ شيء / حيفا

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ :
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU ، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11 ، الرمز البريديّ 1107-2190 ، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 الأردنّ ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ :
سنبل سيب ® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
صورة الغلاف : جنديّ ورجل دين يهوديّان عند حائط البراق، الحائط الغربيّ للأقصى.
الصفّ الضوئيّ : المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطيّ مسبق من الناشر.

ISBN 978-614-419-617-5

أفكار دراسات
THOUGHT - STUDIES

إيلان بابيه

فكرة إسرائيل

تاريخ السلطة والمعرفة

ترجمة: محمّد زيدان

مكتبة كل شيء

تقديم الترجمة العربية

د. عبدالله معروف عمر

قليل جداً من الأكاديميين الذين تفرزهم الأنظمة السياسية يتمكنون من الانعتاق من أسر هذه الأنظمة والأفكار التي يسير في فلكها الخط الأكاديمي «المساند» للفكرة التي قامت عليها هذه الأنظمة إن صح التعبير. فالأنظمة الاستعمارية في باطنها لا تختلف عن أي نظام ديكتاتوري متخلف يحكم الناس والأرض بالحديد والنار، حتى وإن اتشحت هذه الأنظمة بوشاح الديمقراطية ووصل الأمر بها إلى أن تسوق نفسها باعتبارها «الديمقراطية الوحيدة في المنطقة» كما هو الأمر في حالة إسرائيل.

هذه الدولة التي أسستها الحركة الصهيونية وأرادت أن تسوق نفسها دولة «يهودية ديمقراطية» - برغم ما في هذا الوصف من تناقض فاضح - أسست نفسها على فكرة إعلامية تقوم على تحويل المشروع الاستعماري الإحلالي إلى النقيض منه تماماً، أي أن يستحيل مشروعاً ديمقراطياً يبشر بالحرية والحداثة، متناسيةً تماماً شعباً كاملاً استبيحت أرضه ومحي اسمه من السجلات الدولية بجرة قلم، فلم يكن هذا الشعب وتاريخه الطويل في عرف هذه الفكرة التي قامت عليها هذه الدولة موجوداً أساساً! مفارقةٌ تذكرنا بأحداث فيلم Flightplan الشهير الذي تغفو فيه الأم (كايل) أثناء رحلةٍ مع ابنتها في الطائرة، وتصحو لتجد ابنتها (جوليا) قد اختفت واختفى حتى اسمها من قائمة الركاب ويتعامل معها الجميع على أنها مصابة بالهلوسة لأن ابنتها غير موجودة أصلاً..! هذه الفكرة بالضبط هي التي قامت عليها إسرائيل الفكرة قبل الدولة.

وقليل من المؤرخين الذين كتب عليهم - بحكم المولد والأصل والقومية - أن يكونوا جزءاً من هذه الفكرة من تحداها بمجملها وخرج من رحمها ليعلن رفضه العيش في ظلالها المتناقضة ، وإيلان بابيه أحد أشهر هؤلاء الذين خرجوا من هذه المنظومة الفكرية ليعلنوا رفضهم لها وهو المولود في حيفا ، وخدم في الجيش الإسرائيلي وشارك في حرب عام ١٩٧٣م في هضبة الجولان السورية المحتلة . وما يميز بابيه أنه خرج من رحم الحركة الأكاديمية التي كان يفترض بها - حسب المنظور الصهيوني - أن تجد المبررات العلمية والأكاديمية التاريخية لاغتصاب الأرض الفلسطينية وإخراج سكانها منها وشطبهم من سجل الوجود الإنساني والحضاري بالكامل .

ولئن كان إيلان بابيه في كتابه الشهير «التطهير العرقي لفلسطين» قد تحدى فكرة «حرب الاستقلال» الإسرائيلية وأثبت أنها لم تكن أكثر من عملية تطهير عرقي تتسق تماماً مع مسمى (النكبة) الذي يستعمله الفلسطينيون ، فإنه في «فكرة إسرائيل» ، يغوص بنا عميقاً إلى تحدي ونقد فكرة «إسرائيل» بذاتها لا مجرد الحديث عن الدولة ولا ممارساتها الحالية على الأرض . وبالتالي فقد انتقل بابيه إلى دراسة عميقة تتحدى ما تحاول الحركة الصهيونية أن تصوره عن فلسفة وجود إسرائيل ، وضرورةِ وجودِها ، وكونها فكرةً تتماشى مع الحداثة ، وتطوراً طبيعياً للحركة البشرية في هذه المنطقة . هنا يأتي هذا الصوت الأكاديمي ليقول : لا . .! وليكشف بأسلوب علمي رصين حقيقة هذه الفكرة وأصولها ، فهي فكرة قامت أساساً على خلل استراتيجي تمثل في تصور رومانسي غير حقيقي لأرض صحراوية فارغة ليس فيها أحد ، يأتيها «شعبها» المشرد منذ قديم الزمان ليعيد بناءها على أسس الحضارة الغربية الحديثة! هذه الفكرة هي التي كان يؤمن بها المستوطنون اليهود الأوائل الذين جاءوا إلى هذه الأرض غير عارفين بحقيقة كونها ببساطة أرضاً يسكنها شعبها الحقيقي بحضارته وجذوره الضاربة في تاريخ هذه البقعة .

هذه الصدمة التي أصابت هذا المجتمع الإحلالي لم تكن لتنهي المشروع

الصهيوني الذي وضع كل ثقله في سبيل تنفيذ هذه الفكرة ، ولذلك فإن كافة الجهود السياسية انصبت طوال هذه السنين لإقناع هذا المجتمع أنه أصيل في هذه الأرض ، وأن الشعب الأصيل هو الدخيل على هذه الأرض! وهذا النشاز والتناقض هو ما ساهم في ظهور ما يمكن أن نسميه تيار «ما بعد الصهيونية» الذي يمثل إيلان بابيه أحد أعمدته ، في تسعينات القرن الماضي . وكان ظهور هذا التيار ليس إلا نتيجة طبيعية لتناقض فكرة إسرائيل مع نفسها ، كما أن ظهور التيار المضاد له -والذي يسميه بابيه «النيوصهيونية»- نتيجة طبيعية للصراع الداخلي الذي يشهده هذا المجتمع الذي يواجه اليوم أزمة هوية حقيقية وفقداناً تاماً لأفق المشروع الذي قامت الفكرة ثم الدولة على أساسه ، فصار مجرد كيان يصارع للبقاء في ظل ظروف تاريخية لا تقبل الخلل في المعادلات التي أنتجته .

في هذا الكتاب يأخذنا المؤرخ إيلان بابيه إلى جذور هذا التناقض ويعرض بشكل عميق ساخر تناقضات فكرة إسرائيل مع التاريخ والواقع ، ويحدثنا عن مسيرة هذه الفكرة منذ أن كانت مجرد مشروع حتى أصبحت فكرة تدافع اليوم عن وجودها ممثلةً في الدولة والكيان ، بدءاً من سعيها لتغيير التاريخ بالقوة ، واختراع أدب وثقافة ملصقة بأرض ليست أرضها الطبيعية ، حتى الوصول إلى تحويلها إلى سلعة أو مشروع إعلامي يتم تسويقه في العالم لإقناع نفسه أولاً - قبل العالم - أنه مشروع طبيعي ، وأن إسرائيل فكرة إنسانية طبيعية ، وهذا السعي لا يخلو من المتناقضات التي تبدو أحياناً طريفةً حتى في أسلوب تطبيقها والتفكير فيها .

إن إيلان بابيه - كغيره من مؤرخي ما بعد الصهيونية - خرج من عباءة الصهيونية ليعرّيها ويكشف عوراتها ، ويعلن كونَها لا تتسق مع السياق التاريخي الصحيح لأحداث الدنيا ، فالحق والعدل لا يتفقان مع ما حاولت الصهيونية أمس والنيوصهيونية اليوم فرضه من أفكار .

«فكرة إسرائيل» رحلة في عمق الفلسفة الصهيونية ونقض لها من أساسها

الهش الذي لا يتسق مع العقل والمنطق ، وكان لا بد لهذا الجهد الجاد من ترجمة تجعله في متناول القارئ العربي ، وهو ما قام به مشكوراً الأخ العزيز الأستاذ محمد سعد الدين زيدان ، ويسرني أن أقدمه اليوم للقارئ العربي ليفهم تهافت هذه الفلسفة وتناقضها مع المنطق والواقع والحق .

د . عبد الله معروف عمر
أستاذ دراسات بيت المقدس
جامعة إسطنبول ٢٩ مايو
٢٠١٥/١٠/٤م

تقديم الترجمة العربيّة

إيلان بابيه

إنّه لمن دواعي سروري أن أقدّم هذا الكتاب بترجمته العربيّة لأنّي أرى أنّه من الضروريّ أن يفهم القارئ العربيّ فكرةَ إسرائيلَ بشكلٍ أفضل، لعلّ ذلك يساعد في التوصّل إلى عمليّة سلامٍ دائمةٍ وعادلةٍ في فلسطين. يفسّر هذا الكتاب السّبب الذي يجعل من الصعبً على الغرب كشفَ الظلم الحاصل في فلسطين كما ويعزو الكتابُ تردّد العديد من أخيار هذا العالم في الانخراط الجدّي في العمل لصالح المعاناة الفلسطينية إلى وجودِ حملةٍ فعّالة إلى حد كبير من الخداع والتشويه والتلفيق.

سيدركُ القارئ لهذا الكتاب أنّ هذه الحملة تنطلق من ذلك الادّعاء السّخيف الذي ما يزال القادة الإسرائيليّون يصرّحون به بين الفينة والأخرى، بأنّ فلسطينَ جزء من أوروبا، وأنّه لا تاريخ لهذه الدولة يعدو تاريخها اليهوديّ. فتنفي هذه الرّواية -التّي لا بدّ لك أن تجدها في كلّ المطبوعات والإصدارات الإسرائيلية الرّسمية- الموقعَ الجغرافيّ لفلسطين في قلب العالم العربيّ والحضارة الإسلاميّة. غيرَ أنّه لا يكفي لخلقِ مثل هذا الوهم وبيعِه كسلعةٍ جذّابة للشعوب المتعلّمة السائرة على طريق الحداثة أن تُرفَعَ من أجله الشعاراتُ وأن تُلقى في سبيله الخطب، فقد وضّح هذا الكتاب كيف كان على إسرائيل أنْ تجنّدَ أكاديميّيها وكتّابها وصحفيّيها وصانعي الأفلام فيها للترويجِ لهذه الخرافات والتلافيق وبيعها.

في الوقت ذاته، لا يخلو هذا الكتاب من بصيص أمل، خاصّة حين ندرك

أنّه لم يكن لنا أن نميط اللثام عن هذه البروباغندا لولا تلك الأصوات الناقدة الصّادرة من المجتمع الإسرائيلي اليهودي نفسه ، ولا بدّ من تقدير جهود أولئك اليهود المفارقين للصهيونية وإسهاماتهم في ردّ هذه الأكاذيب ودحضها ، فقد كانت لهم تعقيبات ومتابعات على العمل الذي قام به في هذا الصدد ناشطون وأكاديميّون فلسطينيون إلى جانب العديد من أصحاب الضمائر الحية حول العالم . ومع هذا ، ورغم ما نشهده من تزعزع الصورة الأخلاقيّة لإسرائيل في العالم ، وما يجري من تفنيدٍ لتلك الأكاذيب والادّعاءات ، إلا أنّ الاضطهاد ما يزال مستمرًا في فلسطين لم ينقطع .

ولكنّ هذا الكتاب لا يعالج قضية الصراع الإسرائيلي الفلسطيني وحسب ، بل إنّه يمثّل محاولةً للتنويه من جديد بالأهميّة البالغة لفهم عمليات إنتاج المعرفة وتحليلها في الكفاح من أجل تحقيقِ العدالة وإرساء السّلام . والحقيقة أنّ فكرة هذا الكتاب قد انقدحت في ذهني بداءةً بإلهام مصدرُه ذلك المفكر الفلسطيني الرّاحل ، إدورد سعيد ، والذي يعدّ واحدًا منٌ أعظم فلاسفة القرن الماضي ، وتأكيده على أنّه لا بدّ للرواية الفلسطينية أن تُحكى . ففي مقالة له في عام ١٩٨٣ ، عقب الهجوم الإسرائيلي على لبنان بعام واحد ، ذكر أنه وبالرغم من تفوّق إسرائيل عسكريًا واقتصاديًا على الفلسطينيين ، إلا أنه ما زال للفلسطينيين روايةٌ من اللازم أن تُروى ولا بدّ أنّ العالَمَ سيقبلها يومًا ما . واليوم ، وبخلاف ما كانت عليه الحال مطلع الثمانينات ، فإن السرديّة الصهيونية للتاريخ بَعيدِه وقريبِه أضحت تعدّ في أنظار الكثيرين حول العالم نوعًا من البروباغندا ، بينما بدأت حقيقةُ ما جرى ومازال يجري في فلسطين تتجلّى وترى النورَ أكثر .

كلّنا نعلم أنّ هذا ليس كافيًا ، فالنّاس حول العالم وإن صاروا أقرب إلى معرفة الحقيقة ، إلا أنّ الاحتلال والاستعمار ونزع الممتلكات أمرٌ جاثمٌ على أرض الواقع ، والكلامُ وحده لا يحملُ المفتاح لتغيير هذا الواقع ، بيدَ أنّه مهمٌ غاية الأهمّية ؛ ففي بعض الأحيان تكون الكلمة أقوى من حدّ السّيف وأصدق أنباءً منه ، وقد جاءَ في الأثر : "المَدادُ حِبر العالِم أقدس من دم الشّهيد" .

فالعالَم اليومَ في أمسّ الحاجة إلى أن تخبو جذوة العنف وأن تنموَ قوّة الحقيقة كي يحلّ العدل ويعمّ السلم . ولنذكرْ جيّدًا أنّ الحاسوب الشخصي ووسائل التواصل الاجتماعيّ والكتابَ قد باتت أسلحةً لا غنىً عنها في هذا النّضال ، وكلّ ما أرجوه هو أن يكون هذا الكتاب إسهامًا متواضعًا في هذا الطّريق .

تمهيد
السّجال حول فكرة إسرائيل

إن نظرة جدّية وموضوعية إلى الحقائق كفيلة بأن تظهر أنّ الصهيونية مقارنة بغيرها من الأيديولوجيات قد نجحت في تحقيق معظم أهدافها، متفوّقة ربّما على كلّ الحركات المعاصرة الأخرى، ولاسيّما عند اعتبار العوائق الكبيرة التي واجهتها في البداية والتي جعلتها أضعف حركة سياسية قائمة. ولهذه الأسباب جميعها يمكن أن نعدّ الصهيونية مثالًا على نجاح الحداثة.

يوسف غورني «نظرات حول الصهيونية كأيديولوجية مثالية»(١)

إنّ النظر العلميّ الحديث يتكاتف مع الأدب القديم والحفريّات الأثريّة ليحيل دراسة جغرافيا فلسطين دراسةً لجغرافيا موطن الشعب اليهودي، وليجعل دراسة ثقافة تلك الأرض دراسة للثقافة العبريّة.

يوسف بارسلفسكي، «هل تعرف البلاد؟»: الجليل وأودية الشمال.(٢)

في إحدى ليالي تموز الحارّة عام ١٩٩٤ تجمّع بضع مئات من الناس في قاعة جامعيّة في تل أبيب للاستماع إلى مناظرة حول المعرفة والقوّة في إسرائيل. لقد شكّل الحضور بعدده مفاجأة لمنظّمي المناظرة، إذ كانوا يتصوّرون انعقاد مناظرة صغيرة يجتمع فيها مثقّفون جادّون معنيّون بالأمر، واختاروا لذلك متعمّدين

عقدَ هذه المناظرة في الوقت الذي تجري فيه مباراةٌ مهمّة في الدور نصف النهائي لبطولة كأس العالم التي احتضنتها الولايات المتحدة حينها ، آملين أن يحضر هذه الفعالية عددٌ محدود من المهووسين بالمعرفة والمستعدّين لترك متعة مشاهدة مباراة لكرة القدم مقابل وجبة ثقافية دسِمة . وبخلاف كلّ هذه الترتيبات ، زحم الطلاب بعضهم بعضًا في قاعة صغيرة ، ووجدَ المنظمون أنفسهم مضطرين إلى تغيير القاعة والبحث عن أخرى أكبر منها . وقد نقل البعض أنَّ عدد الحاضرين يومها قد بلغ زهاء ٧٠٠ شخص ، وشارك فيها مؤرخ من المدرسة «القديمة» لتاريخ إسرائيل مقابلَ مؤرخ من المؤرخين الجدد ، بالإضافة إلى أحد علماء الاجتماع المنتمين إلى «التيار السائد» في علم الاجتماع في إسرائيل مقابل عالم اجتماع من مدرسة «المراجعة التاريخية» . وقد كان كاتب هذه السطور هو المؤرخَ الجديد في ذلك المساء .

لم تجرِ تلك المناظرة على شكل حوارٍ كما وصفَ الإعلان ، وإنّما تحوّلت إلى أربع محاضرات تخلّلتها بعض النقاشاتِ الحادّة . ولكنّ الجمهور قد كانوا رغم ذلكَ مستمتعين بذلك ربّما بقدر استمتاع أولئك الجماهير الذين يهتفون لفرقهم المتبارزة في الطرف الآخر من المعمورة .(٣)

لقد أثارت تلك المناظرة موضوعًا بالغ الأهمية يدور حول السؤال الآتي : هل كانت الأكاديميا في إسرائيل أداة أيديولوجية في يد الصهيونية أم كانت منارةً لحرية الفكر والتعبير عن الرأي؟ ولعل ما دفع تلك المجموعة الكبيرة من الناس للحضور هو ميلهم للرأي الأول وتشكيكهم في استقلالية الأكاديميين الإسرائيليين ، ولو كان الحُكم يُقاس بمقدار التصفيق لقلنا إنّ غالبية الحاضرين كانوا مؤيدين لزميلي شلومو سفيرسكي ولي أيضًا ، وقد كنّا في تلك المناظرة ممثّلين عن مدرسة جديدة في علمَي التّاريخ والاجتماع في إسرائيل . في المقابل لم يكن ثمة تفاعل كبير مع آراء أنِيتا شابيرا والراحل موشيه ليساك وهما من الأكاديميين التابعين للخطّ السائد في الأكاديميا الإسرائيلية . بيدَ أنّ معظم الحاضرين راوحوا ذلك الموقف المؤيدَ من دون الاستجابة لما يستلزمه هذا الموقف

من حراك .[٤] قلّةٌ وحسب تحرّكوا ، وأنا منهم ، حتّى غادروا إسرائيل في قنوط ، غير قادرين على تغيير الوضع القائم فيها .[٥] وبقيت تلك الحادثة ذكرى تاريخيةً مهمّة تمثّل اللحظة التي وضع فيها مجموعة من الإسرائيليين المنطق الأخلاقي لدولتهم في محل الشكّ ، وكانوا قادرين ولو لفترة قصيرة على عدم قبول ذلك المنطق وتردّدت أصداءُ هذه الفكرة في بروج الجامعات العاجيّة وخارجها على السواء .

ولعلّ أكثر التعليقات التي حُفرت في الذاكرة في تلك الأمسية هو تعليق صدر عن موشيه ليساك ، عميدِ علم الاجتماع الرسمي في إسرائيل والحائز على جائزة دولة إسرائيل التكريمية ، حيث قال في معرض الحديث عن قصّة الدولة الإسرائيلية : «إنني أقرّ بوجود سرديّتين ، إلا أنّ سرديّتنا هي التي أثبت العلم صحّتها .»هذه المقولة ، وذكرياتي الحيّة عن تلك المناظرة وتلك الفترة بأكلمها ، وهي فترة ذات خصوصية في تاريخ القوّة والمعرفة ، قد كانت دافعًا لي للانصراف لتأليف هذا الكتاب . إنّه كتاب عن إسرائيل الفكرة ، وهو ابن تلك المحاولات الفاشلة لتحدّي تلك الفكرة من الدّاخل .

يسعى كل كتاب يتعلق بإسرائيل إلى تشريح واقع معقّد يلفّه الغموض ، ومهما اختلفت الطرق بين الكتّاب في وصف إسرائيل ودراستها وعرض شيء عنها ، فإنّ النتيجة دومًا ستكون محدودة وشخصيّة . إلا أنّ غياب الموضوعية وحضور النسبية في عملٍ ما لا يمنع من وجود نقاش حول أخلاقيّة هذا العمل . بل لعلّ القرن الحادي والعشرين يخبرنا بأنّ الأبعاد الأخلاقية لهكذا نقاش لا تقل أهمّية عن الأسئلة التي يثيرها الباحث عند البحث عن جوهر الأشياء وحقائقها وأدلتها . وقد وجدنا في تلك المناظرة في تل أبيب أنّ هنالك نسخًا متعددة ومتضاربة للواقع في إسرائيل وأنّها قلّما تشترك فيما بينها بأيّة أرضيّة مشتركة .

يجدر التأكيد في المقابل على أنّ تلك الآراء ليست مجرد نسخ من جدال أكاديمي بل إنّها ترتبط ارتباطًا مباشرًا بقضايا حياةٍ وموت ، ولذا فإنّ أي محاولة

للدخول في هكذا نقاش بطريقة محايدة وموضوعية وعلمية بحتة ستكون محتومة بالفشل . إن إسرائيل ، أو بالأحرى فكرة إسرائيل ، تمثل لعدد متزايد من الناس كل ما هو متعلق بالاضطهاد والتهجير والاستعمار والتطهير العرقيّ ، بينما ترى مجموعة أخرى لا تفتأ تتناقص من الناس تلك الأفكار والأحداث ذاتها تدور حول قصّة من الخلاص والبطولة وعدالة التاريخ . وبين هذين النقيضين مراتب لا حصر لها من الآراء .

سأذهب في كتابي هذا إلى أنّ تلك النسخ المتعارضة ليست متعلقة بإسرائيل وإنما بفكرة إسرائيل ، إذ لا ريبَ في أنّ إسرائيل الدولة ليست مجرّد فكرة ، بل هي دولة في المقام الأول ، وكيان قائمٌ مضى على وجوده أكثر من ستين عامًا ، وإنكار وجودها مستحيل ومنافٍ للواقع . إلا أنّ تقييمها أخلاقيًا وسياسيًا ليس أمرًا ممكنًا وحسب ، بل إنّه قد بات في اللحظة الراهنة أمرًا ملحًا أكثر من أي وقت مضى .

ينظر الكثيرون إلى الأساس الأخلاقي لدولة إسرائيل بعين الشكّ والريبة وإن كان آخرون يعتقدون انعدامَ شرعيّتها الأخلاقية أصلًا ، ومدار الشكّ هنا ، وإن تباينت درجات إطلاقه ، ليس إسرائيل الدولة وإنما إسرائيل الفكرة . وفي حين يذهب البعض إلى أنّه يعارض أيديولوجيا الدولة ،نجد أنّ بعض اليهود الإسرائيليين يعلنون أنّهم يحاربون من أجل بقاء النموذج المثالي للدولة . أمّا نحن فلقد اخترنا كلمة «فكرة» وهي الكلمة الأنسب التي ستساعدنا في تحليل كلا الموقفين .

إنّ الصور والسرديّات التي شكّلها قادة الصهيونية والمتحمّسون لها في الماضي ، والمفكرون والأكاديميون الإسرائيليون في الحاضر ، تقدّم إسرائيل على أنّها التمظهر الحتميّ الناجع لتاريخ الأفكار الأوروبي . إنّ الأفكار عناصر تحويلية كانت تؤدّي في كل سرديّة للتنوير الغربي مهمّة نقل المجتمعات الغربية ، والعالم على خطاها ، من ظلمات القرون الوسطى إلى نور النهضة ، كما يُنسب إليها وضع الحضارة في مسارها الصحيح بعد الحرب العالمية الثانية . ويذهب

فرانسيس فوكوياما إلى أنّ تاريخ الأفكار هذا كان سيصل إلى منتهاه المنشود لولا أن أعاق تقدّمه حركاتُ الإسلام السياسي والحركات الوطنية في دول الاتحاد السوفياتي سابقًا ، ولولا أن قام القادة الماركسيون في أمريكا الجنوبية بإعمال معول «التخريب» في مسار التقدم والتحديث .(٦)

وقد كانت إسرائيل إحدى أفكار هذا التحوّل ، وصار انتقادها يعني انتقاد مجمل السرديّة القائلة بأنّ الغرب يمثّل القوة العالمية الدافعة نحو التنوير والتقدم البشريّ . فالصهيونية كما يراها يوسف غورني الذي سبق أن أوردنا اقتباسًا عنه هي مشروع من مشاريع التحديث القليلة التي نجح تطبيقها ، إن لم تكن المشروع الوحيد ، وذلك بالرغم من كثرة القوى المضادّة التي رفضت التنوير ووقفت عائقًا أمام التقدم الإنسانيّ . ولعلّ هذا ما يفسّر عدم وصفه لها بأنّها فكرة ، على خلاف معظم المفكرين الصهاينة ، ويصّر على أنها «أيديولوجيا طوباوية» تجسّدت في واقع وحقيقة ، أي أنّها وباختصار فكرة تحقّقت بنجاح .(٧)

غير أنّ هذا الكتاب ليس معنيًا بتناول أسباب النظرة السلبية لدى الكثير من الناس حول فكرة إسرائيل ، أو تفسير حالة الاقتناع المطلق لدى اليهود الإسرائيليين ومناصريهم بالشرعية الأخلاقية لمواقفهم واستعدادهم لاتّهام أي انتقاد بأنّه شكلٌ من أشكال العداء للساميّة . إنّ ما عزمتُ على بيانه في هذا الكتاب هو مواقف أولئك الإسرائيليين الذين ينظرون بعين النقد إلى فكرة إسرائيل وتحوم في أذهانهم شكوك جدّية حولها ، علمًا بأن الشكّ في فكرة إسرائيل يشكل معضلة حقيقية لليهودي الإسرائيلي ، ذلك أنّ الأمر يتجاوز انتقاد سياسة ما من سياسات حكومة أو أخرى ، ويعني أنّ المرء يسكنه شكّ بجوهر الفكرة وأساسها .

لقد أعرب هؤلاء اليهود الإسرائيليون عن شكوكهم من خلال تقديم الأعمال الأكاديمية بشكل أساسي ، كما لجأ بعضهم إلى السينما والشعر والرواية والفنون التشكيلية . وقد كانت تلك الشكوك فكريّة ، والتي وإن كانت تنتشر بين الطبقات المثقّفة الثرثارة ، إلا أنّها تعكس شكوكًا أقل ظهورًا في

مناحي الحياة الأخرى . فذلك الشكّ الفكريّ المقترن بتخوّفات دولية متزايدة إنما يشير إلى أنّ فكرة إسرائيل ما تزال غير راسخة ، وأنّ باب النقاش والجدل الأخلاقي والسياسي حولها لمّا يغلق .

ومن المعلوم أنّ الأفكارَ كما السلع تحتاج إلى تسويق ، وهذا ما جرى مع فكرة إسرائيل ، إذ ما انفكّت الدولة تسوّق فكرتها منذ العام ١٩٤٨ ، حتّى إنّها قد قامت مؤخرًا بإصدار دليل صغير ليحمله السائح الإسرائيليّ معه إلى الخارج للترويج للنسخة الرسميّة من الفكرة . وقد كان المسافر الإسرائيلي يجد هذا الدليل في مطار بن غوريُن ، وهو يجده الآن غيرَ بعيدٍ عنه في شبكة الإنترنت .(٨)

ولتحقيق أفضل النتائج في تسويق الفكرة فإنّه يلزم تغليفها على شكل قصّة مطلعها ميلادُ هذه الدولة وأساس وجودها ، حيث تصف هذه القصّة ميلاد الأمّة كمثال صار واقعًا تلزم حمايته والمحافظة عليه . كما يكمن نجاح حملة التسويق في ترسيخ شرعيّة الفكرة . وفي حين تعتمد الدولة على الجيش والموارد الاقتصادية والقوة السياسية ، فإنّ الفكرة تحتاج إلى التدعيم الأكاديميّ . ولا يكفي للترويج لشرعية الفكرة خاصّة على المستوى الدوليّ الاعتماد على قوّة المال أو اللجوء للابتزاز الأخلاقي ، إذ يلزم إثبات عدالة الفكرة وصحّتها . وهذا ما تطمح إليه إسرائيل ، وهذا ما تعكف عليه رسميًا معتمدةً على نخبةِ مفكّريها وأكاديمييها لإضفاء الشرعيّة على الدولة .

إنّ الجمهور في حاجة إلى الإقناع ، حتى لو كان ذلك في دولة على شاكلة إسرائيل صاحبة ثاني أكثر الجيوش تطورًا على المستوى التقني في العالم والتي تمتلك ما يتجاوز ٥٠٠ مليار دولار أمريكي من احتياطات النقد الأجنبي . إنّ الحاجة إلى تسويق الفكرة وشرعنتها نابع من التحدّيات التي تواجه الدولة خارجيًا والشكوك المحتملة التي قد تظهر داخليًا . وليست هذه التحديات مجرّد أمرٍ فكريٍّ أو فلسفيٍّ ، بل إنّ لها القدرة على توليد تحرّك ضدّ الدولة من جهة وتضامن مع «أعدائها» من جهة أخرى . ولعل الحركة العالمية لمقاطعة إسرائيل

وسحب الاستثمارات منها وفرض العقوبات عليها (BDS Movement) تمثّل حالة من الشكوك في أخلاقية فكرة إسرائيل تُرجمت إلى تحرّك مباشر ضدّها .[٩]

وبما أنّ إسرائيل ترى نفسها رسميًا «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» وتوفّر من الناحية الدستورية والرسميّة على الأقل ما يدلّ على ذلك ، فإنّها تحتاج إلى مجموعة من الوسائل لتسويق الفكرة أخلاقيًا ومنطقيًا . فعلى المستوى المحليّ تمتلك الدولة السلطة التي تمكّنها من توجيه نظامها التعليمي لتحقيق هذه الغاية ، رغمَ أن قبضة الدولة على هذا النظام خلال التسعينات قد شهدت تراخيًا كما سنرى ، وإن كان ذلك أمرًا عارضًا . ولكنّ الإعلام والمجال الأكاديمي يتمتعان بالحريّة بعيدًا عن هيمنة النظام ، نظريًا على الأقل ، ولا يمكن التحكّم بهما كما هي الحال في نظام التعليم . فالإعلام مهمّ لترسيخ الفكرة محليًا ، أمّا العمل الأكاديمي فينفع في ترسخيها على المستوى الدولي . وعند النظر إلى هذين المجالين في سياقنا هذا نرى أمامنا اثنين من السيناريوهات المحتملة : إمّا عدم التسليم بتفسير الدولة للفكرة ورفض القيام بالدور الذي تنشده الدولة منهما بوصفهما مجالين يتمتعان بالاستقلالية عنها ، وإمّا الانصياع لرواية الدولة ، سواء كان ذلك عن قناعة حقيقية بها أو قناعة متوهّمة عن طريق ادّعاء الوصول إلى تفسير مماثل لتفسيرها من خلال تحليلات موضوعية .

حين تصاعد تحدّي فكرة إسرائيل من الداخل ، فإنّ ذلك كان يعني أنّ النموذج المثالي للصهيونية قد أعيد النظر فيه وأُخذ على أنّه أيديولوجيا ، وصار من الممكن إخضاعه للتقييم النقديّ . وهذا ما جرى بالتحديد مع مجموعة من الإسرائيليين خلال التسعينات من القرن العشرين فيما أميل إلى وصفه بأنّه اللحظة ما بعد الصهيونية في إسرائيل .

لقد كان تركيز مجموعة المنتقدين تلك منصبًا على أصول الفكرة وذلك من أجل التحقق من وضعها وتفسيرها في تلك اللحظة . وقد كان في العمليات

السَياسية والاجتماعية حافزٌ على مثل هذا البحث ، حيث دفعت أولئك الباحثين في رحلة بحثية للنظر فيما وراء النقاشات الجارية حول السياسات الاقتصادية والسياسية أو الجدال حول مصير المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، بل وسبر فترات تاريخية أبعد .

بيد أنّ هذه الرحلة كانت مفاجئة في نهايتها مثلما كانت في بدايتها . فما كاد العقد ينقضي حتى وُصفت هذه الحركة من قبل الدولة وأطياف واسعة من الشعب الإسرائيلي اليهودي بأنها خطيرة ومدمّرة وأنّ من شأنها لو استمرّت أن تتنزع عن إسرائيل شرعيتها الدولية وتهدّم أساسها الأخلاقي . وهكذا صارت ما بعد الصهيونية ، كما سمّاها معظم متابعيها وطلابها ، حركة معادية للساميّة في نظر مخالفيها ، وشهد العام ٢٠٠٠ هزيمتها واختفاءها شبه التامّ .

يسلّط هذا الكتاب الضوء على هذه الرحلة ، ويتتبع مسارها حين خرجت من مهد الصهيونية المريح وصولًا إلى الوجهة المقصودة ، ويعود معها في رحلة العودة إلى ذلك المهد المريح الذي منه انطلقت . لقد كانت تلك الرحلة فكرية في المقام الأول ، انضمّ إلى قافلتها عشرات من الأكاديميين وعدد من الصحفيين والفنانين الذين قاموا بزيارة الماضي وغاصوا في السجلات الأرشيفية الوطنية والخاصة وأصغوا بآذان السمع والعاطفة لأول مرّة في حياتهم إلى أشخاص يعدّون أنفسهم ضحايا للصهيونية . لقد ألفوا كتبًا وكتبوا مقالات وأنتجوا أفلامًا وثائقية ودرامية وكتبوا شعرًا ورواية ، وكان المشترك فيما بينهم هو التاريخ بما هو إعادة تقييم للماضي لغايات فهم الحاضر .

كل واحد ممن انتموا إلى مدرسة ما بعد الصهيونية قد انطلق في رحلته الفكرية تلك لأسباب مختلفة ، ولكنّهم كانوا جميعًا متأثرين بما يجري من حولهم من أحداث بعد العام ١٩٦٧ دفعتهم إلى فتح الباب لأسئلة مقلقة بخصوص سلوك الدولة التي ينتمون إليها في الحاضر والماضي . وقد كان المفكرون من بين هؤلاء هم آخرَ من شرع في طرح الأسئلة وذلك بعد أن شجّعهم على ذلك بعض التوجّهات في الأكاديميا الغربية خلال تسعينات القرن

العشرين ، حيث صار من الشائع طرح الأسئلة النقدية بخصوص فكرة القومية وسياسات الدولة والمواقف المرتبطة بثقافة الهيمنة . وقد ساعدت بعض التوجّهات الأكاديمية الغربية التي تتسم بالتعدد العرقي الثقافي وحتى نظريات ما بعد الحداثة في أن ينخرط هؤلاء الباحثون في تفكيك أثر السلطة- الأيديولوجيا الصهيونية- على المعرفة التي ظهرت على شكل أبحاث يزعم أنّها علمية وموضوعية . وكما سنرى في الكتاب ، فإنّ أولئك الذين عكفوا على النظر في هذه الأسئلة قد تمكّنوا من فهم دورهم كمنتجين للمعرفة في خلق ذلك الواقع الذي كان هو نفسه مثار الإشكال لديهم . وعلى ذلك أطلقوا جهودهم في انتقاد آراء الماضي التي توصّلوا إليها أنفسهم وتعلّموها ونقلوها إلى غيرهم .

لم يكن مؤرخو ما بعد الصهيونية مجرّد مراقبين ، وإنّما صاروا جزءاً من العملية ، وهكذا صار الانتقاد الذي يطرحونه أكثر وضوحًا ، كما كان لفترة وجيزة أكثر فعالية . فقد كانوا جزءاً حينها من ممارسات نقديّة عالميّة أغرتهم باعتماد منهجية أكثر نسبويّة عند دراسة علمَيْ التاريخ والاجتماع والأيديولوجيا الوطنية لدولة إسرائيل . كما استفاد آخرون منهم من حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية كوسيلة للنظر في الاضطهاد الثقافي ومحاولات التصدي لذلك في المجتمع اليهودي الإسرائيلي ، في حين فضّل آخرون تناول الصهيونية وإسرائيل والنضال ضدهما كحالة كولونيالية صرفة . وبغضّ النظر عن المنهجية المتبعة لدى كلّ منهم ، إلا أنّهم فعلوا ذلك متحمّلين موجة غضب عارمة ضدّهم من قبل الزملاء والأقارب ومن ثمّ الدولة وذلك لرفضهم قبول تلك النظرة السائدة عن الصهيونية كحركة تحرر وطني تتسم بالعدل وتلتزم بالديمقراطية ، رغمَ أنّهم قد تكبّدوا الكثيرَ جرّاء ذاك الغضب .

إنّ علماء التاريخ والاجتماع والفنانين وكتّاب المسرح وغيرهم ممّن اختاروا خلال التسعينات أن يكونوا صوتًا لضحايا الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل قد قاموا بذلك لأنّهم كانوا هم أنفسهم ينتمون إلى مجموعة من الضحايا أو لأنّهم

كانوا راغبين بترك دائرة الراحة التي كانوا فيها وتوضيح موقف المستعمَر والمحتلّ والمضطهَد . لقد أضحت فكرة إسرائيل بالنسبة إلى هؤلاء نصًا مطلقًا يقضي بالموت أو الحياة ، وكانوا يتساءلون عمّا إذا كان من الممكن إعادة كتابته؟ وهكذا لم يعد التفكير بمثل هذا السؤال داخلًا في باب ترف الهوايات الفكرية ، بل كان انخراطًا حقيقيًا في معضلة وجوديّة بالنسبة إليهم .

سبق أن ذكرنا أنّ هذا الكتاب يستخدم عبارة ما بعد الصهيونية للإشارة إلى هذا التحدّي لفكرة إسرائيل ، مع أنّ البعض يفضّل وصف هذه الحركة بأنها مناهضة للصهيونية ، وآخرون يعتقدون أنّها مجرّد شكل آخر ملطَّف من الصهيونية . وجدير بالذكر هنا أنّه ورغم أن بعض المنتمين للحركة ما بعد الصهيونية قد كانوا في الواقع مناهضين للصهيونية ، إلا أنّه ومهما ابتعد أولئك المنتقدون عن مَركبِ الصهيونية فإنّهم كانوا يفعلون ذلك بحثًا عن بديل لها ، وحين لم يجد معظمهم ذلك البديل رجعوا إلى حضن الأيديولوجيا الدافئ ، بينما ذهبت قلّة منهم درجةً أبعد في مناهضة الصهيونية . كما نرى أن بعضهم رفضوا تسمية ما بعد الصهيونية ، وهذا يشير إلى أنّ تعريف المفهوم يشوبه الاختلاف ويتّسم بالمرونة ، ولكنّا آثرنا استخدامه هنا لغياب بديل أفضل .

أمّا محلّ الاتفاق فهو ما كان موضوعًا للنقد والمراجعة ، ألا وهو التفسير الصهيوني المجمع عليه لفكرة إسرائيل ، حيث نشير إليه في كتابنا هذا بالصهيونية الكلاسيكية . لدينا إذن مجموعة ممّن ينتمون إلى حركة ما بعد الصهيونية ، يواجهون ردّة فعل على نقدهم ممّن أسميناهم الصهاينة الجدد ، والذين يسعون إلى تعزيز الصهيونية الكلاسيكية وتقديم تفسير وطني لا محيد عنه لفكرة إسرائيل وذلك كي تكون في منأىً عن مثل هذا النقد والتشكيك في المستقبل .

وهكذا تشكّل هذا التأرجح البندولي انطلاقًا من الصهيونية وانتقالًا إلى ما بعد الصهيونية ومنها إلى النيو-صهيونية ، مع احتمال تكرار هذا التأرجح من جديد . إن الخارطة السياسية تُظهر هذه التقلبات بشكل جليّ . لقد كانت

الصهيونية الكلاسيكية هي الأيديولوجيا التي كانت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تعتنقها واستمر ذلك حتى العام ١٩٩٣ . بعد ذلك ولفترة وجيزة فقط ، استمرّت على أقل تقدير حتّى اغتيال إسحاق رابين عام ١٩٩٥ ، وحتى العام ١٩٩٩ على أكثر تقدير ، كانت هنالك محاولة لتبني خطّ أكثر ليبرالية ، بل وربّما ما بعد صهيوني ، إلا أنّه ومنذ ذلك الحين حلّت مكان ذلك سياسة نيو- صهيونية ما تزال قائمة حتّى يومنا هذا .

تبيّن في نهاية المطاف أنّ الفكرة كانت أكثر قوّة ممّن تحدّوها ، ولم تكن تلك القوّة نابعة من قسر أو ترهيب بقدر ما اكتسبت شرعيتها بشكل أساسي من القبول بها كأمر واقعٍ . تلك القوّة التي بيدها تسيير الحياة اليومية قد تولّدت من وسائل غير ظاهرة للعيان كان أولئك الذين وقفوا ضدّها يسعون إلى الكشف عنها . تلك القبضة المتينة التي تضمن دعمًا واسعًا لها بين يهود إسرائيل على مستوى العامل في الشارع وصولًا إلى أستاذ الجامعة في برجه العاجيّ . وهذا ما يجعل هذا الأمر حالة جديرة بالدراسة ، إذ تساعدنا إلى جانب أهميّتها في تقييم مستقبل إسرائيل على التوصّل إلى فهم أفضل لطبيعة العلاقة بين السلطة والمعرفة في مجتمعات تدّعي الديمقراطية في مطلع القرن الحادي والعشرين .

المنهجية وتقسيم الكتاب

يبحث هذا الكتاب في فكرة إسرائيل ونقدها والردّ على هذا النقد حسبما ظهر في النتاج المعرفيّ الأكاديميّ بشكل أساسي . وباعتباري مؤرخًا ، فإنّ هذا الكتاب يركّز على تاريخ إنتاج الفكرة ونقدها . وبما أنّ النقد قد ظهر بشكل أساسي في المجال الأكاديمي ولكنّه ظهر كذلك في مجالات أخرى وأهمّها السينما والتلفاز ، فإنّ ذلك يتيح لي فرصة تناول فكرة إسرائيل كمقولة أكاديمية تارّة وكتصوير مخيالي تارّة أخرى ، وعادة ما تكون الفجوة بين الأمرين ضيقة ، فالسرديّة واحدة في كلتا الحالتين ، رغم التناقض التامّ المفترض . وهذا التطابق بين التصويرَين يمثّل سطوة الفكرة . نرى في غضون ذلك أنّ الدولة تروي قصتها

وتدلّل على صدقها بالاعتماد على الأكاديميا والإعلام والفنون، وفي هذه الميادين نفسها يجري نقدها وبيان عُوارها.

تحتلّ الأفلام الوثائقية حيزًا بين ادّعاء الموضوعية لدى الأكاديمي والمساحة المتاحة لصانع الأفلام لإعمال الخيال وحَبْك القصص. وتؤدّي الأفلام الوثائقية دورًا هامًا في حالة التحدي التي مثلتها ما بعد الصهيونية، إذ استمرّ صانعو الأفلام الوثائقية في تحدّيهم ونقدهم فترةً طويلة بعد أن تخلّى الأكاديميون عن ذلك، وما يزالون حتى يومنا هذا ينتقدون فكرة إسرائيل بكل وضوح وشجاعة.

وحين يكون لفكرة ما القدرة على أنْ تشملَك في خير الدولة أو تحرمك منه، وحين يكون من شأنها أن تحدّد موقعك كعدوٍّ أو صديق، وحين تظهر الفكرة مرّةً كحقيقة أكاديمية ومرّة أخرى كحبكة في فيلم مثير، فإنّه سيكون من الصعوبة بمكان تفادي تأثيرها أو التنصّل منها، ويزداد الأمر صعوبة حين يُعرَض عليك توليّ دور بارز في الحكاية. وسيحكي لنا الكتاب شيئًا عن الزهد في هذه الامتيازات عند البعض أو عدم القدرة على تركها عند آخرين.

ويبدأ الكتاب بمحاولة لعرض ما كان موضوعًا للنقد، أي السرديّة الصهيونيّة وخطابها. إذ يشتمل الفصل الأول على بيان فكرة إسرائيل في الإنتاج الأدبي الصهيوني السائد وكيف صُوِّرت على أنّها المشروعُ المثاليّ والأكثر نجاحًا للحداثة والتنوير. وعليه فإنّ عدم القبول بتلك الصورة لم يكن يعني معارضة السرديّة الوطنية وحسب، بل كان يعني معارضة سرديّةٍ تمثل النموذجَ الأمثل للتميز والفرادة، ومعرفة ذلك تتيح لنا تقدير حجم العنتِ أمام أولئك المنتقدين في حال إصرارهم على موقفهم الناقد داخل مجتمعهم. والمفارقة أنّ هذا التصوير كان عادةً ما يرتبط باعتقاد عميق بأهميّة البحث الموضوعي التطبيقي والعلمي. لذلك كان تحدّي الفكرة يستلزم أن يقوم المرء بادّعاء أن الحقائق على أرض الواقع لا تتوافق مع الفكرة التي يحتفي بها أصحابها، أو أن يصل إلى فهم أفضل للطريقة التي تم بها استغلال تلك الحقائق ذاتها لإنتاج سرديّات مختلفة كتلك التي شكّلها الصهاينة من جهة والتي شكّلها الفلسطينيون من الجهة المقابلة.

وتظهر الصهيونية في كتابنا هذا بوصفها خطابًا ، علمًا بأنني أستخدم كلمة «خطاب» بالطريقة ذاتها التي استخدمها إدورد سعيد حين ناقش موضوع الاستشراق في الغرب . وبالمناسبة ، فإنّ الخطاب الصهيوني حول الفلسطينيين يُعدّ من أوجه عديدة خطابًا استشراقيًا كولونياليًا ، وهذا على الأقل ما يحاول مفكرو ما بعد الصهيونية إثباته .[١٠] وقد خصصت الفصل الثاني من الكتاب لبيان الموقع الذي يشغلُه الفلسطينيون في الخطاب الصهيونيّ ، وذلك سعيًا منّي للتمهيد لحالة التحدّي والنقد التي انطلقت في تسعينات القرن الماضي . لقد اقترح مفكرو ما بعد الصهيونية قلبًا كاملًا للصورة الشائعة عن الفلسطينيين وفلسطين في الخطاب اليهودي الإسرائيلي ، وارتأوا استبدال صورة الفلسطيني الضحيّة بالفلسطيني الشرير ، بل وجاءت بعض أفلامهم لتقترح صورة الفلسطيني البطل . في مقابل ذلك يصبح الصهيونيّ مُضطهِدًا وجانيًا . ولا عجب أنّ بعض أولئك الذين اعترضوا بشدّة على مثل هذه الأفكار ممن سنتناول آرائهم في الكتاب قد رأوا فيها دليلًا على كراهية الذات والتشوّش الذهنيّ .

يتبع العرضَ العامَّ حول السرديّة الصهيونية في الفصلين الأول والثاني تحليلٌ مفصّلٌ لطريقة تناول الصهيونية التقليدية لأحداث عام ١٩٤٨ ، وهو عام التّكوين بالنسبة للدولة ، وذلك من خلال النظر في الأعمال الأكاديمية والسينمائية . وقد جاء تركيزي على هذا العام بالذات لسببين ، الأول متعلق بتاريخ ، أو بالأحرى تأريخ العام ١٩٤٨ ، والذي صار تناوله قضيّة أساسيّة لدى مفكري ما بعد الصهيونية . والثاني أنّ العام ١٩٤٨ يمثّل نقطة محوريّة في جميع النقاشات التي تعرّض لها هذا الكتاب ، فهو إمّا أن يكون ذروة عمليات تاريخيّة تقدّمت عليه ، أو أن يكون تفسيرًا لكل ما حصل بعده . وعليه فإنّ النقاش حول حقيقة ما حدث عام ١٩٤٨ عادة ما يرتبط بالنقاش التأريخي حول جوهر المشروع الصهيوني حتى العام ١٩٤٨ ، كما له أهمّية خاصة في توجيه النقاشات التي تدور حول الحل المقترح للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني .

أما الفصل الرابع فقد خصصناه للتنويه بأوائل منتقدي الصهيونية اليهود في

إسرائيل الذين أثّروا بشكل أو بآخر على حركة ما بعد الصهيونية خلال التسعينات . وبالرغم مما عانوه من عزلة وتهميش داخل مجتمعهم ، إلا أنّه عند إرجاع النظر إلى تلك المرحلة يمكن أن نرى بوضوح ذلك الأثر الذي تركته أعمالهم على فترة التسعينات تلك حين بلغت تلك الحركة أشدّها وتبلورت في ظاهرة فكرية وثقافية في مجالات شتّى . لقد كان النقد في حركة ما بعد الصهيونية في ذلك العقد استمرارًا للعمل والتحرّك الذي أقدم عليه بشجاعة بعض الأفراد الذين يستحقّون الاحترام من أكاديميين وصحفيين وغيرهم ، والذين خاضوا في انتقاد المسلّمات الصهيونية كلٌ بمفرده منطلقين من رؤيتهم الإنسانيّة الكونيّة للحياة .

هذه الشخصيات التي انبرت بدايةً لانتقاد الصهيونية مثّل أحد عوامل ثلاثة أسهمت في نشوء الجدال وتطوّره . أمّا العامل الثاني فسبق أن ذكرنا أنّه تلك البيئة العالمية ، والغربية على وجه الخصوص ، التي زخرت بأفكار حول السلطة والمعرفة . أمّا العامل الثالث ولعلّه الأهم هو تلك التطورات السياسية والسوسيو-اقتصادية التي حدثت في الفترة التي تلت العام ١٩٦٧ ، وتحديدًا بعد العام ١٩٧٣ . ذلك الهدوء النسبي على الحدود الإسرائيلية كان كفيلًا بالكشف عن التصدّعات داخل المجتمع ، سواء ما كان منها متعلقًا بالفروق الاقتصادية بين الناس أو الانقسامات العرقية أو الخلافات الأيديولوجية أو تلك الانقسامات العميقة بين علمانيّي اليهود ومتدينيهم ، والتي كشفت عن حالة من الشقاق في المجتمع ظلّت مخفيّة سنوات عديدة .

يبحث الفصل الخامس هذه التطوّرات ويعرض النتائج التي توصلت إليها مجموعة من المؤرخين الإسرائيليين يعرفون باسم «المؤرخين الجدد» والذي انبرَوا لتحدّي السرديّة الصهيونية المتعلقة بأحداث العام ١٩٤٨ . ولم يكن ما دفع هؤلاء المؤرخين ذا صلة بنظريات علم التأريخ الجديدة ولا بالأفكار المتعلقة بإنتاج المعرفة ، وإنّما كان متعلقًا بما أحاط بهم من قلاقل اجتماعية وسياسيّة دعتهم إلى فتح أعينهم على وثائق في السجلات الأرشيفية قد أتيحت للباحثين

والعـامّـة بعـدما كـانت سـريّة ، رغمَ أنّ سـواهم من المؤرخين الذي قـرأوا هذه السجلات لم يجدوا فيـها من الأدلة ما يستلزم إعادة كتابة الرواية الصهيونية للأحداث التاريخية .

كـما كـانت هنالك بعض أشكال التـأثيـر المهـمّـة التي وردت من العـالم الخارجي ووجّهت التطوّرات التي شهدتها فترة التسعينات . فيعرض الفصل السادس للنقاشات النظرية العميقة التي كانت مصدر إلهام لأولئك المفكرين ، ولاسيّما علماء الاجتماع الذين توسّعوا في تناولهم الكرونولوجي للمراحل الأولى من نشأة الصهيونية وصولًا إلى خمسينات القرن العشرين ، ثم انتقلوا في بحثهم إلى موضوعات تتعلق باليهود المزراحيين وفلسطينيي إسرائيل وبحثوا قضايا تتعلق بالمرأة والنوع الاجتماعي واستغلال ذكرى الهولوكوست في إسرائيل . كانت هذه الزمرة من علماء الاجتماع ، على غرار زملائهم حول العالم في نهاية القرن العشرين ، مهتمّين بسبر أثر السلطة ، سواء أكانت أيديولوجيا أو موقفًا سياسيًا أو هُويّة ما ، على إنتاج ما يُزعم أنّه معرفة علمية وموضوعيّة . وقد قام هؤلاء العلماء بالإجابة عن هذه التساؤلات بسبل تتسم بالجدّة والإثارة .

أنتقل بعد ذلك إلى تسليط الضوء أكثر على مسألة الهولوكوست ودورها في خلق وتسويق فكرة إسرائيل ، حيث نبحث في الفصل السابع الانتقاد الموجّه لحالة استغلال ذكرى الهولوكوست في الدولة اليهوديّة ، وهو مسعىً يمسّ قضيّة بالغة الحساسية في المجتمع . ويكشف هذا الفصل عن أنّ القيادة اليهودية قد أبدت تلكؤًا في بذل أقصى ما تستطيع لإنقاذ يهود أوروبا من المذابح التي كانت مُحدّقة بهم ، والأدهى من ذلك هو أنّ بعض القيادات الصهيونية كانت قد تحالفت مع النازية واستمرّ ذلك حتّى انفضحت خطط النازيين لإبادة اليهود . وقد أثبت مفكرو حركة ما بعد الصهيونية من خلال وصف المعاملة السيئة التي تلقاها الناجون من الهولوكوست أنّه قد جرى وباسم أولئك الضحايا الترويج لفكرة إسرائيل على أنّها الحلّ الأمثل للمصيبة التي حلّت بيهود أوروبا في

الحرب العالمية الثانية . كما أظهروا أنّ معظم ما قامت به إسرائيل منذ إنشائها، ولاسيّما ما اقترفته من أعمالٍ ضدّ الفلسطينيين ، قد كان يسوّغ عبر استدعاء ذكرى الهولوكوست . كما أعرب هؤلاء المفكرون عن فزَعهم ممّا قد يكون قد ترتّب على عمليات استغلال ذكرى الهولوكوست من نشوء مجتمع عاجز عن فهم العبرة الكونيّة التي يجدر استنباطها من فظائع الهولوكوست ، ويعمد عوضًا عن ذلك إلى الانغلاق على نفسه في كيانٍ قوموي توسعيّ عازمٍ على ترهيب المنطقة بأسرها .

لعل أهمّ نقدٍ تعرّضت له فكرة إسرائيل هو ما قدّمه المفكّرون المزراحيون ، ومعظمهم كانوا علماء اجتماع أو ناشطين سياسيين . وكان هؤلاء اليهود قد هاجروا إلى إسرائيل من دول عربية وإسلامية في خمسينيات القرن العشرين وشعروا بالتمييز ضدّهم من قبل اليهود الأوروبيين ، مما دفعهم إلى الانطلاق في رحلة إلى الماضي وشدّ عزيمتهم للوصول إلى السّلطة . لقد كانت فكرة إسرائيل في نظرهم فكرة أوروبية غربية وكولونيالية ، وأدركوا أنّهم ما لم يتحوّلوا هم أنفسهم إلى يهود أوروبيين فلن يحظوا في إسرائيل إلا بدور هامشيّ . وقد أفردنا الفصل الثامن للحديث عن النقد الفكريّ الذي قدّمه هؤلاء اليهود المزراحيّون .

لم يقصر الأكاديميون في مدرسة ما بعد الصهيونية اهتمامهم على تلك المواضيع التي تطرّق إليها الفصل السادس كالجدال الأكاديمي حول أحداث العام ١٩٤٨ واليهود المزراحيين وذكرى الهولوكوست وغيرها . فقد انتقلت النقاشات إلى الساحة الإعلامية وصار من الممكن التعبير عن مواقف كلّ من الطرفين بشكل أكثر تبسيطًا ووضوحًا ، وهكذا توسّعت دوائر النقد إلى مجالات ثقافية أخرى كالموسيقى والفنون البصرية والأدب . وسنناقش في الفصل التاسع مساهمة هذا الجدل في تشكيل فكرة إسرائيل ثقافيًا . أمّا الفصل العاشر فسيتعرض لتلك التمظهرات ما بعد الصهيونية لفكرة إسرائيل في المسرح والسينما .

ينظر الفصل الأخير من الكتاب في ردود الفعل التي جنتها الحركة ما بعد

الصهيونية وما تبعها من بروز شكل أكثر تطرفًا من الصهيونية في القرن الحادي والعشرين بات يتحكّم بإنتاج المعرفة في إسرائيل . وقد اخترتُ أن أصفَ هذا التطوّر بانتصار النيو-صهيونية . أمّا الفصل الثاني عشر فقد خصصته لدراسة مظاهر هذا الانتصار في الدراسات الجديدة التي تناولت أحداث العام ١٩٤٨ في المؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية . وقد ألحقتُ بفصول الكتاب مساحةً للحديثِ حول الاضطرابات التي اندلعت مؤخرًا في العالم العربي ، وتعطّلِ عملية السلام ، والتطوّرات الجديدة في دراسة الصهيونية مركّزًا على بروز النموذج الاستيطاني الكولونيالي وذلك بغية التوصل إلى فهم أفضل للتوجهات المستقبلة في الصراع داخليًا وخارجيًا حول فكرة إسرائيل .

القسم الأول

فكرة إسرائيل بين الدرس الأكاديمي والسرد الخياليّ

الفصل الأول
التاريخ «الموضوعي» للأرض والشعب

المؤرخ الصهيوني الموضوعي

هنالك حكاية لها نصيب من الصحّة بمقدار ٦٦,٥ بالمئة عن بن تسيون دينور (دينبورغ)، عميد التأريخ الصهيوني في فلسطين وأحد وزراء التعليم الأسبقين في إسرائيل. إذ يُقال إنّه في العام ١٩٣٧ وقبل أسبوعين من وصول لجنة بيل التي أُوكلت إليها مهمّة إيجاد حلّ للنزاع في فلسطين، قام الزعيم اليهودي ديفِد بن غوريُن بزيارة دينور ليرَى إن كان بوسع هذا المؤرّخ الموقّر أن يقدّم بعض الأبحاث التي تثبت أنّ لليهود وجودًا في هذه الأرض منذ العام ٧٠ بعد الميلاد في زمن النفي الروماني، وحتّى العام ١٨٨٢ حين وصلت إليها طلائع الصهاينة. فقال المؤرّخ إنّ ذلك بالإمكان بيدَ أنّ الأمرَ يستلزم الغوص عميقًا في مراحل تاريخية عديدة ويتطلب نطاقًا واسعًا من الخبرات، وأنّ مهمّة بهذا الحجم تحتاج عقدًا من الزمان على الأقلّ للقيام بها. ردّ عليه بن غوريُن قائلًا: «أنت لا تفهمني. ستأتي لجنة بيل في غضون أسبوعين، فعليك أن تصل إلى خلاصة قبل ذلك، ومن ثمّ يمكنك أن تمضيَ عقدًا كاملًا لإثباتها!»

كانَ قادة الحركة الصهيونية يولون اهتمامًا كبيرًا بالعمل التأريخي الأكاديميّ ويخصصون جوائز سخيّة لهذا المجال، وسواءً ذهبنا إلى تعريف الصهيونية بأنها حركة قوميّة أو مشروع كولونيالي، فإنّه مما لا شكّ فيه أنّ وضعَ تاريخِها أكاديميًا ونشرَه شعبيًا كان أمرًا أساسيًا لضمان بقائها. لقد كانت الصهيونية مدفوعةً برغبة لإعادة كتابة تاريخ فلسطين وتاريخ الشعب اليهودي بطريقة تثبت من الناحية العلمية دعوى اليهود بحقّهم في أرض إسرائيل. وحين تأسست دولة

إسرائيل الحديثة برزت الحاجة للتأريخ لتسويق هذه الدولة الجديدة على أنها «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» ، وتسويغ طرد السكان الأصليين من أرضهم وإدانة سعيهم لحرمان اليهود من حقّهم المزعوم .

تشير الرواية الصهيونية عن الفترة التي سبقت العام ١٨٨٢ إلى أنّ فلسطين قد كانت وطنًا فارغًا سيسترجعه اليهود لدى عودتهم من المنفى . لقد كانت فلسطين بمثابة ألمانيا أو بولندا أو روسيا جديدة بعد أن استحال العيش في هذه الدول . وقد انتشرت بين الصهاينة الأوائل أغنية ألمانية وطنيّة تدور معانيها حول رايخ جديد لإظهار ما باتت تعنية فلسطين «الخالية» لهم :

هنالك حيث تقبّل أشجار الأرز السماء
وحيث يسير نهر الأردن مسرعًا
هنالك حيث يرقد رفات أبي
في تلك الأمّة المجيدة ، على البحر والرمال
هنالك أرضي المحبوبة ، أرض آبائي ولا أبغي سواها(١)

وفي إحدى الموسوعات الأكاديمية المختصة بتاريخ أرض إسرائيل التي كتبها مجموعة من أبرز الأكاديميين في إسرائيل خلال السبعينات جاء وصف لأرض فلسطين قبل عام ١٨٨٢ بأنّها «الأرض الخالية» . وقد برزت على الغلاف صورة شجرة أرز وحيدة ترنو إلى السماء على تلّة جرداء في مشهد قريب من ذلك الذي عبّرت عنه القصيدة سابقة الذكر(٢) . إلا أنّه ليس بالإمكان استعادة الأرض من خلال الأشعار الحماسية أو الرسومات الملهمة وحدها ، إذ يلزم كذلك استخدام سطوة العلم ، ولهذا فقد كان حتمًا على الأكاديميا الرسميّة أن تسعى لوضع تأريخ قديم وحديث للدولة .

وقد انتقلت ممارسة التأريخ الصهيونية إلى مرحلة المهنيّة والتخصّص بعد أن أصبحت الصهيونية قوة اجتماعية وسياسية ذات ثقل في فلسطين ، ثم تبع ذلك قيام التأريخ الإسرائيلي في السنوات الأولى من تأسيس الدولة . لقد كان بن غوريُن هو الذي اتّصل بدينور ، وليس العكس . وفي الوقت الذي كانت فيه

الحركات القوميّة تؤسس دولًا تزامنت عمليات وضع الأسس المهنيّة لممارسة علم التاريخ مع قيام المؤسسات الرسميّة بتيسير وصول الباحثين الأكاديميين إلى السجلات الأرشيفية السياسية .

حالة الكرم الرسميّة هذه لم تكن دون مقابل بطبيعة الحال ، إذ جاء ردّ الجميل على شكل أعمال أكاديمية رسّخت مكانة النخبة السياسيّة وتجنّبت نقدها .[٣] كما توصّل الباحثون في مجالاتٍ عدّة إلى أنّ التطورات التي شهدها المجتمع اليهودي أثناء فترة الانتداب البريطاني (١٩١٨-١٩٤٨) وفي السنوات الأولى من تأسيس الدولة تعكس حالة مثاليّة لنجاح عملية التحديث . ووفقًا للنتائج التي توصّل إليها المجتمع الأكاديمي ، فإنّ صهينة فلسطين قد وفّرت جميع الظروف الكفيلة وفق نظرية التحديث بتحقيق الانتقال الناجح من التقليد إلى الحداثة . أي إنْ كنت صهيونيًا فإنّ هذا يعني بالضرورة إمكانيّة مشاركتك في أفضل مشروع تحديثٍ في العالم بأسره ، وإن كنت تدرس الحداثة فإنّ الصهيونية هي أفضل حالة لتتناولها بدراستك وبحثك .

يعدّ تقديم دليل علميّ على مجموعة من الادّعاءات الأيديولوجية عملًا ينضوي على قدر كبير من المخاتلة . لقد كان معظم الأكاديميين العاملين في مجال التاريخ الصهيوني واليهودي منخرطين في الحركة الصهيونية منذ البدايات وأسهموا من ثمّ في تأسيس دولة إسرائيل ، ولم يتسنّ لهم ذلك إلا من خلال الجمع الذي يبدو مستحيلًا بين موقف وضعيّ راغبٍ في إعادة تشكيل الحقيقة والتزام أيديولوجي لإثبات عدالة القضيّة . ولقد كانت الحقائق التي اشتملت عليها السجلات الأرشيفية السياسيّة حصرًا هي المادّة التي استخدمها أولئك النفر من الأكاديميين للبرهنة على صحّة السرديّات الصهيونيّة .

وقد كُتبت بعض تلك الأعمال الأكاديمية في زمنٍ كان فيه المفكّرون حول العالم قد شرعوا في الشكّ في صحّة السرديّات التي نشأت باسم القوميّة ، خاصّة في سياقات النزاع ، وظهرت منهجياتٌ جديدة للكشف عن اليد الخفيّة للفكرة القومية التي لعبت بتلك السرديّات . بيدَ أنّ الأكاديميين الصهاينة من

المدرسة الوضعية في سبعينات وثمانينات القرن العشرين والذين اشتغلوا بدراسة تاريخ الدولة قد أعرضوا صفحًا عن حالة التجديد التي سادت على مستوى المنهجيات والنظريات في العالم والتي كان لها لو تنبّهوا إليها أن تقلقل ثقتهم بالحقيقة العلميّة للصهيونية . وقد كان السبيل الأنجع لضمان عدم تأثرهم بذلك التجديد هو اعتمادهم الكبير على ما تقوم به النخبة من أفعال . وهكذا يصبح هذا التناول غير الموضوعي للأحداث وتقديمه على أنّه وصف موضوعي ودقيق للحقائق وسيلة لمزج الأيديولوجيا بالحقائق واستغلال ذلك كلّه في إنتاج رواية متماثلة بينهما .

لقدِ استُخدِم التاريخُ لإضفاء الشرعيّة على المشروع الأيديولوجيّ والسياسيّ ، حيث شدّ المؤرخون الذين يصفون أنفسهم بالصهاينة رحالَهم في رحلة للبحث عن جذور القوميّة اليهوديّة في الماضي البعيد ، ورضّوا أنفسهم حين قالوا إن ثمة شخصيّة قوميّة «يهوديّة» أو «عبريّة» استوطنت فلسطين قبل قيام الحركة الصهيونية في نهايات القرن التاسع عشر ، بينما ذهب بعضهم إلى أنّ هذه الجذور تعود إلى القرن السابع عشر ، أمّا آخرون فذهبوا أبعد من ذلك وأرجعوا جذور الوجود اليهودي في فلسطين إلى عصور الكتاب المقدّس .

لم يجد المؤرخون الأوائل تناقضًا بين المهنيّة في عملهم وموقفهم الأيديولوجي ، وقد أخرج بن تسيون دينور نفسه من هذه المعضلة من خلال تعريف المؤرخ الصهيوني بأنّه ذلك الذي يجمع بين الإتقان لتخصصه التاريخيّ والفهم الواضح والصحيح للصهيونية .[٤] وسرى اعتقاد بين أجيال متعاقبة من المؤرخين الصهاينة بأن المهنيّة تقتضي منهم ولاءً أيديولوجيًا راسخًا . ووفقًا لشموئيل أُلمُغ ، أحدِ قدامى المؤرخين الإسرائيليين ، فإنّ هذا الولاء قد كان أساسيًا لنجاح الحركة القومية اليهوديّة ، حيث قال : «كانت الصهيونية في حاجة إلى تاريخ من أجل أن تثبت لليهود أينما كانوا أنّهم يشكّلون كيانًا واحدًا وأنّ هنالك خطًا تاريخيًا مستمرًا منذ مملكتي إسرائيل ويهوذا وحتى زمن اليهودية الحديث .»[٥]

أحد زملاء ألُمغ ويُدعى إسرائيل كُلات قد تناول القضيّة من منظور مختلف وادّعى أنّ المؤرخ الصهيونيّ هو القادر فقط على تقديم تاريخ ذي قيمة للصهيونية.[٦] وخلاصة الأمر عند أمثال هؤلاء المؤرخين هو أنّهم يعدّون أنفسهم جزءاً من مشروع ذي أبعاد عظيمة لبناءِ الأمّة في ظروف استثنائية بل خارقةٍ للعادة. وإنْ لم يكن في الإمكان الدمج بين الأيديولوجيا والموضوعية في أي مشروع تاريخي آخر، فإنّهم أصرّوا على إمكانيّة ذلك في مشروعهم.

نتيجة لذلك أدرك المؤرخون الملتزمون بالصهيونيّة حدّ التزمّت أكثر من سواهم القوّة الكامنة في إثبات استمراريّة ما بين إسرائيل القديمة والصهيونية الحديثة. وقد تجلّت هذه الحماسة المبشّرة بالصهيونية بإنشاء مدرسة فكريّة أكاديميّة في الجامعة العبرية في القدس سُمّيت بمدرسة القدس، كان من أبرز أعضائها بن تسيون دينور، وشموئيل إتنغر، وشلومو دوف جويتين، وجوزف كلاوسنَر.[٧] وقد جمعت بين هؤلاء المؤرخين رغبةٌ في إعادة تشكيل تاريخ «شعب إسرائيل» منطلقين من دراسة تاريخ أرض إسرائيل. وكانوا ينقّبون عن دليل علميّ ادّعوا أنّهم عثروا عليه، يثبت على لسان اليهود في المنفى أنّ أرض إسرائيل قد مثّلت بؤرة اليهوديّة. وأقل ما يمكن أن توصف به تلك الأدلة هي أنّها غير مقنعة، حيث إنّها في الواقع تصل إلى حد الادّعاء بأنّ اليهود في التاريخ ما قبل الصهيونيّ قد امتلكوا رغبة في اللاوعي مجهولةً لدى اليهود أنفسهم في تلك الأزمنة في العودة إلى أرض فلسطين. ثم جرى الادّعاء بعد ذلك بأنّ تلك الرغبة كانت أمرًا محسوسًا لديهم. وتذهبُ مدرسة القدس إلى أنّ اليهود قد ارتبطوا بالأرض سواء أدركوا ذلك أم لم يدركوه. وقد أحسنَ بندكت أندرسُن قولًا حين أشار إلى أنّه أجدرُ بالحركات القوميّة زرع القوميّة في الموتى بدل الأحياء خوفًا من أن يقوم الأحياء بالتشكيك في الهويّة المفروضة عليهم.

لم تشهد إسرائيل أيّ تغيّر حقيقيّ يسمح بالحدّ من سطوة المؤرخين الصهاينة، وقد درجت العديد من المقالات التي ظهرت في مجلتي كاثيدرا

وهاتسيونوت المتخصّصتين في التاريخ العبريّ والصهيونيّ (واللتين ظلتا مرجعًا تاريخيًا أساسيًا حتى التسعينات) على إحكام الربط بين الأيديولوجيا والأبحاث التاريخية الأرشيفية . ثمة اختلاف طرأ في الستينات والسبعينات حيث توجّه الجيل الجديد من الباحثين إلى تجنّب ميل أسلافهم إلى المقولات التاريخيّة العامّة من قبيل إثبات ادّعاءات كبرى تتعلق بالرغبة اليهوديّة المتواصلة منذ القدم للاستيطان في فلسطين أو الادّعاء القائل بفلسطينَ خاويةٍ من السكّان قبل وصول الصهاينة إليها . وقام هؤلاء الباحثون عوضًا عن ذلك بتجزئة هذه الادّعاءات زمنيًا أو موضوعيًا وقدّموا عليها بعض أدلّة علميّة محدودة لإثبات صحّتها . وهكذا انطلقوا في دراسة بواعث اليهود على الاستيطان في فلسطين في عقد تاريخيّ بعينه أو النظر في حالة فلسطين في سنة أو فترة بعينها . إلا أنّ الجامعَ بين الفريقين ، سواء أكان التركيز على إعادة تشكيل الرواية التاريخيّة بأسرها أم التركيز على جزءٍ محدّد منها ، هو ذلك الولاء للصهيونية وللحقيقة العلميّة كما كانوا يرونها .

لقد كان المؤرخون الصهاينة كبيرُهم وصغيرُهم على السواء مهتمّين بالتاريخ السياسيّ ، غيرَ أنّ الولاء للصهيونيّة حدّ من مقدرة الجيل الجديد من الباحثين على الإتيان بأفكار مبتكرة أو أبحاث خلّاقة . فبما أنّ الهدف قد تحدّدَ بتقديم الدليل العلميّ على سرديّة تاريخيّة باتت معروفة ومتداولة ، فإنّ المساحة للتوصل إلى كشف جديدٍ من أي نوع باتت محدودة ، وليست ثمّة حاجة إلا إلى المزيد من الأدلّة . ولعلّ نظرةً إلى البحوث التاريخية المعاصرة التي تجري في إسرائيل عن فترة الانتداب مثلًا تعطينا خيرَ مثالٍ على هذا الأمر . لقد جرت دراسة كلّ ما يرغب المرء في معرفته أو لا يرغب عن تاريخ المجتمع اليهودي في تلك الفترة ، ولم يبقَ ثمّة جديدٍ لقوله ، ذلكَ أنّ الحكاية برمّتها قد قُصّت وانتهت .

ولأنّه قد كان من الضروريّ أن تقوم الرواية التاريخيّة على أدلة علميّة سليمة ، فإنّ ذلك قد كان وقاءً لها من أي نقدٍ يرد من روايات فلسطينية أو

يهودية غير صهيونية أخرى . ويمكننا في هذا الصدد أن نفهَم إعجاب المؤرخين الصهاينة بالمؤرخ الإنجليزي إدوَرد هالِت كار ، ولاسيّما بمقولته عن أنّ المنتصر هو من يكتب التاريخ . وهكذا فإنّ من الطبيعيّ لديهم أن تكمن الحقيقة في الرواية التاريخيّة التي وضعها المنتصر .

من الضروريّ أن نشير هنا إلى أنّ هذه المنهجية ليست حصرًا على عملية التأريخ الصهيونية ، ولكنّ نقطة الاختلاف مع عمليّات التأريخ القوميّة الأخرى التي وظّفت مثل هذه المنهجية هو غياب النقاش النظريّ في الحالة الصهيونيّة حول التناقضات الظاهرة التي تنتجها مثل هذه العمليات التأريخية . ولهذا السبب فإنّ العديد من الأعمال التاريخية الأكاديميّة في إسرائيل حول الصهيونية والدولة قد مالت نحو الوصف وتحاشت التحليل والنقد في منهجياتها ، كما اقتصر التناول البحثيّ في كثير من الأحيان على ما قامت به النّخب السياسية والأيديولوجية ، من دون اختبار الأيديولوجيا التي توجّه سلوك تلك النخب ، أو تبيّن أثرَ التزام المؤرخين بتلك الأيديولوجيا عينِها على أبحاثهم الأكاديمية .

إنّ السرديّة التاريخيّة التي يضعها الجهاز الأكاديمي تصبح الأداء الأساسية لبناء الذاكرة القوميّة الجمعيّة وترسيخها . وقد ولّى المؤرخون وجوههم قِبَلَ السجلّات الأرشيفية السياسية كقبلة مقدّسة للحقيقة ورأوا في أنفسهم أئمّةَ هذه الحقيقة وسدَنتها . ولكن نظرًا إلى زمانيّة هذه الحقيقة ، فإنّ الواجب لا يتمثّل في حمايتها وحسب ، بل وفي إثباتها كذلك ، وهو إثبات يتحقّق بالتكرار لا بالفحص والتحليل . ولهذا نرى أن الباحثين والمعلمين والنظام التعليمي الإسرائيلي والمسؤولين والإداريين والموكّلين بأمور المراسم والمناسبات والشعارات الوطنية والأدباء وغيرهم قلّما يسعون للحصول على موادّ جديدة في السجلات الأرشيفية أو النظر إليها من زوايا جديدة مختلفة . لقد كانوا وبكلّ بساطة يبحثون عن المواد الأرشيفية ذاتها ويعثرون عليها وهي المواد نفسها التي قدّمت «الدليل العلمي» الذي يثبت حقّ الصهيونية في فلسطين . ويمكن للمرء

أن يتخيّل مقدار الإرباك الذي سادَ في الثمانينات حين استُخلصَ من هذه السجلات الأرشيفية نفسِها معلومات أثارت أسئلة حرجة حول الصهيونية وصدقيّة الادّعاءات الإسرائيلية في حقّها في الأرض .

هذه السرديّة المعروفة والتي جرى إثباتها بكفاءة أعادت تشكيل الصهيونية كحركة قوميّة جلبت التحديث والتقدّم إلى فلسطين البدائية ، وجعلت «الصحراء جنّة» وأحيَت مدنَ الأرض المدمّرة ، وأتت بأحدث تقنيات الزراعة والصناعة لنفع العرب واليهود على السواء . أمّا مقاومة الصهيونية فلم تكن سوى مزيج من التطرّف الإسلاميّ والاستعمار الإنجليزي المحابي للعرب وشيءٍ من التقاليد المحليّة التي تشجّع على العنف السياسيّ . ورغمَ كل التحدّيات والمقاومة الوحشيّة فإنّ الصهيونية ظلت وفية للمبادئ الإنسانيّة ولم تتوانَ في مدّ يدها للصلح مع العرب رغم إصرارهم على الحرب .

والأكثر عجبًا في هذه السرديّة هي تلك الإشارات التي تصف اكتمال المعجزة الصهيونية في تأسيس الدولة متحدّية عداء العالم العربي لها . فهذه الدولة ، رغم نقص الإمكانيات وضعفها من الناحية الموضوعية ، فتحت أبوابها لملايين اليهود الذين طُردوا من العالم العربي ووفّرت لهم سبل التقدم والاندماج للعيش في الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط . ثم إنّها دولة لم تبارح خط الدفاع عن نفسها محاولةً دومًا استيعاب حالة متزايدة من العداء العربي ضدّها في ظلّ حالة مقابلة من عدم اكتراث المجتمع الدولي لمعضلتها . لقد كانت دولة شيمتها الكرم ، حيث احتضنت اليهود القادمين من منافيهم التي تجاوزت المئة حول العالم وجعلتهم شعبًا يهوديًا واحدًا . إنّها حركة حيّة الضمير لها بوصلة أخلاقيّة عادلة ، وقد كان من المؤسف أنّها وجدت أناسًا آخرين يعيشون في أرضها ولكنّها رغم ذلك أتاحت لهم فرصةً للمشاركة في مستقبلٍ أفضل ، غير أنّهم أصرّوا في غباء على رفض ذلك . وهنالك نسخة أخرى من تلك الجزئيّة الأخيرة تدّعي أنّ الأرض كانت خالية من الناس حين وصلت الصهيونية إليها وهكذا يسقط العنصر المتعلق بردّة فعل السكّان الأصليين .

نجدُ هذا الادّعاء الأخير في كتاب بعنوان «من الزمن الغابر» من تأليف جون بيترز ، والتي كانت تعمل منتجة للأفلام الوثائقية في محطة سي بي أس الأمريكية ، وانضمّت إلى فريق جيمي كارتر المعنيّ بقضايا الشرق الأوسط ولكنّها فضّلت الانتقال فيما بعد إلى معسكر المحافظين الجدد . لقد حقق الكتاب نجاحًا كبيرًا في الولايات المتحدة وكانت السفارة الإسرائيلية تقف وراءه للترويج له ، إلا أنّ الفرضيّة التي يطرحها قد كانت من السخافة بمكان حتّى أنّ المؤرخين الأكاديميين في إسرائيل اضطروا لرفض ما جاء به وطالبوا بالتزام شيءٍ من الحصافة عند الحديث عن الادّعاء الصهيوني بأنّ فلسطين تنتمي للشعب اليهودي ، مشيرين إلى أنّ النفي الساذج الذي قدمته بيترز في كتابها عن عدم وجود عربٍ في فلسطين قبل وصول الصهاينة إليها لا يعدو عن كونه مجرّد حكايةٍ أقرب إلى الخيال .(٨) هنالك في المقابل نسخة متطوّرة من هذا الادّعاء تتجاوز تلك السذاجة وما تزال تتردّد اليوم تحدّث عنها أفرايم كارش في كتابه «خيانة فلسطين» تقول إنّ الفلسطينيين الذين كانوا في فلسطين قد تعرّضوا للخيانة من قبل قيادتهم التي لم تسمح لهم بالاستفادة من المنافع العديدة التي جلبتها الحركة الصهيونية .

رسّام الخرائط الموضوعي

لقد كانت الخرائط والأطالس من ضمن الوسائل التي وُظّفت للترويج لهذه السرديّة محليًا ودوليًا . فقد كان إنتاج الأطالس الراقية المقسّمة إلى فترات تاريخية تمتدّ من عصور الكتاب المقدّس حتى الزمن الحاضر صناعةً مزدهرة في إسرائيل ، كما كان مجال رسم الخرائط وإنتاجها مرتبطًا بتقديم معلومات جغرافيّة دقيقة للمهتمّين ، مع أنّ ذلك أحيانًا قد كان يمتزج ببعض التحيّزات المتجاوزة للوصف التصويري والتخطيطيّ للطبيعة . وعلى غرار الأطالس الطبيعية الكلاسيكية ، كانت الأطالس التاريخية وسيلة مهمّة للتعليم إذ تمتاز بسهولة عرض المعلومات وفهمها بصرف النظر عن اللغة المستخدمة أو الخلفية الثقافية للمستخدم . وقد أشار الكاتب دانيال مِريام مرّة في العام ١٩٩٦ إلى أنّ الخريطة

صورةً عن فكرة ما- والفكرة التي نحن بصددها هنا هي فكرة إسرائيل .(٩) وقد بدأت حالة من الشكّ في أواخر الثمانينات بين علماء الجغرافيا حول افتراض مصداقيّة الخرائط في رسم الواقع الطبيعي ، ولكنّهم تردّدوا في التعبير عن هذه الشكوك علانية . أمّا المؤرخون فقد ازداد وعيهم منذ تلك الفترة بالتحيّزات غير الموضوعية للخرائط ، وذلك كما جاء بيّنًا على لسان جون برايَن هارلي إذ يقول :

> عادة ما نفترض أنّ رسّام الخرائط لا يمكنه بحال أن يحيد عن المنهج «العلمي» و«الموضوعيّ» في إنتاج المعرفة . ومن الطبيعيّ أن يرى رسّام الخرائط ضرورة قولِ ذلك ليحافظ على مصداقيته ، أمّا المؤرخون فلا يقع عليهم مثل هذا الالتزام .(١٠)

وفي حالة إسرائيل فقد امتدّ هذا الجهد في مجال إنتاج الخرائط إلى خارج الدولة ، ولعل المثال الأهمّ على ذلك هو أطلس الصراع العربي الإسرائيلي ، وقد أشرف على آخر طبعات هذا الأطلس أحد أبرز المؤرخين الإنجليز في العصر الحديث والكاتب المرموق الذي ترجم لحياة ونستُن تشيرشل ، السير مارتِن غلبرت .(١١) وقد صدرت حتى الآن عشر طبعات من هذا الأطلس ، ولا ريب أنّ عملًا يتناول تاريخَ قضيّة مليئة بالأحداث كهذه القضية موضوع الأطلس ليحتاجُ إلى مراجعة وتنقيح مستمرّين . وقد مضت أربعون عامًا على صدور الطبعة الأولى ، وأضيفت في كل طبعة لاحقة خرائط جديدة تبيّن حالة لم تنقطع من الأسى والعنف . لكن وبغضّ النظر عن الطبعة التي يختارها القارئ فإنّ الأطلس دومًا ما ينقل له الواقع ويقدّم له طريقةً لفهم ذلك الواقع .

نجد مثلًا أنّ أطلس الصراع العربي الإسرائيلي يمنح الشرعيّة الأكاديميّة المطلقة للنسخة التأريخية الصهيونية الكلاسيكية للصراع ، بينما يتعامل مع وجهة النظر الفلسطينية على أنّها محض بروباغندا ، وذلك رغم ادّعاء الأطلس في المقدّمة سعيه لتقديم عرض يتسم بالحياد «لآراء الأطراف المعنية بالصراع» .(١٢)

ولعل نظرة إلى بعض الأمثلة على الخرائط والتعليقات عليها في الأطلس تكفي لمعرفة التحيّز الإيديولوجي الماثل فيما يُزعم أنّه عرض محايد . فالخرائط

الثلاثة الأولى على سبيل المثال تعيد إنتاج الأسطورة القائلة بوجود شعب بلا أرض ، إذ تشير الخريطة الأولى إلى وجود اليهود في فلسطين قبل الفتح العربي لها . ويمكن أن يقول قائل إنّ هذا أمر معقول لأنّه يثبت دعوى صهيونية رومانسيّة بالحق في أرض فلسطين . ولكنّا لا نجد في المقابل أية خريطة تشير إلى وجود العرب في فلسطين في العصر العباسي ولا المملوكي ولا السلجوقي ولا العثمانيّ من قريب أو بعيد . ثم تأتي الخريطة الثانية في الأطلس لتخبرنا بوجود اليهود في فلسطين في تلك الفترات من التاريخ الإسلامي حين كانوا يشكّلون أقلّ من ١ بالمئة من السكّان . أمّا الثالثة فتتناول الهجرة اليهودية (أو الاستيطان كما يعبّر عنها الأطلس) بين العامين ١٨٨٠ و ١٩١٤ .

يقدّم هذا الأطلس كذلك خرائط توضّح تاريخ الصدامات التي حدثت في عشرينات القرن العشرين ويصفها بهجمات العرب ضد اليهود في العقد الأول من الانتداب البريطاني ، من دون أيّ ذكر للدور الصهيوني في تلك الهجمات بل وإشعالها في بعض الأحيان . فلن يجد القارئ مثلًا أيّ ذكر لما قام به زئيف جابوتنسكي من استفزاز للعربِ وتسبّبه في إطلاق موجة من المظاهرات في القدس عام ١٩٢٠ كما لن يجد أيّة إشارة إلى انتفاضة عام ١٩٢٩ في فلسطين ضدّ السياسات البريطانية المحابية للصهاينة فيها .

من نافل القول أيضًا أن نذكر أن غلبرت لا يسمّي الثورة الكبرى التي حدثت في فلسطين بين العام ١٩٣٦ و ١٩٣٩ باسمها ويذهب إلى وصفها بالحملة العربية (أي الحملة العربية ضدّ اليهود) . وتخبرنا التعليقات التي تظهر بصناديق صغيرة على هوامش كل خريطة أنّ هذه الحملة مثّلت ثلاث سنوات من القتل المستمرّ لليهود وجنود الانتداب الإنجليزي ، مع غيابٍ صادمٍ لوجهة النظر الفلسطينية عن هذه الثورة التي كانت تمثّل المحاولة الفلسطينيةَ الأولى لتجاوز الخلافات العشائرية والطائفية في مجتمع تقليديّ مهشّم والتحوّل في فرصة نادرة نحو الوحدة تولّدت بعد حالة الوعي المتأخرة التي سادت بين القادة الفلسطينيين بالمخاطر التي تفرضها الهجرة اليهودية المتزايدة إلى فلسطين على

شعبهم . وبالرغم من أنّ مآل تلك الثورة كان إلى الفشل ، إلا أنّها كانت نموذجًا ألهم الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٨٧ .(١٣) أمّا أطلس غلبرت فيتناول هذه الثورة عبر خرائطَ لا تتتبّع سوى سفك الدم اليهوديّ ولا شيء سوى ذلك ، مع أنّ بعض التقديرات «المتواضعة» في كتاب إحصاء فلسطين الذي أُعدّ بُعَيد انتهاء الحرب العالمية الثانية تشير إلى مقتل ما يقارب ٢,٥٠٠ من العرب على يد قوات الجيش والشرطة البريطانية خلال الانتفاضة ، بينما يشير المصدر نفسه إلى أنّ عدد الجنود البريطانيين الذين قتلوا في تلك المواجهات (باستثناء العام ١٩٣٧ حيث لم ترد معلومات بشأنه) قد بلغ ١٤٣ بينما بلغ عدد من سقطوا من اليهود ٤٢٩ شخصًا .(١٤)

ثم ينتقل هذا الأطلس إلى إعادة إنتاج السرديّة الصهيونية الكلاسيكية لحرب عام ١٩٤٨ والتي سنأتي على تفاصيلها لاحقًا في الكتاب ، وهي طريقة تنتهجها العديد من الأطالس التي صدرت في أمريكا وإسرائيل . غير أنّه ومنذ تسعينات القرن العشرين ظهرت مساعٍ لمواجهة هذه الصور بدأت بالجهود البحثية الحثيثة التي بذلها سلمان أبو ستة ثم الجُمعيّة الفلسطينية للشؤون الدولية ، وهي منظمة غير حكوميّة تأسست في القدس عام ١٩٨٧ . وقد قام أبو ستة بوضع عدة أطالس ضخمة تتناول التاريخ الفلسطيني وتاريخ العام ١٩٤٨ على وجه التحديد .(١٥)

نرى في المحصّلة أنّ الأطالس «الصهيونية» تُظهر بجلاء الموقفَ نفسه الذي تبنّاه المؤرخون الذين قاموا معتمدين على أراشيفَ وشهاداتٍ بالتدليل على أنّ الأرض كانت خِلوًا من الناس حين حطّت الصهيونية فيها ، ويقدّمون الأدلة الأكاديمية على الشطر الأول من ادّعاء الصهيونية المأثور بأنها حركة شعبٍ بلا أرض أتت إلى أرضٍ بلا شعب . ولكنّ الحقيقة هي أنّ الناس كانوا في تلك الأرض ، وأنّه لا يمكنُ لمنتجي المعرفة في إسرائيل ولا للفلاسفة الذين دافعوا عن فكرتها تجاهلُ وجود أولئك الناس . ورغم ذلك فقد كان التجاهل مصيرهم ، بل وصُوِّروا فوق ذلك بطريقة تسوّغ إنكار وجودهم وضياع حقوقهم وهم الشعب الأصليّ الذين سكنوا تلك الأرض .

الفصل الثاني

الغريب إذ يصبح إرهابياً: الفلسطيني في الفكر الصهيوني

يظنّ معظم الناس أنّ الفلسطينيين مقاتلون وإرهابيون ومنبوذون خارجون عن القانون. ما عليك إلا أن تنطق هذه الكلمة «إرهابي» وسترى أنّ صورة رجل يغطّي وجهه بكوفيّة حاملاً الكلاشينكوف قد تشكّلت في مخيّلتك. وبشكل من الأشكال ستجد أنّ صورة اللاجئ المسكين الأشعث قد تحوّلت إلى هذه الصورة المرعبة التي لا تخطئ لهذا «الفلسطيني». (١)

إدوَرد سعيد، ما بعد السماء الأخيرة، ١٩٩٨.

في كانون الثاني من عام ٢٠١٢، عرضت إحدى محطات التلفزة الإسرائيلية بكل فخر فيلمًا وثائقيًا عنوانه «تاريخ الإرهاب»-وهو مشروع مشترك بين التلفاز الإسرائيلي والمحطة الفرنسية الثانية، وقد اعتمد الفيلم على أعمال عدد من المفكرين الإسرائيليين والفرنسيين. يتتبع الفيلم مسار الإرهاب الحديث في العالم، ويعثر على بدايات واضحة له في جبهة التحرير الوطني الجزائرية، والثورة الكوبية، ومنظمة التحرير الفلسطينية، وجميعها حسب تعبير البرنامج تنضوي على «أيديولجيات إجرامية» قد شوّهت تاريخ العالم. وقد تناول القسم الأخير من البرنامج بشيء من التفصيل حركة حماس والربيع العربي كجزءٍ غير منته بعدُ من حكاية الإرهاب العالميّ. (٢)

دأبت معظم وسائل الإعلام والجهود الأكاديمية الإسرائيلية على وضع

حركات المقاومة الفلسطينية كعامل أساسي في التاريخ العالمي للإرهاب. ويتمثل دور الأكاديمي الإسرائيلي في إثبات هذه الفكرة بالأبحاث «العلميّة» التي توثّق حالات العنف التي يرتكبها الفلسطينيون وتؤكّد مطابقة التعريفات النظرية للإرهاب على هذه الأفعال. ولا ريبَ في أنّ السياسيين في إسرائيل والعاملين في الإعلام يقبلون هذه الصورة بلا تردّد، رغمَ أنّ التركيز عليها قد تراجع نوعًا ما في الفترة التي أعقبت معاهدة أوسلو التي ما لبثت أن فشلت.

إنّ صورة الفلسطينيّ هذه عميقة الغور في التاريخ الصهيوني وتعود إلى فترة العليا الثانية(*) في بداية القرن العشرين (١٩٠٤-١٩١٤). كان الفلسطينيون في نظر هؤلاء المستوطنين إمّا غير موجودين أو كائنات غريبة لا يجب أن تكون أصلًا. وتراوحت تقديرات أعداد المهاجرين الذين وصلوا فلسطين في العليا الثانية بين ٢٠,٠٠٠ و٤٠,٠٠٠ مهاجر أتى معظمهم من روسيا (لا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّهم شكّلوا أربعةً بالمئة فقط من مجموع اليهود الذين خرجوا من روسيا في تلك الفترة). إلا أنّ موجة الهجرة هذه لم تمثّل قصة نجاح كاملة، إذ غادر معظمهم (٩٠ بالمئة تقريبًا) فلسطين بسرعة متوجهين بشكل أساسي إلى الولايات المتحدة، ولم يبق منهم إلا بضعة آلاف. إلا أنّهم رغم قلّة عددهم حققوا عددًا من الإنجازات: فقد طردوا الفلسطينيين العاملين في المستعمرات اليهودية القديمة تحت شعار «العمل العبري» والذي يقضي بطرد كافة العمال العرب من المستعمرات اليهودية كخطوة أساسية لوضع أسس دولتهم في المستقبل.

معظم هؤلاء اليهود عرفوا الفلسطينيين في مثل هذه الظروف، فقد بدأ الاحتكاك بينهم على شاطئ حيفا، ثم أثناء العمل سويّة في المستعمرات اليهودية أو في المدن. وحينما أدرك هؤلاء اليهود أنّ للفلسطينيين وجودًا حقيقيًا

(*) فترة العليا الثانية هي موجة الهجرة اليهودية الثانية إلى فلسطين والتي تمت بين ١٩٠٤ و ١٩١٤ (المترجم)

في هذه الأرض قرروا ، كما يفعل جميع المستعمرين ، إنشاء مجتمعاتهم المغلقة وتأسيس اقتصاد وسوق خاصّة لهم من دون الفلسطينيين . وقد تطلّب تحقيق هذا الأمر تغطية قانونية من البرلمان لحماية هذه المستعمرات ، ولم يكن هذا ليسبب مشكلة قطّ ، فقد سارعت سلطات الانتداب البريطاني إلى إقرار هذه النزعة الانفصالية وشرعنتها في فلسطين .(٣)

لقد سيطرت على المهاجرين الجدد رغبةٌ عارمة في كتابة اليوميّات والرسائل ، ولم ينسوا الكتابة عن أي شيء ولو كان عضّة بعوضة ، كما أنّهم وبطريقة تُذكّر بيهود الشتيتلات(*) ، لم يتوقفوا عن الشكوى . وتعود أوّل كتاباتهم المعادية للعرب إلى الفترة التي كانوا فيها في ضيافة الفلسطينيين في المستعمرات القديمة أو في المدن الفلسطينية . وقد كانت هذه الشكاوى نابعة من تجارب أوّلية مرّ بها أولئك المستعمرون أثناء بحثهم عن العمل والرزق ، إذ كانوا يواجهون المشاكل ذاتها سواء ذهبوا إلى المستعمرات الصهيونية أو إلى المدن الفلسطينية ، ولم يكن أمامهم سوى أن يعملوا إلى جانب المزارعين أو العمال الفلسطينيين ، وهكذا أدركوا ، حتى الجاهلون منهم والمتعصبون ، أنّ فلسطين دولة عربية وأن العين لا تخطئ وجودهم أينما نظرت . إنها فترة قاسية من الإقرار بالحقيقة المرّة تغشاها سحابة من الأفكار الأولى حول كيفية تغيير هذه الحال . إن عملية إنتاج المعرفة في إسرائيل ، وخاصة فيما يتعلق بصورة الفلسطينيين وطبائعهم فيما ندعوه نحن «فكرة إسرائيل» قد تأثر بشكل كبير بالانطباعات الأولى التي تشكلت في تلك الفترة .

حينما لجأ أحد الناشطين البارزين في العليا الثانية إلى استخدام استعارة طبية في وصف العمال الفلسطينيين بأنهم Beit Mihush (مرتع الأوبئة) ، كان يدرك على الفور أنّ الترياق يتمثّل في إيجاد عمالة يهوديّة في بيئة عمل حصريّة

(*) يهود القرى أو الشتيتلات ، هم اليهود الذين أقاموا لفترة طويلة في أوروبا الوسطى والشرقية قبل الهولوكوست ، وكانوا معروفين بتقاليد لغوية خاصة بهم . (المترجم)

لليهود . وفي العديد من الرسائل يظهر العمال اليهود بوصفهم الدماء الجديدة السليمة التي ستحصّن الأمّة من العفن والموت .(٤) وهنالك رسالة يشير كاتبها إلى الحماقة في السماح للعرب بالعمل مع اليهود ، ذاكرًا قصّة يهودية قديمة عن رجل غبيّ أنقذ أسدًا كادَ يموت فكان نصيبه الموت بين فكّيه .(٥)

أما فيما يتعلق بأرض فلسطين ، فقد كان المستوطنون يتحدثون عنها بوصفها أرضًا غريبة (nechar) ، أو حتّى لجّةً من الاغتراب والوحشة (yam nechar) . فقد كانت الإشارة إلى فلسطين دومًا على أنها أرض قاحلة لا سكّان فيها سوى مجموعة من الأشخاص البدائيين الذين يجوبون هذه البريّة . وتظهر هذه الأوصاف عادة في كتاباتهم اليوميّة أو في رسائل غاضبة يشتكي كتّابها من تحوّل وطنهم إلى صحراء (shemama) .(٦) فوجود الفلسطينيين مرتبطٌ بكلّ ما هو قاحل وميّت ، وهذا ما دفع بعض المستوطنين إلى إعادة النظر في مشروع الاستيطان والتفكير في العودة وترك ما وصفه أحدهم بأنها «أرض اللاشيء» ، وذلك لأنّه قد تبين لهم أنّ هذه الأرض التي وصفت بأنها خلوٌ من الناس مليئة بالأغراب- «أناسٌ كانوا أغرب لنا من الفلاحين الروس أو البولنديين» ولذا وجدنا أنه «لا شيء يجمع بيننا وبين غالبية الناس الذين يعيشون هنا» .(٧)

وهذا صحيح! فَلِشخص قادم من أوروبا لا بدّ أن تكون فلسطين مكانًا غريبًا من الناحية الموضوعية . ولكنّها كانت للمستوطنين غريبةً أيديولوجيًا لأنّ فيها أناسًا غرباء يعيشون فيها ، مما جعل للمكان سمة غرائبية في نظرهم . ثم إنّ هؤلاء الناس لم يكونوا غرباء وحسب ، بل كانوا غرباء معتدين في نظرهم ، وهذا الاعتداء بدأ ضد اليهود كما يدّعون من اللقاء الأوّل بهم .

وكما هي حال جميع المغتربين ، أبحر المستوطنون اليهود أولًا إلى الإسكندرية ، ثم انتقلوا إلى يافا بالعبّارة وبعدها بقوارب صغيرة نحو الشاطئ . فكان وصولهم إلى الشاطئ بهذا الشكل البسيط في نظرهم معاملة عدوانيّة وغريبة ، فكانوا يقولون : «Aravim Hetikifu Ottanu» أي «العرب اعتدوا علينا»- وهذه هي العبارة التي استخدمها المستوطنون في وصف الأولاد الفلسطينيين

الذين ساعدوهم أثناء صعودهم للمراكب الصغيرة للذهاب إلى يافا ،[٨] إذ كان هؤلاء الأولاد يرفعون أصواتهم لأنّ الأمواج كانت عالية ولأنهم طالبوا اليهود بإكراميّاتهم التي كانوا يعتاشون عليها . لكنّ هؤلاء الفلسطينيين في رواية المستوطنين كانوا محض معتدين . إنّ الإزعاج وارتفاع الصوت ، وهما سمتان مميزتان للمدن اليهودية في أوروبا الشرق ، باتا مصدرًا للتهديد والاعتداء حين صدر من النساء الفلسطينيات اللواتي كنّ يلوّحن ويزغردن فرحًا بعودة البحارة سالمين إلى بيوتهم . كان هذا في نظر المستوطنين تصرفًا متوحّشًا من أناس بدائيين «لهم أعينٌ محمرّة ولغة عجيبة تخرج من نحورهم» .[٩] وسواء عليهم أكان الأمر متعلقًا باللغة أم اللباس أم الحيوانات ، فإن ما كتبه المستوطنون عن الفلسطينيين كان دومًا حديثًا عن كل ما هو مستقبح وغريب .

إنّ الشعور بالاغتراب والانزعاج من وجود العرب في فلسطين لم يكن الأمر الوحيد الذي أزعج الصهاينة عند لقائهم الأول بسكان الأرض الأصليين . فمما زاد من امتعاض هؤلاء المهاجرين وحيرتهم هو النسيج الديمغرافي في المستعمرات اليهودية القديمة نفسها . فقد كتب يونا هورفِتس في مذكّراته ، وهو أحد الشخصيات البارزة في موجات الهجرة الأولى ، كيف أنّه كان منزعجًا حدّ القرف حين رأى أنّ أحد المنازل في الخضيرة(*) كانت مسكونة بالعرب[١٠] . أما في جوهرة التاج الصهيوني ، ريشون لتسيون ، فقد أخبر ناتان هوفشي (وقد صيغ اسم العائلة هذا لدى وصوله إلى فلسطين ، ويعني «الإنسان الحر») حين رجع إلى بولندا أنّه كان يتميّز غيظًا حين كان يرى العرب برجالهم ونسائهم وأطفالهم يعبرون هذه المستعمرة . وقد قال بالحرف الواحد «Nehradeti» أي لقد كنت «مصعوقًا» لرؤية ذلك ، وأضاف : «لعل ما فعلناه خطأ فادحٌ وهذه أرض أجنبية .» ثم كتب في رسالة أخرى أنه «فورما مُنع العرب من الدخول إليها

(*) مدينة تقع في منطقة حيفا غالبية سكّانها من اليهود ، تأسست كمستوطنة زراعية من قبل جماعات صهيونية في العام ١٨٩١ . (المترجم)

اريشون لتسيون [استحالت لنا وطنًا .»[١١]

وعادة ما يشار إلى وجود الفلسطينيين قرب المستعمرات اليهودية بأنه «عارٌ» (Kalon) ويعزّز هذا الشعور ما يظهره العرب من احتقار (laag) و ازدراء (buz)، والذين خيّل إليهم ربّما أنّ في حال أولئك المهاجرين ما يدعو للشفقة، إذ يذكر سكان المستعمرة أنّ العرب كانوا ينعتونهم بالمساكين . ثم إنّ العجب في نفوس اليهود بلغ مداه حين رأوا أن الفلسطينيين أنفسهم يحرسون أراضي المستعمرين الأوائل .[١٢]

إنّ الحل الأمثل لمحو العار (Kalon) هو تحقيق الشرف (kavod) . ففي ذلك الوقت ، كان المستشرقون الصهاينة يسعون لتوضيح إمكانية استغلال أهمية الشرف في «الثقافة العربية» من أجل تحقيق النجاح لمشروعهم . وكان المستعمرون الصهاينة يتصرفون دومًا على أنّهم شعبٌ قد تعرّض للإهانة ، سواء أكان ذلك حقيقة بشكل اعتداء ماديّ عليهم ، أم كان ذلك متمثلًا بمحض وجود الفلسطينيين في فلسطين وهو الأكثر . ومن الجوانب المثيرة للاهتمام في هذا البحث عن الشرق هو ما يُذكر من أمر التنافس المستمرّ مع العمال الفلسطينيين في الإنتاج . كما أن المستعمرين الصهاينة بدأوا بممارسة ما وصفوه هم بالردّ على «السرقة» ، وهو الوصف الذي أطلقوه على ما كان يفعله العرب من استصلاح لأراضي الدولة في زمن الدولة العثمانية . فصار التقاط الثمار من البساتين على قارعة الطريق سرقةً واعتداءً بعد أن استولى الصهاينة على الأرض ، حيث كانوا يلقون على الفلسطيني جزافًا أوصافًا من قبيل «السارق» (shoded) و«القاتل» (rozeach) حين يرونه يقوم بمثل هذا التصرف ،[١٣] أما بعد العام ١٩٤٨ فصاروا يصفونه «بالإرهابي و«المخرّب» .

إلا أنّ كل هذه المواقف التي طُبعت بالعنف وكلّ هذا الخطاب المتحيّز ضد السكّان المحليين لم يكن كافيًا لصدّ المستوطنين عن طلب العون منهم ليتعلموا رعي الماشية والزراعة والعيش في هذه الأرض . وبعد مضيّ فترة قصيرة صارت «تصرفات العرب وأسلوبهم في المأكل والمشرب والزراعة» شرًا لا مفرّ منه في

بداية الأمر ولا بدّ من التخلّص منه في أسرع وقت ممكن ، وهذه كانت المهمّة المعلنة لموجة الهجرة الأخرى في العليا الثانية .[١٤]

رغم أنّ الاستحواذ على عادات السكان المحليين بهدف التخلّص منهم كان يعدّ شرًا اضطراريًا مؤقتًا ، إلا أنّه قد تم التوسع حينًا في توظيف هذا الشرّ في خدمة المشروع الصهيوني . كانت هذه فكرةَ شخص يدعى آرثر روبن حيث اقترح أن يتم إنشاء مضافة تقليدية كي يُستقبل فيها أعيان المنطقة للتفاوض حول الأراضي التي لا مالكٍ لها ليستحوذ عليها الصهاينة . كان أولئك الأعيان يمثلون مستأجري الأراضي ، وكان هدف الصهاينة إقناعهم بطرد المستأجرين منها لإتاحة المجال لإنشاء المستعمرة الصهيونية على الأرض بعد أن يتمّ شراؤها .[١٥] لقد تمت عملية تطهير الأرض من المزارعين والمستأجرين في بداية الأمر من خلال الاجتماع في هذه «المضافة» الصهيونية ومن ثم تم إخلاء الأراضي والاستيلاء عليها بالقوة زمن الانتداب . وهكذا تم تصنيف الفلسطينيين ، فمنهم «الطيبون» الذين أتوا إلى «المضافة» وقبلوا بالتنازل عن الأرض ، أما من رفضوا ذلك فوسموا بأنهم حفنة لصوص وقتلة . حتى أولئك الفلسطينيون الذين كانوا يتشاركون مع المستوطنين بخيلهم أو بساعات العمل الطويلة في نوبات الحراسة وغيرها أضحوا أشرارًا حين رفضوا تسليم الأرض .[١٦] ويستمر الأمر على هذا المنوال ، فحيثما يكون الإسرائيليون يتحكمون بحياة الفلسطينيين يكون رفض التعاون معهم دليلهم الأوّل على أنّ الفلسطيني يفضّل خيار الإرهاب ويتخذه طريقةً في حياته .

أما فلسطين المدينة ، وخاصّة يافا ، فقد تركت انطباعًا مختلفًا إلى حدّ ما . فالمدينة كما جاء على لسان بن غوريُن وغيره كانت تضمّ «عددًا كبيرًا من المسيحيين» .[١٧] لقد كانوا متعلمين ووطنيين ، كما أنّهم أدركوا بشكل أو بآخر معنى الصهيونية وهدفها ، وأظهروا عنادًا وحزمًا واضحين .[١٨] وبناء على هذه الملاحظات قال أحد المستوطنين ويدعى إسرائيل كاديشمان «إننا في حاجة إلى الذكاء وليس مجرّد القوّة» لمواجهة عرب يافا .[١٩] لقد انضوت يافا على كل ما

يخافه ويبغضه مهاجرو العليا الثانية . فجنين عام ١٩٦٧ ، ونابلس عام ١٩٨٧ ، والخليل عام ٢٠٠٠ ، وغزة في ٢٠٠٨ ، والناصرة في ٢٠١١ : كلها وصفت بوصف مشابه على أنّها مراكز لتعزيز الهويّة الوطنية الفلسطينية وبؤر للأنشطة الإرهابية .

لقد مثّل الفلسطينيون سواء أكانوا في القرى أم المدن خيبة أمل مضاعفة للصهاينة : الأولى بأنّهم موجودون في هذه الأرض ، والثانية بأنهم غير ممتنّين لحضور هؤلاء الأغراب . فمن عجائب الأمور أن المهاجرين في العليا الثانية لم يقدموا شيئًا يذكر للفلسطينيين ، بينما مهاجرو العليا الأولى قدموا على الأقل فرص عمل للفلسطينيين ، وإن بطريقة استغلالية . ومع ذلك بقي الفلسطينيون غير ممتنّين لهم .

ولم يكن من الممكن التعبير عن أيّ مشاعر إنسانيّة فيها شيء من التعاطف . فحينما قام أحد الناشطين القادمين مع العليا الثانية ويدعى يوسف روبنفِتش بإطلاق العنان لنفسه فيما وصفها «لحظة ضعف» وتغنّى بجمال قرية عربية ساحرة مفتونًا بصوت الناي لأحد الرعاة فيها ، كان عليه أن يذكّر نفسه مؤنبًا بأنّ «هؤلاء أغراب على أرض الوطن» .(٢٠) إنّ الرّغبة في طرد الفلسطينيين من أجل أن تكون فلسطينُ جنّة اليهود ومستقرّهم الآمن كانت هي الرسالة الأوضح والأكثر ترددًا على ألسنة المهاجرين من العليا الثانية . لقد كان يوسف أهارونوفيتش أحد أعتى المعارضين لاستخدام الفلسطينيين في العمل ، فهم في نظره «هذا الشرّ» (hara hazeh) : «إننا قلّة ، وإن قاموا علينا فسينتهي أمرنا» . ويضيف مستدركًا أنّه كان يلتقي وإن بشكل عارض ببعض المزارعين الجيّدين ، إلا أنّه كان يعرف أنّهم (raa hola) أي «شرٌّ خبيث» .(٢١)

وفي أثناء الحكم العسكري ، كانت تُستخدم عبارة (raa hola) هذه في النقاشات التي تدور حول مستقبل الفلسطينيين في إسرائيل ، فقد كانت فكرة طردهم واردة بشكل جديّ في ذلك الوقت كبديل عن أحكام الطوارئ في ظل حكومة الانتداب والتي حرمت الفلسطينيين حتى العام ١٩٦٧ من معظم حقوقهم الإنسانية والمدنية .(٢٢)

أمّا الاستعارة التي تصف الفلسطينيين بالمرض الذي يلزم التداوي منه فقد كانت شائعة في الخطاب السياسي الرسمي في سبعينات القرن الماضي. فكثيرًا ما كان يشار إلى الفلسطينيين بأنهم «السرطان في قلب الأمّة» ودرج العديد خاطئين على ربط هذه الإشارة بتقرير كينغ. لقد كان يسرائيل كينغ أحد أكبر المسؤولين في وزارة الداخلية عن المناطق الشمالية حيث نصف السكّان فيها من الفلسطينيين. وقد طُلب إليه في حكومة رابين الأولى (١٩٧٤-١٩٧٧) أن يقدم إستراتيجية خاصة بتهويد المنطقة مع الأخذ بالاعتبار للحقائق الديمغرافية فيها. ورغم ارتباط كينغ بهذه الإشارة المتعلقة بالسرطان، إلا أنّه لم يكن الشخص الذي صاغها. ولقد اقترحَ كينغ في هذا التقرير، وإن كانت لغته أقلّ حدّة، عددًا من الإجراءات الهمجيّة ضد الفلسطينيين، حيث تعامل معهم كمرض لا بدّ من استئصاله كي لا يضرّ ببقية الجسد السليم.[٢٣]

إنّ تجربة الاغتراب، بمعنى الشعور بالاغتراب في محيطٍ عربيّ أو بمعنى وصف العرب كغرباء عدائيين- أصبحت أمرًا أكثر رسوخًا بعد العام ١٩٦٧ وذلك من خلال التشريعات والسياسات الحكومية والتوجهات الرسمية التي تشرعن التمييز ضد العرب، وتزامن ذلك مع كون العرب موضوعًا جديدًا للجهود الأكاديمية الإسرائيلية. فبعد حرب عام ١٩٦٧، كان إنتاج المعرفة في إسرائيل فيما يتعلق بالفلسطينيين مُنصبّا على مشروع «اعرفْ عدوّك» وما يستلزمه ذلك من جمع استخباراتي وعسكريّ للمعلومات. ولهذا السبب عمدَ الأكاديميون ووسائل الإعلام في إسرائيل عند النظر في أي نشاطَ سياسي أو اجتماعي فلسطيني إلى وسمه بأنه «إرهابي». ثم إنّ هذا «الإرهاب الفلسطيني» ليس بالأمر الطارئ بل يدّعون أنّه مستمرّ منذ بداية المشروع الصهيوني في فلسطين إلى أن شرع الأكاديميون في بحث هذه المسألة بشكل جدّيّ. لقد كان هذا التوصيف على هذا النحو أمرًا شاملًا وجازمًا إلى أن صار كل فصلٍ في التاريخ الفلسطيني مرتبطًا بالإرهاب ولم ينجُ من هذا الوصف أيّ مؤسسة أو شخصية انخرطت في الحركة الوطنية الفلسطينية، وشارك الجميع في بناء هذه

الصورة القاتمة عن الفلسطينيين ؛ الحكومة ، والأكاديميون ، والجيش ، ومنظمات المجتمع المدني .

تأريخ الإرهاب الفلسطيني: ١٨٨٢-٢٠٠٩

دأبت حركة التأريخ الصهيونية مدفوعة بالتزامها الإيديولوجي المطلق في بحوثها العلمية إلى افتراض أنّ مقاومة الفلسطينيين للوجود الصهيوني في فلسطين هي ممارسة للإرهاب . وهكذا أكبّ المؤرخون الإسرائيليون على توثيق جميع أعمال المقاومة التي حدثت منذ بدايات المشروع الصهيوني ، ووضعها على خطّ زمنيّ يظهر تصاعدَها وتزايدَ حدّتها . ويعبّر عن ردّة الفعل الصهيونية تجاه هذا الشرّ المقيم كتابٌ وضعته واحدة من أهمّ المؤرخين في إسرائيل ، أنيتا شابيرا ، حمل عنوانًا شعريًا هو : «سيف الحمامة»[٢٤] ، في إشارةٍ إلى التردّد في استخدام العنف ضد الإرهاب الفلسطيني المتزايد . كما يعبّر عن ذلك عبارةٌ قالتها مرّةً غولدا مائير : «إننا لن نسامح العرب على ما أرغمونا على فعله بهم» .[٢٥]

ثم إنّه لا سبيل إلى بيان مصدر هذا العنف وسبب تصاعده ، وسنرى لاحقًا أنّ موضوع العنف الفلسطيني المبهمة دوافعُه والذي ينتدح من كلّ مكان بلا سبب وجيه كان قضيّة أساسيّة في النقاش الدائر حول ما قام به العرب والفلسطينيون عام ١٩٤٨ ، وتظهر هذه الموضوعة في الأعمال الأكاديمية والسينمائية التي تناولت الحرب . فهنالك تأكيد لا ينقطع على أنّ الإرهاب الفلسطيني لا دافع له ولا تفسير رغمَ اشتداد وتيرته وتزايد حدّته في موجات عارمة من العنف . ومن الصعوبة بمكان أن تجد نقاشًا يتناول أي تصرّف صهيوني كتفسير محتمل للعنف من قبل الفلسطينيين . وفي هذا السياق من التوثيق دون تحليل لخدمة الأيديولوجيا ، صار الإرهاب الفلسطيني أمرًا يظهر فجأة هكذا بلا سبب ، في أرضٍ بلا شعب ضدّ شعبٍ سليبي أرضٍ أتوا لاستعادتها .

وفي سياق التناول الأكاديمي للإرهاب الفلسطيني ضد الصهيونية بدأ

المؤرخـون بالبـحـث عن أول ضـحـايا هذا العنف . وتشـيـر الوثائق إلى أنّ أول الضحايا كان حاخامًا وصل في العام ١٨١١ للحجّ إلى القدس . ورغم أنّه قُتِل جرّاء خلاف على مـوادّ للبناء في القـدس عـام ١٨٥١ ، إلا أنّ قـصـتـه قـد «صُـهـيِنَت» على يدِ المؤرخين الإسرائيليين ووضع على رأس قـائمـة في نصب تذكاري لضحايا الإرهاب موجودٍ في تل أبيب قرب مركز قيادة الموساد . ونذكر هنا مـا قاله بندِكت أندرسُن (وكـمـا ذكـرنا آنفًا) عن أنّ الحـركـات الوطنيـة في مـقـدورها أن تصـبـغ الموتى بصـبـغـة وطنيـة ، فـالموتى لا سلطة لهم على الهـوية الجمعية التي فرضها عليهم الأحياء .

وبناء على هذه الروايات فإن الإرهاب قد بدأ على أشدّه بعد العام ١٩١٧ على وقع إعلان بلفور ، وذلك حين نظّم القادة والناشطون الفلسطينيون مظاهراتٍ شعبية رفضًا للسياسات البريطانية المميّزة ضدّهم لصالح الصهاينة . وقد شهدت المظاهرات في العام ١٩٢٠ و١٩٢١ بعض أعمال العنف خاصة في القدس ويافا وكان ذلك إما بسبب الاستـفزازات الصـهيونيـة ، كـما حـدث في القـدس في نيسان ١٩٢٠ ، أو حالة من الغضب الموجّه ضد المناطق اليهودية ، كما حدث في يافـا في أيار ١٩٢١ . ويشـار إلى هذه المناوشـات بأنّهـا الموجـات الأولى للإرهاب الفلسطيني وتوصف بأنهـا اعتـداءات لا سـبب ولا مسـوّغ لهـا ضـد مستوطنين أبرياء . وهذا النوع من العنف قد جعل من الفلسطينيين إرهابيين في فترة كانوا لا يدركون خلالها معنى الصهيونية بوضوح ، وثائرين في الوقت نفسه على مـا فعلتـه بريطانيا من تقديم فلسطين كـوعـدٍ لمستـوطنين ليسـوا من هذه الأرض .

كـان الحاجّ أمين الحـسيني بمثابة قـائدٍ للفلسطينيين أثناء حكم الانتـداب ، وقد وُصِف هو نفسه بالإرهابي حين أخذتْ المظاهرات الفلسطينية تحت قيادته شكلًا أكثر تنظيمًا . وقد كان الحسيني واقعًا بين مطرقة الإبقاء على علاقة غير متـوتّرة مع سلطات الانتـداب ، وسندان الرفض الشـعـبي الصـارم لسـيـاسـات الحكومة البريطانية الداعمة للصهيونية . ثم أدرك الحاجّ أمين وغيره من القادة أن

تحقيق الحلم الصهيوني بإنشاء دولة يهودية في فلسطين سيعني طرد معظم السكّان الأصليين بل ربما جميعهم من أرضهم. ومع أنّ هؤلاء القادة كانوا يمثلون الأغلبية العظمى من السكان (حوالي ٧٠٪ عام ١٩٢٩) إلا أنّهم لم يكونوا مؤهّلين ولا مزوّدين بما يمكّنهم من مواجهة تكالبِ الإمبريالية البريطانية والاستعمار الصهيونيّ عليهم.(٢٦)

أمّا رأس «الإرهاب» الفلسطيني خلال فترة الانتداب فكان عز الدين القسّام، والذي نشط ومن معه في ثلاثينات القرن الماضي. لقد كان الشيخ القسّام سوريًا نُفيَ إلى فلسطين بعد مشاركته في الثورة السوريّة ضدّ الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان في العام ١٩٢٥، وأصبح من أهمّ القادة الذين أشعلوا حماسة الشباب وغيرهم من الساكنين والعاطلين عن العمل في القرى حول حيفا لحمل السلاح ضد المستوطنين اليهود والجنود الإنجليز. ولقد كانت عمليّات القسّام وما نقل عنه من خطبٍ وعظات -وهو لم يكتب الكثير- مصدر إلهام للجناح العسكري لحماس، والتي سمّيت باسمه: كتائب الشهيد عز الدين القسّام، حتى أنّهم سمّوا الصواريخ التي يستخدمونها ضد إسرائيلَ -وهي ليس بذلك السلاح المتطور- صواريخ القسّام. فلا عجب إذن من أن نرى في أعمال مبكّرة لأكاديميين إسرائيليين وصفًا للقسّام بأنّه رجل إرهابيّ.(٢٧)

وتكرّر الأمر نفسه من قبل المؤرخين الإسرائيليين والصهاينة في تعاملهم مع الثورة العربية بين ١٩٣٦-١٩٣٩، وهي سلسلة من المظاهرات الشعبية استغرقت من السلطات البريطانية في فلسطين ثلاث سنوات لإخمادها، حتّى أنّها استدعت سلاح الجو الملكيّ ولجأت إلى أساليب متعددة من العقاب الجماعي مشابهة لتلك التي سيستخدمها الجيش الإسرائيلي بعدهم في الضفة الغربية وقطاع غزّة خلال ما يقارب خمسين عامًا من الاحتلال. فكانت الثورة مقاومة على مستوىً عالٍ من التنظيم واشتملت على الإضرابات وتوقيع العرائض وحروب الشوارع بالإضافة إلى الهجمات على المستعمرات والأحياء اليهودية في المدن الفلسطينية.

وبينما تُظهرُ إسرائيلُ هذه الثورةَ عادةً ما على أنها فصل آخر من تاريخ الإرهاب الفلسطيني،[٢٨] نرى المصادر التاريخية الفلسطينيّة وغيرها من المصادر الأقلّ تحيّزًا تصفُها بأنّها واحدةُ من القلائل من الثّورات الناجحة التي قام بها الفلسطينيون وحقّقت بعض المكاسب السياسيّة المهمّة، ولاسيّما الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩، والذي تم التعهّد فيه بالحدّ من الهجرة اليهودية وعمليات شراء الأراضي. إلا أنّ هذه السياسة البريطانية الجديدة، والتي ترافقت مع صعود النازيّة في أوروبا، قد أشعلت ثورة يهودية صهيونية ضد الإمبراطورية البريطانية. وقد وصفت هذه الثورة في الأعمال التاريخية الإسرائيلية بأنها عملٌ بطوليّ رغم كلّ التحدّيات، مع أنّها عُدّت إرهابًا في نظر حكومة الانتداب آنذاك، حتى أنّ قادة من جماعتي أرغون وشتيرن، مثل مناحيم بيغن وإسحاق شامير، أُعلنا شخصين غير مرحبٍ بهما في المملكة المتحدة بسبب ماضيهما الإرهابي في فلسطين.

وهنالك حلقة من حياة الحاجّ أمين الحسيني تعاون فيها مع النظام النازي في ألمانيا ترتّب عليها المزيد من شيطنة الفلسطينيين وصار الحاجّ الحسيني ليس إرهابيًا وحسب، بل ونازيًا أيضًا. وكان الحسيني قد طرد من فلسطين لدوره في الثورة العربية عام ١٩٣٧، وهذا ما دفعه إلى البحث عن حلفاء جدد وأضحى في نهاية المطاف بين النازيين والفاشيين. فقد مكث الحسيني في برلين خلال الحرب العالمية الثانية وأدلى بدلوه في جهود الدعاية النازية. ونرى حتّى يومنا هذا أنّ هذا الجزء من تاريخ الحسينيّ يسهّل على المؤرخين الإسرائيليين أن يصنفوا المقاومة الفلسطينية للصهيونية مع الإرهاب والنازيّة، دون أي سعيٍ جادّ وعميق لإعادة النظر في أنشطة الحاجّ الحسينيّ ووضعها في سياقها.[٢٩]

ثم جاء الرفض الفلسطيني لقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة في تاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ليعدّ هو الآخر فعلًا إرهابيًا فلسطينيًا، ذا أثر أعظم مما سبقه من أعمال إرهابية، وذا طبيعة إباديّة كذلك، وذلك لأن رفض القرار في نظرهم يعبّر عن قصد الفلسطينيين تدمير المجتمع اليهودي في فلسطين برمّته.

وتتجلّى هذه النظرة بوضوح في مقدمة لكتاب صدر مؤخرا من وضع بيني مورِس بعنوان «١٩٤٨ : تاريخ الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل»[٣٠] ، حيث ينظر مورِس ، وهو من الصهاينة الجدد ، إلى حرب ١٩٤٨ ضمن نموذج «صراع الحضارات» : أي على أنها حرب بين الإسلام والغرب . ولإثبات هذه النظرة يقتبس مورِس عبارات صدرت عن زعماء عرب مثل ملك السعودية ابن سعود وبعض الشخصيات الدينية وبعض قادة الحركات الإسلامية ، وبالأخص الإخوان المسلمون ، ليثبت أن هذه الحرب كانت جهاداً يقوم به المسلمون ضد عدوّهم .

لقد كان مورِس في أحد أعماله السابقة ، «حروب إسرائيل الحدوديّة» ، أكثر إنصافًا للمقاومة الفلسطينية ، حيث لم يقبل وصف من تسلّل من الفلسطينيين إلى إسرائيل في خمسينات القرن الماضي بأنهم إرهابيون .[٣١] لقد كان هؤلاء لاجئين حاولوا الدخول إلى إسرائيل لاستعادة قطعانهم وجني ما تبقى من محاصيلهم وأخذ ما تركوه خلفهم ، وقليل منهم رجعوا بغيةَ الانتقام . ثم ظهرت في منتصف الخمسينات حركة الفدائيين التي تلقّت الدّعم والتنظيم في البداية من الإخوان المسلمون في قطاع غزة والضفة الغربية ، ثم تحوّلت إلى حركة وطنية مستقلة تسعى إلى النهوض مجدداً بعد نكبة ١٩٤٨ . ومن هنا نشأت حركة فتح في نهايات الخمسينيّات وأصبحت أكبرَ حركة وطنية مستقلة وظفرت بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، وهي المنظمة التي تثير تساؤلات عديدة بعد إنشائها في الوطن العربي عام ١٩٦٤ بغيةَ تحرير فلسطين . وكانت فتح قد اضطلعت بقيادتها في العام ١٩٦٨ وذلك بعد انتكاس جهود العرب في هزيمة إسرائيل عام ١٩٦٧ .

وقد عمدت جهود التأريخ الإسرائيلية إلى توثيق تلك العمليات المتقطعة وغير المجدية في كثير من الأحيان والتي قام بها من طرد من الفلسطينيين في حرب العصابات إلى جانب فتح وجمعها في بوتقة جاهزة تدعى «الإرهاب» . وقد قُدِّمت هذه العمليات على أنها استمرار للإرهاب الفلسطيني الذي كان قبلَ

قيام الدولة الإسرائيلية . ويمكن أن نجد خلاصة هذه الفكرة باللغة الإنجليزية على سبيل المثال في كتاب لروائي وكاتب مدافع عن الصهيونية يدعى جيليان بيكر ، والذي اعتمد بشكل كبير على المصادر والآراء الإسرائيلية في صياغة وجهة نظره .(٣٢) ليس في استطاعةِ أحدٍ أن ينكر أن بعض العمليات الفلسطينية كانت ضدّ مدنيين أبرياء في إسرائيل ، ولعل أسوأ مثال على ذلك ما حصل في تاريخ ١٧ آذار ١٩٥٤ عندما اعتدت مجموعة فلسطينية على حافلة للركاب المدنيين وقتلوا أحد عشر راكبًا ، ولا يمكن لأيّ مؤرّخ جادّ أن لا يعدّ مثل هذه العمليات إرهابًا ، إلا أنّه لا يمكنه في الوقت نفسه أن يسمي حركة وطنية بأسرها بأنها «منظمة إرهابية» لأنّ بعض أفرادها قاموا بمثل هذه العمليات .

وبعد العام ١٩٥٤ صارت سياسة الانتقام الإسرائيلية ضد المتسللين الفلسطينيين الأكثر براءة أمرًا معروفًا : إطلاق الرصاص فورًا على أيّ فلسطيني يحاول الرجوع إلى فلسطين . وقد ذهب ضحية هذه السياسة خمسة آلاف من الفلسطينيين ، ثم وصفوا فوق ذلك بأنّهم إرهابيون ، مع التغاضي التامّ عن السياسات التي تتبعها الدولة بالغةً ما بلغت من القسوة كالإعدامات الميدانية ، ولا نكاد نجد من ذلك شيئًا إلا ما أورده بيني مورِس في كتابه آنف الذكر .(٣٣) وقد استفادت حكومة إسرائيل عام ١٩٥٦ من فكرة أنّ المقاومة الفلسطينية على الحدود معها هي محض إرهابٍ في تسويغ انضمامها إلى جانب بريطانيا وفرنسا في حرب قناة السويس . وقد أظهرت بعض الأبحاث التاريخية الحديثة ، خاصة تلك التي قام بها آفي شلايم ، أن الهدف الأساسي من تلك العملية كان متمثلًا في الرغبة في التخلص من جمال عبد الناصر الذي كان شوكة في خاصرة بريطانيا (لتأميمه قناة السويس) ، وفي خاصرة فرنسا (لدعمه لجبهة التحرير الوطني الجزائرية) ، وكذلك في خاصرة إسرائيل (لسعيه إلى تأليب بعض الدول العربية عليها كلبنان والحكم الهاشمي في الأردن والعراق والتي كانت إلى حدّ ما غير متصادمة مع إسرائيل) .(٣٤)

وقد شكّل احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة في حزيران ١٩٦٧

عقب هزيمتها للجيوش العربية نقطة تحوّل لحركة المقاومة الفلسطينية . فبين العام ١٩٦٧ و١٩٧٤ وبتأثير النظريات الثورية في العالم الثالث ، بات الكفاح المسلّح الوسيلة التي لا محيد عنها لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي وتحرير فلسطين بأكملها . وهكذا انخرطت الحركة عمليًا في محاولة عقيمة لتحريك ثورة شعبية ضد الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ومحاولات أكثر نجاحًا في جذب أنظار العالم لمأساة الفلسطينيين .

وخلال تلك الأعوام صار الكفاح المسلّح ميدانًا لتجربة كل ما وسعته الحيلةُ من أساليب : العمليات الإرهابية ، حرب العصابات ، والاشتباكات المباشرة مع جيش إسرائيل . وكان الإرهاب متمثلًا بشكل أساسي في عمليات خطف الطائرات ، وكان ذلك من اختصاص الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين (بقيادة نايف حواتمة) والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (بقيادة حبش) . وبهذا صار عديد الجماعات الفلسطينية حتى في الكتابات المحايدة جماعاتٍ إرهابية ، مثلهم في ذلك مثل عصابة بادر ماينهوف والجيش الأحمر الياباني ، وغيرها كذلك من حركات التحرّر كمنظمة إيتا والجيش الجمهوري الأيرلندي ، غير أنّ هذه الارتباطات لم تدم طويلًا على أيّة حال . ونذكر هنا ما قام به ثلاثة أعضاء من الجيش الأحمر عام ١٩٧٢ بقتل ٢٦ (والبعض يقول ٢٤) مسافرًا في مطار بن غوريُن (والذي كان ما زال معروفًا حينها بمطار اللد) حيث كانت هذه أكثر العمليات من هذا القبيل وحشيّة ، ولا شكّ في أنّها إرهاب محض . كما ازدادت التوتّرات بين منظمة التحرير الفلسطينية والمملكة الأردنية الهاشمية ، حيث تتدرب وحدات المنظمة وتتخذها منطلقًا لعملياتها ضد إسرائيل ، وانتهت هذه العلاقة بمقتل بضعة آلاف من الفلسطينيين على يد القوّات الأردنية في أيلول عام ١٩٧٠ ، مما اضطر المنظمة إلى الانتقال إلى لبنان ، وأذنت هذه التحرّكات بنهاية الحركة الثورية .

اشتملت عمليات حرب العصابات على محاولات للتسلّل إلى الأراضي المحتلة في الضفة الغربية من أجل تنظيم مقاومة شعبية في الداخل . وقد شهد

العام ١٩٧٠ بعض العمليات التي انطلقت من لبنان واستهدفت المدنيين الإسرائيليين بغيةَ اختطافهم واستخدامهم كورقة ضغط في التفاوض ، إلا أنّها كثيرًا ما صارت إلى كوارث حقيقية من قتل للمدنيين ، سواء كان ذلك مدفوعًا بردة الفعل الإسرائيلية العنيفة لتخليص الرهائن رغم أنّ المسؤولية كانت تقتضي مزيدًا من التفاوض ، أو بسبب استعجال الخاطفين بقتل الرهائن . ويقع على شاكلة هذه العمليات ما حدث في الألعاب الأولمبية في ميونخ عام ١٩٧٢ حين قُتل سبعة عشر لاعبًا رياضيًا إسرائيليًا ، وهنالك عملية أخرى حدثت في معالوت حيث اقتحم مسلحون مدرسة وقتل اثنان وعشرون طالبًا أثناء عملية تحريرهم . وتجدر الإشارة هنا إلا أنّ الأكاديميين الإسرائيليين اليوم يشيرون إلى ما حدث في معالوت على أنّه عملية تحرير فاشلة ، رغمَ أنّهم يصنفونها في الوقت نفسه على أنّها حالة مثالٌ للوحشية والإرهاب الفلسطينيّين .

وهنالك جانب آخر من عمليات حرب العصابات تمثّل في ما يمكن وصفه بحرب استنزاف استمرت حتى أيلول ١٩٧٠ قامت فيها منظمة التحرير بقصف المستوطنات الإسرائيلية في وادي الأردن . وأعقب عملية ميونخ بدء الموساد لحملة له على الإرهاب وبأسماء من قبيل عملية غضب الرب (تم فيها قتل أعضاء من المنظمة في أوروبا) وعملية ربيع الشباب (تم فيها اغتيال قيادات للمنظمة في بيروت عام ١٩٧٣) . ولعل معركة الكرامة عام ١٩٦٨ هي من أشهر عمليات الانتقام التي قامت بها إسرائيل تحت مسمّى Mivtza Tofet (عملية الجحيم) والتي واجهت مقاومة مشتركة من قبل الفلسطينيين والأردنيين .

ولو نظرنا إلى الأمور بشكل إجمالي فيمكننا الحكم على العمليات الفلسطينية بأنها باءت بالفشل ، إذ لم يتحرر شبر واحد من الأرض الفلسطينية . ولكنّ هنالك أيضًا بعض التغييرات التي تحققت ، ومنها أنّ منظمة التحرير الفلسطينية أضحت الممثل الوحيد والشرعي للتحرير الوطني ، رغم أنّها خسرت معركة التحرير وكسبت النضال لتحقيق الشرعية ، مما حدا بها إلى تغيير إستراتيجيتها فيما بعد . ففي منتصف السبعينيات وضع قادة المنظمة ما وصف

حينها بخطة المراحل ، وهي إستراتيجية سياسية واقعية قبلت بفشل الحل العسكري منفردًا واختارات المسار الدبلوماسي والتوصل لحلٍّ للنزاع مع إسرائيل .

غيرَ أنّ إسرائيل لم تلقِ بالًا لهذه الإستراتيجية الجديدة ومضت قدمًا في جعل الأراضي المحتلة سجنًا ضخمًا يخضع لحكم عسكريّ صارم ، وهو أمرٌ مستمرٌ حتى يومنا هذا . وتبيّن أن خطاب السلام الإسرائيلي إنّما يستخدم للتغطية على التهويد واسع النطاق للأراضي الفلسطينية وحصر الفلسطينيين في ما تبقّى من مناطق . ثمّ ومع مضيّ الوقت سيُعرض على الفلسطينيين تحويل هذه الأراضي المقتطعة إلى دولة لهم وينهوا الصراع فيرفضون .

كما لم يكترث الإسرائيليون بهذه البراغماتية حين استمر وصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها منظمة إرهابية ضخمة وذلك على الأقلّ حتّى توقيع اتفاق أوسلو في أيلول ١٩٩٣ . وقد كانت المنظمة وإسرائيل تستخدمان كلّ ما توفّر ممّا يعدّه الكثير من الباحثين إرهابًا سواءً قامت به الدولة أو غيرها . (انظر مثلًا الوصف الأكاديمي للمواضيع المتعلقة بمنظمة التحرير والإرهاب واتفاقية أوسلو في القسم الخاص «منظمة التحرير الفلسطينية» على الموقع الإسرائيلي المشهور Ynet وهو تابع للصحيفة اليومية يديعوت أحرونوت .)

ويمكن تصنيف العمليات شبه العسكرية التي قام بها الفلسطينيون منذ الاحتلال على أنّها استهدفت ثلاثة أنواع من الأهداف : الجيش والمستوطنين والأهداف المدنية داخل إسرائيل . وقد تصاعدت حدّة النّوع الأخير من العمليات بعد فشل الانتفاضة الأولى والتي اندلعت عام ١٩٨٧ . وهنالك عدد محدود من الدراسات الإسرائيلية التي تتناول الانتفاضة الأولى وهنالك أيضًا مجموعة من التقارير والتعليقات الصحفية صدرت فيما بعد في كتبٍ تتناول القضيّة وشكّلت الرأي العام بشأنها . فرغم أن هذه الانتفاضة اعتمدت بشكل أساسي على رمي الحجارة والاحتجاجات الواسعة وربما استطاعت في بعض المرّات السيطرة بشكل جزئي على بعض القرى والأحياء ، إلا أنّ الكتب

المتداولة في إسرائيل عن هذه الانتفاضة ترجعُ الأمر برمّته إلى كونه حلقة أخرى من الإرهاب الفلسطيني .[٣٥]

أصدر المستشرق الإسرائيلي يوشع بوراث كتابين في منتصف السبعينات تُرجمت فيما بعد إلى الإنجليزية تناول فيهما ظهور وتاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية بين العامين ١٩١٨ و ١٩٣٩ .[٣٦] وكان هو أوّل من أشار إلى سكان فلسطين قبل ١٩٤٨ بالفلسطينيين ، وكان ذلك بلا شكّ أمرًا غير مألوف . فرغم ما قالته جولدا مائير مرّة في عبارتها المشهورة عن عدم وجود شيءٍ يدعى الشعب الفلسطيني ، إلا أنّه ما يزال يشار إليهم بالفلسطينيين في معظم النقاشات الدائرة حولهم حتى في الفترة السابقة للعام ١٩٤٨ .

ويظهر الفلسطينيون في كتاب بوراث كسياسيين من دون نفوذ ينتمون إلى مجتمع قبليّ وغير مهتمين إلا بما يروق لهم ولا يوحّدهم سوى رفضهم للصهيونية . وتقدم كتب بوراث حالة دراسة يمكن تناولها من خلال النموذج الذي طرحه إدوَرد سعيد حول الاستشراق الغربي . فرغم الاعتراف في هذه الكتب بوجود الفلسطينيين كشعب قبل العام ١٩٤٨ ، إلا أنّهم يوصفون في الوقت ذاته بأنهم بدائيون مدفوعون بتقاليدهم وتعصبهم الديني مع وجود نخبة مدنية مخادعة منهم . ولا تجد في مثل هذه الكتب أي إشارة إلى الفكرةِ المقابلة والتي مفادها أنّ الفلسطينيين ، على الأقل من وجهة نظرهم هم ، كانوا يقاومون حركة استعمارية .

كتب يهوشافاط هركابي ، وهو أحد قادة جهاز الاستخبارات العسكرية في إسرائيل خلال الخمسينات وانتقل فيما بعد إلى العمل الأكاديمي في السبعينات ، تاريخًا معاصرًا لمنظمة التحرير الفلسطينية وخلص إلى أنّها كانت منظمة إرهابية صِرفة لا همّ لها سوى تدمير دولة إسرائيل ، وهذا ما كتبه عام ١٩٧٤ قائلًا : «لقد كان تدمير دولة إسرائيل هو الغاية التي لهج القادة العرب بها ليل نهار» ، ولم يترك هذا الموقف أي مساحة للنظر في وجهات النظر المختلفة للقادة العرب بشأن الصهيونية منذ العام ١٨٨٢ .[٣٧] إلا أنّه وبعد مضيّ عقدٍ

على تسجيل هذه الآراء نحى بعض طلابه- وهو نفسه في التسعينات وقبل وفاته- إلى وضع منهجية جديدة فرّقت بين المواقف المتباينة داخل منظمة التحرير الفلسطينية فيما يتعلق بإسرائيل. وقد قام أحد طلابه ويدعى ماتي شتاينبيرج، والذي انضمّ هو الآخر إلى الميدان الأكاديمي بعد عمله في المخابرات والأمن، بتوظيف آليات نظرية لبيان أنّ البراغماتية كانت تطوّرًا حتميًا في منظمات مثل منظمة التحرير الفلسطينية، ودعا بناء على ذلك إلى فتح قنوات للحوار معها.[٣٨] وهنالك تلاميذ آخرون لهركابي كموشيه شيميش وأفراهام سيلا وشاؤول ميشال وغيرهم ممّن تبنّوا آراء مماثلة لهذا الرأي[٣٩]، وكان تحليلهم أقل جنوحًا نحو الشيطنة وأكثر وجاهةً من الناحية العلمية، خاصّة عند الحديث عن منظمة التحرير منذ تأسيسها وحتى وقتهم ذاك.

الفلسطينيون في إسرائيل: ما بين استشراقٍ وإرهاب

بدأت مجموعة من الكتّاب غير المتخصّصين بالبحث في أمر الأقلية الفلسطينية في إسرائيل تدفعهم رغبةٌ في تقديم وجهة النظر الإسرائيلية الرسمية حولهم أو رغبةٌ في استعراض شكاوى ومظالم لأفرادٍ في مجتمعهم. وقد استمرّ هذا الشكل من الكتابة، وخاصّة من قبل إسرائيليين معنيين بشكل أو بآخر بتشكيل السياسات المتعلقة بالتعامل مع الأقلية الفلسطينية. ولكن حتى المؤلّفات الأكاديمية التي ظهرت في أواخر السبعينات لم تكن خلوًا من النزعات الأيديولوجية، رغم أنّ كتّابها كانوا يعتمدون منهجية أكثر مهنيّة وكان ارتكازهم على أسس أكثر صلابة من الحقائق والمعلومات. ويمكن وصف هذه الأبحاث على وجه العموم بأنها تقع على الخطّ الفاصل بين مواقف صهيونية ومواقف مناهضة لها.

ولقد كان أولئك الباحثون والمفكّرون الذين كتبوا ضمن إطار الصهيونية معنيين بشكل خاصّ بنموذج التحديث كمنطلق أساسيّ لهم. ولو عمدنا بشكل سريع إلى تناول نعوم تشومسكي للأكاديميين وكيف أنّهم في الغرب

بشكل عام وفي الولايات المتحدة بشكل خاص ينطلقون من أيديولوجية السيطرة والتحكم ، فإننا نحصل على مثال نادر ليس على الانصياع الأكاديمي لتفسير حقائق الماضي والحاضر بالطريقة التي ترضي القويّ وحسب ، بل والاعتماد في التفسير على بنىً نظرية متينة لإثبات صحة هذه الأيديولوجيا . وبوصفهم علماء اجتماع ، فإنهم لم يكونوا مجرد متصهينين مدفوعين بالعاطفة أو المنفعة ، بل كانوا على قناعة بأنّ نظريّة التحديث قد أثبتت صحة الأيديولوجيا ، وهكذا تعزّزت تلك النظرة بخصوص الأقلية الفلسطينية في إسرائيل .(٤٠)

كان يُنظر إلى الأقلية الفلسطينية على أنّها عنصر تخريبيّ محتمل ، ولذا وضعت تحت حكم عسكري خانق . وفي غمرة الابتهاج بقيام الدولة عام ١٩٤٨ ، كان السياسيون والجنرالات الإسرائيليون الذين كانت الأقلية الفلسطينية في نظرهم «طابورًا خامسًا» وخطرًا أمنيًا داهمًا ، عازمين على إبقائهم تحت الحكم العسكري ، بل ونظروا في احتمالية طردهم بالقوة خارج الدولة .(٤١) ولكن أُذن لهذه الحال أن تتغير مع رحيل بين غورين عن الحكم ، إذ كان هذا الرجل دائم القلق والارتياب بخصوص مستقبل هذه الأقلية في الدولة ، ولكن بعد أن غاب عن المشهد السياسيّ ، قام السياسيون بإنهاء حالة الحكم العسكري التي فرضت على الأقلية الفلسطينية ، وحلّ مكان ذلك توليفة معقّدة من التمييز والاستعمار ومصادرة الحقوق .

وكان الأكاديميون عاكفين في هذه الأثناء على وضع سيناريوهات حالمة للمستقبل . فقد باتت إسرائيل في نظر نفسها والآخرين ، القوة العظمى الجديدة في المنطقة ، تبسط سيطرتها على مناطق واسعة من مصر وفلسطين وسوريا . وقد اصطبغ هذا الأمر في الساحة الأكاديميّة على أنّه مهمّة ما .

إلا أنّها لم تكن «مهمّة» سهلة . فقد كتب سامي سموحة ، أحد أهمّ الكتّاب التقدميين الذين عنوا بدراسة المجتمع الفلسطيني في إسرائيل في ذلك الوقت ما يلي :

إن التباينات الثقافية بين اليهود والعرب في إسرائيل نابعة من اختلافات جوهرية في القيم الأساسية . . . هنالك اختلافات كبرى في طرق التفكير والشخصية ودوافع الإنجاز وأنماط المتعة والتسلية ، إلخ .(٤٢)

أي إنّ المجتمع اليهودي كان مجتمعًا تقدميًا حديثًا بينما الأقلية الفلسطينية كانت بدائيّة لا قبل لها بالتطوّر . ومع أنّ وتيرة التحديث كانت بطيئة إلا أنها كانت تحمل معها أحد أمرين : صراع حضارات تذهب ضحيته الأقلية الفلسطينية في إسرائيل نظرًا لحالة عدم التوازن في القوى ، أو أن يتمّ دمجهم في المجتمع الإسرائيليّ . وكان سموحة يعتقد أنّ السيناريو الثاني هو الأكثر احتمالًا . ولا بدّ من أجل الإنصاف أن نذكر هنا أن سموحة في أعماله المتأخرة قد تراجع عن موقفه الجوهريّ الاستشراقيّ تجاه المجتمع الفلسطيني ملقيًا باللوم على سياسات إسرائيل التمييزية والمعضلات المستأصلة في المجتمع العربي وثقافته- ثم عاد كرّة أخرى هو وكثيرون سواه بعد العام ٢٠٠٠ إلى موقفه الأصلي الذي عبّر عنه في كتاب له عام ١٩٧٨ بعنوان : إسرائيل : التعددية والصراع والذي توصّل فيه بعد كثير جهدٍ ومحاولات للتفكير خارج الصندوق إلى أن الأقلية الفلسطينية قد تُدمج في المجتمع الإسرائيلي ، وإن بصعوبات بالغة ، وصارت هذه هي دعوته الأساسية بخصوص الأقلية الفلسطينية في إسرائيل . يمكن القول باختصار إنّه قد كانت هنالك مجموعة غير حداثية تقرّ بتفوّق المجتمع اليهودي وكانت راغبة في الاندماج معه ، إلا أنّه حال دون تحقق هذه الرغبة القوميّة العربيّة في ذلك الوقت ، والعنصرية اليهودية داخل المجتمع الإسرائيلي .(٤٣)

وتشير المقالات التي كتبها سموحة في تلك الفترة إلى أنّ الأقلية الفلسطينية في السياق الأكاديمي الإسرائيلي وخارجه كانت تعد بدائية وغير مواكبة للحداثة ، وأنهم- كما يظهر في استبيانات أجاب عليها المواطنون اليهود آنذاك- لن ينتقلوا نحو الحداثة إلا إن نزعوا عنهم فلسطينيتهم وعروبتهم .(٤٤) إن سيطرة نظرية التحديث بكونها العدسة التي ينظر من خلالها إلى الأقلية الفلسطينية قد تمكّنت واستقرّت من خلال تأثير واحد من أهم منظّري

التحديث في العالم، شموبل نوح أيسنستات، وهو الشخصية البارزة في علم الاجتماع الحديث. لقد كان طلابه في الجامعة العبرية يتخذون من الفلسطينيين في أبحاثهم حالات دراسة مثالية على المجتمع الخاضع للتحديث والتغريب، مما أضاف بعدًا أكاديميًا للتطلعات الأيديولجية للطبقة السياسية الإسرائيلية التي تسعى إلى السيطرة على هذه الأقلية الكبيرة.(٤٥) لقد انطلقوا من مسلّمة أساسية بأن المجتمع على العموم كان مجتمعًا تقليديًا تم تحديثه من خلال دمجه في دولة إسرائيل. ولكي نكون أكثر دقّة، لقد كان ينظر إلى هذا المجتمع على أنه في حالة «انتقالية» من التقليدية إلى الحداثة. وقد كان أولئك الأكاديميون يبحثون عن أدلة كمّية لهذا التحول في المجتمع العربي تدل على تبنّيه للأسلوب الغربي في الحياة.

كما اعتمدت هذه المنهجية أيضًا على اليهود المزراحيين. فكلا المجتمعين كانا موضوع دراسة مثاليًا لتتبع قضية التحديث والتغريب وكدليل على التطبيق الناجح لمثل هذه المشاريع. وبناء على ذلك عزى علماء الاجتماع الإسرائيليون ظاهرة انخفاض معدلات الإنجاب لدى اليهود المزراحيين بعد وصولهم إلى إسرائيل إلى «تبنيهم لأنماط الحياة الغربية في الإنجاب»، وهذا ما خلّصهم من البقاء في براثن البدائية والفاقة. ثم نظروا إلى ما أعقب ذلك من زيادة في نسبة الإنجاب بينهم على أنّه إخفاق مخيّب للآمال لعملية التحديث بين بعض اليهود المزراحيين.(٤٦)

كان لمثل هذه المدرسة من التفكير أتباع كثر تابعوا النظر في قضية التحديث مع التركيز بشكل أكبر على الفرص التي تمتلكها الأقليّات للسّير نحو الاصطباغ بالصبغة الإسرائيلية بدلًا من الفلسطينية. لقد كان النجاح في عملية التغريب يعني في نظرهم القبول الجمعي لكون هؤلاء الناس قد صاروا جزءاً من الدولة اليهودية، بينما كان يعدّ تمسّكهم بالهويّة الوطنيّة الفلسطينية دلالة على الفشل. وقد تمثلت مشكلة هذه المنهجية أنه لم يكن من الواضح تمامًا إن كانت الطبقة السياسية في إسرائيل راغبة حقًا في دمج الفلسطينيين تمامًا في دولتهم

اليهودية : فالعديد منهم كانوا يحملون فكرة عن دولة يهودية ذات صبغة يهودية خالصة ، بل وقد كان هنالك تخوّف من قبلهم بأنّ النجاح في عملية تحديث هؤلاء الفلسطينيين ستؤدي إلى نتيجة عكسية فيزداد عدد الفلسطينيين العرب في دولة إسرائيل . وكما كان معروفًا لدى المنظّرين بين هؤلاء الباحثين أنّه في حال تحديث مجتمع ما فإن ذلك يتضمّن بالضرورة زيادة انخراطهم في القضايا السياسية وانتمائهم الوطنيّ . وهكذا نشأ نموذج عجيب لعملية التحديث ، يكون فيها اعتراف الفلسطينيين بإسرائيل دولة يهودية نتيجة إيجابية من جهة ، ولكنّها قد تكون سلبيّة إن ولّدت بين الفلسطينيين في إسرائيل دافعًا للمضيّ في نضالهم باسم الوطنية الفلسطينية ومناهضة الصهيونية في الدولة التي يعيشون فيها .

لهذا وُضِعَت في سبعينات القرن الماضي منهجيّة أخرى أكثر تحفظًا من قبل مجموعة من علماء الأنثروبولوجيا في إسرائيل ، والذين شاركوا أقرانهم في معظم الحقول المختصة بدراسات الشرق الأوسط في رفض التحديث المستمر الذي انعكس سلبًا على المناطق القرويّة وإهمال تطوير البنية التحتية في مناطق أخرى . بيدّ أنّ معظم الجهود الأنثروبولوجية السائدة قد تعرضت لانتقادات شديدة من المفكرين غير الصهاينة ، وهي انتقادات ذات وجاهةٍ في عدد من الحالات . لقد أنشأ هؤلاء الأنثروبولوجيون علاقات طيبة مع الفلسطينيين أنفسهم ، وتعلموا العربية بشكل جيّد ، وصاروا في بعض الأحيان على علاقة وثيقة جدًا بالثقافة والمنطقة . ثم وصل الأمر إلى نبذهم ونعتهم بالخونة خلال نوبة النيو-صهيونيّة التي بدأت في العام ٢٠٠٠ وما تزال مستمرة حتى يومنا هذا .

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ منهجية التحديث هذه ما تزال تطبق ، وإن بشكل هامشيّ ، في عدد من الأبحاث على الفلسطينيين المقيمين في إسرائيل ، رغم أنّه قد تمّ التصدّي لمثل هذه الدراسات ، بدءاً من السبعينات ، من قبل فلسطينيين يجرون أبحاثهم في الخارج ، بالإضافة إلى غيرهم من الباحثين

المهتمّين بالقضيّة والذين أدركوا القيمة التي تنضوي عليها هذه الحالة.[٤٧] عنصر واحد كان غائبًا بالكليّة في جميع البحوث الاجتماعية المتعلقة بالأقلية الفلسطينية في إسرائيل ألا وهو تاريخ هؤلاء الفلسطينيين: كيف أنّ سكّان الأرض الأصليين بعد أن كانوا الأغلبية صاروا أقليّة؟ إنّ كلا الروايتين الرسميتين الفلسطينية والإسرائيلية على السواء تربط مشكلة اللاجئين بالأحداث التي وقعت عام ١٩٤٨، أما هذا المجتمع الذي صار أقليّة، والذي يشكّل ١٠٪ من الفلسطينيين الذين كانوا في فلسطين خلال الانتداب، صاروا نسيًا منسيًا وكأنّ ما جرى عام ١٩٤٨ أمرٌ لا يخصّهم.

لم يقتصر الأمر على إغفال دور الفلسطينيين في إسرائيل عام ١٩٤٨، بل إنّ القضيّة برمّتها وما تشتمل عليه من أحداث تاريخية صُوِّرت ورويت بطريقة مغايرة تمامًا. وأضحت الرواية الصهيونية لأحداث ١٩٤٨ وإنكار أي معاناة لحقت بالفلسطينيين أساسًا لفكرة إسرائيل واستمرّ ذلك حتى التسعينات حين ظهرت محاولات لتفنيد هذه الرؤية، وحين أفشلت هذه المحاولات، عاد المجتمع والدولة إلى التأكيد على الرواية الصهيونية حول عام ١٩٤٨ وإنكار ذلك من قبل الفلسطينيين.

إن ما حدث عام ١٩٤٨ هو جوهر قصّة إسرائيل باعتباره نهاية مخاضِ ألفَي عامٍ من النّفي والحياة البائسة والتعرض لخطر الإبادة من جهة، وإحياء ونهضة وقصّة نجاح لليهود الذين حُبوا بفضيلتي الحداثة والتحرر في وطنهم. إن التعامل مع هذا الأمر بوصفه حكايةً أو تلفيقًا على مستوى العالم سيشكّل أكبر تحدّ يمكن تصوّره للأساس الأخلاقي وشرعيّة فكرة إسرائيل بأسرها.

الفصل الثالث
الحرب عام ١٩٤٨ بالكلمة والصورة

إن انتصار إسرائيل في الحرب لمعجزة أجرتها قوّة خالدة ، منحة من ربّ لم يتخلّ عن شعبه في ساعة كانوا في حاجته . ففي نظر جيل شهد تدمير الحضارة اليهودية العظيمة في أوروبا ، كان هذا النصر تسليةً من الربّ لشعبه . . . إن هذا عصر جديد لأبناء إسرائيل ليعيشوا هناءة حريتهم في وطنهم .

لقد كنا نشاهد المعجزة العظيمة لبعث إسرائيل عيانًا . إننا نشهد ظفر جيش إسرائيل الذي يدخل في حرب بعد أخرى في مواجهة أعداءه وما أكثرهم . إنّها روح المكابيين الذين جابهوا اليونانيين في الزمان الحالي . لقد سكنّا في كل بقعة من الأرض المقدسة .[١]

نيتانيل لورش ، مؤرّخ

هذا الكلام موجود في كتاب تاريخ يتناول أحداث عام ١٩٤٨ ، وهو الكتاب الذي كان النصّ الأكاديمي الأساسيّ في إسرائيل لسنوات عديدة وعنوانه : «حدّ السيف» . إنّ هذا الكتاب رغمَ أنّه علماني في منهجه إلا أنّه يتعرض للاحتمال الذي يذهب إلى أن نتيجة هذه الحرب كانت أمرًا إلهيًا . ويعطينا هذا الكتاب تصوّرًا عن طريقة تناول وعرض هذه الحرب في الأقسام الأكاديمية المسؤولة عن تدريس التاريخ الصهيوني . فقد كانت أحداث عام ١٩٤٨ في هذه الأقسام حلقة من سلسلة أحداث غائيّة من البعث ونهوض الشعب اليهوديّ .

ولهذا كان دور المؤرّخ مقتصرًا على إعادة بناء هذه المعجزة التي كانت نقطة البدء فيها صعود الحركة الوطنية في ثمانينات القرن التاسع عشر وانتهت بحرب «التحرير» ضد بريطانيا عام ١٩٤٨ . إنّ المصطلحات الإسرائيلية المستخدمة لوصف هذه الحرب قد صيغت بهدف إظهارها على أنها حركة من حركات التحرير في العالم الثالث وليست حربًا ضدّ الفلسطينيين . فالمصطلحان اللذان سبق ذكرهما لحرب ١٩٤٨ لا يشيران إلى أي صراع مباشر مع الفلسطينيين أو الدول العربية المجاورة ، بل نراها تركّز على وصفها بأنها «استقلال» عن الإنجليز (azma ut) ، و «تحرر» من عبوديّة الشتات (shihrur) .

هذا لا يعني بطبيعة الحال أنّه لم يرد ذكر للعرب في التأريخ الصهيوني للحرب . كل ما في الأمر هو أنّه عند ذكر ما جرى عام ١٩٤٨ أو ما سبقه خلال حكم الانتداب ، وإجراء البحوث حول ذلك وتدريسه للطلاب ، يشار إلى العرب على أنّهم محنةٌ أخرى أضيفت إلى ما عاناه اليهود في تلك الفترة . لقد كانت هنالك رسالة واضحة مفادها أن اليهود في فلسطين قد انتصروا رغم كل المصاعب والتحدّيات ، وأنّ حالةً من انعدام التوازن كانت واضحة كعين الشمس عام ١٩٤٨ ، فالمجتمع اليهودي الذي تشكّل من بقايا ناجين من الهولوكوست حاربوا بشقّ الأنفس حكومة إنجليزية ظالمة ودولًا عربيّة توحّدت فيما بينها في حرب إبادةٍ ضدّهم . وهكذا إذن يظهر النصر على أنّه معجزة تحقّقت بفضل عبقرية ديفد بن غوريُن وبطولة الجنود الذين حاربوا على أرض المعركة . ولم يتبقّ أمام المؤرخين سوى أن يعيدوا رسم الأحداث البطولية في المعارك والعكوف على تحليل القرارات الإستراتيجية للقيادة التي مهّدت لتحقّق المعجزة .(٢)

إنّ مهمة تقصّي ووصف الجانب العربي من القصة قد أوكلت إلى جهابذة المؤرخين الإسرائيليين المستشرقين . ولقد كان هؤلاء المؤرخون على العموم أكثر حيادية في بحوثهم بالمقارنة مع زملائهم في أقسام الدراسات اليهودية ، إلا أنّ معظمهم أيضًا لم يكن مكترثًا لا بالفلسطينيين ولا بحرب عام ١٩٤٨ . بل إنّ

أهم شخصية بينهم ، وهو يشوع بوراث ، والذي كان كما سبق أن ذكرنا في الفصل السابق أول من قدم نظرة إسرائيلية متوازنة عن الفلسطينيين ، لم يتطرّق لحرب ٤٨ مطلقًا ، واكتفى بذكر التاريخ الفلسطيني حتى العام ١٩٣٩ ، ولم يكن معنيًا بما وراء ذلك .[٣] أما أولئك القلّة من المستشرقين الإسرائيليين الذين كتبوا عن حرب ١٩٤٨ فقد تجنبوا تصوير النكبة على أنها مأساة إنسانية أو وطنية ، ولم يظهروا في كتاباتهم أي إدراك لأثر هذه الحرب على الجانب الفلسطيني . بل تراهم عوضًا عن ذلك يركّزون على المناورات السياسية والعسكرية في العالم العربي خارج فلسطين قبل الحرب وبعدها . وبالطريقة نفسها ، حين عمدت مجموعة من المستشرقين الجدد إلى النظر في منظمة التحرير الفلسطينية فإنهم تجنبوا (باستثناء موشيه شميش[٤]) أن يتخذوا من العام ١٩٤٨ نقطة بداية لهم في بحوثهم . وهكذا شُطب فلسطينيّو عام ١٩٤٨ من الخطاب الأكاديميّ الإسرائيليّ .

إنّ غياب أيّ ذكر للمأساة الفلسطينية في كتب التاريخ الإسرائيلية كان مؤشرًا لنظرة استشراقية إسرائيلية أكثر شمولًا . لقد كانت النظرة التأريخية عن الفلسطينيين حتى ثمانينات القرن العشرين نظرة أحادية وقائمة على خلق الصور النمطية . فلم يُذكر السكان المحليون الذين كانوا في أيام العثمانيين إلاّ ذكرًا عابرًا كعنصر غير ذي بال في المشهد الجغرافي في الأرض الموعودة الخالية التي تنتظر من يستخلصها . أما بين العامين ١٩٤٨ و١٩٦٧ ، فقد سقطَ ذكر الفلسطينيين كذلك كموضوع أكاديمي باستثناء ذكرهم في بعض الأحيان بوصفهم لاجئين . أما بعد العام ١٩٦٧ فقد ألحق بهم وصف الإرهابيين ، كما أسلفنا في الفصل السابق . ولكن حتى في هذا الوصف لم يكن الحديث عن الفلسطينيين باعتبار أنهم طرف مستقلّ قائم بذاته ، وإنما كانوا يظهرون على أنّهم أدواتٌ تستخدم من قبل الأنظمة العربية للقضاء على الدولة اليهوديّة .

لا شكّ أنّ لهذا الأمر ما يسوّغه لديهم . فالاعتراف بوجود مستقلّ للفلسطينيين (وإن كان وجودًا ضعيفًا وصغيرًا) كمجموعة من الناس أصحاب

وطن يكافحون من أجل حقوقهم هو أمر يتناقض مع صورة الصهيوني عن نفسه بأنه المستضعف، كما يتناقض مع الأسطورة الصهيونية التي تدّعي أنّ فئة قليلة من اليهود تغلّبوا بشكل عجائبيّ على الكثرة. إن التاريخ الصهيوني البطولي الذي وضع عن العام ١٩٤٨ ينضوي على تناقض داخلي واحد على الأقل من شأنه أن يقلقل، ولو لحين، قناعة أولئك الموالين للصهيونية الذين بذلوا جهدهم في إعادة بناء الأحداث عام ١٩٤٨ من دون الإخلال بالأساطير المؤسسة التي تتكؤ عليها تلك الأحداث. إن كان الفلسطينيون قد تركوا أرضهم دون قتال، فما وجه البطولة إذن فيما حدث عام ١٩٤٨؟ فالقصّة وإن لم تكن دالّة على بطولة فلسطينية فإنّها تدلّ على الأقل على مأساة فلسطينية. ولذا كان أفضل وسيلة للتعامل مع هذا التناقض أكاديميًا هو إسقاط العنصر الفلسطينيّ من القصّة برمّته، وإتباع ذلك إن أمكن بإضفاء القدسيّة والانصياع للأيديولوجيا وتاريخ أحداث عام ١٩٤٨ معًا.

أما من تعاملوا مع الفلسطينيين والدول العربية في سياق حرب ١٩٤٨ فقد اكتفوا بتسليط الضوء على الدوافع، أو قل غياب الدوافع «المنطقية» التي تسوّغ ما فعله العرب في تلك السنة. إذ يظهر العرب على أنّهم مدفوعون بعواطف تستعصي على أي تفسير منطقي. والنتيجة أنّه ليس مفهومًا لديهم سبب إقدام العرب على شنّ حرب على إسرائيل عام ١٩٤٨. فهنالك بعض الكتب التاريخية مثل كتاب «تاريخ البعث» (١٩٥٩)، والذي أعدّ من قبل القسم التاريخي في جيش الدفاع الإسرائيلي، و«تاريخ حرب الاستقلال» (١٩٦٣) والذي كتبه نيتانيل لورش، بالإضافة إلى الكتاب الشهير لجون وديفِد كيمش بعنوان «على جانبي التلّة» (١٩٧٣) والمقدمات والحواشي على كتاب ديفد بن غوريُن «مذكرات حرب ١٩٤٨» (١٩٨٤) والتي تقدّم التفسير عينه، وأقصد هنا غياب أي تفسير لما حصل.(٥) فقد أشار بن غوريُن مثلًا في مذكراته قائلًا: «لم يكد إعلان التقسيم يصدر عن المجتمعين في ليك سكسيس (وهو المكان الذي تمّ فيه اعتماد قرار التقسيم في الأمم المتحدة) حتى اندلعت القلاقل في

الدولة» .[٦] كانت هذه إذن هي الطريقة التي تُصوّر فيها الأمور : كانت المشاكل تظهر فجأة هكذا بلا سبب وصار العرب يعتدون على اليهود ، هذا كل ما حدث . وبعدها عرف أصل هذه «المشاكل» : هجمات سببها كراهية لا سبيل لفهمها تضطر القوات اليهودية إلى الدفاع عن نفسها بشجاعة وعزيمة .

إن الشرّ الذي لا تفكّ مغاليقه ولا يفهم أصله يكون أكثر وحشيّة من سواه . لقد وصفت كل العمليات التي قام بها العرب ، وذلك في السجلات التاريخية الرسميّة حتى العام ١٩٨٢ ، ومنذ بداية الألفية الثالثة حتى الآن ، بالإجرامية وأنها عمليات قتل عشوائية وأفعال همجيّة يقترفها موتى القلوب والمتعطّشون للدم . وقد بات هذا العنف غير المفهوم في عرف الأكاديميين سمةً أساسيّة لثقافة العرب وعيشهم . والحقيقة الصادمة أنّ هذا الوصف قد ورد مِرارًا كما هو في الجزء السادس من الموسوعة العبريّة (وهي المرادف الإسرائيلي للموسوعة البريطانيّة) في الموضوعات المتعلقة بحرب عام ١٩٤٨ والمواجهات التي سبقتها بين العرب واليهود خلال الانتداب .[٧] وقد خصّص الجزء السادس من الموسوعة لأرض إسرائيل (Eretz Israel) ولم تجرِ عليه سوى مراجعة بسيطة في السنوات الماضية . كل ما ورد من حديث عن تلك الفترة في هذه الموسوعة وما تخللها من أعمال مقاومة فلسطينية ضد الصهيونية في مفاصل تاريخية مهمّة كأحداث عام ١٩٢٠ و١٩٢٩ و١٩٣٦ و١٩٤٨ قد اختزل في أنّها أعمال ناجمة عن تحريض لعصابةٍ من الناس لا تملك رأيًا لها ولا تحرّكها غاية واضحة .[٨] وتتكرر فكرة «العصابة الخاضعة للتحريض» في الموسوعة وتظهر على أنّها السلاح الذي استخدمه المسؤولون الإنجليز المعادون للصهيونية أو المتشددون من وجهاء المسلمين بهدف تدمير الدولة اليهودية القادمة ووأدها . ولم ترد أدنى إشارة إلى أنّ الفلسطينيين إنما يبتغون الدفاع عن أرضهم أو أنّهم يشكّلون حركة وطنيّة تناضل من أجل الاستقلال .

أمّا فيما يتعلق بالعنف الإسرائيليّ ، فكان هنالك تفريق واضح بين القوّات اليهودية النظاميّة والمجموعات المنشقّة الأخرى . فقد كانت هنالك عشيّة حرب

١٩٤٨ ثلاث منظّمات مسلّحة غير نظاميّة تقف في خدمة المجتمع اليهوديّ. أكبرها هي الهاغانا والتي أنشأت عام ١٩٢٠ ، وقد كانت قريبة أيديولوجيا من حركة العمّال والتي سيطرت على الحياة السياسية في المجتمع اليهودي قبل عام ١٩٤٨ وبقيت مسيطرة على مدار ٣٠ عامًا بعد تأسيس الدولة . أما المنظمة الثانية فهي الأرغون ، والتي تشكّلت عام ١٩٣١ على يد ضبّاط في الهاغانا انشقوا عن المنظمة الأم لأنّها في رأيهم تميل إلى العمليات الدفاعية أكثر من العمليات الهجوميّة . وكانت هذه المنظمة مرتبطة مع حركة المراجعة اليهودية والتي أصبحت فيما بعد حزب حيروت في الدولة الجديدة ، وكان على رأس هذا الحزب مناحيم بيغن . عمدت هذه المنظمة منذ وقتٍ مبكّر في الثلاثينات إلى استهداف القوات البريطانية والسكان الفلسطينيين . أمّا الثالثة ، فهي عصابة شتيرن ، والتي أنشأها في العام ١٩٤٠ بعض الأشخاص الذين انشقّوا عن منظمة الأرغون ، لأنّها لم تكن في نظرهم حازمة بما يكفي في صراعها ضد أعدائها في المجتمع .

شهد العام ١٩٤٥ تأسيس منظمة جامعة للمجموعات اليهودية غير النظاميّة وذلك بغيةَ وضع إستراتيجية مشتركة تعمل هذه المنظمات الثلاثة وفقها . ورغم ذلك فإنّ جيش الدفاع الإسرائيلي حينَ تم تشكيله رسميًا في ٢٦ أيار ١٩٤٨ فإنّه لم يقبل في صفوفه سوى من كانوا في الهاغانا ، ثم انضمّت إليه بعد عدة أيام منظّمة مناحيم بيغن وعصابة شتيرن ، واللتان استمرّتا خلال الحرب بالعمل بشكل مستقل عن الجيش في المنطقة المحيطة بالقدس . ولهذا فإنّه وخلال المراحل الحرجة في الحرب وأثناء عمليات طرد السكّان من المناطق المدنية وكثير من المناطق الريفيّة من قبل القوات الصهيونية كانت المجموعتان المنشقّتان تعملان ميدانيًا مستقلّتين عن الجيش .

كانت الغالبية العظمى من المؤرخين الذين تناولوا حرب ١٩٤٨ سواء قبل ظهور حركة المراجعة التاريخية أو بعدها تنتمي للحركة العمّالية ، والتي كانت مسؤولة عن التطهير العرقيّ الذي جرى في فلسطين عام ١٩٤٨ . فحينما ثارت

الشكوك في البداية بشأن مدى أخلاقيّة هذه السياسة برزَ على السّاحة تمايز تامّ وفصل واضح قرّرت الهاغانا بناء عليه ألاّ تنخرط هي في العنف بداعي العنف، وأنّ أي فظائع تحدث يكون قد ارتكبتها المنظمات المنشقّة الأخرى. ويتّضح هذا الأمر جليًا في عمل مؤرّخة صهيونيّة بارزة وهي أنيتا شابيرا. ففي كتابها الموسوم «السير مع الأفق» (١٩٨٨) تقول:

لم تكن القابلية للجوء إلى العنف ضد العرب في أرض إسرائيل أو حتى البريطانيين أمرًا غير مأخوذ بالاعتبار. فإن حصلَ ذلك ترتّبَ عليه شقاقٌ كبير وتأنيب كبير للضمير. ومع هذا فإن سحرَ الشرّ كان جاذبًا لعدد من الناس، وكان استخدام العنف في الأوقات الحرجة يجد تسويغًا من البعض باستخدام حجج ذات طابع اشتراكيّ.(٩)

لمً يكن منً الصعب على شابيرا أن تصل إلى هذه النتيجة نظرًا إلى أنّ التاريخ الذي تتّكئ عليه في معرفة اللجوء إلى العنف من قبل الصهيونية لا يصل إلى العام ١٩٤٨، ولهذا لا تكلفّ نفسها عناء سبر الأبعاد الأخلاقية للمشروع الصهيوني والتاريخ المبكّر لدولة إسرائيل. ويتكرّر إغفال هذه الأبعاد في السلوك اليهودي أثناء الحرب في الكتب التاريخية التي كتبت قبل ذلك في إسرائيل. فالقصص التي توثّق معارك حرب ١٩٤٨ معنيّة بالحديث عن الأبطال الذين تصدّوا للأشرار من العرب، وكانت هذه البطولة هي السمة الأبرز للتاريخ اليهودي على تعاقب الأزمان.

وضعَ بين تسيون دينور مقدّمة في تاريخ الهاغانا مشهورة ومفصّلة بشكل كبير، يعيد فيها إنتاج أسطورة البطولة والخلاص التي جاء بها من قبله من المؤرخين الصهاينة. وعلى غرار ما فعلوا، قام دينور بالجمع بين حكايا الأيام العظيمة للملك داود، وثورة بار كوخبا ضد الرومان، وبطولات غيتو وارسو(*) ووضعها في خطّ واحد مع ما قام به المجتمع اليهودي عام ١٩٤٨.(١٠) وقد

(*) انتفاضة اندلعت في غيتو اليهود في وارسو ضد النازيين عام ١٩٤٤. (المترجم)

ترسّخت هذه الصورة في تلك الفترة من خلال إنشاء معاهد أكاديمية تحمل أسماء بعض الشخصيات التي شاركت في الحرب من ياد تابينكين و ياد بين تسفي ، وإنشاء المتاحف التي تخلّد هذه الذكرى مثل متحف الهاغانا . ففي متحف ياد فاشيم لتاريخ الهولوكوست في القدس ،يؤخذ الزوار المدعوّون والمعجبون (وعادةً ما يكونون من الشخصيات المهمّة) في جولة خاصّة مع المرشد تبدأ من معسكرات الإبادة وصولًا إلى انتفاضة وارسو وانتهاء بملحمة الثأر البطولية عام ١٩٤٨ حين لقي العرب جزاء ما فعل النازيّون لليهود . وبقي الأمر على هذه الصورة حتى ظهور حركة «المؤرخين الجدد» في التسعينات من القرن الماضي والتي ما تعاملت مع حرب ١٩٤٨ باعتبار أنّها قصّة بطولة ، متجنّبة في الوقت ذاته الحديث عن مصادر العنف أو ضحاياه .

ففي عام ١٩٧٦ خصّصت الدوريّة الأكاديميّة كاثيدرا (Cathedra) إصدارها الأول لمناقشة التحركات العسكرية في حرب ,١٩٤٨ ورغم أنّ البحث جاء بعد انقضاء قرابة ثلاثين عامًا على الحرب ، إلا أنّه لم يثر أية تساؤلات تاريخية جديدة ، ولم يعدُ أن يكون صدىً لما تردد في كتب التاريخ الرسمية التي نشرتها وزارة الدفاع الإسرائيلية عقبَ الحرب .(١١) ورغمَ ذلك يتمّ التركيز على الطبيعة التأريخية للبحث والذي كان دائرًا حول هذه الأسئلة : من أول ضابط إسرائيلي نادى على جنوده قائلًا : «اتبعوني»؟ كم استمرّت الحرب (مع أنّ هذا السؤال يخرج من نطاق التأريخ لو كان الحديث عن حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧)؟ ما المراحل المختلفة التي مرّت بها الحرب؟ هل كانت الحرب حملة واحدة في صراع أوسع أم أنه حلقة منفصلة واستثناء تاريخي؟ هل تندرج هذه الحرب في نطاق تاريخ الحروب العملياتية أم التكتيكية؟ والسؤال الأخير ، كيف مُوّلت هذه الحرب؟

للسؤال الأول اعتبار خاص ومهمّ : من الذي نادى للقتال وأصدر الأمر بالمشاركة في المعركة؟ لقد كانت الإجابة على هذا السؤال تنضوي على بحث في البطولة يتراوح بين غزل القصص ورواية الأساطير من جهة ، وإجراء بحث

من المفترض أنّه محايد وعلميّ من جهة أخرى . إن عبارة «اتبعوني» هي شعارٌ أكثر من كونِها أيَّ أمرٍ آخر ، وهي ليست جزءاً مما حدث فعلًا في الميدان ، وليست ثابتًا أنّ أحدًا ما قد قالها في أرض المعركة فعلًا .

وقد تماهت الحدود مرةً أخرى بين الأكاديمي والأسطوري عام ١٩٨٥ حين قامت مجلّة إسرائيلية أخرى تدعى هاتزيونوت (Hatzionut) باستخدام لغة دينيّة بدلًا من اللغة الأكاديمية . ففي مقال بعنوان «نبوءة الدولة اليهودية وتحققها» ادّعى الكاتب أنّ نجاح الحركة الصهيونية في تأسيس دولة في فلسطين أمرٌ يتجاوز التحليل المنطقي والتفسير العقلانيّ . لقد كان حتمًا على هذا المشروع أن يفشل ، إلا أنّه نجح بطريقة تكاد تكون معجزة حقيقيّة . إنّ هذا التأكيد مشابه للاقتباس الذي ورد عن نيتانيل لورش في مستهل هذا الفصل . وهذه الفكرة لا تعني بالضرورة أنّ الكاتب يعتقد أنّ قوّة سماويّة تدخّلت واجترحت هذا النّصر كما يعتقد بعض العلماء المتدينين ، ولكنّه يرمي إلى أنّ قلّة استثنائية من البشر قد تحدّوا التاريخ والأقدار متكبّدين كل الصعاب سعيًا لتحقيق القدر المتجلّي .(١٢)

وهكذا يظهر بوضوح بالغ كيف أنّ الوصف الأكاديمي الكلاسيكي لحرب ١٩٤٨ تشكّل من عدد من الأساطير الأساسيّة . أهمّ أسطورة من بينها هي أنّ المجتمع اليهودي كان عرضةً للإبادة الكاملة عام ١٩٤٨ ، وهو الخطر الذي قامَ على أساس وجوده كل ما لحق من أعمال وكان مسوّغًا جاهزًا لكل ما سيحدث في المستقبل من استخدام مفرط للقوّة . أما الأسطورة الثانية ، ولعلها معروفة أكثر ، فهي حكاية داود الإسرائيلي في مواجهة جالوت العربيّ ، وهي أسطورة تظهر بشكل أساسي في صور خرائطية تنهال فيها سهام كثيفة من الجيوش العربية نحو فلسطين تواجهها مجموعات صغيرة من القوات اليهودية بالكاد ترى . ويتفق المؤرخون الإسرائيليون المختصون وغير المختصين على أنّ تحقق النصر الصهيوني في هذه المعركة كان أمرًا أقرب إلى المعجزة .

لقد كانت فرص النجاح ضئيلة إذن حسب هذه النظرة . فالسياسة

البريطانية كانت تتصرف بعدائية ضدّ اليهود وازداد الأمر سوءاً حين تولى إرنست بيفن وزارة الخارجية حينها . كثيرًا ما يوصف بيفن بأنه معاد للساميّة ، وأذكر شخصيًا حين أقدم بعض الأشخاص على حرق مجسّمات لبيفن إلى جانب مجسّمات أخرى تمثّل عبد الناصر وهتلر . وحين قام ألان بولوك وهو الذي كتب سيرة ذاتيّة عن بيفن ، بزيارة إسرائيل في الثمانينات لإلقاء مجموعة محاضرات ، أعرب عن حيرته لما وجد من كراهية متأصّلة ما تزال ضدّ بيفن . إلا أنّه وحتى قبل ظهور حركة «التاريخ الجديد» كتب لهذه الصورة أن تتغيّر . فالأبحاث في وثائق الأرشيف البريطاني والتي قام بها عدد من المؤرخين الصهاينة المتعقّلين مثل جافريل كوهين وميشال جي كوهين كشفت عن صورة أخرى لبيفن مغايرة لما وصف به من قبل وتظهر أنّه كان رجلًا براجماتيًا حصيفًا .(١٣)

ولكنّ الحكاية صارت متتالية معقّدة من العناصر المتداخلة . ففي حين كان المجتمع اليهودي يواجه أثناء حكم الانتداب (Yishuve) خطر الإبادة من قبل العرب المتوحّشين على مرأى من الإمبراطورية البريطانية وعدم مبالاة من قبل المجتمع الدوليّ ، فإنّه لم يكنْ في حالة تسمح له بالاكتراث بالسكّان الأصليين . ووفق هذه الرواية يكون السكّان الأصليّون قد صاروا لاجئين نتيجةً لأفعال قادتهم وقادة الدول العربية الذين نصحوهم بالمغادرة تجهّزًا لاجتياح عربيّ واسع ، كي يتمكنوا من الرجوع إلى فلسطين بعد تحريرها . ويضاف إليها أن القادة الإسرائيليين في ذلك الوقت دعوا إخوتهم من المواطنين- جيرانهم العرب- إلى عدم ترك بيوتهم ، ولكنّهم باؤوا بالفشل ولم يتمكنوا من إقناعهم .(١٤)

وتبلغ القصة منتهاها مشكّلة صورةً لحرب أخلاقيّة ، نتج عنها عبارة مشهورة متناقضة في نفسها : «طهر السلاح» . لقد كانت هذه الحرب إذن حربًا في مواجهة كل التحدّيات ضدّ أشدّ الأعداء سوءاً ، وتمخّض عنها انتصار مؤزر لجيش التزم بأسمى المعايير الأخلاقية أثناء المعركة وبعدها . إن «الأسلحة الطاهرة» هي يهودية وحسب ، وليستْ موجّهةً إلا للدّفاع ، وليس هدفها الأذيّة

الدائمة للعدوّ ، بل إنّ من شأنها أن تجعل العدو إنسانًا أفضل . إن الأفلام التي أنتجت في إسرائيل حتى ثمانينات القرن الماضي قد أتقنت نقل هذه الأفكار وبطريقة مباشرة إلى حدّ كبير .

فيلم رعب للأطفال: ١٩٤٨ في السينما

كان كتاب ألبوم السينما (The Cinema Album) والذي أشرف على تحريره ديفد جرينبيرغ في أواخر الستينات إحدى المحاولات الأولى لتلخيص تاريخ السينما الإسرائيلية . وقد صرّح جرينبيرغ أنه حتى العام ١٩٦٧ كانت جميع الأفلام التي تناولت حرب ١٩٤٨ قد أنتجت من قبل أجانب فشلوا في فهم المعنى الكامل لتلك الفترة المجيدة ، ولكنّهم ساعدوا رغم ذلك في الترويج لها عالميًا . ما زال هذا الموضوع في حاجة لُمخرج إسرائيلي يتناوله من زاوية جديدة في فيلم يرقى لتطلّعات متابعي دور السينما في إسرائيل .(١٥)

ومع أنّ جرينبيرغ نفسه يشير إلى أنّ مرتادي السينما في إسرائيل يميلون إلى أفلام أكثر واقعية ولا يحبّذون تجميل الحرب إلا أنّه يصعب تقديم دليل على صحّة ذلك . فقد استمرت شركات الإنتاج في تقديم أفلام عن الحرب سواء سينمائية أو وثائقية ، وبطريقة مثاليّة كما فعل من قبلهم المنتجون الأجانب .

وكان ما كتبته نوريث جيرتز من أهمّ الأعمال التي تناولت هذه الفترة . ففي مجموعة من المقالات وفي كتابها الوحيد الذي ظهر بالإنجليزية بعنوان «خربة خزعة وتالي الصّباح» ذهبت جيرتز إلى أن السينما الإسرائيلية في الستينات كانت ما تزال من الأدوات المستخدمة لترسيخ القومية والصهيونية والبطولة اليهودية ، حيث كان الجنود وعملياتهم الباسلة محور الإنتاج السينمائي .(١٦) لقد كان التعامل مع السينما كوسيلة للحملات الوطنية ، بل إنّ المسؤولين الذين وضعتهم الدولة لمراقبة وتشجيع الإنتاج السينمائي المحليّ تعهّدوا بتقديم المساعدة «للأفلام التعليمية والبنّاءة التي من شأنها أن تعكس التوجّهات الإسرائيلية .»(١٧)

لقد ركّزت الأفلام في تلك الفترة كما تشير إيلا شوحاط على الأبطال الإسرائيليين وجميعهم من اليهود المولودين في فلسطين (Sabras) أو من الكيبوتسات أو الجنود. وقد اتّكأ الكثير من هذه الأفلام على الصراع العربي الإسرائيلي كتمهيد لقصة إسرائيليّ أو مجموعة من الإسرائيليين يحاربون عددًا كبيرًا من العرب، ممثلين في ذلك صراع إسرائيل ضد العالم العربي. من بين هذه الأفلام فيلم بعنوان «لا جواب من التلّ ٢٤» (١٩٥٥)، و«يا لها من عصابة» (١٩٦٣)، و«خمسة أيام في سيناء» (١٩٦٩)، وجميعها كانت تدور حول قصة بطولة فردية في مواجهة عدوان العرب ووحشيتهم. وكان الجنود الصهاينة في كثير من هذه الأفلام يلقون حتفهم، وبعض هذه الأفلام أدرج المقولة الإسرائيلية الشهيرة التي صارت تتردد في خطاب السياسيين كافّة في يوم تذكر جنود إسرائيل وضحايا الإرهاب (Yom HaZikaron): «وهبونا في موتهم الحياة».

واستمرّ الأمر على هذه الشاكلة حتى الثمانينات، فكان كل فيلم تقريبًا متماشيًا مع الأيديولوجيّة الصهيونيّة. لقد قامت السينما بإعادة تشكيل أسطورة الحرب وتعزيزها كما أنّها نجحت في المقابل في الحفاظ على الصورة النمطية السلبية عن العرب. وبسبب العنصر البصري الذي توفّره السينما من جانب، والمتطلبات الدعائية في هذا المجال من جانب آخر، كانت المواجهة مع العرب أكثر تكثيفًا وحدّة من أيّ سياق آخر (ربما باستثناء أدب الأطفال).

وفي هذه الأفلام قلّما يظهر العرب، وإن ظهروا فإننا لا نعرف شيئًا عنهم، ويبقون مجهولين. ولهذا نرى مثلًا أن فيلمًا حقق نجاحًا مثل «لقد مشى عبر الحقول» (١٩٦٧) رغمَ أنه يتعرض للحرب عام ١٩٤٨ إلا أنّه لا يشتمل على أي لقطة تصوّر الحرب نفسها. أما في فيلم «لا جواب من التل ٢٤» فلا يظهر العرب كذلك، مع أنّهم يذكرون في حكاية الفيلم كتهديد خفيّ. بينما يظهر حلفاء إسرائيل في الحرب، الدروز (يلعب دورهم ممثلون يهود)، بالإضافة إلى اليهود أنفسهم.

إحدى الأساطير المهمّة هي أنّ المجتمع اليهودي كان عرضة لخطر يهدّد وجوده بأكمله عشيّة حرب ١٩٤٨ ، وهذا هو موضوع الفيلم «لا جواب من التلة ٢٤» . يستهل الفيلم بمشهد يظهر خريطة إسرائيل الإستراتيجية ، يرافق ذلك حكاية توضّح حركة القوّات اليهودية أثناء الصراع . وتظهر على الخريطة أسهم تشير إلى هجوم وشيك تشنّه الدول العربية مجتمعة على اليهود وتصبح الدولة بأسرها وكأنها تحت الحصار .[١٨] وكان الفيلم دراما وثائقية بتمثيل كامل . وقد ظهرت هذه الصورة لاحقا في سلسلة أطالس كارتا الإسرائيلية (Carta Atlas) وفي النسخة الحالية من أطلس مارتن غيلبرت «أطلس الصراع العربي الإسرائيلي» .[١٩]

وقد أضافت السينما بعدها الخاص بأسطورة الإبادة هذه وقامت بربط الأيديولوجية النازية بخصوص الإبادة البشرية مع مقاصد العرب عام ١٩٤٨ ، كما يظهر في أفلام من قبيل «لا جواب من التلة ٢٤» و «لقد كانوا عشرة» (١٩٦٠) ، وفيلم «الخروج» (١٩٦٠) . ومن الأمثلة الأشدّ وضوحًا وإظهارًا لهذه الفكرة فيلمٌ بعنوان «عمود اللهب» (١٩٥٩) ، وهو فيلم يختلف عن مسلسل تلفزيوني آخر يحمل نفس الاسم سنأتي على ذكره لاحقًا . يقصّ هذا الفيلم حكاية كيبوتس صغير في الجنوب يجد ساكنوه أنفسهم في مواجهة مع دبابات مصرية .[٢٠] يقوم لاري فريش وهو أمريكي يهوديّ ، بإخراج هذا الفيلم على غرار أفلام الغرب الأمريكي الكلاسيكية ، حيث تقوم مجموعة من رعاة البقر بقتال الهنود الحمر المتوحّشين ، والذين لا يظهرون في الفيلم إلا بشكل غير مباشر حين يقوم الجنود الصهاينة البواسل بإطلاق النار على أحدهم في الظلام . وفي أحد المشاهد يظهر العرب الأشرار في صور بعيدة قاتمة .[٢١]

هنالك أفلام أخرى تربط بشكل مباشر بين التهديد الذي يمثله الفلسطينيون أو العرب وذلك الذي مثّله النازيون . ففي فيلم من إنتاج إيطالي-إسرائيلي مشترك بعنوان «جوديث» (١٩٦٦) ، تقوم فيه صوفيا لورين بأداء دور زوجة

ضابط سابق في الوحدة الوقائية (SS)(*) يتم تهريبها إلى إسرائيل من قبل الهاغانا وذلك كي تساعد في كشف هويّة زوجها الذي يساعد العرب في حرب ١٩٤٨ . وتظهر هذه العلاقة كذلك في فيلم «الخروج» ، والذي تم اقتباسه من رواية ليون يوريس ، يقوم فيه خبير نازي ساديّ بالتخطيط لهجمات إجرامية ينفذها العرب على المجتمع اليهودي . كما يظهر في فيلم «لا جواب من التلة ٢٤» مشهد لجندي إسرائيلي يساعد جنديًا مصريًا جريحًا يتبيّن أنه نازيّ يتكلم الألمانيّة ويحاول قتل الجندي الإسرائيلي حين تسنح الفرصة ، ولكنّ الجنديّ مع ذلك لا يقتله وإنما يكتفي بالدفاع عن نفسه .

أمّا آمود هائيش فهي سلسلة وثائقية تلفزيونية من إخراج ييغال لوسين ، وهيَ المرّة الأولى والأخيرة التي يقوم بها تلفزيون إسرائيلي في العام ١٩٨١ بتقديم وجهة نظر معقولة للمشاهد حول السبب الذي يدعو الإسرائيليين لتسمية حرب ١٩٤٨ بحرب الاستقلال . يوصف ذلك العام بأنه ذروة النضال المناهض للاستعمار البريطاني . فقد تجرّع البريطانيون الهزيمة واضطروا حسب هذه الرواية إلى الخروج من فلسطين بعد أن فشلوا في صد المقاومة اليهودية ضدّهم . وفي الوقت ذاته تشير المصادر التاريخية المختصة إلى أنّ قرار بريطانيا الانسحاب من فلسطين يعزى إلى الانهيار الحتمي المحدّق بالإمبراطورية البريطانية . وفي هذا السياق الأوسع تم اتخاذ القرارات الإستراتيجية بناء على المعطيات المادية والإقليمية التي أدّت في نهاية المطاف إلى إنهاء الانتداب البريطاني في فلسطين .(٢٢)

ولقد كان فيلم «لقد مشى بين الحقول» الأطول من نوعه بين الأفلام التي تحدثت عن حرب ١٩٤٨ ، وهو فيلم قائم على رواية كتبها موشيه شامير . يصوّر هذا الفيلم حرب ١٩٤٨ على أنّها حرب تستهدف البريطانيين بشكل حصريّ ،

(*) الوحدة الوقائية (Schutzstaffel) وهي منظمة كانت تابعة للحزب النازي الألماني وكلفت بحماية أدولف هتلر (المترجم)

وبالكاد يظهر فيه العرب.[٢٣] يروي لنا الفيلم قصة أوري (ويؤدي دوره ابنُ موشي ديان، آصاف ديان) وهو محارب في البالماخ، وهو سلاح العاصفة في الهاغانا، وحبّه لفتاة مهاجرة. أوري ابن أحد الكيبوتسات، وهو أول طفل يولد في فلسطين في هذا الكيبوتس. يهجر أوري حبيبته كي يلتحق بقواعد التدريب القريبة من المعسكرات البريطانية في فلسطين وذلك استعداداً لمهاجمتها، إلا أنّ أوري يموت خلال التدريب. ومن شأنّ هذا الفيلم أن يوضّح لنا كيف تكون السينما قادرة على نقل حالة التهميش والإقصاء بطريقة أكثر فاعلية مما تقدّمه كتب التاريخ، وذلك بفضل العنصر البصريّ الذي تتفوّق به السينما على الكتاب.

دان وسعادية: الأسطورة بأقصى تجلياتها

إلى جانب أسطورة الإبادة تطالعنا أسطورة أخرى عن «القلّة في مواجهة الكثرة» والتي تظهر جليّة في فيلم «دان وسعادية» أكثر من أي فيلم آخر. الاسم الكامل للفيلم هو «Dan Quihote V Sa adia Pansa» وهو اسم ذو دلالات عديدة تناولتها إيلا شوحاط بتفصيل وافٍ. ما يعنيني هنا هو المعالجة السينمائية للقصة التاريخية الكلاسيكية لحرب عام ١٩٤٨.[٢٤]

تتداخل في هذا الفيلم جميع الأساطير الأساسية المتعلقة بالحرب وتتجلّى فيه من خلال قصة عن بطولة فردية لبعض اليهود في اليوم الذي استقلّت فيه إسرائيل. أنتج الفيلم عام ١٩٥٦ بإخراج ناثان أكسيلرود، وهو أحد أهم رجالات السينما الإسرائيليين الذين برزوا في السنوات الأولى من تأسيس الدولة. كما أنّ أفلامه الوثائقية التي أنتجها نالت إعجاب الكثيرين، وأهمها فيلم بعنوان «القصة الحقيقية لفلسطين» (١٩٦٢) وهو اسم مستوحىً من الصور الموجودة على قطعة النقد المعدنية التي كانت تستخدم في فلسطين فترة الانتداب. وقبل اكتشاف الدعائيات السينمائية الحديثة، كان هذا الفيلم، والذي يعدّ الممهّد للفيلم التلفزيوني الوثائقي معامل ألبان الكرمل (The Carmel

Dairies) ، يعرض قبيل كل فيلم سينمائي طويل .(٢٥)

وعادة ما يثني الأكاديميون الإسرائيليون على فيلم دان وسعادية ، وهو أول فيلم طويل لأكسيلرود ، ويصفونه بأنه من الأفلام الرائدة ، حيث إنه نأى عن استدرار العواطف الصهيونية ، بالإضافة إلى كونه واقعيًا بل وربّما ليس متماشيًا مع أيديولوجيا الدولة وعقيدتها . إلا أنّه يبقى من الناحية النقديّة يمثّل جزءًا أصيلًا من الرواية التاريخية الصهيونيّة .

الأمر ذاته ينطبق على فيلم «والتز مع بشير» (٢٠٠٨) والفيلم الوثائقي «حرّاس البوّابة» (٢٠١٢ ، ورشّح للأوسكار عام ٢٠١٣) . لقد أثار كلا الفيلمين إعجاب النقاد الصهاينة ووصفوهما بالخطوة الجريئة التي تتطلّب قدرًا عاليًا من الشجاعة ، وذلك لكون الأوّل قدّم مراجعات سينمائية عن حرب ١٩٨٢ على لبنان . أمّا الثاني فلحديثه عن الشرّ الكامن في احتلال الأراضي الفلسطينية . ويمكن في واقع الأمر النظر إلى هذه الأعمال على أنّها محاولة لقتل النّاس (من خلال الدعم والمشاركة في اجتياح إسرائيل للبنان) والمشي في جنازتهم (من خلال إظهار تأنيب الضمير والتأسف إلى أن يأتي اجتياح آخر ومن دون أن ينتهي الاحتلال في المناطق الفلسطينية) .(٢٦)

فيلم دان وسعادية يحكي قصّة دان ، وهو صبي أشكينازي يهوى قراءة القصص البوليسية ويعيش حياته في عالم هذه القصص والمغامرات ، وسعادية ، صبيّ يمنيّ يلمّع الأحذية وهو صديق لدان ويشاركه اهتماماته في الألعاب البوليسية . دان صبيّ يعرف عنه أنه مشاكس ويتسبب بالمشاكل لذا يرسله ذووه إلى مدرسة داخليّة ، وهو المكان الذي تحدث فيه معظم أحداث الفيلم . أمّا سعادية فيتسلل إلى العربة التي أخذت دان ويرافقه إلى تلك المدرسة . كل هذا حدث بعد أيام قليلة من إعلان قيام دولة إسرائيل في ١٥ أيار ١٩٤٨ وكانت الحرب قد اندلعت . وبينما يكون الطلّاب المسؤولون في المدرسة الداخلية مشغولين في جمع الأسلحة وإخفائها عن أعين المفتشين البريطانيين والتدرّب على القتال يتابع دان وسعادية ألعابهم المعتادة ، ويعثرون على صندوق مليء

بالقنابل اليدوية (دون علم منهما بمحتواه) ويقومان بإخفائه على أنّه «كنز القراصنة» .

وبسبب الخوف من هجمات العرب تمّ إخلاء المدرسة من الأطفال ، ولم يبق فيها إلاّ دان وسعادية ، والمعلمون ، والجنود.. كان المعلمون في المدرسة يخشون أن تكون الأسلحة التي جمعوها قبل الحرب غير كافية لدفع الهجمات إن حصلت . وهنا يظهر دان وسعادية ، اللذان تجنبا الخروج من المدرسة ، وأدركا أنهما بالكنز الذي دفناه قد ينقذا المجتمع اليهودي . وحين يذهبان إلى البستان حيث دفنا الصندوق يتمكنان صدفة من الاستماع إلى اجتماع بين مجموعة من العرب يناقشون فيه هجومًا في الليل على اليهود (وقد فهما ما يقال في الاجتماع لأن سعادية من اليمن ويعرف العربية) . وباستخدام القنابل اليدوية يتمكن الأطفال من نصب فخّ ينقذ المدرسة من التدمير .

تتكرر في هذا الفيلم فكرة الخوف من الإبادة والأفعال البطولية المعجزة التي تحول دون وقوع هذا الدمار . وتتعزز فكرتا الخوف والفخر من خلال تركيز تاريخي جزئيّ في الصراع كانعكاس لصورته التاريخية الكليّة . فالمدرسة الداخلية «محاطة بالعرب» وتنقذها شجاعة صبيين يهوديين ، أحدهما أشكنازي والآخر مزراحي ، في إشارة إلى أسطورة أساسيّة أخرى ، وهي وحدة اليهود في منافيهم في كل أرجاء العالم .

هذان البطلان اليهوديان يواجهان خطر العرب المحدّق بهم من دون أن يخسرا إنسانيّتهما ولو للحظة واحدة . فبالرغم من أنّ الخوف من الإبادة قد يكون سببًا في الريبة من أي شخص عربيّ ، إلا أنّ هذين الصبيين ، بخلاف جميع الصبية في العالم ، لا تتولّد لديهما ريبة من أحد . ويلاحظ المشاهد هذا الأمر حين يرى دان في مخيّلته امرأة عربية مسالمة تتحول فجأة إلى عربي يلبس الكوفية ويحمل السلاح . فالعنف من قبل العرب هو المسؤول عن تشويه نفسيّة هذا الطفل وزرع صورة سلبيّة في ذهنه عنهم ، وذلك كتفسير لما قد يحدث من عنف ضد العرب من قبل الصهاينة . إلا أن هذه المرأة تعود في ذهن دان إلى صورتها المسالمة التي

كانت عليها . وباستثناء هذا المشهد ، فإن العرب يظهرون في الفيلم عصابةً يسهل تحريضها ، مرتدين الكوفيّة ومتشقين الأسلحة : أي إنّها نفس صورة الإرهابيين التي ترد في الأعمال الفكرية الصهيونية حتى الثمانينات .

كما أنّ شخوص العرب في هذه الفيلم على العموم كانت مجهولة وتظهر عادة في حشدٍ مع أناس آخرين ، أما القوات اليهودية فكانوا يتمتعون بالإنسانية والشجاعة ، ويظهر دور كلّ منهم كفرد قائم بنفسه . وهذه الصورة المستمرة للعرب في حشودٍ ضخمةٍ غير متمايزة يرسّخ أسطورة الكثرة التي تعتدي على القلّة ، غيرَ أنّ أعدادهم الكبيرة هذه تقدّم إشارة على أنّهم كالغثاء رغم عددهم الكبير . هذه الصورة للعربيّ الوضيع الذي يسهل تحريضه كانت موضوعة شائعة في الأفلام الإسرائيلية التي تناولت حرب ١٩٤٨ كما تتكرر في الأفلام البريطانية التي تتحدث عن الإمبراطورية . وحتى بعد أنّ تبيّن لاحقًا أنّ حرب ١٩٤٨ لم تكن حربَ القلّة في مواجهة الكثرة ، بقي العرب يُصوّرون على أنّهم العصبة التي لا يؤمن لها جانب . بل وحتّى أثناء الانتفاضتين الأولى والثانية ، ورغم العديد من التحولات التي طرأت على صورة العرب ظلّت مشاهد من قبيل ما جاء في «دان وسعادية» تتكرر في أثناء رسم صورٍ عن المقاومة الفلسطينية عام ١٩٨٧ و٢٠٠٠ سواء كان ذلك بالقلم أم بالصورة .

تتوطّد صورة عصابة العرب الغوغائية التي يتولّد عنها نموذج «الشرّير العربيّ» في السينما الإسرائيلية بين فينة وأخرى ، من خلال تضمين القسوة الصِّرفة على أنّها سمة متأصلة في «طبيعة العربيّ» . وكان مكمن القوّة في مثل هذه الصور النمطيّة أنّها تجعل من العنف الصادر عن العرب أمرًا لا يستدعي التفسير ، وإنما يكفي وصفه . ولذا لا يلزم التفكير في السبب الذي كان يدعو تلك المجموعة من العرب لتدمير تلك المدرسة الداخلية على سبيل المثال . وفي الفيلم كما في كتب التاريخ الصهيونية تبقى الحرب التي شنّها العرب على إسرائيل عام ١٩٤٨ أمرًا يكتنفه الغموضُ . ففي المشهد الافتتاحي تظهر عناوين أخبار تعلن أنّ العرب بدؤوا باجتياح إسرائيل ويسمع صوت صفارات الإنذار في

تل أبيب . وجاء في أحد هذه العناوين : «العرب يحاصرون مدرسة داخليّة» . وهكذا تختلط الأحداث الحقيقية مع المتخيّلة في وصف واقع تكون فيه إسرائيل محاصرة يتهددها خطر الفناء . ويتواصل الاعتماد على فكرةً الحصار هذه حتى مع ازدياد الصعوبة في توفير غطاءٍ منطقيّ لوجودها .

إن في غياب التفسير المنطقيّ للهجوم العربيّ على إسرائيل عمومًا وعلى تلك المدرسة الداخلية خصوصًا دلالةً على أشدّ أشكال العنف سوءاً : وهو العنف الذي يفتقر إلى المعنى ويمتاز بالوحشيّة . ويبرع الفيلم في إيصال فكرة الشرّ الذي يستعصي على الفهم والقسوة التي لا حدّ لها . وقد ظهرت هذه الفكرة بشكل أكثر وضوحًا في فيلم آخر سبقه بعنوان «فاصل» (Intermission) من إخراج أمرام أمار عام ١٩٥٠ . يروي الفيلم قصّة مريم ، وهي مجنّدة يهودية تجد نفسها في مواجهة اثنين من العرب وينقذها جندي اسمه جدعون ، ويمثّل الشخصيّة الصهيونية الخارقة ، ويقع في حبّ مريم وامرأة أخرى .

مع أنّ الحبّ والعلاقة الرومانسية هي الموضوع الأساسيّ في هذا الفيلم ، إلا أنّ صورة العرب فيه كانت لافتة للنظر . ففي مقابل صورة جدعون ، اليهودي الجديد ، تظهر صورة العرب على أنّهم رجال لا يتورّعون عن اغتصاب المرأة أو فعل ما يتجاوز ذلك فظاعة ، ولا احترام لديهم للسلاح ولا للأصدقاء . ويظهر هذا في مشهد تتمّ فيه دعوة أحد الأسرى العرب للعب الورق مع الجنود الإسرائيليين ، ويبدي الأسير استعداده للمقامرة بسلاحه وسلاح صديقه أيضًا ، وهذه خطيئة كبرى وجريمة مقيتة في نظر مجتمع عسكريّ كالمجتمع الإسرائيليّ .

كما أنّ فيلم «دان وسعادية» يتوفر على مشاهد فيها تواصل مباشر مع شخصيات عربيّة . فمع أنّ العرب هم العدوّ الذي يشكّل الواقع ، إلا أنّ دورهم الأساسي في الفيلم هو تقديم الخلفيّة والسياق لتسليط ضوء على التناقضات الداخلية في المجتمع اليهودي ، كتلك القائمة بين الرجل والمرأة ، أو بين اليهود الأشكنازين والمزراحيين والفرد والجماعة . ثمّ ترى العرب في «دان وسعادية» لا يتمتّعون بأشياء الحياة البسيطة ، بينما يمتلك العاملون في تلك المدرسة

الداخلية ، المدير والمدرّسة أفيفا ، والشاعر أوري ، والراعي يورام (والذي يحبّ أفيفا بينما هي تحبّ المدير) شخصيات ثلاثية الأبعاد لها السمات الإنسانية الطبيعية ، ويجري عليهم ما يجري على الناس الطبيعيين من أذىً وحبّ وألم . فهم أناس حقيقيون لهم مشاعر متغيّرة وشخصيّات متميّزة ولذا يتعاطف المشاهد معهم بسهولة . بيدَ أنّ الشخصيات العربية التي تلتقي في ذلك البستان ليست كذلك ، فهي شخصيات ليس لها أسماء ولا نعرف عنها شيئًا البتّة .

هنالك شخصيّة أخرى بائسة مثيرة للشفقة تظهر في هذا الفيلم وغيره من الأفلام الشبيهة التي تتناول الحرب وهي شخصية المهاجر اليهوديّ الجديد والذي يُعرف بسهولة بسبب لهجته العبريّة الثقيلة ، وعادةً ما يكون سمينًا وفيه بعض الجبن . ثم إن من يؤدي دور شخصية نقيض البطل يكون كذلك معاديًا لليهودي الذي ولدَ في فلسطين . ويظهر المهاجر في صورة نمطيّة كالعربيّ مع فرق بين الاثنين . فالمهاجر يمتلك القابلية للانتقال نحو الحداثة واعتناق الحس الوطنيّ الإسرائيليّ ، ويكون ذلك عادة من الخدمة العسكريّة . أمّا أعمال العنف التي يقوم بها العرب فسببها ما تأصل فيهم من همجيّة ، مما يجعل التفكير في شأنهم يتحوّل من كيفية تحديثهم إلى كيفية التخلّص منهم .

يعتمد التمثيل السينمائي للفترات الأولى من الرواية الصهيونية في إحدى صوره على الأدوات البصريّة التي من شأنها التدليل على التهميش والإقصاء . ففيلم من قبيل «شجرة أو فلسطين» للمخرج أكسيلرود يلقي الضوء على تاريخ المجتمع اليهودي في السنوات العشرة الأخيرة من الانتداب البريطاني في فلسطين . ويعتمد الفيلم على طريقة «الكولاج» حيث جمع عددًا من اللقطات الوثائقية ووضعها سويّة بطريقة ممتعة ولكنها نوستالجية في الوقت ذاته . يبدأ الفيلم بمشهد رهط من العرب مع جمالهم يستظلون بأشجار في الطريق ، وفي الموسيقى الخلفيّة أغنية صهيونية بعنوان «عدنا إلى أرضنا» (Anu Banu Artza) . يظهر العرب في هذا المشهد كقبيلة وثنيّة بدائية ، ويخبرنا الراوي في الفيلم كيف أنهم لا يعرفون شيئًا عن استخدام الآليات الزراعية . ويأتي سؤال فيه نبرة

من تحسر على لسان الراوي فيقول :»أهذه هي أرضنا المشتهاة؟» . والجواب هو لا ، ما دام «هؤلاء» فيها .

لا يختلف الأمر عن صورة العرب في «دان وسعادية» : فهي صورة جوهريّة ، تبسيطية ، اختزاليّة . هي صورة استشراقية تمامًا ، مع اختلاف مهمّ واحد : فبالإضافة إلى حسّ التعالي الغربيّ المعروف نجد مستويات عاليةً من الكراهية وسوء الظنّ والعنصرية . وتفعل السينما ما لا يمكن للسياق الأكاديمي الجافّ فعله ، إذ تنتقل هذه المشاعر بيسر إلى المشاهد .

والأهم من ذلك كلّه هو أنّ الفيلم يصوّر العرب كخطرٍ لا بدّ من التخلّص منه ، مع أنّ فكرة الاجتثاث الفعليّ للفلسطينيين لم تظهر سوى في السينما ما بعد صهيونية ، وذلك في التسعينات حيث بدأت هذه الأفكار تظهر في الأفلام والوثائقيات الإسرائيلية التي تناولت حرب عام ١٩٤٨ . غير أنّ مصير العرب من القضايا التي تتعرّض لها هذه الأفلام التي نحن بصددها الآن . فهي تسلّط الضوء على نموذج المعضلة الاستعمارية بشأن الأشرار الذين يعادون «الإمبراطورية السّمحة» والذين يقرّرون لجهلهم مقاومة الاستيلاء على أرضهم واحتلالها . إنّهم غير مؤذين نظرًا إلى بساطتهم ، غير أنّهم خطيرون نظرًا إلى همجيّتهم ، ولذا وجبَ التعامل معهم بأسلوب يجمع بين الحنكة البالغة والبطولة الاستثنائيّة .

هذه النظرة الاستعمارية للمواطنين الأصليين تتكرّر في قصص المغامرات مثل حكايات جول فيرن و روديارد كبلنغ . غير أنّ فيلم «دان وسعادية» يتضمّن جانبًا مختلفًا ، إذ إنّ العدوّ الهمجيّ يتجرّع هزيمة ألحقها به عدد من الأطفال . والسؤال الذي لا بد أن يطرح هنا : ما مدى خطورة هذا العدوّ إن كان الأطفال أنفسهم قادرين على التفوّق عليه وسحقه؟ إن فيلم «دان وسعادية» يتناول هذه الرسائل الواضحة والإشكالية التي تتعلق بأسطورة الإبادة ؛ أي كيف يمكن الجمع بين صورة العربي المثير للشفقة ، والذي يظهر على التلفاز بمظهر الكبير الأحمق الذي يمكن لاثنين فقط من الأطفال أن يتفوقا عليه ، مع صورة العربي

الذي يصل في شرّه وخطورته إلى مرتبة النازيين؟ يصوّر لنا الفيلم أنّ المجتمع اليهودي في فلسطين يواجه خطر الإبادة، لكنّ هذا التهديد آتٍ من مجموعة من العرب الجديرين بالشفقة. وهكذا فإنّ هذه الصورة المتناقضة عن العرب تثير شكوكًا بشأن أسطورة الإبادة، حتى لو فُسّر هذا التناقض بأن خطورة العرب البسطاء نابعة من عظم أعدادهم وليس من تطوّر مقدراتهم. وفي حين نرى في هوليوود أن خطرَ العرب والإسلاميين لا يمكن مواجهته إلا بأبطال خارقين كأرنولد أو بروس ويليز، فإنّ الأمر ليس كذلك في السينما الصهيونية. فالتناقض هناك يبقى حاضرًا بين تفاهة العدوّ المفترضة وبين بطولة الصهاينة المزعومة.

ومن الأمثلة الأخرى على البطولة المتمثلة في شباب يانعين قصةُ «ثمانية في إثر واحد» (Shemona B Evevot Ahat) والتي أنتجت سينمائيا في العام ١٩٦٤. هي قصة عن ثمانية أطفال يعيشون في الكيبوتس يفلحون في القبض على جاسوس عربي خطير بعد أن استعصى على الجيش مسكه. ويغنّي الأطفال في الفيلم قائلين «على قلبٍ واحدٍ لا نعرف الخوف/قدمًا نمضي كالبواسل/سنهزم العدوّ».[٢٧]

نخلص مما سبق إلى أنّ الشعور الإسرائيلي بالتفوّق، كما يظهر في إنتاجهم السينمائي، هو مزيج من عقدة العظمة العرقية والكراهية المرضيّة. فكما أنّ الإسرائيلي هو الشرّير الأزليّ في المخيال الوطنيّ الفلسطيني، فكذا العرب في المخيال الصهيونيّ. ثم إنّه يصعب أن نعرف في السينما الصهيونية ما إذا كان هذا العدوّ فلسطينيًا أو سوريًا أو مصريًا، وذلك أنّ الإسرائيليين لم يعترفوا بوجود الفلسطينيين كقوميّة محدّدة.

في الأفلام الوثائقية

لم تكن الأفلام الوثائقية التي تناولت حرب عام ١٩٤٨ قادرة على الانفكاك عن الأسطورة المؤسسة والصورة السلبية عن «الآخر». ولعل أشهر

الأمثلة على ذلك سلسلة من الأفلام الوثائقية بعنوان «خيام البالماخ» ، والتي تتبع الحرب من خلال تاريخ جنود العاصفة (البالماخ)(*) . وقد استمرّت الوثائقيات في الظهور حتى العام ١٩٨٨ .(٢٨) يمكن العثور على هذه الأفلام في مكتبة أي مدرسة ثانوية ، وتخبرنا هذه الأفلام كيف أنّه لم يطرأ تغيّر كبير على الأفلام الوثائقية منذ الثمانينات . يتناول الفيلم الأول من هذه السلسلة قصة المستعربين (Mista arvim) ، وهي وحدة الجواسيس التابعة للهاجانا ، ويحكي مغامرات هؤلاء الأفراد أثناء اختراقهم جموع اللاجئين الذين طردوا من إسرائيل عام ١٩٤٨ . لم يكن للاجئين الفلسطينيين قبل ذلك أي ظهور في الأفلام الوثائقية ، غير أنهم في هذا الفيلم يظهرون ويتحدثون ولكن من دون الإشارة إليهم كلاجئين . كان ظهورهم في الفيلم بسيطًا ، بلا أسماء تدلّ عليهم ، وإنما وصفوا بأنهم عربٌ قد رحلوا . سيستغرق الأمر طويلًا إلى أن يبدأ صناع الأفلام والمؤرخون بالإشارة إلى الفلسطينيين بوصف اللاجئين ، كما سيأخذ الأمر منهم وقتًا أطول حتى يدركوا الجانب اللاأخلاقي في عمليّات تجسّس من هذا القبيل .

إن الأيديولجية والثقافة في الأفلام الوثائقية تعتمد إلى حد كبير على المستشارين التاريخيين الذين عملوا على هذه المشاريع . وفي أفلام «خيام البالماخ» تم إنتاج بعض الأجزاء ، ولاسيما الجزء المتعلق بقصة المستعربين بمساعدة من المؤرخين الرسميين العاملين مع جيش الدفاع الإسرائيلي . وتناولت الحلقة الثانية من هذه السلسلة قصة «لواء النقب» ، وكان الاستشاري التاريخي لهذه الحلقة مائير بائيل وهو المؤرخ الذي عارض الرواية الصهيونية الكلاسيكية حول حرب ١٩٤٨ واختلف معها بشكل كبير من دون أن يخرج عن الخط الصهيوني . لقد كان بائيل أولَ من دحض أسطورة أن حرب ١٩٤٨ كانت حرب

(*) البالماخ كلمة عبرية مركّبة تتكوّن من مقطعين هما «بلوغوت ماهاتزو» وتعني جند العاصفة . (المترجم)

داود اليهودي مع جالوت العربي . ومن خلال اعتماده على التحليل الدقيق لأعداد الجنود الذين شاركوا في تلك الحرب ، ومستوى الجاهزية ونوعيتها ، خلص إلى أن الطرف اليهودي في الحرب كان متفوقًا من الناحية العسكرية على جميع المستويات في حرب ١٩٤٨ . لقد كان هذا أول وثائقي يقرّ بأن الخطّة داليت ، والتي وضعتها الهاغانا في آذار من عام ١٩٤٨ ، كانت أصلًا معدّة للاستيلاء على المناطق الريفية والحضرية في فلسطين . ويذهب بائيل في هذا الفيلم أكثر من ذلك مصرّحًا بأنّ بعض القرى اقتلعت بالقوة ، مؤكدا في الوقت ذاته على أنّ هذا الأمر كان استثناء ، وأنّ معظم القرى نزحت من تلقاء نفسها .[٢٩] أما الجزء الثالث فينكص إلى أعمال المؤرخين الرسميين وتعود إلى تقديم التاريخ من زاوية واحدة وتشكيل الصور النمطية عن العرب .

في المقابل نرى أنه خلال السنوات العشرين التي تلت حرب عام ١٩٦٧ ، وهي الفترة التي كانت فيها الأفلام الوثائقية ما تزال خاضعة للنظرة الصهيونية الخاصّة بفكرة إسرائيل ، ظهر بعض الأفراد الذين يتحلون بالجرأة والتميّز وبدأوا يشككون في صحة هذه النسخة من التاريخ وبالأخص ما كان يتعلق بما جرى في العام ١٩٤٨ . وقد مهّدت هذه الجهود الطريق لإنتاج أفلام وثائقية أخرى أكثر انفتاحًا وأقل صهيونية ، بالإضافة إلى أفلام أخرى غير وثائقية حول حرب ١٩٤٨ . وسنعرض لقصة هذه الأفلام في فصلنا التالي .

القسم الثاني

اللحظة ما بعد الصهيونية في إسرائيل

الفصل الرابع
روّاد مابعد الصهيونيّة

التقيت ماكسيم غيلان في الفترة التي سبقت وفاته ، وهو أحد مناهضي الصهيونية الأوائل في إسرائيل ، وأصبحنا أصدقاء . كان حين التقيت به يعيش في ظروف صعبة للغاية ، بالكاد يحصل على قوت يومه في واقع حياة صعبة في تل أبيب . وبالرغم من ضيق الحال ، وبالمساهمة المالية الصغيرة المتقطعة التي كنت أقدمها ، تمكن ماكسيم من إصدار مجلة شهرية تدعى «ميتان» ولهذه الكلمة معنيان في العبرية : الأول هو حمولة ، والثاني هو عبوة ناسفة . تستخدم في هذه المجلّة أفخم أنواع الورق التي أعرفها ، وهذا ما جعل التكاليف بطبيعة الحال أكبر وزاد من الفاقة التي يعيشها ماكسيم . سألته مرة : «لم تصرّ على استخدام هذا الورق الجيّد والمكلف؟» . والحال أنّ هذه المجلة وغيرها من المجلّات المناهضية للصهيونية والصادرة بالعبريّة يفوق عدد الداعمين لها عددَ القرّاء . أخبرني ماكسيم في جوابه قائلًا : «الأمر واضح ، فبعد أن تعصف المصائب بإسرائيل- وهذا أمر حاصل لا محالة- لن ينجو سوى الورق ذي الجودة العالية من بين الحطام ، وسيكون الناس قادرين حينها على قراءة أفكارنا التقدّمية .»

إنّ حياة غيلان ليست مختلفة كثيرًا عن غيره من أبناء جيله المفكّرين المناهضين للصهيونية في إسرائيل اليهودية . كانوا فرديّين ومهمّشين كما كانوا في كثير من الجوانب مثاليّين حالمين . ثم إن حياتهم التي رفضوا فيها السير مع التيّار وفضّلوا فيها العزلة تتقابل في الوقت ذاته مع ما ندعوه في هذا الكتاب «اللحظة ما بعد صهيونية» ، وذلك حين كانت أفكارهم محطّ قبول عند كثير

من الناس. سنعرض في هذا الفصل إلى حكاياهم وسنسعى إلى تتبع فصولها وصولًا إلى اللحظة ما بعد صهيونية في منتصف تسعينات القرن المنصرم.

للمرء سبيلان لا ثالث لهما كي يكون يهوديًا يناهض الصهيونية في دولة إسرائيل. فإما أن يهجر الصهيونية لأنه شهد عملًا فظيعًا يُرتكب باسم الصهيونية جعله يعيد التفكير في سلامة هذه الأيديولوجيا التي أباحت ذاك القدر من القسوة، أو أن يكون هذا المرء مفكّرًا منشغلًا أو مهتمًا بالقضايا الفكرية ولا يقف عن إعمال النظر في القضايا ومراجعة المفاهيم والمبادئ الصهيونية، والتحقق من التناقضات الداخلية والأمور المنافية للعقل، ما يجعله ينتقل تدريجيًا نحو فكر أكثر عالميّة ومناهضًا للصهيونية.

إن الشعور بالاشمئزاز من طريقة التعامل مع العرب في الدولة والرفض الفكريّ للمنطق الذي يحكم تلك العقيدة كانا من الأمور التي دفعت البعض لمناهضة الصهيونية. لقد كان الميدان الأكاديميّ آخر الجوانب تأثرًا بمثل هذه الشكوك والانتقادات، ولكن حين وصله هذا التأثير كان الإنتاج غزيرًا وصل حدًا غير مسبوق من قبل. وفي حين اعتمد النقّاد اليهود فيما بعد على نتاج الشخصيات الأكاديمية على المستوى العالمي أو النظريات المعروفة في بيان نقدهم للصهيونية، فإنّ مفكرين رائدين مثل غيلان نسبوا الفضل في آرائهم إلى لحظة تحوّل شخصيّة في حياتهم.

إن البيت السياسي الذي ضمّ مثل هذه الشخصيّات التي ألقت بظلال شكّها على الصهيونية في إسرائيل كان الحزب الشيوعيّ، بيدَ أن معظمهم تركوا الحزب فيما بعد، وتابعوا طريقهم وحدانًا أو في مجموعات جديدة صغيرة سعت فيما بعد إلى التواصل مع منظمة التحرير الفلسطينية، وخاصة الفصائل اليساريّة كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وهنالك آخرون كانوا في مجموعات أقرب إلى النسخة الصينية من الشيوعية، ولا عجب أن نعرف أنّ شؤونهم سادتها الكثير من الخلافات والانقسامات، وهذا أمر شائع في الجماعات اليسارية المتطرفة، يتبعها محاولات للمّ الشمل والوحدة. لقد كانت النقاشات

تدور حول مدى استحقاق الحركة الوطنيّة ، بما في ذلك الحركة الوطنية الفلسطينية ، للدعم من قبل النظم الاشتراكية العالمية كالاشتراكية الماويّة والماركسيّة . وسأتعرض لاحقًا في هذا الفصل إلى وصف هذه النقاشات ، ويكفي هنا أن نشير إلى خلاصتين منطقيتين كان المشاركون يصلون إليها . فمنهم من رأى الحركة الوطنية الفلسطينية أداة مهمّة لتفعيل أجندة اشتراكية ماركسية أو ماويّة وانضموا للحركة بطريقة أو بأخرى فيما بعد . أما آخرون فارتأوا البقاء في إطار العالميّة ، وهو خيار كان ينتهي الأمر بأصحابه عادة إلى منفىً ذاتيّ أو يدفعهم نحو الانضمام إلى حركات ملتزمة بالعالمية . كلا الخيارين كانا يعدّان خيانة عظمى في إسرائيل ، ومعظم هؤلاء الناشطين دفعوا الثمن غاليًا على المستوى الشخصيّ . فمعظم روّاد هذا الفكر وسراته خفتَ حضورهم واندثر ذكرهم ، ولم يعرف أحدٌ عن المصير الذي ألفوه في انتظارهم ، ولذا كان من المهمّ أن نكشف عن بعض قصصهم في هذا الكتاب .

ولد ماكسيم غيلان في مدينة ليل الفرنسية لكنّه قضى معظم طفولته في إسبانيا خلال الحرب الأهلية الإسبانية . كان والده من الشخصيات القيادية في معسكر الجمهوريين ، غير أنّه قتل على يد الفاشيين ، وهربت العائلة على إثر ذلك إلى فلسطين عام ١٩٤٤ . وكان غيلان قبل أن يصبح معارضًا للصهيونية قد مرَ في طور الوطنيّة التي مرّ به الكثيرون من أمثاله ،حتى أنّه شارك في العمليات مع منظمة شتيرن في الأيام الأخيرة من حكم الانتداب البريطاني . اعتقل غيلان عام ١٩٥٠ بسبب تطرفه اليميني واستمرار ولائه لمنظمة شتيرن التي كانت تسعى حينها للانقلاب على حكم حزب ماباي التقدميّ (حزب عمال أرض إسرائيل) والذي سيطر على المشهد السياسي في إسرائيل لسنوات عديدة . وكان غيلان على موعد مع التغيير أثناء سجنه بسبب ما رآه هناك .

لقد أثارت مشاهدته لتعذيب الأسرى الفلسطينيين في فترة سجنه الأولى تساؤلات في نفسه حول الصهيونية . لقد كان غيلان شاعرًا وصحفيًا ، ولم يجد غضاضة في استخدام الصور شبه الإباحية لجذب الناس لقراءة النصوص

المناهضة للصهيونية . وقد ذاع صيته صحفيًا استقصائيًا حين كشف عن مشاركة إسرائيل في اغتيال المهدي بن بركة ، زعيم المعارضة المغربية ، عام ١٩٦٦ ، وعلى إثر هذا التقرير ذهب إلى السجن ثانية ومكث فيه طويلًا . لم يكن انخراط غيلان في هذا الأمر غير متوقع منه . وبالإضافة إلى ميله لاستخدام الإباحيّة لزيادة عدد القراء للآراء التي تناهض الصهيونية في مجلّة بول (Bool) (والتي تعني في العبرية «التحرّش اللفظيّ») ، وكان محررًا لها ، كان في بعض الأحيان يضع قصصًا عن عمليات إسرائيل في العالم العربي ، بعضها يعتمد على وثائق وأدلة وأخرى من محض خياله . فحين اغتيل المهدي بن بركة ، كتب غيلان عن مشاركة عناصر من الموساد في العملية ، وحين أتوا لاعتقاله ادّعى غيلان أنه لم يكن يعلم أنّ ما كتبه كان صحيحًا ، وسجن حينها لأربعة أشهر ونصف بتهمة الكشف عن معلومات سريّة لأعداء الدولة ، علمًا أنّه لم تكن بحوزته أي وثائق . كان غيلان يراقب بدقّة الأنشطة الإسرائيلية التخريبية في العالم العربي ، ورأى أنّه من المحتمل أن يكون الزعيم المغربي المدافع عن القضية الفلسطينية ، والذي كان مصدر قلق للملكيّة عربية غير معادية لإسرائيل ، هدفًا من أهداف الموساد .(١)

واضطر غيلان مثل غيره من المناضلين الذين لا يملكون سوى أنفسهم في دفاعهم عن السلام والعدالة إلى اختيار منفاه الاختياري في باريس عام ١٩٦٧ ، ثم عاد إلى إسرائيل مثل كثير غيره أيضًا بعد توقيع معاهدة أوسلو عام ١٩٩٣ . وكان غيلان قبل مغادرته فرنسا قد سأل بعض أصدقائه المقربين إن كان من الممكن أن تقوم المخابرات الإسرائيلية باعتقاله إذا رجع إلى إسرائيل . ومع أنّ الوكالة ادّعت أن حوارًا من هذا القبيل لم يحدث ، إلا أنّ غيلان لم يعد على أية حال شوكة في خاصرة الجهاز الأمني في إسرائيل ، كما أنّ إسرائيل نفسها لم تكن مكانًا مختلفًا لغيلان . وحين توفّي عام ٢٠٠٥ كان الرجل قد خاب أمله في الصهيونية كما كانت حاله عام ١٩٤٨ .(٢)

كانت معاينة شكل آخر من أشكال القسوة سببًا لتغيير حياة رائد آخر

مناهض للصهيونية وهو إسرائيل شاحاك . ففي أحد الأيام عام ١٩٥٠ شاهد إسرائيل رجلًا يهوديًا رفض مساعدة مواطن فلسطيني جريح ، لأنّه كان في السبت ، ولأن الشريعة اليهودية ، الهالاخاه ، تحرّم القيام بذلك . ذلك الموقف الذي أرعبه حينها وكما يرويه هو بنفسه كان كفيلًا بجعله مناهضًا للصهيونية ، وهيّ ردّة فعل قوية دعت إليها سيرة حياته المحفوفة بالمصاعب . هرب إسرائيل خلال الحرب العالمية الثانية من الغيتو في وارسو مسقطِ رأسه التي كانت محتلة حينها ، ثم قبض عليه وأرسل إلى معسكر الإبادة في بونياتوا . ثم هرب مجددًا ، ولكن كان هذه المرّة مع أمه . فرّ إسرائيل من الرّعب النازي المقيم ولكنّه ما لبث أن اعتقل للمرة الثانية وقضى آخر أيام الحرب في بيرغن بلسن .

وصل إسرائيل البالغ من العمر اثني عشر عامًا مع أمّه إلى فلسطين عام ١٩٤٥ في وقت لم يكن فيه الناجون من الهولوكوست موضعَ ترحيب من قبل أولئك الذين تركوا أوروبا قبله . وكان اسمه عند الولادة إسرائيل هيملستاوب ، إلا أنّه عبرن اسمه فور وصوله إلى فلسطين ، غيرَ أنّ قبوله في المجتمع الإسرائيلي لم يكتمل إلا بعد أن خدم في الوحدة الخاصة في جيش الدفاع الإسرائيلي ، وعيّن بعد ذلك في اللجنة الإسرائيلية للطاقة الذريّة .(٣)

شهد شاحاك في الدولة الإسرائيلية الجديدة تفسيرات يومية للشريعة الحاخامية اليهودية وكان يزعجه طريقة تطبيق أحكام هذه الشريعة على غير اليهود ، أي على المواطنين الفلسطينيين . ولطالما أكّد شاحاك على أنّ ما رآه كان تطبيقات حرفيّة لبعض النصوص الدينية حسب تقاليد تمتدّ في التاريخ إلى الفترات الأولى من تطوّر الديانة اليهودية . وبعد البحث في هذه النصوص والتاريخ العالمي لليهود خلص شاحاك إلى أن الفلسطينيين ليسوا ضحيّة سياسات استعمارية واستبداديّة وحسب ، وإنما ضحية أيديولوجيا عرقيّة ودينيّة ذات تأثير وحضور واسعين .

وبعد انقضاء سنوات عديدة كتب شاحاك عن حياته ، وأضاف حدثًا آخر كان هو الآخر سببًا في تغييرها ، وهو هجوم إسرائيل على مصر عام ١٩٥٦ . إذ

يذكر شاحاك ما تملّكه من شعور عقب انتهاء هذه الحرب بأن الصهيونية قد غدرت به ، وخصّ في ذلك قائدها ديفد بن غوريُن . لم يكن الأمر متعلقًا بما تمّ من تآمر بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بقدر ما كان متعلقًا بقدر ما كان متعلقاً بالرواية التي رافقت هذا التآمر . (٦) الخاصة في جيش الدفاع الإسرائيلي ، وعيّن بعد ذلك في لجنة الرواية التي رافقت هذا التآمر . بدت هذه الرواية واضحة في خطابات بن غوريُن الذي أشار غيرَ مرّة إلى عملية سيناء التي تؤذن بفجر حقبة جديدة لإقامة الإمبراطورية اليهودية من جديد . هذه النبرة المسيانية كانت بمثابة علامة تنبيه جديدة برزت لإسرائيل شاحاك وأكّد أسوأ ما كان يخشاه بخصوص الدولة اليهودية الجديدة . وقد قال شاحاك بالحرف الواحد ، يظهر أن دولة إسرائيل إنما هي آلة حرب لا يصدر عنها سوى الشر والدّمار ولا يمكن لشيء أن يحول بينها وبين قتال العالم العربي بأكمله ولاسيّما الشعب الفلسطيني . وما أثار الرعب لدى شاحاك هو أن آلة الحرب هذه تقتات على العقيدة اليهودية والقومية الحديثة في آن معًا .

يعد الاندماج بين القومية والدّين تركيبةً خطيرةً ذكّرت شاحاك بالسياسات التي أذاقته طعم العذاب في بولندا أثناء طفولته ، ولا ريب أن لهذه العلاقة أثرًا مريرًا على ناج من معسكرات الاعتقال النازيّة وبدأ للتوّ بعد استقراره في إسرائيل بالنظر إلى ماضيه واسترجاع صوره ومآسيه . ومنذ ذلك الحين صارت كتاباته وأنشطته منصبّة على الحديث عمّا تقترفه هذه الدولة الجديدة من إساءات وظلم ، وبكأنّ هذا الالتزام من قبله بتسليط الضوء على هذه الجوانب كان السبيل الأفضل للتعامل مع الويلات التي مرّ بها من قبل في بيرغن بيلسن وغيرها من الأماكن في فترة الهولوكوست .

وقد تناول شاحاك في دراسته أحد الادّعاءات المقدّسة لدى الصهيونية ، وهو أنّ اليهود اضطهدوا في كافّة أرجاء أوروبا ولذا فإنهم في حاجة إلى مكان يؤوون إليه ، ولا بدّ أن يكون هذا المكان هو وطنهم الأصلي القديم في فلسطين . إن حياة اليهود في أوروبا الشرقية تصوّر داخل إسرائيل على أنها كانت وما تزال

حكاية لا تنتهي من الاضطهاد المسيحي والأوروبي الذي ما كان له أن ينتهي إلا بظهور الصهيونية وإقامة دولة إسرائيل . أمّا شاحاك فيرى أن هذه الرواية الإسرائيلية ذات التوجّه الاستعماري بخصوص الحياة اليهودية المعاصرة ليست إلا للتلاعب والتضليل ، وما كان منه إلا أن انتقدها من دون مواربة .(٤)

تدّعي الرواية الصهيونية أنّ التاريخ المعاصر لمعاداة الساميّة ، للتمييز بينها وبين ما كان سائدًا في القرون الوسطى ، قد بدأ عام ١٦٤٨ ، حين قام قوزاق أوكرانيا بقيادة بوهدان كميلنيتسكي ، بالثورة على الاتحاد البولندي الليثواني الذي كان قائمًا في تلك الفترة . لقد كانت تلك الثورة شعبية شارك فيها الفلاحون العاملون في الإقطاعيات وغيرهم من الجماعات المهمّشة كالتتار ، وانضمّوا سويّة لمواجهة النظام الإقطاعيّ الجائر . وقد قام «كميل الشرير» كما هو معروف بين اليهود اليوم ، بالإشراف على مجموعة من البرامج التي استهدفت المجتمعات اليهوديّة في مناطق التمرّد . وقد قضى في تلك الفترة عدد من اليهود بسبب وباء فتك بالمنطقة حينها ، وألقي القبض على آخرين وأرغموا على التحول إلى النصرانية وإلا بِيعوا ليصبحوا عبيدًا . وتشير رسالة بعثها حاخام محليّ إلى أوليفر كرومويل الذي كان وقتها بمثابة وزير للجزر البريطانية ، إلى أنّ ١٨٠,٠٠٠ من اليهود تعرّضوا للقتل . وتشير الرواية الصهيونية إلى أنّ مصير أولاء اليهود كان سببه محض العداء للساميّة في أوروبا الشرقية في النصف الثاني من القرن السابع عشر .(٥)

غير أنّ شاحاك لم يكن أول من لفت الأنظار إلى حقيقة مهمة تفيد أنّ أولئك المتمرّدين نظروا إلى المجتمعات اليهوديّة على أنها متعاونة مع المستبدّين ومنحازة إليهم إذ منهم من كان يجبي الضرائب لهم ومنهم من كان يقرض المال بالربا . كما أنّ أصحاب الإقطاعات لم يكونوا عادة موجودين وكان الوسطاء اليهود يمثلونهم ويديرون أعمالهم . غير أنّ هذا لا ينفي أنّ معظم من قتلوا من اليهود لم تكن لهم علاقة بهذه الأعمال . أراد شاحاك أن يقدّم رواية تعكس إلى حدّ ما مسؤوليّة اليهود وما كان ينقصهم من تعاطف وانحياز مع الفلاحين

المضطهَدين ، وفسّر ذلك بمفهوم العزلة في الديانة اليهودية والإحساس بالفوقيّة . ويرى شاحاك أن عدم إحجام اليهود عن استغلال الآخرين لعب دورًا في سلسلة من الأحداث عام ١٩٤٨ وغيرها من الأحداث المفصليّة التي كانت نواةً لصعود الصهيونية الحديثة .

إن هذا الكلامَ في نظر أي إسرائيلي تلقّى التعليم الرسميّ في إسرائيل لا يمكن أن يعدّ إلا هرطقة حقيقيّة . فاليهود في كتب التاريخ والمناهج والبرامج في إسرائيل كانوا الضحايا البؤساء للعداء المسيحيّ للساميّة الذي استهدف اليهود لمجرّد كونهم يهودًا وليس بسبب أي شيء فعلوه . والتفسير ذاته يسري على كراهية العرب للإسرائيليين واعتدائهم عليهم : فاليهود لم يفعلوا أي شيء يستدعي هذه المعاملة من قبل العرب . السبب الوحيد المفترض هو أن المسلمين كما المسيحيين معادون للساميّة .

كانت ذكرى مذابح كميلنيتسكي أساسًا قام عليه التلقين العقائديّ في إسرائيل ، إذ يرد ذكر هذه المجازر في جميع الكتب الدراسيّة الرسميّة . أذكر شخصيًا كيف كان يحفر في أذهاننا أنّ الطريقة الوحيدة لإيقاف كل هذا الاضطهاد هي إقامة دولة يهوديّة في إسرائيل . كما تعلمنا أن العرب ، والعرب الفلسطينيين خاصة ، هم أشكال جديدة من كميلنيتسكي الشرير ، بيد أنّهم لن يتمكنوا من تحقيق ما يبغون من الشرّ لأن للدولة اليهودية جيشًا قادرًا على فعل أي شيء لمواجهة المعقل الأخير للمعادين للساميّة .

لم يدّعِ شاحاك أنّه عالمٌ بالإلهيّات كما لم يكن يطالب بأن تخضع النصوص اليهودية للمراجعة ، وإنما اقترح أن يتم تجاوزها لتحلّ محلّها فلسفات ذات صبغة كونيّة تقوم على الإنسانية والحريّة . لقد دعا شاحاك إلى جعل الهولوكوست ذكرى عالميّة ترشدنا إلى الاعتراف بأن سموم التفوّق العرقيّ كامنة في كل أمّة ، بما في ذلك الأمة اليهوديّة . كما أشار محذّرًا إلى أنّ الإصرار على اتخاذ الموقف المعادي من النصوص الدينية غير اليهودية سيسهم في الإبقاء على هذا السم الذعاف بين أفراد الشعب اليهودي .

كما كان شاحاك أول مؤرّخ غير مختصّ (إذ كان أستاذًا للكيمياء) يقوم بمراجعة الرواية الإسرائيلية السائدة بخصوص نشأة الصهيونية الأولى وطريقة عملها. إذ يذكر في روايته أن الحياة اليهودية في فترة الدولة اليهودية قائمة على أيديولوجية شوفينية إقصائية. ولقد كان ما توصّل إليه بطبيعة الحال مثيرًا للغضب، خاصّة أنه صادر عن أحد الناجين من الهولوكوست من دون أن يمنعه ذلك من إدراج النازية والصهيونية في دراساته حول الأيديولوجيات الإقصائية. ومع أنّه لا يقارن بينهما مباشرة، إلا أنّه يحذّر من انجذاب الناس نحو الأيديولوجيات التي تؤمن بالفوقيّة العرقيّة والأخطار العظيمة التي تترتّب على ذلك. إن مثل هذه الأيديولوجيات تنضوي على قوة هائلة قد تجد صدى عند بعض الناس- كاليهود على سبيل المثال، وهم ضحايا للآثار المقيتة لهذه الأيديولوجيات بالذات، وصار لزامًا عليهم أن يكونوا أكثر وعيًا بعواقبها الوخيمة. كان يتحدث شاحاك بوضوح ومن دون مواربة منبّها الإسرائيليين إلى أنّ من لا يتعلّم التاريخ سيرى أنّه سيعيد نفسه. وقد كانت رسالته واضحة لليهود الذين رفضوا التصالح مع الماضي اليهودي، قائلًا إنّهم قد باتوا أسرى لهذا التاريخ، يكررون رسالته اللاأخلاقية من خلال انحيازهم للأيديولوجية الصهيونية وإذعانهم للسياسات الإسرائيلية القائمة.

لقد حرص شاحاك في عمله على تناول الحياة اليهودية، بيد أن رسالته كانت ذات طبيعة عالميّة. لقد كانت دعوته ضد الدعوات الدينية والقومية المتعصّبة جميعها. لقد كانت كذلك دعوةً لهجر التمركز العرقي وتبنّي منهج ذي نزعة إنسانيّة في التعامل مع البشر. وقد ختم شاحاك أحد أهمّ كتبه: «التاريخ اليهوديّ والديانة اليهودية: ثقل ثلاثة آلاف عام»، بفقرة تلخص وجهة نظره بعناية:

ولهذا، فإن الاختبار الحقيقي الذي يضع الإسرائيليين ويهود الشتات على المحكّ هو اختبار النقد الذاتي الذي لا بدّ أن يتضمّن نقد التاريخ اليهودي. ولعل أهمّ جزء في هذا النقد هو التعامل النقدي المتكامل والصريح مع النظرة اليهودية

لغير اليهود . أليس هذا ما يطلبه اليهود أنفسهم من غير اليهود : مواجهة الماضي ومعرفة حجم التمييز والاضطهاد الذي تعرّض له اليهود . . . . . ومع أنّ النضال ضد معاداة الساميّة (وسواها من أنواع التمييز العرقيّ) لا يجدر به أن يتوقّف ، فإن النضال ضد الشوفينية والإقصائية اليهودية ، والذي يجب أن يتضمن نقدًا لليهودية الكلاسيكيّة ، بات أمرًا مساويًا في الأهمّية للنضال ضد معاداة الساميّة إن لم يزد عليه .(٦)

في عام ١٩٧٨ استمع بواز إيفرون ، وهو صحفي مشهور ، إلى جنديّ إسرائيلي يتحدّث مع نفسه في العمل الذي غيّر توجّهاته الفكريّة بطريقة جعلته على غرار شاحاك أحد أبرز المفكرين أقاموا صرح الفكر المناهض للصهيونيّة .

ولد إيفرون في القدس من الجيل الثاني الذين كانوا يعيشون في فلسطين تحت الانتداب البريطاني ، ولذا فإنه ينتمي إلى أرستقراطية صهيونية محليّة . كانت حياته في فلسطين أثناء الانتداب شبيهة لحياة غيلان ، وقد قاتل مثله مع منظمة شتيرن عام ١٩٤٨ وكانت لديه ميول حينها إلى ما كان يعرف بالأيدلويوجية الكنعانيّة .(٧)

تأسست الحركة الكنعانية في ثلاثينات القرن الماضي على يد يهودي أوكراني يدعى أدولف جوريفيتز ، وكان اسمه قد سبّب له بعض المشاكل فيما بعد . لقد كان طالبًا للتاريخ الكلاسيكي والقديم وذهب ليبحث عن اسم له توراتيّ (واختار اسم «آديا») وهويّة جديدة . كان في البداية قريبا من حركة المراجعة التي بدأها زئيف جابوتينسكي ، ولكنّه أراد أن تفصل الحركة نفسها كليّةً عن اليهودية وأن تعيد تشكيل المجتمع اليهودي في فلسطين ليصبح مكونًا من العبرانيين الجدد أو ما دعاهم هو «الكنعانيين الجدد» ، وذلك ليتمكن الفلسطينيون أنفسهم كذلك من التعاطف مع «عودة» العبرانيين المنفيين وتفهّم الهويّة الجديدة التي منحت لهم . وقد عمل جوريفيتز حين وصل إلى فلسطين في ثلاثينات القرن العشرين مع مجموعة من التابعين لحركة المراجعة والذين كانوا يؤيدون أفكاره هذه ، ولعل أشهرهم هو الشاعر أوريل هالبيرين ، والذي غيّر

هو الآخر اسمه كما فعل كل من ينتمي إلى الحركة واختار الاسم العبريّ يوناتان راتوش . لقد قدّم البرنامج الكنعاني فكرة دولة ساميّة مشتركة تجمع بين الشعبين ، وقد عجزت هذه الفكرة عن جذب أي فلسطيني إليها كما أنّها لم تكن مقبولة من اليهود في إسرائيل .

انضمّ بواز إيفرون إلى الكنعانية ، والتي أصبحت مجموعة بشكل رسمي عام ١٩٣٩ ، وقد كان ذلك التوجه الكنعانيّ هو ما دفعه إلى تطوير آرائه المناهضة للصهيونية . ولكنّه صار صحفيًا ذائع الصيت وكاتبًا مع صحيفتي هارتز وايديعوت احرونوت ، وقد مكّنته هذه القاعدة من كتابة مجموعة مذهلة من المقالات اشتملت على معظم أبعاد النقد الداخلي للصهيونية .

يذكر إيفرون حكاية ذلك الجندي ، والتي كانت في ذهنه بمثابة بذار أنبتت لاحقًا ما كتبه من مقالات ، حيث يذكر هذا الجندي كيف قام مع مجموعة من أصدقائه بالدخول إلى مدرسة فلسطينية ووضعوا قرابة عشرين طالبًا في سنّ الثامنة في غرفة واحدة وأغلقوا عليهم ، ثم رموا قنابل الغاز إلى الغرفة ، وغلّقوا الأبواب ، مما أثار الهلع بين الطلاب ودفع بعضهم إلى القفز من النوافذ وكسرت أرجلهم بسبب ذلك .(٨) كان الجندي يصف ما فعله بأنّه عقاب لما قام به طلاب من مدرسة قريبة أخرى رموهم بالحجارة لكنّهم لم يتمكنوا من القبض عليهم .

لم يكن ما أثار اهتمام إيفرون هو القصة المروّعة بحد ذاتها ، التي ظهرت لاحقًا في مجلة تصدر عن حركة الكيبوتس بعنوان «مونولوج الغاز المدمع» ، وإنّما فكرة أنّ الجندي بدا مقتنعًا بأن إخباره للقصة يحرّره هو وأصدقاءه من ربقة ما فعلوا . وهنالك قصص مشابهة على هذا النّحو حدثت في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ حيث وافق مجموعة من الجنود على المشاركة في سلسلة من المقابلات نشرت في كتاب بعنوان «حوارات مع جنود» .(٩) وقد ولّد انزعاج إيفرون من هذا الأمر عزمًا لديه على مراجعة الصهيونية الليبرالية ودورها في تجميل وستر فظائع استعمارها ووبال احتلالها منذ العام ١٨٨٢ .

كان من ضمن المشاركين في هذا الكتاب آموس أوز ، وأفيشاي غروسمان

(أحد المفكرين الرائدين في حركة الكيبوتس) ، بالإضافة إلى أحد أشقاء إيهود باراك . كان هؤلاء الجنود يتحدثون مع بعضهم في هذه الحوارات وكان الموضوع الأساسي دائرًا حول ضرورة القتل للدفاع عن الوطن والحفاظ على ما يتمتع به الفرد من إنسانية وأخلاق ، علمًا أنّه قد تبيّن مؤخرًا أن بعض الإشارات إلى ما جرى من فظائع خلال حرب ١٩٦٧ قد حذفت على يدِ أجهزة الرقابة العسكرية قبل أن يتم نشرها ، وما يزال الباحث الذي اكتشفها ينتظر الإذن بذلك . هذه المقاطع كما يذكر الباحث تقدّم وصفًا لجرائم حرب ارتكبت على يد جنود شاركوا في هذه الحوارات .

شدّ استماع إيفرون إلى هؤلاء الجنود من عزمه على المضيّ قدمًا في نقده للصهيونية . ففي كتاب له صدر عام ١٩٨٨ بعنوان «الحساب الوطنيّ» ، يتساءل عمّا إذا كان الادعاء الصهيوني بأنّ اليهود كانوا شعبًا مشردًا يسعى للعودة إلى وطنه الأصلي يمتلك أي أساس في الحقيقة أو الواقع .[١٠] ما يقترحه إيفرون هو أنّ الدولة اليهودية كانت مشروعًا أوروبيًا للتخلص من المشاكل المتعلقة بالأقليّة الدينية في أوروبا ، أي اليهود ، الذين يعيشون في أوروبا المعادية لليهودية . فتحرير اليهود في نظر معظم الأوروبيين لم يكن يعني دمجهم في تلك القارّة ، وإنّما كان يعني إتاحة الفرصة لهم لاستعمار فلسطين وبناء «أوروبا» خاصة بهم هناك .

لقد رأى إيفرون ، كما فعل من قبله شاحاك ، أن معاداة الساميّة هي رفض المسيحيين بالقبول بمساواة اليهود بهم كما أنّها في الوقت ذاته ردّة فعل على الإصرار اليهودي على مبادئ التمايز والاستعلاء . إنّ ما يدعوه الصهاينة الطرد القسريّ من فلسطين من قبل الرومان والذي انتهى «بعودة صهيون» في أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر إنما هو في نظر إيفرون رغبة اليهود الحقيقية في الخروج من المجتمع المحيط بهم . فالصهيونية قد استفادت في نظره من تطورين حصلا في النصف الأول من القرن العشرين في أوروبا الشرقية والوسطى . كان الأول متمثلًا في الرغبة المتواصلة لأعداد كبيرة من اليهود في البقاء في

مجتمعاتهم الخاصة والمنعزلة والإصرار على الحفاظ على تميّز أسلوب العيش اليهودي ، وهو موقف لم يكن مقبولًا من القوى اليسارية والليبرالية في أوروبا لأنه لا يتوافق مع تطلعاتها نحو العالمية والعلمانية . وقد رأى بليخانوف(*) مثلًا أنّ تلك الرغبة الموجودة لدى حركة الرابطة اليهودية الاشتراكية غير الصهيونية في الحفاظ على الهوية اليهودية في حركة العمّال العالمية أمرٌ مرفوضٌ واصفًا هؤلاء اليهود بأنهم «الصهاينة الذي يعانون رهاب البحر»- ويقصد أنهم يهود بقوا في أوروبا لأنهم خائفون من عبور المتوسّط نحو فلسطين .[11] أما التطوّر الثاني فكان متعلقا بإصرار القوى اليمينية والمحافظة في أوروبا على عدم القبول باليهود كأفراد لهم الحقوق والواجبات ذاتها في المجتمع حتى وإن كانوا علمانيين ووطنيين مخلصين .

لقد كان إيفرون أول إسرائيلي يشكّك في رواية العودة . ولم يقم بذلك لأنه لم ير الرابط بين المستعمرين الصهاينة الأوائل واليهود الذين عاشوا في فلسطين أثناء حكم الرومان وحسب ، وإنما كان السبب الرئيسي هو شعوره بأن أسطورة العودة لم تكن قد ابتدعت إلا بعد أن أدرك اليهود العلمانيون بأنهم لن يكونوا قادرين على أن يندمجوا بشكل طبيعي في المجتمع الأوروبي .[12] وبما أنّ الهجرة كما يقول إيفرون لم تكن حسب النظرة اليهودية المعاصرة الحلّ الأمثل ، فقد فكّروا في سبب أكثر سموًا للتغطية على فشلهم في الاندماج في أوروبا ورغبتهم في مغادرتها . ولذا برزت فكرة فلسطين على أنّها الوطن الأصلي القديم وصارت الهجرة تعرف بأنها مجرد عودة إلى هذا الوطن . واختتم إيفرون تفسيره هذا الذي يُعدّ «هرطقة» بإضافة رأي جديد بخصوص السبب الذي جعل هذه القصّة المبتدعة تشتمل على استعمار فلسطين ، وهو أنّ الاستعمار كان في حيّز الإمكان لأنه كان متماشيًا مع الخطط الإمبريالية البريطانية في الشرق الأوسط .

(*) جورجي بليخانوف : أحد أبرز المنظرين الماركسيين الروس ومؤسس الحركة الديمقراطية الاجتماعية . (المترجم)

لم ينل كتاب إيفرون عنده صدوره أي اهتمام ولم تلق آراؤه سوى التجاهل. غير أنّ صوتًا آخر ظهر في الفترة التي كان بها إيفرون يصوغ آراءه المنتقدة للبداهات الصهيونية الأساسية، وهو صوتٌ أكثر قوّة في أثره قيّض له الظهور في المجال العامّ.

لم يكن لصوت يشعياهو ليبوفتش أن يخمد بسهولة كما حصل مع من انتقدوا الصهيونية قبله في إسرائيل. كان ليبوفتش يهوديًا متدينًا، وقد حاز احترام العديدين كما لو كان جنرالًا مظفرًا يعود من أرض المعركة، وذلك رغمَ بنيته الضعيفة التي لم تكن متوافقة مع صورة اليهود شبه الآريّين الذي قطنوا فلسطين أثناء الانتداب واليهود الجدد في إسرائيل. وقد ولد في ريغا والتي كانت في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية الروسية، وظهرت عليه النباهة في صغره والعبقرية في لعبة الشطرنج غير أنّ والديه المتدينين منعاه من اتخاذ الشطرنج مسلكًا في حياته. ذهبت عائلته بعد الحرب العالمية الأولى إلى برلين نأيًا بأنفسهم عن الثورة الروسية. كان النجاح حليفًا له في برلين، وحين هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٥ كان يحمل درجة الدكتوراة في الكيمياء وكان قد قطع شوطًا جيدًا في دراسة الطبّ. انخرط ليبوفتش في الحركات الصهيونية دينيّها وسياسيّها كما شارك في حرب ١٩٤٨ في منطقة القدس. كان رجلًا موسوعيًا كرجال عصر النهضة له العديد من الإنجازات ويشغل الكثير من المناصب الأكاديمية في علوم شتّى، بدءاً من العلوم الحيوية وانتهاء بعلم اللاهوت اليهودي.(١٣)

وعلى غرار ما حدث مع غيره من المفكرين المناهضين للصهيونية، شهد ليبوفتش موقفًا جعله يغيّر تصوّراته. كان هذا الموقف في العملية الإسرائيلية في بلدة قبية عام ١٩٥٣. كانت هذه العملية ردّة فعل انتقامية عقب مقتل أم واثنين من أطفالها على يد متسللين فلسطينيين دخلوا من الأردن. وبالرغم مما أبداه الطرف الأردنيّ من استعداد لمعاقبة الفاعلين، إلا أنّ الجيش الإسرائيلي قرر مهاجمة القرية التي يعتقد أنّ المهاجمين ينتمون إليها، وراح ضحيّة هذه

العملية ستون من أهل القرية معظمهم من النساء والأطفال . فكتبَ ليبوفتش ما يلي :

> يجدر بنا أن نسأل أنفسنا من أين جاء هؤلاء الشباب الذين لا يمنعهم شيءٌ من ارتكاب هذه المأساة؟ ما الدافع الداخليّ يا تُرى لهذه الأفعال؟ هؤلاء الشباب ليسوا جزءاً من عصابة ، وإنما هم نتاج التعليم الصهيوني الإنساني الاجتماعيّ .(١٤)

كان جواب ليبوفتش عن هذا السؤال أنّ الدولة الصهيونية قد باتت تتمتع بقداسة تفوق قداسة اليهودية والقيم الإنسانية : «إذا كان أمن الشعب والأرض مقدسًا ، وإن كان السّيف يدعى «صخرة إسرائيل» (وهو أحد أسماء الرب في اليهودية) فإنّ ما حدث في قبية يكون ممكنًا .»(١٥)

ولعل أكثر الإشارات التي استخدمها ليبوفتش شهرة عند حديثه عن العمليات الإسرائيلية في المناطق المحتلة هي إشارته للمستوطنين باسم «النازيين اليهود» وللدولة باسم «دولة الشاباك» .(١٦) وقد أشار غير مرة في السبعينات والثمانينات إلى أنّه ليس صعبًا أن تصبح إسرائيل فاشيّة أو حتى نازيّة ، ودعا المجتمع إلى النهوض في حربٍ مدنية لمجابهة هذا السيناريو . هذه الآراء والتعليقات بالإضافة إلى انتقاداته الصارمة للسياسات الإسرائيلية حرمته من الحصول على جائزة دولة إسرائيل المرموقة ، والتي تعدّ بمثابة جائزة نوبل محلية ، وتمنح في احتفال مهيب في يوم الاستقلال للمفكرين والعلماء والفنانين تقديرًا لإنجازاتهم . وحين أعلنت لجنة الخبراء التابعة للجائزة عام ١٩٩٣ أن ليبوفتش قد يحصل على جائزة دولة إسرائيل هُرع خصومه منتقدين هذا القرار ومتحججين بآرائه وتعليقاته التي سبقت الإشارة إليها . أما ليبوفتش فما كان منه في المقابل إلاّ أن ردّ الجائزة ورفض قبولها .

عمل الشاعر والكاتب إسحاق لاؤور مع صحيفة هآرتز وكان واحدًا من المفكّرين الإسرائيليين القلائل الذين لم يغيّروا مذ بدؤوا عملهم موقفهم الناقد للصهيونية وللمعاملة التي تنتهجها إسرائيل ضد الفلسطينيين . وقد كتب في أحد

الأيام تحليلًا للعلاقة بين اليسار الصهيوني وليبوفتش، وصفه بأنه «الصوت الروحي الموثوق لليسار الإسرائيلي»، إلا أنّ لاؤور في الوقت ذاته تساءل عن السبب الذي دفع مجموعة من الأشخاص الذين عادة ما يعارضون أي سلطة دينية، إلى قبول توجيهاته الأخلاقية. لعل ذلك يعود إلى مكانته كعالِم مرموقٍ على المستويين المحلي والعالمي والتي جعلت منه بطلًا علمانيًا، أو ربما ما كان يتمتع به من صراحة وما مرّ به من مسيرة شخصية من التحليل إلى التكهّن. ومنذ حرب عام ١٩٨٢ في لبنان كان ليبوفتش يناشد الجنود ويدعوهم إلى رفض الخدمة في المناطق المحتلة. ووفقًا للاؤور، فإن الفرق بين ليبوفتش واليسار الصهيوني تمثل في أنّ دعوته إلى رفض الخدمة العسكرية لم يكن مجرد تكتيك في عملية النضال ضد الاحتلال، بل إنما كان نابعًا من وجهة نظر متلزمة بمبادئ السلميّة ورفض الحرب، وهي مبادئ كان اليسار الصهيوني في واقع الحال يبغضها. فقد قال مرةً: «إن الحرب تنتمي إلى الطبقة الأقذر من الوجود الإنساني»، ولهذا يخبرنا لاؤور إن ليبوفتش لم ينتقد في وجهة نظره هذه الاحتلال وحده وحسب، وإنما انتقد العسكرة المقدسة في المجتمع الإسرائيلي.(١٧)

غيرَ أنّه لم يكن مناهضًا للصهيونية، وذهب أتباعه من مفكري مابعد الصهيونية في تسعينات القرن الماضي إلى أبعد مما ذهب إليه هو. لقد رفض ليبوفتش انتقاد إسرائيل قبل عام ١٩٦٧، ففي نظره كان احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة هو ما أفسد هذه الحركة الإيديولوجية المشروعة. وبقيت آراؤه كما هي لم تتغير حول الصراع العربي الإسرائيلي: «ما يهمّ هو أن لا يكون لنا على غير اليهود حكم وأن لا يكون لغير اليهود حكم علينا».(١٨) وكان يقول متنبئًا «إن أشخاصًا مثلي قد يكون مصيرهم في معسكرات الاعتقال عند القوى السياسية الجديدة.»(١٩) إلا أنه قد جانب الصوابَ في هذا. فقد كان إيمانه الذي لا يتزعزع بالصهيونية كفيلًا بإحياء ذكراه في إسرائيل حتّى أن شارعًا من شوارع القدس الآن بات يحمل اسمه، في حين لم يحصل أي من المفكرين الآخرين الذين ورد ذكرهم في هذا الفصل على مثل هذا التكريم. ولكنّه على أية حال

كان شخصية فريدة لا تتوانى عن انتقاد الظلم ولذا فإنه قد ترك من دون شكٍّ أحد أثرًا عظيمًا على حركة نقد الصهيونية في التسعينات .

وفي الإطار الصهيوني أيضًا وإن كان على تخومه وقاب قوسين من هجره تأتي أعمال أوري أفنيري . كان اسمه هيلموت أوسترمان وقد ولد في ألمانيا عام ١٩٢٣ ، وأخذه والداه إلى فلسطين عام ١٩٣٣ حين تولّى النّازيّون السلطة . تنقّل أوري في شبابه بين الحركة الكنعانية وحركة المراجعة إلى أن انتهى به المطاف خلال حرب ١٩٤٨ في إحدى الوحدات الخاصة التابعة للهاغانا ، تدعى ذئاب سامسون ، والتي كان لها دور نشط في عمليات التطهير العرقي أثناء الحرب في جنوب فلسطين . وكان قد كتب كتابًا أثناء الحرب بعنوان «في حقول الفلسطينيين- ١٩٤٨» والذي اشتمل على موجز لتجاربه في الحرب وما لبث الكتاب أن أصبح من بين الكتب الأكثر مبيعًا . ورغم أنّ الهدف المرجوّ من الكتاب قد كان مناهضة الحرب ، إلا أنّه لم يفهم على هذا النحو .[٢٠] فما كان من أفنيري حينها إلا أن كتب كتابًا آخر يتضمن نقدًا أكثر وضوحًا للحرب بعنوان «وجه العملة الآخر» ، والذي لم يحقق نجاح الكتاب الأول ، إلا أنّه كان أوضح تعبيرًا عن استيائه من السياسات التي تتبعها دولة إسرائيل تجاه العالم العربي والفلسطينيين .[٢١]

تعرض أفنيري لإصابات خطيرة أثناء الحرب ، وقد اشترى بالأموال التي حصل عليها من الدولة لتلقّي العلاج مجلّة كانت تدعى «هاأولام هازيه» (هذا العالم) والتي كانت تعاني من حالة من الفشل ، فطوّرها أفنيري وجعلها مجلّة سياسية معارضة . لقد كانت أقرب إلى الصحف الصفراء في كثير من الجوانب ، إذ ركّزت على نشر الإشاعات والصور شبه الإباحية التي توشّت بها صفحاتها ، غير أنّها كانت في الوقت ذاته تنشر تحقيقات استقصائية فضحت بعض حالات الفساد في إسرائيل والاعتداءات الإسرائيلية في الخارج . وقد شارك أفنيري في الانتخابات عام ١٩٦٥ وصار عضوًا في الكنيست حينها ونجح في عدّة انتخابات لاحقة بعدها .

وبعد حرب الأيام الستّة عام ١٩٦٧ ازداد حضور أفنيري بشكل ملحوظ في الساحة السياسية حتى كاد يتعرض عام ١٩٧٥ إلى الاغتيال . فقد أصبح بعيد انتهاء الحرب أحد قادة الحركة المناهضة للاحتلال كما تصدّر مجموعة من المفكرين والناشطين الذين سعوا للتواصل بشكل مباشر مع منظمة التحرير الفلسطينية (وقد ذهب فعلًا إلى بيروت عام ١٩٨٢ للقاء بياسر عرفات حين كانت المدينة تحت الحصار الإسرائيلي) . وأنشأ عام ١٩٧٥ المجلس الإسرائيلي للسلام الإسرائيلي الفلسطيني ، والذي كان يعدّ من جوانب كثيرة أول آليّة فاعلة مكّنت السياسيين الإسرائيليين من اللقاء سرًا مع منظمة التحرير كمحاولة للتوصل إلى حلّ للأزمة . وصار أفنيري منذ العام ١٩٩٢ في مجموعة جوش شالوم الداعية للسلام والتي أنشأها هو بنفسه ، وقد حاولت الحركة ، وإن لم تفلح حتى اللحظة ، في التواصل بالطريقة نفسها مع حماس ، ولها أنشطة عديدة تدعو من خلالها إلى المقاطعة الدولية للمنتجات التي يتمّ تصديرها من المستوطنات اليهودية في الضفّة الغربيّة .(٢٢)

لم يكن يمثل أفنيري وجهة نظر مناهضة للصهيونية ، تمامًا كما كان الأمر مع ليبوفتش ،كما كان مثله يرى أنّ حرب ١٩٦٧ هي التي جرّت الوبال إلى إسرائيل . بيدَ أنّ تسليطه الضوء على السياسات القمعية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في إسرائيل قبل عام ١٩٦٧ والاعتداءات التي قامت بها ضد العالم العربي كان من أهم المصادر التي اعتمد عليها الأكاديميون في التسعينات في نقدهم الأكثر عمقًا للروايات الصهيونية أو بالأحرى لفكرة إسرائيل .

ثمّة ناشطون آخرون كذلك مثل أكيفا أور ، وميشيل وارتشافسكي ، وإيلان هاليفي وأوري ديفيس ، وكثيرون غيرهم لا يسع المقام هنا لذكرهم ، خرجوا من إطار الصهيونية ووجهوا سهام نقدهم المباشرة لها . كلّ واحد من هؤلاء كانت له لحظة إلهام إن صحّ التعبير بسبب موقفٍ ما غيّر نظرتهم بخصوص الواقع الصهيوني في إسرائيل . معظمهم مرّوا في تجربة مماثلة اشتملت على حدث تكوينيّ شكّل لحظة انكشاف لوجه الصهيونية الاستعماري ، ولإسرائيل كدولة

فصل عنصري ، وللولايات المتحدة كدولة إمبريالية .[٢٣] ويمكن للمؤرخين في المستقبل أن يستفيدوا الآن من «أرشيف المنشقّين» والذي تمّ بجهود المعالجة النفسيّة أبيجايل أباربانيل ، والتي نجحت في تشجيع عدد كبير من اليهود والإسرائيليين على وصف تجاربهم والحديث عنها .[٢٤]

ولد أكيفا أور في برلين عام ١٩٣١ وهاجر مع عائلته إلى فلسطين وهو طفل صغير . والتحق مثل كثيرٍ غيره من المراهقين بالهاغانا وكان ذلك عام ١٩٤٥ كما خدم في البحرية الإسرائيلية عام ١٩٤٨ (فقد كان في شبابه بطلًا في رياضة السباحة) . ثم عمل بعد ذلك على متن سفينة تجارية وطنية ، وشهد وقتها إضرابًا للبحّارة أنهته قوات الشرطة باستخدام العنف المفرط ، وتم ذلك بدعم ضمنيّ من نقابة التّجار التي يتزعمها الهستدروت ، وهو الاتحاد العام لنقابات العمال الإسرائيلية . وفي خضمّ انشغاله بدراسته في مجال العلوم أصبح أوكيفا ناشطًا في العديد من الجماعات السياسية ذات التوجه اليساري المناهض للصهيونية .[٢٥] ثم ترك إسرائيل عام ١٩٦٤ وانتقل إلى لندن وصار عضوًا بارزًا في حركة التضامن مع فلسطين كما انضم إلى جماعات اشتراكية بريطانية . نشر العديد من المقالات في صحيفة «القزم الأسود» (Black Dwarf) وهي صحيفة ترأس تحريرها في الستينات طارق علي ، والتحق بمنظمة التضامن التي أنشأها الفيلسوف اليوناني كورنيليوس كاستورياديس والتي كان مقرها في لندن . ثم عاد في التسعينات إلى إسرائيل ومكث فيها حتى وفاته عام ٢٠١٣ .

كتب أور في مواضيع متعدّدة تتعلق بالديمقراطية والاشتراكية والسياسة ، إلا أنّ أحد كتبه الأولى الذي نشره بعنوان «السلام ، السلام ولا سلام» وكتبه مشاركةً مع زميل له يدعى موشيه ماشوفر وظهر في العام ١٩٦١ ، يبدو وكأنّه قد أُلّف في فترة التسعينات بقلم كاتب في حركة ما بعد الصهيونية . ولد ماشوفر في تل أبيب عام ١٩٣٦ وكان أستاذًا للرياضيات حين أتى أوكيفا أور إلى الجامعة العبرية طالبًا . ويقع كتاب «السلام ، السلام» في خمسمائة صفحة ويضم فصولًا حول التطهير العرقيّ الذي واجهه الفلسطينيون عام ١٩٤٨

بالإضافة إلى الفظائع التي ارتكبتها إسرائيل ضد المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل نفسها . يعد هذا الكتاب أول تحليل منهجي باللغة العبرية عن الصهيونية باعتبارها حركة استعمارية ، وأول كتاب يشير إلى أن النضال لتحقيق السلام في إسرائيل وفلسطين يجب أن يرتكز على مناهضة الاستعمار .

أما ميشيل وارتشافسكي والمكنّى ميكادو فقد ولد في أوروبا الوسطى ، حيث ولد العديد من المفكّرين المناهضين للصهيونية الذين أتيت على ذكرهم (وسأتحدث في فصل آخر عن اليهود العرب الذين نقدوا الصهيونية في فترة لاحقة من تاريخ الدولة) . ولد ميكادو إذن في ستراسبورغ لعائلة يهودية أرثوذكسية . كان والده حاخامًا كبيرًا في ستراسبورغ وعرف بدعمه للحرب العالمية الثانية . عام ١٩٦١ قررت عائلته أن تبعث به إلى مدرسة دينية يهودية (يشيفا) في القدس ، حيث درس عدد من القادة اللاحقين لحركة جوش إيمونيم ، وهي حركة استيطانية تنشط في المناطق المحتلّة . بيدَ أنّ وارتشافسكي سلك وجهةً أيديولوجية معاكسة تمامًا ، ساقه إليها حدثٌ فاصل شهده وتمثّل في طرد أهالي ثلاث قرىً فلسطينية قريبة من دير اللطرون (بين تل أبيب والقدس) وذلك في العام ١٩٦٧ . كان الجيش الإسرائيلي قد حاول مرارًا احتلال هذه القرى عام ١٩٤٨ وقتل العديد من جنوده وقتها سعيًا للسيطرة على هذه المنطقة إلا أن الجيوش العربية استبسلت في الدفاع عنها والحفاظ عليها . إلا أنّ الجيش الإسرائيلي تمكّن في حزيران ١٩٦٧ من بسط سيطرته على هذه القرى وطرد سكانها بطريقة مهينة .

شهد ميكادو هذه الحادثة عيانًا ، وحين بدأ الدراسة في الجامعة العبرية في أواخر الستينات قرّر مع مجموعة من أصدقائه المتوافقين من الناحية الفكرية على إنشاء حركة تضامن مع الفلسطينيين داخل الخط الأخضر وخارجه ، حتّى أنّه قد حاول وإن لفترة وجيزة أن يستلهم تجربة ربيع براغ عام ١٩٦٨ . وفي عام ١٩٨٤ سعى ميكادو جاهدًا لتأسيس شيء أكثر استدامةً في هذا الصدد ، فجاءت فكرة مركز المعلومات البديلة ، والذي ما يزال حتى الآن يسجل

الاعتداءات التي يرتكبها الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزة بالإضافة إلى تسجيل حالات الاعتداء على الفلسطينيين داخل إسرائيل. لقد كانت التحليلات الرصينة والتقارير التي تناولت نطاقًا واسعًا من المجالات بالإضافة إلى النقاشات الإستراتيجية التي عقدت مصدرًا بالغ الأهمية للناشطين داخل إسرائيل وخارجها، خاصة بعد ثورة الإنترنت والتي زادت من القدرة على الوصول إلى هذه المعلومات واستخدامها من أجل فهم الواقع على الأرض والتفاعل معه بالشكل الأنسب. وقد دفع وارتشافسكي مثل كثير غيره من الناشطين ثمنًا باهظًا بسبب آرائه وأنشطته، إذ سُجِنَ لأشهر وهو أبٌ لاثنين من الأطفال.[٢٦]

هنالك اثنان من روّاد هذا الفكر كانا على استعداد لتحمّل ما هو أكثر من الحبس أو الاتهام بالخيانة من قبل المجتمع، وهما إيلان هاليفي وأوري ديفيس، واللذان تحوّلا تمامًا إلى الطرف «الآخر».

ولد هاليفي في فرنسا الفيشية لعائلة لها قصّة عجيبة. فأبوه ولد في القدس، واشترك بعد تجواله حول العالم في الألوية الدولية خلال الحرب الأهلية الإسبانية. أمّا أمّه فكانت مقاتلة مع قوات الكفاح الفرنسية في باريس. وأرسل في صباه إلى الولايات المتحدة بعد انفصال والديه، وانضم هناك إلى حزب الفهود السود[*]، وكانت تربطه علاقة جيدة بمالكوم إكس. وقد قال بعد سنوات إنّ بشرته السوداء جعلته يشعر بأنه أمريكي أفريقي وأنّ ذلك ساعده على أن يعدّ واحدًا منهم. سار هاليفي على خطى أبيه واختار قضية للدفاع عنها ووجد نفسه في الجزائر بعد تحريرها وحلّ ضيفًا على جبهة التحرير الوطني في الجزائر. في العام ١٩٦٥ جاء هاليفي إلى إسرائيل وعاش في كيبوتس غان شموئيل قرب الخضيرة، لكنّه طرد منه بسبب آرائه المتطرفة.[٢٧]

(*) حركة نشأت في أمريكا بعد مقتل مالكم إكس وكانت تطالب بحقوق الأمريكيين من أصول إفريقية وكانت تحمل السّلاح. (المترجم)

شهدت مسيرة هاليفي السياسية منعطفًا عام ١٩٧٦ حين ترك إسرائيل إلى فرنسا ومن هناك بدأ بزيارة بيروت ومكاتب منظمة التحرير الفلسطينية فيها واستمرّ الأمر كذلك حتى عيّن رسميًا في المنظمة عام ١٩٨٢ . وقد مثّل هاليفي المنظمة في منظمة الأممية الاشتراكية في مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١ . وواصل العمل مع المنظمة إلى أن صار نائبًا لوزير الخارجية وكان حينها نبيل شعث . لقد كان هاليفي ناشطًا ورجل سياسة أكثر منه رجل قلم ، بيدَ أنّ المقابلات التي أجريت معه تعطينا فكرة عن نظرته إلى العالم ، فقد كان رافضًا للصهيونية رفضًا قاطعًا وأعلنَ مرةً قائلًا إنه «مائة بالمائة يهودي ومائة بالمائة عربيّ» .

والأمر ذاته تكرر مع أوري ديفيس الذي انضم لمنظمة التحرير عام ١٩٨٤ . ولد أوري في القدس عام ١٩٤٣ ونشأ في كفر شمرياهو أحدِ أحياء تل أبيب الراقية . تجلّت كراهيته للصهيونية مبكّرا حين أفلح في تجنب الالتحاق بالخدمة العسكرية من خلال الالتحاق بالخدمة المدنية (وهو أمر قلّما يتحصّل عليه شاب يهودي في أوائل الستينات في إسرائيل) . بعد انتهائه من الخدمة المدنية شعر بانجذاب نحو نضال الفلسطينيين شمال إسرائيل رفضًا للاستيلاء على أراضيهم . وقد كان مهتمًا بشكل خاص بقضية سلب أراضٍ في عدد من القرى بغيةَ إنشاء مدينة جديدة لليهود فقط تدعى كرمئيل على الطريق بين عكا وصفد . فبدأ عام ١٩٦٤ بالتظاهر في تلك المنطقة ، وكان يكون وحده أحيانًا ، ودخل مرةً في إضراب عن الطعام وأخذَ حينها إلى إحدى القرى وأقام فيها . أعلنت السلطات الإسرائيلية تلك الأراضي المقتطعة مناطق عسكرية مغلقة ، غير أنّه خالف هذه الأوامر غيرة مرّة معرّضًا نفسه للاعتقال ، ثم اعتقل في إحدى المرّات وسجن لنصف سنة أعلن خلالها أيضًا إضرابه عن الطعام . وبعد كرّ وفرّ في ميادين السياسة المحلية والبلدية قرّر ديفيس التحرّك بطريقة جديدة فانضمّ إلى فتح ، والتي ما يزال عضوًا في مجلسها الثوري حتى الآن .[٢٨]

كان ديفيس من أوائل من مزج بين مؤهلاته الأكاديمية المهنية ، فهو حاصل

على دكتوراه في الأنثروبولوجيا، مع التزاماته السياسية. فقد تمكّن بفضل تخصصه في الأنثروبولوجيا من الكشف عن الطبيعة العنصرية لدولة إسرائيل.(٢٩) ولذا فإنه يعدّ مثالًا مهمًا للأجيال القادمة ليتعلموا كيفية مواجهة الصهيونية في الأكاديميا الإسرائيلية ومن خلال التخصص الذي يبرع به كل فرد، مع أنّ ديفيس كان قد دفع ثمن ذلك حينَ طُرد من عمله.(٣٠) كان ممكنًا في إسرائيل أن يكون أستاذ العلوم مناهضًا للصهيونية ويبقى في عمله، بينما لا يمكن أن يكون أستاذًا في علوم الاجتماع أو الإنسانيات. لقد تم التعامل مع جميع الأعمال الفكرية التي تنضوي على نقدٍ للصهيونية باعتبار أنّها آراء سياسية وأيديولوجية لا أساس لها من الصحة إلى أن جاء ديفيس وقدّم أعماله الرصينة في نقد الصهيونية.

ولكن حتّى المناضلون الفرادى يحتاجون بيتًا يضمّهم، ولذا فإن معظم هؤلاء الناشطين كانوا بطريقة أو بأخرى مرتبطين بحركة «مصبن» وهي أقدم حركة يهودية مناهضة للصهيونية في إسرائيل (عدا عن الحزب الشيوعي) أو بأيّ من المؤسسات المنبثقة.

الحركات المناهضة للصهيونية: «مصبن» وأخواتها

في العام ١٩٦٢ طردَ موشيه ماشوفر، وأكيفا أور، وأوديد بيلافسكي وإرميا قبلان من الحزب الاشتراكي الإسرائيلي. كانت هذه الأسماء حينها من كوادر الحزب الشابّة، وكان الذنب الذي عوقبوا من أجله بالطرد هو انتقادهم المستمر لسياسات الحزب، ولاسيّما في انصياعه الأعمى لما كان يريده الاتحاد السوفييتي. وكان من جملة ما انتقدوه على الحزب أنه ومنذ العام ١٩٤٨ فشل في تطوير الظروف والإمكانات في البيئات الاجتماعية الطبيعية للحزب كالأقلية الفلسطينية في إسرائيل والطبقات الأدنى اجتماعيًا واقتصاديًا في الدولة اليهودية.(٣١)

وكان يشعر هؤلاء الشباب بالحاجة إلى خطاب أكثر وضوحًا بخصوص

الثورة الاشتراكية في إسرائيل والشرق الأوسط بأكمله ولذا قرروا تأسيس منظمة سياسية جديدة تكون أكثر قدرة على التعبير عن هذه التوجهات. كما اقترحوا أن ينشئ العمال في إسرائيل مجالس خاصة قادرة على اتخاذ القرارات الأساسية بخصوص السياسات المتبعة والتحركات المناسبة من دون أن يكونوا مرغمين على الرجوع إلى الحزب الاشتراكي الذي كان مكتبه التنفيذي يتخذ القرارات جميعها.

كانت البيانات الأولى لهذه الحركة الناشئة تعلن بلا مواربة بأنها ترفض الصهيونية (بينما لم تكن هذه النقطة واضحة قط في الحزب الاشتراكي) وأن الحركة تدعم مطالب الحركة الوطنية الفلسطينية (لم تكن هذه النقاط واضحة في العام ١٩٦٢ وذلك لأن الميثاق الوطني الفلسطيني الذي حدد هذه المطالب لم يكن قد تشكّل حتى العام ١٩٦٤).

وقد نشرت هذه الأفكار في بيان عام للحركة الجديدة التي سمّيت «مصبن» (وتعني البوصلة). وقد عمد المشاركون في اجتماعهم الأول عام ١٩٦٢ إلى تعريف الحركة بأنها مؤسسة تطوعية يشارك فيها الإسرائيليون وملتزمة بالثورة الاجتماعية داخل إسرائيل وفلسطين. وقد تمكنت الحركة بعد سنوات معدودة من جذب عدد من الإسرائيليين العرب واليهود للانضمام إلى صفوفها. وقد تشكّلت الحركة من الطلاب بشكل أساسي، وكان اليهود فيها أكثر من العرب، وكان معظم اليهود فيها من حركة الكيبوتس بينما كان الفلسطينيون يأتون من المدن. وفي عام ١٩٦٥ انضمّت «مصبن» إلى أوري أفنيري لتشكيل حزب سياسي برلماني للمشاركة في الانتخابات الوطنية، ومع أنّ أحدًا من أعضاء «مصبن» لم يترشّح للانتخابات، إلا أنّهم كانوا يدعمون بأصواتهم الطرف الأنسب.

كانت نواة هذه الحركة اثني عشر عضوًا فقط، ولكنّها توسّعت وانتشرت بعد حرب عام ١٩٦٧، كما صار لها حضور على الساحة الدولية في الثامن من حزيران حين نشرت في التايمز اللندنية إعلانًا مشتركًا مع منظمة الجبهة الشعبية

لتحرير فلسطين ، داعين في الإعلان إلى التخلّص من السمة الصهيونية لإسرائيل وإنشاء دولة فيدرالية اشتراكية غير قوميّة . كما بشّر الإعلان بأنّ الجميع في هذه الدولة الجديدة سيتمتع بكامل حقوقه الثقافية والمدنية وأنّ الدولة ستكون ملتزمة بتحقيق الوحدة الاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط . ثم التحق بعض أعضاء الحركة المرموقين مثل أكيفا أور و موشيه ماشوفر ببعض فلسطينيي المنفى في أوروبا بغيةَ إنشاء حركة تضامن مع الفلسطينيين . أمّا في داخل إسرائيل فقد صارت «مصبن» أكثر حركات الضغط حضورًا ضد أنشطة الاحتلال ، مما حدا بالسلطات غير مرّة إلى اعتقال وحجز العديد من أعضائها .

وقد شهدت سبعينات القرن الماضي أزمة أيديولوجية في حركة «مصبن» وذلك حين ألفاها بعض الأعضاء مغرقة في السلبيّة ، فانفصلوا عنها ليؤسسوا عددًا من المجموعات الأخرى . كانت أولى هذه المجموعات هي «اتحاد العاملين» (وتعرف كذلك باسم أفانجارد) . وجهت هذه المجموعة انتقاداتها لحركة «مصبن» لأنها ليست ناشطة بما يكفي بين مجتمعات العمال في إسرائيل بينما تحوز الساحة الدولية جل اهتمامها . وقد تفرّع عن هذه المجموعة مجموعة أخرى تدعى التحالف الاشتراكي الثوري ، وتصدر لهم مجلّة باسم «مآفاك» وتعني «النضال» . كانت هذه المجموعة تدعو إلى إستراتيجية سياسية تركّز على إنشاء دولة ذات قوميتين على أرض فلسطين التاريخية . وكان قد نشط بعض أعضاء هذا التحالف خلال التسعينات من خلال منظمة جديدة أخرى سمّيت «عبرَ الشّرارة» واعتقلوا على خلفيّة ارتباطات لهم بمنظمات يسارية داخل منظمة التحرير الفلسطينية .[٣٢] بعض هذه المجموعات في هذه الأيام تشارك في الانتخابات البرلمانية مثل حزب دعم العمال والذي يصبّ كل جهوده على الدفاع عن حقوق العمال ولكنّه لم ينجح حتى الآن في الدخول إلى الكنيست .

نشأت عن هاتين المجموعتين الأساسيتين مجموعة ثالثة وتدعى «الجبهة

الحمراء» والتي عزمت على أشياء عديدة من ضمنها أن يكون لها ارتباط مباشر بالنضال الفلسطيني المسلح . أحد أهمّ أعضاء هذه الحركة خارج إسرائيل وأكثرهم شهرة هو أودي أديف ، والذي كان شابًا في كيبوتس غان شموئيل (الكيبوتس الذي آوى إيلان هاليفي) ، والذي قرر بعد أن شارك في سلاح المظليّة في الجيش الإسرائيلي أن ينشئ مع بعض الأشخاص شبكة علاقات سريّة مع منظمة التحرير الفلسطينية . تم اعتقال أعضاء الجبهة الحمراء في كانون أول عام ١٩٧٢ واتهموا بإنشاء شبكة تخريب وتجسس عربية يهودية في إسرائيل . لقد كان واضحًا أنهم لم يصلوا إلى هذا الحدّ ولم يقصدوا الوصول إليه ، بيدَ أنهم حوكموا وسجنوا لفترات طويلة ولم يفرج عنهم إلا عام ١٩٨٥ حين أُسر ثلاثة جنود إسرائيليين في لبنان وتمت مبادلتهم مع الجبهة الشعبية- القيادة العامة بأكثر من ألف أسير فلسطيني بالإضافة إلى السجناء من الجبهة الحمراء .[٣٣] بقي لي أن أذكر أخيرًا مجموعة رابعة تعرف باسم العصبة الاشتراكية الثورية (وتعرف كذلك باسم مصبن الماركسية) . كانت جميع هذه الحركات بالإضافة إلى المجموعات التي انفصلت عنها تشترك فيما بينها بالنموذجين الماوي والتروتسكي من الفكر الاشتراكي وكان لديها نزوع نحو المشاركة في النضال المسلح ضدّ الدولة .

كان يجب أن يمثل هؤلاء اليهود المخالفون والمنشقّون عن المجتمع اليهودي كلّ ما كانت الصهيونية تفخر به . فالعديد منهم كانوا شبابًا بارعين يعيشون في الكيبوتس ويخدمون في الوحدات الخاصة في الجيش . وبالرغم من قلّة عددهم ، إلا أنّ المجتمع في عمومه كان يحيّره أن يعتنق هؤلاء الشباب مثل هذه الأفكار الثورية والمناهضة للصهيونية .

وبصرف النظر عن السمات التفصيلية لهذه المجموعات المنشقّة تبقى حركة «مصبن» الأكثر أهمّية في سياق تاريخ الأفكار التي أسعى لبيانه هنا . فقد كانت المواقف التي تبنتها حركة «مصبن» قريبة من تلك التي وضعها من كانوا يتحدّون المستقبل . لم أكن قد قرأت ما صدر من كتابات تنتمي إلى حركة

«مصبن» قبل شروعي في تأليف الكتب التي تنتقد الرواية الإسرائيلية لحرب عام ١٩٤٨ وتُظهر الوجهَ الاستعماريّ للصهيونية ، وحين قدم لي أكيفا عام ١٩٩٧ نسخة من كتابه «السلام ، السلام ولا سلام» مع مجموعة أخرى من إصدارات حركة «مصبن» فاجأني مقدارُ التشابه الذي يجمع بين رؤيتي في التحليل والتنبؤ مع تلك الرؤية التي تعرّفت إليها في تلك الكتابات .

وتسري هذه الملاحظة على أعمال أخرى صدرت في التسعينات كذلك ، إذ تعكس نظرة «مصبن» عن الصهيونية كأداة استعمارية وتتحدث عن عام ١٩٤٨ بوصفه عامًا كارثيًا ، وتتفق مع نقد الحركة للسياسات الإسرائيلية تجاه اليهود العرب والأقلية الفلسطينية والعمليات التي تنفذها في المناطق المحتلة . ومع أنّ النّقاد الذين أتوا لاحقًا لم يكن لهم القدرة على الوصول إلى الأراشيف ولم يكونوا مهتمين كثيرًا بالعمل الأكاديمي المتخصص ، إلا أنّهم خلصوا إلى وجهة النظر عينها . ولعل الأهمّ في ذلك أن نذكّر بأنّ الشجاعة التي أبدتها حركة «مصبن» كانت مصدرَ إلهام حقيقيّ . فقد كان يخرج أعضاء هذه الحركة رجالًا ونساءً في مجموعات صغيرة حاملين شعارات استفزازية من دون أن يرهبهم اعتداء المارّة أو الشرطة عليهم لفظًا أو فعلًا . وبفضل هذا الالتزام والتصميم تمكنوا من التأثير بغيرهم وهم يعملون حتى اليوم بعزم ومثابرة صارفين أنظارهم عن التضييق الذي يواجهونه .

هناك قلّة من الأكاديميين انضمّوا إلى هذه المجموعة مع أنّ عقد السبعينات كان قد شهد ظهور مجموعة من الأكاديميين الذين داخلتهم الريبة بشأن الصهيونية ، وكان وجه الاختلاف بينهم وبين من سبقهم من الناشطين متعلّقا بالسبب الذي أثار شكوكهم حول فكرة إسرائيل ، إذ لم يمرّ هؤلاء الأكاديميون بأحداث تكوينيّة معينة أو لحظة إلهام شخصية دفعتهم للتساؤل والشك ، وإنما بدأت تنقلقل بداهاتهم حين كشفت لهم أبحاثهم الأكاديمية الافتراضات الخاطئة والفبركات التاريخية التي قامت عليها فكرة إسرائيل .

في سياق من الأعمال الأكاديميّة المتميّزة ظهرت إلى الساحة أول أصوات في العالم الأكاديمي الإسرائيلي تثير شكوكًا عميقة حول طبيعة الدولة وأيديولوجيتها وسياساتها . فقد كانت الأكاديميا الإسرائيلية حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، والتي تعرف في إسرائيل أحيانًا باسم «حرب يوم كيبور» ، تمتاز بانصياعها التام وموقفها المبالغ في الوطنية والمعتنق من دون تردد للصهيونية . ومع أنّ المعلمين المخالفين لم يتعرضوا لمثل ما تعرّض له الناشطون من الأذى ، سواء على مستوى السجن أو الإدانة الشعبية ، إلا أنّ إدراك هؤلاء الأكاديميين بأنهم إنما يكتبون على الماء جعلهم يشعرون بالتهميش وبعدم الانتماء إلى الجامعات الإسرائيلية التي يعملون فيها .

كان من بين هؤلاء أوريل تال ، أستاذ التاريخ اليهودي الحديث في جامعة تل أبيب . كان تال كاتبًا غزيرَ الإنتاج في موضوع العلمنة اليهودية في العصر الحديث وكان يبدي استياءه من حقيقة أنّ الأكاديميا الإسرائيلية تُرغمُ على خدمة الأمّة والصهيونية .(٣٤) وفي سلسلة من المحاضرات التي ألقاها أمام زملائه في قسم التاريخ اليهودي في جامعة تل أبيب في الثمانينات ، طرح تال بعض الأسئلة المثيرة حول تخصص جديد نشأ في المجال الأكاديمي الإسرائيلي بعنوان «الدراسات اليهودية» . كلّ جامعة من الجامعات الإسرائيلية اعتبارًا من السبعينات كان فيها قسم خاص بالتاريخ اليهودي ، وبعضها تحمّست أكثر وفتحت أقسامًا باسم «تاريخ أرض إسرائيل» أو حتّى «دراسات أرض إسرائيل» ، والتي نحت في تدريسها وأبحاثها منحىً ذا منطق منهجي محدّد . وكان اعتراض تال منصبًا على المحاولات الساعية لجعل دراسة الصهيونية واليهودية وتاريخ أرض إسرائيل خاضعة للولاء الأيديولوجي ومنحصرة في أدوات منهجية محدّدة لا مجال للخروج عنها ، بينما سعى تال في المقابل إلى تبنّي منهجية عالمية بشأن هذه الموضوعات جميعها . فهو لا يرى بداءةً داعيًا لوجود «تاريخ إسرائيل» كفرع معرفيّ قائم بذاته ، وإنما الفرع المعرفيّ هو علم التاريخ ، وبصرف

النظر عن المنهجيات والنظريات والأدوات المستخدمة في هذا العلم ، فإنها يجب أن تنطبق جميعها وبشكل متساوٍ عند دراسة أي تاريخ ، سواء التاريخ الإفريقي أو الأوروبي أو اليهودي ، ماضيًا أو حاضرًا .

بيدَ أن الفشلَ في هذا السعيّ المثالي كان لا محالة في انتظار تال . فقد استمرت الجامعات بنشر بذور هذا «الفرع المعرفي» الجديد الذي يدعى الدراسات اليهودية أو دراسات أرض إسرائيل حتى نَمت وربَت ، وظلت البيئة الأكاديمية الخاضعة للسياسة وغير الآبهة بما يجري ببقية العالم جدارًا منيعًا يرفض أي محاولة لتأثير فكرة الحقول المعرفية المتداخلة وتعددية التخصصات في الدرس الأكاديمي ، عدا عن الرفض القاطع لفكرة الدراسات المقارنة . وهكذا استمر تدريس الصهيونية والنسخة الصهيونية من اليهوديّة والبحث فيهما باعتبارهما حالات دراسة خاصّة تقع خارج الإطار العام الناظم للدراسات التاريخية .

إلا أنّ ما لاحظه تال في إسرائيل في منتصف الثمانينات قد بات واضحًا ومنكشفًا اليوم . فقد خسر الأكاديميون الإسرائيليون المختصون بالدراسات الإسرائيلية والصهيونية ألقهم الذي اكتسبوه سابقًا في الخارج وصار ينظر إليهم على أنّهم أصحاب دعاية سياسيّة لترسيخ الرواية الوطنيّة . ولم يقف الأمر عند هذا الحد وحسب ، إذ بدأت تظهر انتقادات على الصعيد الدولي وكان لها أثر داخل الأكاديميا الإسرائيلية نفسها . وقد تشكّل النّقد الذي طوّره تال من خلال تفاعله مع العالم الأكاديمي خارج إسرائيل ، بينما لم يكن من سبقه من المخالفين الأكاديميين منشغلين كما كان هو في تطوير نقد فلسفي ونظري للأكاديميا الإسرائيلية . لقد كانت مشكلتهم مع المؤسسة الأكاديمية الوطنية أنها كانت لا تلقي بالًا إلى معضلات المجتمع الذي تعيش فيه ، وهي معضلات أخذت تظهر بوضوح بعد حرب عام ١٩٧٣ .

لقد شكّلت هذه الحرب في ذاتها نقطةَ تحوّل مهمّة . فقد شنّت القوات المصرية والسورية هجومها المفاجئ في ذلك الشهر على القوات الإسرائيلية في مرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء ، وهي مناطق رزحت تحت السيطرة

الإسرائيلية منذ العام ١٩٦٧ . وقد كان هذا الهجوم كفيلًا بزلزلة الأرض تحت أقدام العديد من الإسرائيليين ، كما أنّ صدى هذا الهجوم وصل إلى المؤسسات الأكاديمية قبل أن يلقي بظلاله على الثقافة الإسرائيلية بعمومها . لقد وضعت الحرب حدّا لحالة الانتشاء والتوافق التي سادت في المجتمع الإسرائيلي وكشفت عن الخلل القائم في النموذج الأخلاقي الذي طالما تبجّحت به إسرائيل . لقد كانت هذه الحرب من أوجه عديدة دافعًا للعديد من الأكاديميين وغيرهم للبدء في عملية بحث عن إجابات لكثير من الأسئلة بخصوص الشرعيّة الأخلاقيّة للدولة ، وتمحيص سياساتها الماضية والقائمة بغيةَ إعادة النظر في جوهر فكرة إسرائيل وكل ما تنضوي عليه .

ساد في إسرائيل حتّى اليوم الثالث من الحرب شعور أصاب الجنرالات والسياسيين والعامّة بأن إسرائيل قد شارفت على الهلاك ، وقد طرح بشكل جدّي احتمال اللجوء للسلاح النووي كوسيلة أخيرة إن لم تتكفّل الولايات المتحدّة بنجدتها . لقد توغّلت القوات السورية داخل مرتفعات الجولان ، بينما تقدّمت القوات المصرية في سيناء وأسرت عشرات الجنود الإسرائيليين وظهر أنّ سلاح الجوّ الإسرائيلي الذي لا يقهر قد شلّت فعاليته أمام الأنظمة المضادة للطائرات التي بحوزة العدوّ . ولولا خطّ الإمداد الأمريكي والإستراتيجية الناجحة في الشمال لما تمكنت إسرائيل من استعادة توازنها لاحقًا ، ولكن حتّى هذا لم يكن كافيًا للحدّ من حالة انعدام الأمن وتزعزع الثقة بقدرة القيادة على الحفاظ على الدولة اليهودية . كانت حكومة حزب العمّال بقيادة جولدا مائير قد تلقّت صفعة قويّة في الأيام الأولى من هذه المعضلة ووقع اللوم عليها . ومع أنّ لجنة التحقيق التي عهدَ إليها النظر في هذا الأمر قد أعفت السياسيين مثل جولدا مائير ووزير دفاعها موشيه ديان من المسؤولية عن هذا الفشل وألقت باللوم بدلًا من ذلك على قادة الجيش والمخابرات ، إلا أنّ القواعد الانتخابية كان لها رأي آخر . اضطر حزب العمّال كي يتجنّب الهزيمة في الانتخابات أن يستعين ببطل حرب ١٩٦٧ ، إسحاق رابين ، الذي كان حينها سفيرًا في واشنطن ،

وتمكّن بالفعل من الفوز في الانتخابات لصالح حزب العمال . ولكنّ الأمر اختلف عام ١٩٧٧ حين ترشّح عن حزب العمال شيمون بيريز وهزم بسهولة أمام مناحيم بيغن الذي ترشّح عن حزب الليكود .

بيدَ أنّ الأمر لم يكن مجرّد تغيير في الشخصيات التي تحكم البلاد ، إذ إن تلك الحرب قد فعلت فعلتها في المجتمع الإسرائيلي وتركته في حالة صدمة عميقة ، وفقد العديد من الإسرائيليين ، وإن لفترة قصيرة ، شعورهم بالحصانة الأبدية من الهزيمة . ولم تتولّد هذه الحالة بسبب الأداء الضعيف للجيش في أرض المعركة وحسب ، وإنما من الشكوك المتزايدة حول السياسات الإسرائيلية من قبل مناصرين تقليديين لإسرائيل في الساحة الدولية . في الوقت ذاته ، لم تكن حرب عام ١٩٧٣ في ذاتها كافية في إثارة الشكّ بالقضيّة بأسرها لدى المشايعين الأوفياء لفكرة إسرائيل . هنالك تطوّرات سابقة كانت قد زرعت تلك الشكوك في زوايا متعددة في وعي العامّة حتى قبل الحرب . إذ يعرف أنّه في أعقاب حرب ١٩٦٧ كان مسؤولون كبار في الدولة ووزراء آخرون متورطين في قضايا فساد معقّدة مع تركيز إعلامي واسع عليها ، وكان معظم من اشتبه في انخراطهم بمثل هذه الأنشطة وأدينوا لاحقًا بها أعضاء في حزب العمال الحاكم . ونتيجة لذلك بدأت الحركة المؤسسة للدولة تفقد بريقها وقدرتها على السيطرة سياسيًا واجتماعيًا وثقافيًا أمام يهود إسرائيل .

غيرَ أنّ الحرب وقفت على الأبواب لعقدين كاملين ؛ عقدِ السبعينات والثمانينات ، والتي تقلقلت خلالها بعض البداهات الصهيونية الأساسية وبعضها الآخر كشف زيفه . وفي الهدوء النسبي الذي أعقب العام ١٩٧٣ انصبّ التركيز على بعض الإشكالات التي استعصت لفترة من الزمن ، ولعل أهمّها هو القول بأن الدولة كانت بوتقة انصهرت فيها الهوية اليهودية الجديدة . غير أنّه قد بات واضحًا أنّ المجتمع تتنازعه توتّرات عديدة بين مجموعات ثقافية وعرقية متباينة ، ولم تتكاتف سوى على حذر في ظل غياب السلم والشعور المتواصل بالأزمة .

كانت التحركات الاجتماعية والثقافية في تلك الفترة والمعبّرة عن حالة عدم الرضا والتنافر في المجتمع الإسرائيلي قد بدأت بالظهور، إلى أن تحوّلت فيما بعد إلى مظاهرات ضدّ ما تفعله الدولة من هضم لحقوق بعض المجتمعات اليهودية المهمّشة وبالأخص اليهود من أصول شمال إفريقية. وقد سعى بعض الشباب اليافعين المتحمّسين إلى محاكاة الحركة الاحتجاجية التي صعّدها بعض الأمريكيين من أصول إفريقية في الولايات المتحدة، وتأسست في أوائل السبعينات حركة الفهود السود في إسرائيل تقودها مجموعة من الشباب المتميّزين.

رؤوبين أبيرجل، ولد في المغرب ووصل إلى إسرائيل عام ١٩٥٠ في سنّه الثالثة. استقرّت عائلته في حيّ مصراره، أحد الأحياء الفلسطينية في القدس والذي طرد منه سكانه عام ١٩٤٨، وكان هذا الحيّ في تلك الفترة أشبه ما يكون بمنطقة عازلة بين القدس الشرقية التابعة للأردن حينها، والقدس الغربية الإسرائيلية، كما كان من أكثر الأحياء فقرًا في المدينة، وشهدَ بين فترة وأخرى تبادلًا لإطلاق النار بين الجيشين الإسرائيلي والأردنيّ.

قضى أبيرجل بعض الوقت خارج حيّه وتعلّم في كيبوتس في النقب، وحين عاد إليه عاش مثل كثير غيره من الشباب مهمّشًا من قبل القانون والمجتمع. وحين رأى حالة الفقر التي تعيشها عائلته وما ألفاه من انعدام للأمل، قرر عام ١٩٧١ مع مجموعة من أصدقائه في الحيّ تشكيل حركة تظاهريةً لمطالبة الحكومة بالاستثمار في قطاعات التعليم والمواصلات والإسكان في الأحياء الفقيرة.(٣٥) كان لأبارجيل صديق يدعى شارلي بيتون، قدم إسرائيل عام ١٩٥٠ من الدار البيضاء وعمره سنتان، ولقيت عائلته المصير ذاته في حيّ مصرارة. كما كان لديه أصدقاء آخرون مثل سعدية مارسيانو وكوشافي شميش. وقد تمكن هؤلاء الشباب وعشرة سواهم وبمساعدة من بعض العاملين في أحد المراكز الاجتماعية في ذلك بتأسيس حركة الفهود السود الإسرائيلية.

كان من بين مطالب الحركة أن تعمل الدولة على توزيع الموارد الاقتصادية

بطريقة جديدة ومنصفة وأن يتّسع تعريف الهوية الثقافية في البلاد ليكون شاملًا لجميع مواطنيها . ومع أنّ المتظاهرين لم يتمكنوا من تحريك الحركات اليسارية في إسرائيل إلا أنّهم أثاروا اهتمام اليمينيين ، والذين قاموا بدورهم باستغلال هذه المظاهرات ببراعة وتحويلها إلى حركة جماهيرية جاءت بمناحيم بيغن إلى السلطة عام ١٩٧٧ . وفي هذا التبادل العجيب للأدوار ، خسر اليسار الإسرائيلي ثقة قواعده العمّالية وهي المكوّن الطبيعي لحركات اليسار في الغرب . كما كان ما حصل دافعًا لبعض الأكاديميين اليساريين لترك الصهيونية الاشتراكية والنظر بعين النقد إلى هذا المعسكر ، حتى أن بعضهم رأوا أن خسارة حزب العمال في انتخابات أيار ١٩٧٧ تنذر بالسقوط المحتمل للمشروع الصهيوني برمّته .

في خضمّ ذلك كلّه تواصلت المظاهرات ضد التمييز الحاصل ضد اليهود الإسرائيليين القادمين أصلا من شمال إفريقيا ، والذين عبّر شبابهم من الجيل الثاني عن استيائهم من سيطرة اليهود الأشكنازيين على الذاكرة الوطنية ، منبّهين إلى أنّ تجربة يهود شمال إفريقيا قد أسقطت من القصة الجمعية التي تتناول تأسيس دولة إسرائيل . وقد كشفت الاحتجاجات عن العنصرية المتأصلة التي أسفرت من خلال المقارنة عن زيف المثاليّات الإسرائيلية التي تظهر إسرائيل على أنها «بوتقة» تنصهر فيها كافّة مكونات المجتمع . فقد أظهرت الاحتجاجات جليًا التمييز المؤسسي المتواصل ضد اليهود المزراحيين .[٣٦] وحين قام بعض الأكاديميين بالمشاركة في هذه الحركة الاحتجاجية إلى جانب الناشطين فيها فإنهم لم يكتفوا بدراسة مشكلة التمييز كما هو سائد في تلك الفترة وحسب بل عمدوا إلى دراسة أصوله في السنوات الأولى من تأسيس الدولة .

عملت المجموعة الأولى من الأكاديميين الذين لاقت احتجاجات المزراحيين صدى عندهم في جامعة حيفا ، والتي كانت قد تأسست عام ١٩٦٣ كفرع من الجامعة العبرية في القدس ، غير أنّها استقلت عنها عام ١٩٧٢ . كانت جامعة حيفا المكان الأنسب لبدء خطّ جديد من التفكير ، فهي واقعة على تلال

الكرمل ، مما جعلها جزءًا لا يتجزأ من المشهد الشمالي للمدينة ، وما تحويه من مبانٍ متعددة كذلك البرج العجيب الذي يتألف من ثلاثة وثلاثين دورًا والذي صممه المعمار البرازيلي الشيوعي أوسكار نيامِيار في فترة كان فيها رئيس البلدية رجلًا أسطوريًا مهووسًا بالعظمة يدعى آبا هوشي . وقد ضمّت الجامعة قسمًا جديدًا وواعدًا لعلم الاجتماع ، وقد عمل الباحثون فيه -إلى أنْ تمّ ترويضهم لاحقًا- على نقد المنهجيات الأرثوذكسية الجامدة والالتزام الصهيوني الصارم من قبل علماء الاجتماع في تلك الفترة .

وقد استهدفوا في عملهم بشكل أساسي واحدًا من أهم أساتذتهم السابقين في الجامعة العبرية ، صمويل نوح أيسنشتات . كان صمويل يهوديًا بولنديًا هاجر في سنّ مبكّرة إلى فلسطين ، وأُعدّ ليصبح عميدَ علم الاجتماع الإسرائيلي وصنع على عين مارتن بوبر ، فقدّم نظريته في التحدي كجزء من اهتمامه الأكاديمي وكدليل للسياسات الحكومية الإسرائيلية لتعرف كيفية التعامل بالطريقة الأنسب مع غير الغربيين وغير التابعين لمنظومة التحديث . تقول النظرية إنّ أي شخص يواجه مجتمعًا غربيًا فإنه لا ريب سيخضع للغربنة في نهاية المطاف ، وهذا يعني بالضرورة أن يخضع للتحديث وأن يتعرف على عالم التقدّم الاقتصاديّ والاستقرار الاجتماعي والديمقراطية الليبرالية . إلا أنّه يصعب أن تحصل عمليّة الاندماج هذه بشكل طوعي أو تلقائي ، فلا بدّ من تدريب الأعضاء الجدد كي يسيروا في ركب الحداثة .(٣٧)

وحين اعتُمِدَت هذه النظريّةُ سياسةً رسميّة في الخمسينات فإنها قد زوّدت الدولة بالقدرة على تعريف السائر في ركب الحداثة والمتخلّف عنها ، بالإضافة إلى اختيار الوسيلة الأفضل لتحديث المتخلفين . فلجأت الدولة مثلًا إلى نزعِ الصبغة العربية عن اليهود المزراحيين ، وعلمنة اليهود الأرثوذكس ، ورفض الممارسات التقليدية للمجتمعات الريفية أو مجتمعات المهاجرين ، مع تعويضهم أو مكافأتهم من خلال وضعهم على الهامش الاجتماعي والجغرافي في المجتمع إلى أن تتم عملية التحديث بنجاح .

في عصرٍ تهيمن فيه القوميّة لا يمكن عادة تمجيد مجموعة إلا من خلال شيطنة أخرى . وهكذا فإنّ وصف إسرائيل بأنها قد بلغت الغايةَ من التحديث يعني أنّ فلسطين تمثل عكسَ هذه الصّورة وترتبط بكلّ ما هو بدائيّ . وإن كانت اليهودية الحديثة تعبيرًا عن التنوير والانفتاح فإن القوميّة العربيّة تربض في قعر الظلمة والتخلف ، وإن كان اليهود الأشكنازيين تقدّميين ، فإن اليهود المزراحيين رجعيّين . كل صورة ونقيضها من هذه الصور تركت جرحًا عميقًا في المجتمع يستحيل لما يتمخّض عنها من ألم وحنق أن يخمدا من دون الاعتماد على حالة دائمة من الطوارئ والتأهّب المستمرّ للحرب . ونرى في المقابل أن هذه النظرة إنّما هي ثمرة أبحاث نظرية يعتمد عليها لإثبات الوجاهة العلمية للرواية الصهيونية والصورة الإيجابية عن الدولة .

إلا أنّ المخالفين لهذا التوجّه في جامعة حيفا قرروا تناول التاريخ والمجتمع الإسرائيليين مفضّلين الانطلاق من قاعدة نقديّة مّما مهّد الطريق لتشكّل الفكر ما بعد الصهيونيّ . فمن الفرضيات التي ترتبط بالأعمال والاهتمامات الواسعة لهذه المجموعة افتراض يرى أنّ الذاكرة الجمعية في إسرائيل قد تشكّلت مؤسساتيًا من خلال النظام التعليمي والإعلام والعمل الأكاديمي . كما أنّها وجّهت انتقاداتها لعلماء الاجتماع بالتصريح تارّة وبالتلميح تارّة أخرى بأنهم يستخدمون منهجيات تتماشى مع الادعاءات الصهيونية بخصوص الأرض والشعب اليهوديّ ، وأنّ فعلهم هذا قد قضى بالتهميش على العديد من المجموعات والروايات التي لم تكن متوافقة مع صورة إسرائيل التي يراد لها أن تكون دولةً لمجتمع غربي يهوديّ .

وكانت تطمح هذه المجموعة من الأكاديميين العاملين في حقول العلوم الاجتماعية وبفضل الأبحاث التاريخية والاجتماعية المتوفّرة إلى أن يتمكّنوا من مساعدة المجموعات الأقل حظًا في المجتمع الإسرائيلي على تقديم قضاياهم وإثبات عدالتها وأهمّيتها . فعمد هؤلاء الأكاديميون إلى رفع غمرة الجهل عن بعض العناصر التي أُخمد ذكرها في الرواية الصهيونية لتاريخ إسرائيل ، أي

اليهود القادمين من شمال إفريقيا والمواطنين الفلسطينيين إضافة إلى المرأة. وقد أفاد هؤلاء الباحثون في دراستهم التاريخ من الإشارات التي قدّمتها المنظمات السياسية التي تمثّل المجموعات التي سبق ذكرها.

لقد كان مفهوم العالميّة عنصرًا أساسيًا ساعد على تمييز هؤلاء المفكّرين عن الخطّ السائد من الأبحاث التاريخية وجعلهم مقترنين بالأصوات الناقدة التي ستظهر فيما بعد. أمّا من الناحية السياسية فقد تمكّنوا من تحطيم الحواجز التقليدية حين قاموا بوضع الفلسطينيين واليهود المزراحيين في موضوع واحد، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أعمال سامي سموحة و شلومو سويرسكي. فقد استخدموا منهجيّة تصنيفية تخالف كل ما تمثّله الصهيونية ونتاجها الأكاديميّ.

كان سويرسكي يهوديًا من الأرجنتين وأصبح خبيرًا وإن لم يكن أكاديميًا في الشؤون الاجتماعية والاقتصادية في إسرائيل، حيث كان يقدّم الكثير من الاستشارات والتعليقات في وسائل الإعلام وللسياسيين. وخلال فترة قصيرة من إقامته في حيفا اشترك في تأسيس مدرسة ثانوية تقوم على المبادئ والمعتقدات المزراحية، ثم عمد بعدها إلى إنشاء مركز أدفا والذي صار اليوم واحدًا من أهم مصادر المعلومات المعتمدة بخصوص الفقر وعدم المساواة في إسرائيل. أمّا سموحة فقد أتى من العراق مع عائلته عام ١٩٤١ وشهد بنفسه التمييز الذي يعاني منه اليهود المزراحيون. ومع أنّه كان تلميذا نبيهًا ومتميّزًا في المرحلة الابتدائية إلا أنّه حرم من الالتحاق بمدرسة ثانوية عريقة في تل أبيب وكان عليه أن يعمل في صباه كي يوفّر نفقات دراسته.

كلا الرجلين أصبحا من أهمّ منتقدي علم الاجتماع القائم في إسرائيل. وقد ركّز سويرسكي على عدّة أنشطة أكاديمية من بينها مراجعة الأعمال الأساسية لعلماء اجتماع إسرائيليين من أمثال أيسنشتاد ودان جيلادي ودان هوروفيتز وموشيه ليساك، وانتقاد الطريقة التي عرضوا من خلالها تاريخ الصهيونية في فلسطين. فقد وصف كيف أنّ أهمّ الأنشطة التي قام بها

المستوطنون الصهاينة قد كانت دومًا تعزى إلى الأيديولوجيا ولكن من دون أي نقاش حول ما كانت تنضوي عليه تلك الأيديولوجيا وكيف كانت تؤدي دورها في التشجيع على تلك الأعمال (وقد سعى على سبيل المثال على التعامل مع فرضية كارل ماركس بأن الواقع هو الذي يحدّد الوعي وليس العكس) . كما ذهب هو وآخرون من الباحثين إلى اعتبار المصالح الاقتصادية تفسيرًا محتملًا لاستعمار فلسطين ، وقمع اليهود المزراحيين وغيرها من السياسات التي نتجت تحت سقف هذه الأيديولوجيا . ولكن لعلّ أهمّ ما قام به سويرسكي هو تشجيع الجيل الذي أتى بعده من علماء الاجتماع النقديين على تجنّب اتخاذ الأيديولوجيا ، وبالأخص الأيديولوجيا الصهيونية ، موضوعًا بحثيًا متجاوزًا الوقائع على الأرض . فقد أكّد سويرسكي على أن تلك الأيديولوجيا كانت جزءًا من الواقع ، إذ كانت تستحكم به أحيانًا وفي أحيان أخرى توظّف كتسويغ لأعمال ترتكب من قبل أفراد أو مجموعات .

لقد كانت القضية تتعلق بالمسؤولية وتحمّلها . لقد كان التوجّه السائد في علم الاجتماع يفسّر الاستيطان بالأيديولوجيا ، ثم يرى كل شيء لحقه أمرًا طبيعيًا لم يعد فيه للأيديولوجيا دور يذكر بل ولا داعي لأن يكون لها دور مهمّ . وقد كانت الصهيونية وفقًا لأعمال لاحقة لعلماء اجتماع نقديين مشروعًا استعماريًا قد وضع أيديولوجيا من أجل شرعنة ما جرى من سلب للأرضِ مستمر وغير منقطع من سكانها الأصليين . لقد كان سويرسكي مهتمًا بتوضيح السبب وراء فشل هذه الأعمال في التوصل لتفسير كيف أنّ الأفكار الاشتراكية اليوطوبية للمستوطنين قد ولّدت في واقع الأمر مجتمعًا رأسماليًا :

تكمن المشكلة في هذه الأعمال بأنها لا تناقش الصهيونية كمشروع اجتماعي وذلك بسبب الأنساق والافتراضات التي تدور هذه الأعمال في فلكها . وحيث إن الحركة الصهيونية من الناحية التاريخية ، وبالأخص الصهيونية الاشتراكية ، قد اعترتها نقاشات داخلية معمّقة وحالات شد وجذب متكررة ، فإن ذلك قد وصف من قبل هؤلاء الكتّاب على أنها عملية اختيار

للأنسب تمخّض عنها أفضل بديل ممكن . وإن طرح سؤال اليوم عما ستكون عليه وجهة الصهيونية في المستقبل ، فإن هذه الأعمال تعطي انطباعًا بأن النقاش حول الصهيونية قد انتهى وذلك لأن عملية التطور الطبيعي قد ضمنت بعد الاختيار الأنسب أن المجتمع الإسرائيلي قد تحوّل إلى مجتمع ناضج وسليم.[٣٨]

أمّا سامي سموحة فقد تناول الأعمال السائدة لعلماء الاجتماع من زاوية مختلفة . فقد رسم سموحة صورة عن الباحثين في العلوم الاجتماعية في إسرائيل في أوائل الثمانينات تظهرهم أنّهم يعملون ضمن مؤسسة لليهود الأشكنازيين البيض ذات توجهّات متعجرفة وأحيانًا عنصرية عن الثقافة العربية.[٣٩] وقد أطلق سموحة على هذه المدرسة في الأكاديميا الإسرائيلية اسم «المنهج الثقافي» وأكّد على ما ذهب إليه بعض علماء الاجتماع الذين افترضوا أنّه يمكن لثقافة «أدنى» أن تستوعب ثقافة «أعلى» كما حدث عام ١٩٧٧ . وأبان في حديثه عن أنّ الباحثين في علم الاجتماع في إسرائيل قد وصفوا هذا التغير السياسي بأنه نهاية الحقبة الديمقراطية الليبرالية الكونية في إسرائيل ونذير بداية حقبة «المركزية العرقية ، والتعصّب ، وما قبل الحداثة واللاعقلانية» في تاريخ الدولة . إلا أنّه خالف هذا الوصف متكئًا على سببين اثنين : الأول أنّ التغوّل الثقافي لليهود الأشكنازيين لم ينته عند صعود الليكود إلى السلطة وقال إنه «من الخطأ وسم الثقافة السياسية لليهود المزراحيين بأنها قوميّة ومتطرفة ومعادية للعرب».[٤٠] بل إنّ الغالبيّة العظمى من المزراحيين قد كانت داعمة للسلام مع مصر عام ١٩٧٧ لأنّه إنجاز حزب الليكود وليس إنجازَ حزب العمّال الذي يبغضونه .

قام علماء الاجتماع في جامعة حيفا بنشر ما خلصوا إليه في المجلة العبرية «ملاحِظ في النقد والنظرية» وهي مجلة ما تزال مصدرًا قيّما يقدّم نظرات بديلة عن التاريخ والاجتماع فيما يتعلق بفكرة إسرائيل . وبعدها بفترة قصيرة ظهرت أعمال اثنين من علماء الاجتماع الإسرائيليين كانا مهتمّين من قبل بالبحث النقدي غير أنّهما ، تمامًا كما كانت الحال مع سلفهما أوريل تال ، صوتين

وحيدين لا يؤبه لهما في أقسام علم الاجتماع في إسرائيل . هذا العالمان هما باروخ كيمرلينج والذي عمل في قسم علم الاجتماع في الجامعة العبرية في القدس ، ويوناثان شابيرا في جامعة تل أبيب . لقد تركت أفكار هذين المفكّرين أثرًا لا يمكن إنكاره على مستقبل تفكيك المشروع التاريخي الصهيوني السائد . فقد قاما باعتماد النظريات التقليدية في علم الاجتماع بغيةَ بيان هيمنة حركة العمّال في الحياة الصهيونية وكيف أن المجموعات الهامشية كانت قد استقطبت أو أجبرت على التعاون المطلق مع النخبة التي انفردت بالسلطة وتحكمت بالموارد منذ العام ١٨٨٢ .(٤١)

كما كان هذان المفكران أول من ظنّ أنّ الآباء المؤسسين للصهيونية لم يكونوا أشخاصًا متفانين بالضرورة ، وأنّهم لم يكونوا سياسيين ملتزمين بقضاياهم ، وأنّهم كانت تحرّكهم نزوات أخرى كالرغبة في البقاء في السلطة مهما كان الثمن . لم يكن هذا الاندفاع في النقد قائمًا على أدلةٍ جديدةٍ بقدر ما كان متكئًا على خيار نظريّ يفضّل التعامل مع الصهيونية كفصل عاديّ في التاريخ على أن ينظر إليها على أنّها أمرٌ خارق للعادة . كما كانا أول من فسّر الانحراف الذي أصاب المجتمع الإسرائيلي في السبعينات من خلال الأبحاث التاريخية المتعلقة بفترة الانتداب . فقد توصل الباحثان إلى أنّ النظام السياسي اليهودي في فترة الانتداب كان أقل ديمقراطية وعدالة بعكس ما أظهرته الأبحاث التي قام بها الباحثون في أقسام دراسات أرض إسرائيل .

لقد قام كل من كيمرلند وشابيرا برسم صورة عن نظام سياسي واجتماعي أكثر ديكتاتورية بل وربّما معجونًا بالشّر في بعض الأحيان ، خلّفت ممارساته أثرًا سلبيًا على الحياة السياسية في إسرائيل لسنوات طوال . ولعل أسوأ ما قامت به هو إعدادها لمسؤولين أقلّ تميّزًا لا يتأتّى لهم هزّ القيادة وتعريضها للخطر . وقد أظهر الباحثون كيف أن الانتماء الحزبي والأصل العرقي ، أي الانتماء إلى حزب العمال والتمتع بالأصل الأشكنازي ، كانا معيارين أساسيين لوصول الفرد إلى الترقّي على سلم الوظائف والمناصب في المجتمع والحكومة . ويرى شابيرا أن

الديمقراطية الإسرائيلية خلال ثلاثين سنة من تأسيسها قد كانت مجرّد نظام لا يستوعب أي شكلٍ من الاختلاف، أعرقيًا كان أم أيديولوجيًا:

> إسرائيل ليست دولة ديمقراطية ليبرالية، وكيف يكون ذلك وهي لم ترعَ حقوق الأفراد والأقليات أمام سطوة الأغلبيّة، وكانت النتيجة فراغ الساحة السياسية من حزب معارضٍ قويّ، وهذا هو الضمان الأساسي للديمقراطية الليبرالية. لقد أُخضع المجتمع إلى مسلسل من التلقين العقائدي لا شيءَ يحدّه ولا رادع يكبحه بالإضافة إلى ما كان من تغوّل لأيديولوجيا الهيمنة فيه. إن سيطرة الإدارة الحاكمة كما يظهر في الهيمنة المؤسساتية والثقافية كانت سمةً بارزة في حكم حزب ماباي في النظام السياسي الإسرائيلي.[٤٢]

وقد كان هذان الباحثان كذلك أول من وصف السياسة التي اتبعتها إسرائيل في شراء الأراضي على أنّها سياسة دولة لا همّ لها سوى إيجاد مساحات أكبر لليهود على حساب الأقلية العربية في إسرائيل، وفي هذا الصدد يقول كيمرلينج:

> لقد ضمنت الدولة أن لا يكون للفلسطينيين في إسرائيل سوى هامشٍ يضيق بهم جغرافيًا واجتماعيًا وسياسيًا وذلك بالاستعانة بالحكم العسكري (والذي فرض على الفلسطينيين داخل إسرائيل حتى ١٩٦٦)، كما أنّ الهستدروت (الاتحاد العام لنقابات العمال في إسرائيل) قد مارس تمييزًا ضد المواطنين الفلسطينيين، إذ كان يعطي الأفضليّة للعمال اليهود من ناحية الأجور والوظائف في سوق العمل.[٤٣]

كان يوناثان شابيرا قد ولد قبل إنشاء دولة إسرائيل وأنهى دراساته العليا في جامعة كولمبيا عام ١٩٦٤ ورجع بعدها للمساعدة في إنشاء كلية العلوم الاجتماعية في جامعة تل أبيب. ولم يمنعه منصبه في إدارة الجامعة من انتقاد الصهيونية والدولة متحرّرًا من عقدة التبجيل والهيبة التي أظهرها من كان قبله

من المفكرين عند الحديث عن مؤسسي الدولة الأوائل. لقد عمدَ شابيرا إلى إعادة النظر في الأصول التاريخية لحزب العمال الصهيوني (ماباي) وألفى لديها نزوعا نحو الهيمنة والسياسة القائمة على القسوة، كما أنّه لم يجد الكثيرَ مما يدلّ على وجود أيديولوجية اشتراكية سليمة أو نظرة صهيونية مبرّأة من التحجّر الذهنيّ والغرور. ثم قام شابيرا بربط بعض المشاكل المعاصرة في المجتمع الإسرائيلي بالطبيعة الاستبدادية للطغم الحاكمة في الماباي، ورأى أنّ هذا هو العائق الذي حال دون ظهور نخبة مؤهلة للحكم في السنوات الأولى من إنشاء الدولة.(٤٤) لقد كان شابيرا محاضرًا متألقًا ومحبوبًا، وبما أنّه قد انتقد سياسة القادة المؤسسين في الماباي حين لم يسمحوا بظهور من يتفوّق عليهم من أجل الحفاظ على سلطتهم، فإنه قد حرص كل الحرص على أن لا يحدث الأمر نفسه بالجامعة. فنرى أنّه قد خلفَ شابيرا مجموعة من الباحثين المبدعين الذين تابعوا المسيرة بالمقدار ذاته من الجرأة.

أمّا باروخ كيمرلنج فقد تركَ أثرًا لا يّمحي وإن كان ذا طبيعة مختلفة. ولد هذا الرجل في رومانيا عام ١٩٣٩ وكان يعاني من شلل دماغيّ جعله حبيس الكرسيّ المتحرّك طيلة حياته. حطّت عائلته رحالها في إسرائيل عام ١٩٥٢ بعد أن نجوا من موت محتّم في الهولوكوست. ولم تمنع الإعاقةُ كيمرلنج من متابعة دراسته وتحقيق النجاح الأكاديمي في الجامعة العبرية في القدس حيث درّس هناك حتى وفاته. ترعرع كيمرلنج في مفسيرت تصيون وهي إحدى ضواحي القدس التي بنيت على أنقاض قرية فلسطينية تدعى قالونيا بعد أن دمّرت وطرد منها سكّانها عام ١٩٤٨. لم يدرك كيمرلنج هذه الحقيقة ويستوعبها تمامًا إلا في نهاية التسعينات، وحينها ازدادت حدّة نقده لإسرائيل والصهيونية. وفي إحدى المقالات التي كتبت عنه بعد وفاته في مجلة التايمز اللندنية وصف كيمرلنج بأنه «أول أكاديميّ يوظّف البحث العلمي لإعادة النظر في البداهات التي قامت عليها الصهيونية ودولة إسرائيل». ومع أنّه قد لا يكون الأوّل في هذا الصدد، إلا أنّه ومن دون شكّ كان من بين الأوائل الرائدين.

إنّ همّة هذا الرجل الضعيف المقعد لم تقعد به عن الكلام والكتابة بلا مواربة إلى أنْ تغلّب المرض عليه في الجولة الأخيرة . وقد كان هنالك تقاطع مثير للاهتمام بين انتقاده الصارم للصهيونية كأيديولوجيا وتحليلاته المميّزة بشأن الأهداف الصهيونية في حرب عام ١٩٤٨ من جهة ، وبين خفوت صيته وضعف اهتمامه بالمشاركة السياسية من جهة أخرى . ومع ذلك تركت كتاباته أثرًا باقيًا على فهم إسرائيل لذاتها .(٤٥)

كانت أهم الإضافات التي تميّز بها كيمرلنج استخدامه لنموذج الاستيطان الاستعماريّ في الدراسة التاريخية للصهيونية . فقد اعتمد هو وزملاؤه الذين حذوا حذوه على مقاربة علم الاجتماع النقديّ في إسرائيل مع الرواية الفلسطينية قدر الإمكان . ويجدر هنا أن نشير إلى أنّ أوّل من قدّم هذا التوجّه النظريّ كانت مجموعة من الناشطين اليهود في إسرائيل كأولاء المنتمين إلى حركة «مصبن» وقد اعتمد عليها قبل ذلك أيضًا بعض الباحثين الرائدين في حركة اليسار في أوروبا وبالأخص في فرنسا .(٤٦) لقد كان المفكر الماركسي الفرنسي مكسيم رودنسون من أوائل من قاموا بعد العام ١٩٦٧ بوصف المشروع الصهيوني بالاستعماري وذلك في مقالة مشهورة له عنوانها «إسرائيل ، حقيقة استعمارية» نشرت في مجلة جان بول سارتر «الأزمنة الحديثة» (Le Temps Modernes) .(٤٧)

لقد كان كيمرلنج بمثابة الجسر الواصل بين أفكار رودنسون والطرق المنهجية والأطر النظرية في المجال البحثي . فهو الذي عرّف الصهيونية بأنها حركة «هجرة واستيطان» أنشأت لخدمة شكل فرعيّ جديد للاستعمار . كما أنّه يضع الظاهرة الصهيونية في إطار أوسع لعمليات الاستعمار وتفكيك الاستعمار في العالم ، حيث يعتبرها حالة مثيرة لفهم مشروع بشري ينفّذ رغم المصاعب التي تواجهه ولكن على حساب مجموعة أخرى من البشر . ثم إنّه حاول تفسير نجاحها بأنه نتيجة اجتماع الاستعمار البريطاني والنشاط الاستيطاني اليهودي من جهة ، والقومية والإحيائية اليهودية من جهة أخرى . وأشار كذلك إلى أهمية الحماية

التي قدمتها الإمبراطورية البريطانية للمشروع الصهيوني والتي مكّنت المجتمع اليهودي في فلسطين من تحقيق هدفه وزيادة نموّهم الديمغرافي فيها رغمًا عن الأكثرية العربية . ويمكن القول إنّ كيمرلنج كان في مأمن من الناحية الأيديولوجية من غضب المؤسسة وذلك لأنّ الإطار النظريّ الذي عمل وفقه أتاح له أن ينظر إلى الصهيونية كحركة استعمارية من دون أن يتّهمه أحد بأنّه يتبنّى النظرة الفلسطينية بجملتها ، مع أنّه لم يكن في معزل عن الانتقادات الشديدة في سياق الصهيونية الجديدة التي سنتعرض لها لاحقًا في هذا الكتاب ، والتي تصل إلى حدّ الاتّهام بالخيانة .

وعلى خطى شابيرا وكيمرلنج سار الباحث الإسرائيلي غيرشون شافير ، والذي كان كذلك من الشخصيات التي مهّدت لظهور محاولات أكثر شمولًا لمواجهة الصهيونية في إسرائيل . بدأ شافير مسيرته الأكاديمية في جامعة تل أبيب قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة ، حيث كان عمله هناك استمرارًا للعمل الذي بدأته مجموعة حيفا في السبعينات ، ومكمّلًا لمساعي كيمرلينج الفكرية فيما يتعلق بالاستعمار والصهيونية . لقد كان شافير أكثر جرأة ممن سبقوه ، فقد قام بإعادة بناء الصهيونية ووصفها بأنها حركة أرثوذكسية استعمارية في عصر استعماريّ بالرّغم من بعض سماتها التي لا ترتبط عادة بالاستعمار ، مثل عدم ارتباطها بدولة أمّ والدور غير الأساسي لاعتبارات الربح والخسارة الرأسمالية في المشروع الصهيوني ، بالإضافة إلى الخطاب القوميّ الواضح والحماسة التي ارتبطت به . هذه الظروف التاريخية الاستثنائية دفعت كبار المفكرين الصهاينة إلى أن يرفضوا بشكل قاطع وأن يستنكروا أيضًا أي إشارة إلى الصهيونية على أنها حركة استعمارية .

إنّ بيان شافير للسمات الأساسية للصهيونية يتعارض تمامًا مع ما يذكره المؤرخون الصهاينة من أمثال أنيتا شابيرا ، وهي من الأسماء المعروفة في مجال علم التاريخ التي تمثّل وجهة نظر المؤسسة الرسمية الإسرائيلية . تصرّ شابيرا على فرادة الحالة الصهيونية وتنزهها عن أن تكون مشروعا استعماريًا مثل غيره ، وأنها

تمثّل استثناء باعتبار المعايير الأخلاقية العليا التي تتمتّع بها.(٤٨) تميل حركة التأريخ الصهيونية إلى وصف المشروع في فلسطين على أنّه استعمار بلا نزعة استعمارية، وذهب الأمر ببعض المؤرخين إلى أن يأتوا بمصطلح عبري ذي دلالة لاتينية (Colonisatoring) كمحاولة لردّ الاتّهام الموجّه للصهيونية بأنها حركة استعمارية، وهو مصطلح يعني أنّها حركة قامت بفعل الاستعمار من دون أن تكون استعماريّة. ويمكنك حتّى تقرّب الصورة من ذهنك أن تقول «استعماريّة منزوعة الكافيين، أو بلا سكّر».(٤٩)

لم ينكر شافير فرادة الحالة الإسرائيلية ولكنّه رغب في التأكيد على أنّ بعض الظروف الجغرافية والاقتصادية المخصوصة كانت هي السمات التي ميّزت الحركة الصهيونية. فالصهيونية قد كانت بالنسبة إليه مثالًا استعماريًا مثيرًا للاهتمام وذلك بسبب نجاحها في تأسيس الدولة رغم نقص مواردها المالية وجاهزيتها العسكرية. ولهذا فإن شافير يرى أنّ «جواهر التاج الصهيونيّ» ويقصد بها الكيبوتسات والموشافات، قد كانت مستعمرات استيطانية يمكن أن نجد مثيلًا لها في مستوطنات البيض في أمريكا الجنوبية وجزر الكاريبي وأستراليا وغيرها من الأماكن.(٥٠)

كما قام شافير بكشف زيف ادّعاء صهيوني آخر وهو قولهم إنّهم قد بنوا سوقًا وطنيًا مستقلًا أثناء حكم الانتداب البريطاني. وتعبّر الصهيونية عن ذلك بعبارة «ظفر العمال» (Kibbush Ha avoda) والذي يلخّص حلم الصهيونية في خلق «اليهودي الجديد» وذلك من خلال إنقاذ اليهود في أوروبا الشرقية من مأساتهم التي عاشوها مهمّشين لا يعبؤ بهم أحد في تلك القارّة قبل ظهور الصهيونيّة. ولقد استنكر منظرو الحركة خريطة الوظائف التي كانت سائدةً بين يهود أوروبا قبل نشأة الصهيونية وهي حالة كانت تدعى باللغة اليديشية «Luftgescheften» (أعمال لا قيمة لها) وهي وظائف لا إنتاج فيها ولا إبداع كان يُرغَم اليهود على أدائها أثناء الفترة التي ساد فيها الاضطهاد ومعاداة السامية.

وقد كان لا يمكن تحقيق «ظفر العمّال» من دون التخلص من الفلسطينيين ، والذين كانت الأفضلية لهم في الوظائف لأنهم كانوا أكثر إنتاجًا . ولم يجد شافير وصفًا لهذه الإستراتيجيات سوى أنّها استعمارية وذلك لأنّها كانت تحرم السكّان الأصليين من العمل كي يأتي المستوطن ويأخذ محلّه . هنالك مؤرّخان آخران تعمّقا في دراسة هذه السياسات ، وهما ديبورا بيرنشتاين وديفد دي فريس ، فجاء رأيهما موافقًا لما توصّل إليه شافير وقدّما المزيد من وجهات النظر التي تزيد من معرفتنا بتلك الفترة .(٥١)

ومع أنّ شافير قد تمكّن بلا شكّ من الوصول إلى ما لم يصل إليه كثيرون سبقوه ، إلاّ أنّه تجدر بنا الإشارة إلى أنّه وبالنسبة للعديد من الباحثين خارج إسرائيل ، كان تحليل شافير للسياسة الصهيونية في مراحلها الأولى قد أخذت على أنها أكثر طريقة معقولة لوصف ما حدث . إرنست غلينر ، وهو صديق للدولة وللحركة ، اختار الكيبوتس مثالًا ليوضّح في حديث له كيف تقوم الحركات الوطنية بصبغ أحداث ماضية بالصيغة القومية من أجل وضعها في الرواية الجديدة التي تناسبها . وقد أكّد كما فعل شافير على أنّ هذا الشكل من الاستيطان الجماعي كان أقل الوسائل كلفة وأكثرها فعالية لاستعمار فلسطين في ذلك الوقت ، ولا يغرّنّ أحدًا أنّ المؤرّخين حاولوا بعد ذلك استحضار أجندة اشتراكية أو شيوعية وادّعاء أنها كانت دافعًا أساسيًا لتأسيس الكيبوتس والموشاف .

كثيرًا ما تتكرر هذه الطريقة في التاريخ بل إنّ لها مصداقًا نظريًا في الواقعية الرمزيّة . فهنالك فعل ما يقوم به مجموعة من الناس - في هذه الحالة التي نحن بصددها- يتركون دولة ويذهبون إلى دولة أخرى غريبة يدفعهم على ذلك طيف من الأسباب الفردية وغير المترابطة بالضرورة . ثم تجد هذه المجموعة أفضل طريقة تناسبها لتتمكن من العيش في المراحل الأولى من استيطانهم تلك الأرض الغريبة عنهم . وحين ينجح المشروع ، تصاغ قصص هؤلاء الأفراد والحلول العملية التي اتبعوها بطريقة تتسق مع أهداف الدولة الجديدة . ففي الحالة التي

بين يدينا ، تطالعنا حكاية أنّ اليهود لم يأتوا إلى فلسطين بسبب ما عانوه من مشاكل شخصية وأنّهم لم يعيشوا في الكيبوتس لأنّها كانت أقلّ كلفة . كلّا ، بل إنهم قد فعلوا ذلك لأنّهم كانوا صهاينة في المقام الأول واشتراكيين ثانيًا . أمّا من صاغوا هذه الرواية الجديدة فهم الذين صاروا قادةً لهذه المجموعة من الناس طوعًا أو كرهًا .

وينظر شافير إلى هذه الرواية التي توظّف الحلم الاشتراكي على أنها تسويغ بأثر رجعي لِما حصل من أمر الاستيلاء على فلسطين بطريقة وحشيّة . وسيعرِض لهذه الفكرة لاحقًا زئيف ستيرنهل في كتاب متميّز صدر عام ١٩٩٩ بعنوان «الأساطير المؤسسة لإسرائيل : القومية والاشتراكية وقيام الدولة اليهودية» .

لقد كان لهؤلاء العلماء الروّاد الثلاثة ، شابيرا وكيمرلنج وشافير ، أثر عميق على الموجة الجديدة من حركة المراجعة التاريخية في إسرائيل . وفي حين قامَ كلّ من شابيرا وكيمرلنج بتقديم صورة تأريخية طبيعية ورسموا وجهةً جديدة لممارسة النقد الذاتي ، فإن شافير كان أول عالم يتناول في بحثه المفاصل الأساسية للرواية الفلسطينية المتعلقة بنشأة المشروع الصهيونية في فلسطين .

ولكن لا بدّ أن نشير هنا إلى أنّ محاولة دراسة الرواية الفلسطينية وتحليلها لا تعني بالضرورة تبنّيها بالجملة واعتماد ما حوته الذاكرة الجمعيّة للفلسطينيين وتاريخهم . ففي الوقت الذي كان هؤلاء العلماء يألفون كتبهم ويصدرونها كان علم التأريخ الفلسطيني أقلّ نضجًا في التعامل مع الصهيونية . وسيشهد التأريخ الفلسطيني تطورًا بفضل التأثيرات الجدلية والمشتركة وخاصّة بعد ظهور الأبحاث ما بعد صهيونية أو حتى المناهضة للصهيونية في إسرائيل ، خاصّة مع ظهور سياق متزايد لنقد المقولات الصهيونية شجّع الباحثين الفلسطينيين على التجاوب معه . ولنا أن نلحظ أنّ انبثاق حركة «التاريخ الجديد» الإسرائيلية فيما يتعلق بحرب عام ١٩٤٨ قد أتاح الفرصة لتطوّر هذه النظرة النّقدية التأمّلية والتي لاقت قبولًا فلسطينيًا حسنًا .

الفصل الخامس

الاعتراف بالمأساة الفلسطينية
نظرة جديدة على حرب ١٩٤٨

بُعيد الانتصار الذي حققه جون إف كينيدي في الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام ١٩٦٠ وجدَ الرجل نفسه منغمسًا في السياسات العالمية للولايات المتحدة الأمريكية . وكانت قضايا الشرق الأوسط وبالأخص مسألة فلسطين من بين القضايا التي حازت على اهتمامه على وجه الخصوص . فقد مضى الرجل على خطى سلفه أيزنهاور والذي كان على قناعة تامّة بأنّ عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى بيوتهم الواقعة فيما أصبح الآن إسرائيل ستساعد في التخفيف من الصراع العربي الإسرائيلي ، والذي كان يعرقل جهود الولايات المتحدة الرامية إلى إقامة قاعدة صلبة ضد الاتحاد السوفييتي في تلك المنطقة . ولعل هذا ما دفع الرئيس كينيدي إلى أن يطلب من سفيره لدى الأمم المتحدة أن يدعم جهود الدول العربية في الجمعية العمومية الهادفة إلى دفع إسرائيل إلى إعادة عدد كبير من اللاجئين من مخيماتهم التي عاشوا بها منذ أن طردوا منها في التطهير العرقيّ الذي جرى عام ١٩٤٨ .(١)

أسقط حينها في يد الحكومة الإسرائيلية ، والتي كانت قد أحبطت محاولة قام بها جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي في عهد أيزنهاور لفرض مثل هذا القرار على إسرائيل ، ووجدت نفسها مجددًا مرغمة على إيجاد سبل جديدة للتعامل مع هذه الضغوط . (ومن أهمّ القرارات التي اتخذتها الحكومة الإسرائيلية حينها إيجاد جماعات ضغط داعمة لإسرائيل لضمان أن لا تسلك

الإدارات الأمريكية اللاحقة مثل هذه السبل .) عقدَ رئيس الوزراء الإسرائيلي حينها ، ديفد بن غوريُن ، اجتماعًا طارئًا في مكتبه لمناقشة القضيّة . وقال في الاجتماع[٢] : «علينا أن نقول الحقيقة . إنهم هاجروا طوعًا لا قسرًا ، وحسب علمي فإنّ عرب اللد والرملة هم وحدهم من أُجبروا على الرحيل .» وكنت أنا وسواي قد أظهرنا من قبل أن بن غوريُن ، وكما يذكر هو في مذكّراته عن عام ١٩٤٨ ، قد كان مدركًا ، بل ربمّا مسؤولًا ، عن طرد الفلسطينيين من كل بقعة من أرضهم . وإنّ ما رمى إليه في قوله «علينا أن نقول الحقيقة» هو أنْ يخبروا الحقيقة بطريقة من شأنها الحدّ من الضغط الأمريكي والدوليّ على إسرائيل .[٣]

وقد أوضح بن غوريُن أنّه عازم على تزويد الأكاديميين الإسرائيليين بالمواد الأرشيفية اللازمة ليظهروا للعالم أنّ العرب قد تركوا بيوتهم طوعًا عام ١٩٤٨ . فوقع اختياره على معهد شيلواح في الجامعة العبرية في القدس (وانتقل هذا المعهد عام ١٩٦٥ إلى جامعة تل أبيب) . كان رؤوفين شيلواح أول من ترأس الموساد واستمرّ في إدارته حتى العام ١٩٥٢ وتقلّد بعدها منصبًا استشاريًا في الحكومة لشؤون الشرق الأوسط . وقد حمل هذا المعهد المختص بدراسات الشرق الأوسط اسم شيلواح رغبة من المجتمع الاستشراقي الإسرائيلي بالاحتفاء بهذه الشخصية وإنجازاتها . ولهذا المعهد (الذي غُيّر اسمه عام ١٩٨٣ إلى مركز موشيه ديان لدراسات الشرق الأوسط وإفريقيا في جامعة تل أبيب) ارتباطاتٌ وثيقة بالجهاز الأمنيّ الإسرائيلي بل كان يشكّل البنية البحثية الأساسية للمؤسسة الأمنية في إسرائيل ، ونجح في الوقت ذاته في ضمان الإشادة به حول العالم كأحد المراكز الأكاديمية المهمّة .[٤]

أُوكلت هذه المهمّة إلى نائب مدير المعهد ، روني غاباي ، وهو يهودي عراقي يتحدّث العربيّة هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥٠ وحصل على شهادة الدكتوراه لاحقًا بأطروحة عن أصول مسألة اللاجئين الفلسطينيين . وقد وصل في بحثه الذي كتبه عام ١٩٥٩ إلى أن الفلسطينيين قد أضحوا لاجئين بسبب سياسة التدمير والسلب التي مارسها القادة الإسرائيليون الميدانيون في العديد من

المناطق أثناء الحرب، ولكنّه لم يرَ أيّ دليل على وجود سياسة منهجية لطرد الفلسطينيين.[٥] وكانت هذه هي الخلاصة التي رغب بن غوريُن أن يتوصّل إليها معهد شيلواح، ولا فرقَ عنده إن تحقق ذلك بالنظر في الوثائق والأرشيف أو بدونه.

تزداد الحبكةُ غموضًا هنا. فقد أصدر معهد شيلواح تقريرًا على لسان غاباي يقصّ الروايةَ التي يرنو إليها بن غوريُن، إذ يدّعي التقرير أنّ مشكلة اللاجئين الفلسطينيين لم تظهر إلا لأنّ القادة الفلسطينيين وقادة الدول العربية المجاورة شجّعوهم على ترك البلاد. بل ويقول غاباي في رسالة كتبها عام ١٩٦١: «يُظهر الفصل الأخير من التقرير أنّ القيادة اليهودية المحليّة حاولت جهدَها لتحول دون نزوح الفلسطينيين ولكن باءت محاولاتها بالفشل».[٦]

انتقل غاباي للعيش في مدينة بيرث في أستراليا قبل عدة عقود وذلك لأنّه رأى عنصريّة المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية تجاه اليهود العراقيين، وهو واحد منهم، كما يقول إنّه لا يذكر أنّه كتب تلك الآراء، حتى إنّه أخبر أحد طلابه الذين يشرف عليهم في مرحلة الدكتوراه ويدعى شاي هازكاني أنّه لم ينشر أيّة نتائج، وأنّه إنما قام بجمع وتلخيص الوثائق، والتي كشفت أنّه لم يحصل أيّ تشجيع من القادة العرب أو الفلسطينيين ويثبت العديد من حالات الطرد والتهجير للفلسطينيين. وقد نشر هازكاني تفاصيل في مقالة طويلة نشرت في صحيفة هآرتز في أيار ٢٠١٣.

أَولى بن غوريُن اهتمامًا بالغًا بالقضيّة، فقرأ التقرير الذي أعدّه غاباي وأصابته الخيبة، فما كان منه إلا أن أوعز إلى أحد مستشاريه حول الشؤون العربية، أوري لوبراني، بكتابة تقرير جديد. استعان لوبراني من جهته بموشيه ماعوز، والذي أصبح لاحقًا واحدًا من أهمّ المستشرقين الإسرائيلين وكان سيذهب إلى أكسفورد لإتمام دراسة الدكتوراه فيها. وقد أوضح ماعوز في رسالة بعث بها إلى أحد الباحثين في المعهد يقول فيها «إننا نسعى لإظهار أنّ السبب في خروج الفلسطينيين من أراضيهم متعلق بتشجيع القادة العرب والحكومات

العربية على ذلك وبمساعدة من الحكومة البريطانية» .(٧) وهذه الخلاصة التي وصلوا إليها قبل النظر في الوثائق هي نفسها التي أُعلنَ عنها فيما بعد .

وكان مما بثّه ماعوز لطالبه هازكاني أنّه حين ينظر إلى الماضي يعتصره الندم على الدور الذي لعبه في فبركة التاريخ (وقد صار بالفعل فيما بعد من المدافعين عن حقوق الفلسطينيين) . وعودًا إلى تلك الفترة التي كنّا بصددها ، فإنّ النتائج التي تضمنها ذلك التقرير استخدمت من قبل الإسرائيليين حجةً أساسية للوقوف في وجه أي ضغطٍ أمريكي ودوليّ . وقد حدث حينها أن اغتيل كينيدي في تشرين الثاني من عام ١٩٦٣ ، وخلفه ليندن جونسون الذي أحجمت إدارته عن لعب أيّ دور في دفع إسرائيل إلى إعادة اللاجئين ، وأضحى إصرار الأمم المتحدة على هذا الأمر مثار استهجان من قبل واشنطن والحكومة الإسرائيلية .(٨)

ويذكرُ أولئك الذين كان لهم باعٌ في هذه القضيّة أنّ الوثائق قد مزّقت والتقارير طُويت وحفظت . وقد عثر هازكاني على بعضها في الأرشيف الإسرائيلي بعد مضيّ عدّة عقود ، ولكنّ هذا لن يغيّر ما حدث في الفترة بين الستينات والثمانينات حين صارت الرواية التي سبق الحديث عنها في الفصل الثالث هي الرواية المعتمدة في التأريخ الإسرائيلي المختصّ منه وغير المختصّ .

لا بدّ أنّ يكون مفهوم «المؤرخين الجدد» في إسرائيل مفهومًا لدى قارئ الكتاب الآن . إننا ثلّةٌ من المؤرخين الإسرائيليين من أهل الاختصاص لا نقبل الرواية الرسميّة لتاريخ حرب عام ١٩٤٨ وسنستفيض أكثر في الكلام عنها لاحقًا . لقد ولد هذا التاريخ الجديد عام «١٩٦١» تقريبًا ، وكان الأب المؤسس لهذا التاريخ ديفد بن غوريُن نفسه! فما فعله من حفظِ تقرير غاباي قد كان حائلًا دون القبول بتلك النتيجة .

هنالك قصّة مألوفة أكثر في التحدّي المحليّ للرواية الإسرائيلية حول أحداث حرب ١٩٤٨ بدأت مع الصحفيّ سيمحا فلابان ، مع أنّه لم يكنْ يُتوقّع منه أن يقف إلى صفّ المخالفين لها . فهو رجل انطبعت صورته في ذهن العامّة بعد

حرب عام ١٩٦٧ حين أفحمَ جان بول سارتر وردّ عليه بشكل مثير حين دعا إلى العودة غير المشروطة للاجئين الفلسطينيين الذين طردوا عام ١٩٤٨ ، داحضًا اتهاماته ورافضًا دعوة الفيلسوف الفرنسي مبيّنًا أوجه استحالتها . إلا أنّه لم يكن يعرف أنّه سيجد نفسه بعد سنوات وقد تبنّى موقف سارتر وصار يدعو للحلّ الذي سفّهه في يوم من الأيّام .(٩)

ولد فلابان عامَ ١٩١١ وانضمّ لحركة صهيونية يسارية تدعى مابام (حزب العمّال الموحّد) بعد أن وصل إلى فلسطين عام ١٩٣٠ . عاش في كيبوتس غان شموئيل ، وقد سبق أن أتينا على ذكر هذا الكيبوتس في الفصل الرابع وقلنا إنّه مكان خرجَ منه العديد من روّاد الفكر المناهض للصهيونية في دولة إسرائيل . وقد وجد في نفسه ميلًا نحو دراسة العربِ لغتهم وثقافتهم ، ولذا فإنه استخدم لاحقًا مثل كثيرين غيره ممن أبدوا مثل هذه الاهتمامات ، لسحق الثقافة العربية بدل مدّ جسورٍ معها . انضمّ في الثلاثينات إلى الهاغانا وشارك في الحرب .

كان حزبُ مابام ثاني أكبر حزب في الكنيست ، وهو حزب صهيونيّ اشتراكيّ بالتعريف وكانت تربطه بالاتحاد السوفييتي روابط وثيقة انتهت مع وفاة ستالين . وقد اختير فلابان عام ١٩٥٠ ليصير رئيس الشعبة العربية في الحزب ، والتي نجحت في خلق شعبية لها داخل المجتمع الفلسطيني في إسرائيل . كما عمل في الصحيفة اليومية للحزب «عل هميشمار» واستمرّ فيها إلى أن أسس بالشراكة مع مارتين بوبر مجلّة باللغة الإنجليزية بعنوان «نيو آوت لوك» عام ١٩٥٧ . ورغم أنّ المجلّة كانت لها مواقف واضحة في رفض السياسات القمعية التي تمارسها السلطات الإسرائيلية ضد الأقلية الفلسطينية داخل إسرائيل ، إلا أنها لم تنشر أيّ أمر يتعلّق بمخالفة الرواية الإسرائيلية عن حرب ١٩٤٨ .(١٠)

كان التغيّر قد حصل حين تقاعد فلابان في بداية الثمانينات وذهب إلى هارفرد والتقى بوليد الخالدي ، أحد أهمّ المؤرخين الفلسطينيين في تلك الفترة وأحد الباحثين الذي كرّسوا حياتهم لتأريخ المأساة الفلسطينية منذ العام ١٩٤٨ . وقد اقتنع فلابان بفضل هذا الرجل بأنّ الرواية الإسرائيلية الرسمية التي

ابتدعها بن غوريُن كانت محض تلفيق . وعن هذا التحوّل كتب فلابان قائلًا : «إن حالي هي حال معظم الإسرائيليين ، فقد كنت متأثرًا ببعض الأساطير التي شاعت بين النّاس وأخذت على أنّها حقائق تاريخية .»[١١] كان العمر قد بلغ بفلابان ثلاثة وسبعين سنةً حين قرّر أن يعيد النظر في الأساطير التي قامت عليها دولة إسرائيل ، ووضعَ كتابًا فيه خلاصة نتائجه بعنوان «ميلاد إسرائيل : الأساطير والحقائق» (ومن المؤسف أنّ حياة فلابان لم تطل به ليرى كتابه ، فقد نشر بعد وفاته عام ١٩٨٧) . ويتضمّن هذا الكتاب تفنيدًا لكل هذه الأساطير بطريقة مقنعة وناجعة .[١٢] وكانت أعمال من تبع فلابان من باحثين محاولةً لتدعيم ما توصّل إليه باستخدام موادّ وأدلة جديدة .

إحدى هذه الأساطير هي أنّ إسرائيل وافقت على قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ وهذا يعني أنّها رضيت بقيام دولة فلسطينية إلى جانب أخرى يهودية وعلى مساحةٍ تزيد عن نصف مساحة فلسطين . وما يكشفه فلابان هو أنّ هذا القبول كان أمرًا «تكتيكيًا» لدى إسرائيل ، حيث اتخذته «نقطة انطلاق لعمليات التوسّع كلّما سنحت الفرصة».[١٣] ويثبت ببراعة أنّ بن غوريُن لم يُلق بالًا إلى البعد المناطقي في خطة التقسيم والتي انقسمت فلسطين بموجبها إلى دولتين ، وكان عادة ما يشير إلى القرار على أنّه خطوة أساسية لإضفاء الشرعية الدوليّة على فكرة الدولة اليهودية التي لا يضع حدودها أحد سوى الحركة الصهيونية .

أما الأسطورة الثانية فقولهم إنّ كل الفلسطينيين كانوا يأتمرون بأمر الحاج أمين الحسيني ، مفتي القدس ، ويقفون معه على قلب رجلٍ واحدٍ في معارضة خطة السلام التي قدّمتها الأمم المتحدة . ويردّ فلابان هذه الفكرة ويشير إلى أنّ الحسيني لم يكن له الكثير من الأتباع كما أنّه عجز عن حشد مقاومة شعبيّة حقيقيّة للوقوف في وجه القرار وتطبيقه . ويعرض فلابان في كتابه بعض التقارير التي قدمها مستشارو الشؤون العربية لدى بن غوريُن والتي تظهر صحة ما ذهب إليه في تحليلاته ، إذ أخبر هؤلاء المستشارون الزعيم الصهيونيّ بأنّ

غالبية الفلسطينيين مع قرار التقسيم . كما أشار إلى أنّ الفلسطينيين في معظم الأحيان كانوا قد لجؤوا إلى العنف دفاعًا عن النفس . وقد اعتمد فلابان في بيانه لردّة فعل الفلسطينيين بخصوص قرار التقسيم على مذكّراته الشخصية من تلك الفترة ، حيث كان مقرّبا من كبار القادة السياسيين والعسكريين في المجتمع اليهودي في فلسطين .(١٤)

هنالك أسطورة أخرى عرض لها فلابان بالنقد تتعلق بأنّ الدول العربية كانت عازمة عام ١٩٤٨ على تدمير الدولة اليهودية . وعن هذا يقول فلابان أوّلا إنّ العالم العربي كانَ منقسم الكلمة لا تجمعه سياسة موحّدة فيما يخصّ فلسطين . فقد كان للعراق وعبر الأردن ثقل مهمّ في العالم العربي وكلاهما كانتا تحت الحكم الملكيّ الهاشميّ الذي سعى للتوصّل إلى تفاهم مع الدولة اليهودية الناشئة ، وكانت نتيجة ذلك أن عقد بن غوريُن معاهدة سرية مع الأردنّ اتفق فيها الطرفان على تقاسم فلسطين بينهما بعد انسحاب بريطانيا منها . وقد ورد ذكر هذه الاتفاقية في اثنين من المصادر ، الأول هو مذكّرات عبدالله التلّ ، قائد الجبهة الأردنية في حرب ١٩٤٨ ، والذي قرّر إفشاء هذه التفاصيل السريّة حين عارض سياسة أسياده في أوائل الخمسينات ولم يجد بدّا من الذهاب إلى مصر .(١٥) أمّا المصدر الثاني فهو إسرائيل بيير والذي كان مستشارًا إستراتيجيًا لدى بن غوريُن عام ١٩٤٨ ، وكان ما دفعه لإفشاء هذا السرّ هو اعتقاله عام ١٩٦١ بتهمة التجسس لحساب الاتحاد السوفييتي ، إذ كتب في السجن كتابًا بعنوان «أمن إسرائيل : بين البارحة واليوم والغد» ، وفضح فيه أمر هذه الاتفاقية .(١٦)

رابع هذه الأساطير هو أنّ الفلسطينيين تركوا بيوتهم اتباعًا لنصائح قادتهم وقادة الدول العربية المجاورة . إذ يظهر فلابان أنّ هذا ادّعاء لا يسنده «أيّ دليل» ، ثمّ إنّه من غير المعقول من الناحية الإستراتيجية أن يطلب العرب هذا الأمر لأنهم لو فعلوا لصار الأمر أكثر صعوبةً عليهم في أرض المعركة .(١٧) إنّ السبب الذي دفع الفلسطينيين لترك بيوتهم هو أنّ القيادة الصهيونية كانت عازمة على

تقليص أعدادهم بأي وسيلة ممكنة .[١٨] ومع أنّه لم يكن لفلابان قدرة على الوصول إلى الوثائق الرسمية وإنما كان يفترض أنّه لم تكن هنالك أوامر مباشرة بتهجير الفلسطينيين قسرًا ، إلا أنّه كان على قناعة بأنّه لم تكن هنالك حاجة لمثل هذه الأوامر ، لأنّ القادة العسكريين حينها كانوا يدركون تمامًا المهمّة المنتظرة منهم والتي تتمثل في طرد الفلسطينيين من قراهم ومدنهم .[١٩]

أما الخامسة فهي أنّ إسرائيل تمثّل داود الذي تحقّقت على يديه معجزة النصر على جالوت العربيّ . ويرى فلابان جازمًا أنّه وفي كافّة مراحل المواجهة عام ١٩٤٨ «كان تفوّق القوات اليهودية أمرًا لا جدال فيه» . أمّا «جالوت» فقد عصفت فيه الفرقة وأضعفته النزاعات والشقاقات داخل بيته العربيّ .[٢٠]

وتدّعي الأسطورة السادسة والأخيرة أنّ إسرائيل مدّت يدها للسلام بعد الحرب ولكنّ مبادرتها لقيت الرفض من قبل الدول العربية والفلسطينيين . ونرى فلابان يدحض هذا الادّعاء من خلال الإشارة إلى بروتوكول لوزان الذي وقّع في ١٢ أيار ١٩٤٩ من قبل مصر والأردن ولبنان وسوريا وإسرائيل في مؤتمر سلام دوليّ حول فلسطين عقدته الأمم المتّحدة . وقد وضع هذا البروتوكول ثلاثة مبادئ أساسية للسلام في فلسطين : الاعتراف بخطّة التقسيم وبالتالي الاعتراف بإسرائيل ، وتدويل مدينة القدس ، وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم . ويظهر فلابان وجود مبادرات جدّية لتحقيق السلام من قبل سوريا والأردنّ إلا أنها قوبلت بالرفض من قبل الحكومة الإسرائيلية .[٢١]

في عام ١٩٨٨ قام المؤرخ بيني موريس بكتابة دراسة في المجلة الأمريكية اليهودية الليبرالية «تيكون» يناقش فيها كتابات فلابان بالإضافة إلى كتاباتي وكتابات أفي شلايم حيث وصفها بأنّها تشكل توجّهًا جديدًا في التأريخ الإسرائيلي فيما يتعلق بالعام ١٩٤٨ ، وصاغ اصطلاحًا جديدًا للتعبير عن هذه الظاهرة وهو «التاريخ الجديد لإسرائيل» .[٢٢] وقد انتشر هذا الاصطلاح وصار مقبولًا ومتداولًا حتى الآن . وفي العام الذي أعقب نشر دراسة موريس ، كتب المؤرخ الإسرائيلي البارز شاباتي تفيث مقالة نشرت في هآرتز تبنّى فيها مصطلح

«التاريخ الجديد» في وصف مؤلفاتنا ، غيرَ أنّه رفض النتائج التي توصّلنا إليها واتهمنا بالخيانة .[٢٣] وقد أعقبَ ذلك نقاش مستفيض لنتائج أبحاثنا وتحوّل الأمر إلى جدال أكثر اتّساعًا للمساءلة الأكاديميّة لفكرة إسرائيل والتي سنبسط القول فيها في الفصول التالية . أمّا في إسرائيل على الأقلّ فإنّ مصطلح «التاريخ الجديد» يشير حتى اليوم إلى مجموعة من المؤرخين الذين يعارضون الرواية التاريخية الشائعة عن حرب ١٩٤٨ .

بيدَ أنّ هذا المصطلح الذي أخذ من حركة «التاريخ الجديد» في أوروبا يبقى مضللًا . فحركة «التاريخ الجديد» في أوروبا كانت جهدًا شارك فيه مختصون من حقول متعدّدة يهدف إلى وضع التاريخ الدبلوماسي وتاريخ النخبة في سياق اجتماعي وغير نخبوي أوسع . أما «المؤرخون الجدد» في إسرائيل فقد انصبّ جهدهم على معارضة التحليل النخبويّ للسياسة . ولهذا فإنّه من الأدقّ الإشارة إليهم (إلينا) باسم حركة المراجعة التاريخيّة ، بدلالة قريبة إلى مدرسة المراجعة في التأريخ الأمريكي فيما يتعلق بالحرب الباردة . لكنّ هذا المصطلح أيضًا لا يخلو من إشكالات ، فاستخدامه يخلق خلطًا محتملًا بينه وبين حركة المؤرخين المراجعين ، أي المؤرخين الذين ينتمون لحركة المراجعة اليمينية الصهيونيّة .[٢٤] يضاف إلى هذا أنّ مصطلح «مراجع» كما هو في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا يرتبط عادة بكل من يحاول التقليل من مدى فظاعة المحرقة أو الفترة النازيّة الفاشيّة .

على أية حال ، فإن السمة التي تميّز أعمالنا جميعها هي كونها تدحض الأساطير الإسرائيلية الكبرى حول حرب ١٩٤٨ . ولا بدّ ليَ الآن أن أتكلم بإيجاز عنّا وعن الدوافع التي حرّكتنا ، بالإضافة إلى الأعمال الأساسية التي أنتجناها وعن علاقتها بالروايات التاريخية السائدة عند كلا الطرفين .

«المؤرخون الجدد»

علينا في البداية أن نلقي نظرة على الفترة التي كتبت فيها أعمالنا التي رفضنا فيها القراءات الرسميّة للتاريخ . بدا الهجوم الإسرائيلي على لبنان في

حزيران ١٩٨٢ عملية انتقاميّة ردًا على محاولة اغتيال فاشلة استهدفت السفير الإسرائيلي في لندن ولكنّه كان يهدف في واقع الأمر إلى تدمير قواعد منظمة التحرير الفلسطينية هناك . غير أنّ الحربَ لم تحظَ بدعمِ الرأي العام في إسرائيل ، فأضحت أوّل حرب في تاريخ إسرائيل تكون مثارَ خلاف في المجتمع الإسرائيلي .

وقد كانت المعارضة الشعبية للحرب على لبنان سابقةً من نوعها ، فقد وصفت بأنها حرب اختيار لا حرب ضرورة ، وذلك بعد أن كانَ التشكيك في دواعي الحرب أو مسوّغاتها من بين المحرّمات . أمّا للمؤرخين المختصين فقد كان العدوان على لبنان نقطة تحوّل فاصلة ، إذ فتح الباب لإعادة النظر في حروب إسرائيل التي سبقت هذه الحرب ، وازدادت الشكوك ، خاصة بين النخب من المفكرين والمثقفين ، حين اندلعت الانتفاضة الأولى وسحقت بقسوة من قبل الجيش الإسرائيلي عام ١٩٨٧ .

وللمرّة الأولى تحوّلت صورة الفلسطينيين من صورة العدوّ إلى صورة الضحيّة : الكفة المرجوحة في ميزان القوى . لقد كانت الانتفاضة الأولى مواجهة بين جيش ومدنيين ، ولذا فإنها تذكر البعض منّا على الأقل بالمواجهات التي جرت عام ١٩٤٨ . لقد وقعت العديد من المواجهات خلال انتفاضة ١٩٨٧ في مخيمات اللاجئين من العام ١٩٤٨ ، وقد كانت في نظر العديد من الفلسطينيين جزءاً من نفس الصراع الذي وجدوا أنفسهم في أتونه منذ أن نزعت منهم أرضهم قبل أربعين سنة خلت . وهكذا فإن الثمانينات قد بعثت ذكريات ، لدى كلا الطرفين ، ترتبط بحرب عام ١٩٤٨ ، وقد كانت دافعًا للبعض منّا للنظر إلى الماضي بصورة جديدة .

لقد جرى التعامل مع حرب ١٩٤٨ مع وجود مقاربة حتميّة واعية أو غير واعية تؤثر على إعادة تشكيلنا للماضي . لقد بدت هنالك علاقة ما بين التوجهات والسياسات عام ١٩٨٧ وحرب ١٩٤٨ ، حتّى أنّ الصحافة الرسمية في إسرائيل قد وصفت الوضع في انتفاضة ١٩٨٧ بأنّه حرب مع الفلسطينيين

وعمد بعض الكتاب إلى رصد التشابهات مع حرب ١٩٤٨ وفي هذا تأكيد على حقيقة أنّ ما حصل وشجب عام ١٩٨٧ قد حصل وشجب من قبل عام ١٩٤٨ . أمّا فيما يتعلق بالفظائع التي ارتكبتها إسرائيل في لبنان ، فقد شعرنا بعدم القدرة على فهم أهداف وخطط الحرب رغم أننا جميعنا كنا صهاينة بشكل أو بآخر . هنالك شكوك إضافية ظهرت لديّ ، وربّما ظهرت لدى اثنين آخرين من «المؤرخين الجدد» ، وذلك حين وجدنا أنفسنا عاجزين عن فهم الرد الإسرائيلي العنيف على الانتفاضة في المناطق المحتلة عند اندلاعها في كانون الأول ١٩٨٧ .

ولد بيني مورس في إسرائيل عام ١٩٤٨ لعائلة إنجليزية يهوديّة ، وكان أبوه دبلوماسيًا إسرائيليًا خدم في العديد من المواقع في دول غربيّة كما عمل في الأمم المتحدّة في نيويورك حيث قضى موررس معظم شبابه . تخرج في الجامعة العبرية في القدس ثم حصل على الدكتوراه من جامعة كيمبردج عن بحث يتعلق بالتاريخ الأوروبي الحديث . قاده عمله الصحفي إلى الاهتمام بتاريخ الصراع حين بدأ العمل مع صحيفة جيروسالم بوست في نهاية السعبينات من القرن العشرين ، وخاصة حين تناول الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ . وفي عام ١٩٨٨ رفض مورس أن يخدم كجنديّ احتياطي في نابلس المحتلة ، وقضى ثلاثة أسابيع في السجن نتيجة لذلك .

في ذلك العام نشر مورس كتابًا بعنوان «نشأة مسألة اللاجئين الفلسطينيين ، ١٩٤٧-١٩٤٩» والذي أكّد فيه تفنيد فلابان للخرافة التأسيسية الرابعة التي تدّعي أنّ الفلسطينيين تركوا بيوتهم بناء على أوامر وجّهت إليهم من بعض قادتهم داخل فلسطين وخارجها . على غرار فلابان أو قبله كان هنالك صحفي إيرلندي يدعى إرسكين شيلدرز رفض هذا الادّعاء كذلك ولم يجدْ أيّ دليل عليه . أمّا مورس فقد جاء ليقدّم الأدلة من السجلات الإسرائيلية الرسمية في أرشيف جيش الدفاع الإسرائيلي وبعض المؤسسات شبه العسكرية على ما ذهب إليه فلابان بأنّ مشكلة اللاجئين قد كانت نتيجة عمليات من الطرد

وسلب الأراضي من الفلسطينيين .

لقد اتّبعت إسرائيل القانون البريطاني الذي يقضي برفع السريّة عن الوثائق السياسيّة بعد ثلاثين سنة والوثائق المتعلقة بالشؤون الأمنيّة بعد خمسين ، وهكذا صارت الوثائق البريطانية والإسرائيلية المتعلقة بالعام ١٩٤٨ متاحة للباحثين والعامّة عام ١٩٧٨ . وقد تركّز عمل موروس على أرشيف الهاغانا وجيش الدفاع حيث نظر في التقارير الصادرة حينها من أرض المعركة والنقاشات التي دارت بين السياسيين في ذلك اليوم . وقد توصّل موروس إلى أنّ المادة الأرشيفية لم تكشف عن وجود خطة ممنهجة لطرد الفلسطينيين إلا أنّ خوف السكان الحتميّ وعواقب القتال الجاري كانت من الأسباب الأساسية التي دفعت الناس إلى ترك منازلهم . إلا أنّ موروس تمكّن من الإشارة إلى عدد لا بأس به من الحالات التي قرّر فيها بعض القادة الميدانيين طرد السكّان من بيوتهم . كما بيّن موروس وجود سياسة مقصودة بعدم السماح لهم بالعودة . لقد شكّل هذا الكتاب حين نشر عام ١٩٩١ لحظة وعي أولى للعديد من القرّاء الإسرائيليين باحتماليّة تفيد أنّ الجيش الإسرائيلي قد طرد الناس من أرضهم بالقوّة . لقد كانت السياسة الوحيدة التي يتصوّر جميع قراء موروس ومراجعوه أن تتبعها دولتهم اليهودية الديمقراطية هي مجرّد عدم السماح للفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم لا أكثر .

نرى كذلك أن آفي شلايم قد استفاد من هذه المواد بعد فضّ السريّة عنها للتأكيد على رفض فلابان للخرافة التأسيسية الثالثة التي تذهب إلى أنّ العرب كانوا قد اتّحدوا وعزموا أمرهم على تدمير مستقبل الدولة اليهودية . ولد شلايم في بغداد عام ١٩٤٥ وهاجر إلى إسرائيل عام ١٩٥١ .[٢٥] وحين بلغ السادسة عشرة من عمره ابتعثته إسرائيل إلى إنجلترا لإتمام المرحلة الثانوية فيها ، ثم عاد إلى إسرائيل وخدم في الجيش وبعدها مجدّدا إلى إنجلترا ليحصل على شهادة البكالوريوس في التاريخ من كيمبردج ومن ثمّ تابع دراساته العليا وحصل على درجة الدكتوراه في جامعة ريدنغ في بداية السبعينات وعمل هنالك محاضراً

إلى أن انتقل إلى كلية سانت أنتوني في أكسفورد في الثمانينات . وكما حدث مع مورس ، تناول شلايم التاريخ الأوروبي في أطروحة الدكتوراه التي أعدّها ، ثم كان الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ هو ما وجّهه لدراسة تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي بشكل عام وتاريخ حرب ١٩٤٨ على وجه الخصوص .

سلّط شلايم الضوء على المباحثات السريّة التي دارت بين المملكة الأردنية الهاشمية (وكانت تعرف بإمارة شرق الأردن حتى عام ١٩٤٩) والقيادة الصهيونية ، وذلك في كتابه : «التواطؤ عبر الأردن : الملك عبدالله والحركة الصهيونية وتقسيم فلسطين» . تتبع شلايم في كتابه تلك المباحثات منذ انطلاقها في الثلاثينات إلى أن انتهت وتمخض عنها اتفاق ضمني بمنح الأردن أجزاء من فلسطين التي حدّدت على أنّها الدولة المستقبلية للعرب في خطة التقسيم الصادرة عن الأمم المتحدة في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ .[٢٦] وقد ضمنت هذه الاتفاقية التي سبقت الحرب عام ١٩٤٨ أن يبقى الجيش الأردني على الحياد وأن يقتصر دوره في محيط منطقة القدس . وقد أظهر شلايم بالعديد من الأوجه كيف أنّ هذا الاتفاق الضمني يفسّر النجاح اليهودي في تلك المعركة . فقد كان الأردنيّون دون غيرهم في العالم العربي يمتلكون جيشًا نظاميًا حديثًا ذا خبرة في المعارك وفيه فريق قويّ من الضباط الإنجليز . ولذا فإن الفيلق العربي قد كان أقدر الجيوش العربية ، وكان تحييده وقصر دوره على جبهة واحدة في القدس كفيلًا بالتخلص من تهديد حقيقي على وجود دولة إسرائيل اليافعة . كما أنّ هذا الادعاء المتعلق بوجود اتفاقية مسبقة يشكّل فصلًا مهمًا في الرواية الفلسطينية .

في مسيرتي الخاصّة كمشتغل في التاريخ كانت حرب لبنان عام ١٩٨٢ الأشد قسوة وذعرًا ، فقد كانت هجومًا تسبّب بموت عشرات آلاف الفلسطينيين واللبنانيين وانتهت باحتلال إسرائيل لبيروت . أمّا مجزرة صبرا وشاتيلا التي قام بها حزب الكتائب المسيحي على مرأى ومسمع الجيش الإسرائيلي المحتل دعت مئات الآلاف من اليهود الإسرائيليين للتظاهر ، لأول مرّة في تاريخ دولة

إسرائيل، ضد العملية العسكرية الجارية هناك.

لقد ولدتُ في إسرائيل عام ١٩٥٤ وتخرجت في الجامعة العبرية عام ١٩٧٩، وحين كنت في المرحلة البحثية لدراسات الدكتوراه في كلية سانت أنتوني في أكسفورد اندلعت حرب لبنان عام ١٩٨٢. كنت أعمل حينها على دراسة السياسة البريطانية إبّان حرب ١٩٤٨، وتولّدت عن هذه الدراسة كتاب بعنوان «بريطانيا والصراع العربي الإسرائيلي ١٩٤٨-١٩٥١» والذي اعتمدت فيه بشكل أساسي على الوثائق البريطانية التي أتيحت للعامة في الثمانينات[٢٧]. وحين أتممت هذه الدراسة وجدت أنني قد أتممت صورة التواطؤ التي رسمها آفي شلايم من خلال تسليط الضوء على الدور البريطاني فيه.

لقد كانت بريطانيا في التأريخ الصهيوني الكلاسيكي مساندة دومًا للهاشميين وكانت صورتها سلبية بشكل عام. إلا أنه قد اتّضح لي أنّه حتى إرنست بيفان «الشرير» قد وقف معارضًا لفكرة الدولة الفلسطينية المستقلة، وكان داعمًا مع كامل الكادر الذي عمل معه لفكرة تقسيم فلسطين ما بعد الانتداب بين اليهود والهاشميين، حيث اعتقد أنّ من شأن هذا أن يحفظ المصالح البريطانية في تلك المنطقة. وهكذا قمت أنا وشلايم بتصويب هذه الصورة المشوّهة في الذاكرة الجمعية للإسرائيليين عن بريطانيا، حيث أوضحنا الدور المحايد الذي لعبته في الصراع، بل والذي كان في العديد من المواقف داعمًا لإسرائيل.[٢٨]

إلا أنني في كتابي سابق الذكر اتهمت القوات البريطانية بعدم الاكتراث بما جرى من سلب الفلسطينيين أراضيهم، إذ كانت هذه القوات شاهدة على طرد الفلسطينيين في العديد من المواقف كما جرى في حيفا ويافا، كما لعبت دورًا مشبوهًا من خلال ممارسة الضغوط على السكان لمغادرة بيوتهم أو تركهم عرضة للاحتلال الصهيوني دون توفير الحماية لهم. وهكذا فإنّ القوات البريطانية قد سهّلت انتقال الفلسطينيين من تينك المدينتين.

كما أظهرتُ أنّ الوثائق الاستخبارية البريطانية تؤكّد على دحض فلابان

للرواية التي تصف حرب ١٩٤٨ بأنها حرب بين جالوت العربي وداود الصهيوني. فقد كتب قادة الجيش البريطاني حينها تقريرًا تفصيليًا بشأن ميزان القوى عشيّة الحرب لإرساله إلى الحكومة في لندن، وقد كان معتمدًا على حد كبير على التقارير التي قدّمها بعض المستشارين البريطانيين لقادة الجيوش العربية في تلك الفترة. وقد أشار كلّ منهم بدوره إلى أنّ الجيوش العربية لن تكون قادرة على الصمود إلا فترة وجيزة في تلك الحرب.[٢٩]

وفي كتاب آخر كتبته بعد فترة وجيزة بعنوان «صناعة الصراع العربي الإسرائيلي، ١٩٤٧-١٩٥١) نظرت في الوثائق العربية المتوفرة عن حرب ١٩٤٨.[٣٠] فنظرت في تقارير قادة الجيوش المقدمة آنذاك إلى القادة السياسيين، حيث قدّموا صورة قاتمة لمدى جاهزية جيوشهم ومستوى التزامهم وقدرتهم على المواجهة في أرض المعركة. وكما أشرت مسبقًا، فإن هذا الوضع قد دعا الفيلق العربي الأردني ومعظم قادة الجيوش العربية لطلب تمديد الانتداب على فلسطين والسعي لوضع خطة سلام جديدة. ولكنّ مجزرة دير ياسين التي ذهب ضحيّتها ٢٥٠ من المدنيين الأبرياء ذبحًا على السفوح الشمالية العربية لجبال القدس، وما حصل من تهجير الفلسطينيين قسرًا من معظم المدن، قد دفع الناس للمطالبة بتحرك عربي في فلسطين. إلا أنّ المجتمع الدولي لم يصغ بسمعه لهذه الدعوات اليائسة وكان هنالك إصرار على أنّ خطة التقسيم المقدمة من الأمم المتحدة هي السبيل الوحيد المتوفر. ومع ذلك، وكما أشرت سابقًا، كان معظم القادة العرب حتى اليوم الأخير قبيل اندلاع الحرب يحاولون تجنب عملية عسكرية ذلكَ أنّهم كانوا يدركون جيدًا أنّ النهاية لن تكون لصالحهم، وهكذا تمّ اتخاذ القرار النهائي للدخول إلى فلسطين في الرابع عشر من أيار عام ١٩٤٨.

كما أنني واجهت واحدة من الأفكار الأساسية التي تثار ضدّ فلابان والتي تشير إلى أنّ الحديث عن أنّ ميزان القوى في حرب ١٩٤٨ قد كان في صالح الصهاينة ليس أمرًا صحيحًا وذلك لارتفاع عدد الضحايا اليهود فيها (١٪ من المجتمع اليهودي). والحقيقة أنّ عددًا كبيرًا من هذه الضحايا قد وقعوا في

صدامات محلية ومدنية في الفترة التي سبقت الحرب نفسها، ولم تكن القوات العربية تشارك في هذه المواجهات وعليه فإنّ ما سقط من الضحايا لم يكن بسبب قوّة الجيوش العربية وتفوّقها. كما أنني سلّطت الضوء على سياسة بن غوريُن في الدفاع عن بعض المستعمرات المعزولة مما أدّى إلى نشوب معارك غير ضرورية ويائسة ولم تعكس بالضرورة ميزان القوى الذي كان قائمًا بشكل عام حينها. كما أشرت إلى أنّ العدد الكبير من الضحايا الذين سقطوا في المعارك التي دارت في القدس وحولها قد كان يمكن تجنبها، وذلك لأنّ الأطراف التي شاركت بها (الأردنيين والإسرائيليين) كانوا قد توصلوا أصلًا إلى اتفاق يقضي بعدم المواجهة العسكرية في جبهات أخرى في فلسطين.(٣١)

بل يمكن القول إن ميزان القوى قد مال أكثر لصالح إسرائيل نتيجة حملة دبلوماسية ناجحة من جهة أخرى، وهي إنجازات تعزى إلى تعاون نادر بين قوتين عظميين متحاربتين عام ١٩٤٧ قامتا، كلّ لدوافعه الخاصة بدعم الجهود الصهيونية ضد الفلسطينيين.

قد تكون إدارة الرئيس ترومان أولّ إدارة أمريكية تخضع لضغط جماعة ضغط يهوديّة (وذلك حتى قبل تأسيس منظمة الآيباك وقبل وجود جهود منظمة لعمل جماعات الضغط). ففي شباط ١٩٤٨ كانت الإدارة الأمريكية ما تزال تفكّر بجدّية بطرح خطة التقسيم واقتراح خطّة جديدة لتمديد الانتداب على فلسطين لخمس سنوات أخرى وفكّرت بالتقدّم للحصول على قرار بذلك من مجلس الأمن. إلا أنّ الإدارة عزفت عن هذه الفكرة بعد أن قام أحد الشخصيات اليهودية المهمّة بزيارة الرئيس في البيت الأبيض للضغط عليه ليعدل عنها. ومع أنّ وزير خارجيته حينها، جورج مارشال، لم يكن بتلك الحماسة لقيام دولة إسرائيل، إلا أنّ خبراءه الإستراتيجيين نصحوه آملين في أن تكون هذه الدولة عونًا لهم في الحرب الباردة التي كانت على الأبواب. كما بينت أنّ ترومان قد تأثر بعد زيارته لمواقع الهولوكوست فقبل بوجهة النظر الصهيونية بأنّ أفضل ما يمكن فعله أمام هذه المأساة هو إنشاء دولة يهودية في فلسطين.

أما الاتحاد السوفييتي فقد كان يطمح إلى أن تقف هذه الدولة إلى جانبه في الحرب الباردة نظرًا للدور البارز الذي لعبته الأحزاب الاشتراكية في المجتمع اليهودي ، إذ كان حزب مابام ، وهو ثاني أكبر حزب في إسرائيل ، يكنّ احترامًا بالغًا لستالين وسياساته ، وصارت ذكرى وفاة ستالين يوم عزاء رسميّ لدى حركة الكيبوتس . كما كان الحزب الشيوعي كذلك شديد الولاء لموسكو ، وساعد بعض أعضائه منظمة الهاغانا في شراء أسلحة في المعسكر الشرقي (إذ كانت بريطانيا وفرنسا قد فرضتا حظرًا على بيع الأسلحة لكلا الطرفين) .

وهكذا ضمن هذا الدعم من الطرف الأمريكي من جهة والسوفييتي من جهة أخرى نجاح المساعي الصهيونية في الأمم المتحدة . وهكذا فإنّ «العالم» لم يكن «ضدّنا» ، بخلاف ما تدعيه الخرافة الإسرائيلية ، بل إنّ العالم في واقع الأمر قد وقف أمام حق الفلسطينيين الأساسي بالاعتراف بأغلبيتهم الديمغرافية كعنصر أساسي في إنشاء دولة مستقلة في فلسطين . لقد نجح الصهاينة بشكل عام في إقناع أطراف كثر في العالم بفكرة إسرائيل كأفضل علاج لمآسي الهولوكوست . وأمام هذا الادعاء ، لم يكن أمهر الدبلوماسيين الفلسطينيين ، وكانوا قلّة حينها ، قادرين على التأثير في هذه اللعبة الدبلوماسية ، كما ظهر ذلك جليًا في نتائج أعمال لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين .(٣٢)

نرى مما سبق أن بيّنّاه من نقاط ذلكَ الفرقَ الذي كان قائمًا بين الطرفين من ناحية الاستعداد العسكري والقوات على الأرض ، والتفاهم الذي كان قائمًا بين الصهاينة وإمارة شرق الأردن ، والدعم والضغط الدوليين لصالحهم . وعليه فإنّ النصر المتحقق لم يكن سببه الحظّ المختلط بالمعجزة كما تشير الروايات التاريخية الرسمية .

كما اختلفتُ قليلًا في كتابي مع تحليل بيني مورس بخصوص ظهور مشكلة اللاجئين ، وقد كان الخلاف أكاديميًا ولكنّه أخذ منحى آخرَ في مطلع القرن الجديد . لقد كانت الخرافة المتعلقة بالهجرة الطوعية من قبل الفلسطينيين أهمّ ما تعرض له المؤرخون الجدد بالنقد والتفنيد ، وذلك لأنّ هذه الخرافة قد كانت

مفصلية في الترويج لفكرة إسرائيل . ولعل هذا هو السبب الذي دفع إلى إعادة التصنيف السريّ للعديد من الوثائق التي تشير إلى عمليات طرد الفلسطينيين والفظائع التي ارتكبت بحقهم من قبل الجنود الإسرائيليين .

لقد فنّد مورس هذه الفكرة في كتابه كما أشرنا سابقًا ، إلا أنّه لم يقبل الرواية التاريخية الفلسطينية التي كان أول من قدّمها وليد الخالدي عام ١٩٦١ والتي تشير إلى أنّ عملية الطرد كانت جزءاً من خطّة شاملة .[٣٣] وقد أظهر هذا الاختلاف في الآراء وجود فجوة ما بين الرواية الوطنية الفلسطينية و «التاريخ الجديد» . ولم يكن الأمر ذا بال في البداية ، إلا أنّ هذا التفريق سيكون خطيرًا بعد حين وسيظهر أنّ مورس أكثر ولاء للرواية الصهيونية مما قد يبدو لأول وهلة . إن إلقاء اللوم والمسؤولية على إسرائيل ليس مجرد نقاش حول الدقة التاريخية ، وإنما جدال بشأن حل مشكلة اللاجئين .[٣٤]

فعلى سبيل المثال ، إنّ الطرد المتعمّد ، والذي أدعوه أحيانًا «تطهيرًا عرقيًا» كفيلٌ بأن يضع ما قامت به إسرائيل عام ١٩٤٨ ضمن تاريخ جرائم الحرب بل وضمن الجرائم ضدّ الإنسانية ، وما يترتّب على ذلك من حل مستقبلي للمشكلة .[٣٥] وستصبح مسؤولية إسرائيل عن مسألة اللاجئين الفلسطينيين من القضايا المهمّة لاحقًا في المواجهة الدبلوماسية مع العالم العربي . إن الرأي العالمي - بصرف النظر عن ميوعة هذا المصطلح - يدعم حق إسرائيل في الوجود ، إلا أنّه قد تعاطف مع مأساة اللاجئين ، ثم إنّه لا يمكن إنكار مسؤولية إسرائيل في هذه المعضلة حتى من قبل المناصرين للصهيونية ، وهي معضلة ما تزال الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة تتهرب منها حتى هذا اليوم .

لقد تناول كتابي الثاني الخرافة الأخيرة التي تعرّض لها فلابان بالنقض والتي تدّعي بحث إسرائيل الدائم ومن طرفها فقط عن السلام . لقد كان هذا الفصل من «التاريخ الجديد» غائبًا في الرواية الفلسطينية . لقد ذهب رأيي إلى رغبة حقيقية كانت موجودة لدى معظم الحكومات العربية وما كان قد تبقى من القيادة الفلسطينية ، للتفاوض حول تسوية للوضع في فلسطين بعد الحرب . وقد

كان هذا الاتفاق يقوم على اعتراف العرب بخطة التقسيم عام ١٩٤٧ وإعادة اللاجئين إلى أراضيهم . وقد عمل آفي شلايم في كتاب آخرَ متأخرٍ له بعنوان «الجدار الحديدي : إسرائيل والعالم العربي» صدر عام ٢٠٠٠ على تقويض صورة إسرائيل كدولة ساعية بكل وسعها للسلام وذهب إلى أنّها قد فشلت في البحث عن فرص السلام مع جيرانها العرب منذ عام ١٩٤٨ وحتى هذا الوقت .(٣٦) وقد توصلت أنا الآخر إلى أنّ إسرائيل لم تمدّ يدها للتوصل إلى السلام في المنطقة ، بل إنّها في الواقع رفضت العديد من المبادرات من قبل العديد من القادة العرب . لقد كان بن غوريُن متعنّتًا (مع أنّ وزير خارجيته موشي شاريت كان أكثر مرونة منه) وقد حال تعنّته دون اغتنام الفرص التي لاحت لإحلال السلام في تلك المنطقة .

لا بدّ كذلك من ذكر كتابين آخرين في هذا الصدد ، الأول من تأليف توم سيغيف بعنوان «١٩٤٩ : الإسرائيليون الأوائل» والذي عرض وثائق أكّدت العديد من النقاط الأساسية التي توصل إليها «المؤرخون الجدد» الذين أشرنا إليهم . ولد سيغيف في القدس عام ١٩٤٥ لأسرة ألمانية يهودية وصلت إلى فلسطين عام ١٩٣٥ وتوفّي والده في حرب ١٩٤٨ . تخرج في الجامعة العبرية في القدس وأتمّ دراساته الأكاديمية في جامعة بوسطن حيث حصل على درجة الدكتوراه على أطروحة قدمها عن قادة معسكرات الإبادة في ألمانيا النازية . وبدأ الكتابة في صحيفة هآرتز منذ العام ١٩٧٩ ونشر بعض الكتب المتفرقة عن تاريخ إسرائيل الحديث . وقد جمع سيغيف في كتابه الذي حمل عنوان «١٩٤٩» بعض الوثائق التي كشفت عن التوجهات التي سادت بين النخبة السياسية والثقافية اليهودية تجاه الآخر أيًا كان ، حيث أشار إلى الطريقة التي كانوا يتعاملون بها مع الفلسطينيين في القرى والمدن المحتلة من لحظة الاستسلام أو الاحتلال .(٣٧)

أمّا الكتاب الثاني فقد نشر في العام ٢٠٠٢ إلا أنّه ينتمي إلى تلك المجموعة المبكّرة من الأعمال ، وهو كتاب ميرون بينفينيستي بعنوان «أرض مقدّسة : التاريخ الدفين للأرض المقدسة منذ ١٩٤٨» .(٣٨) لقد ساعد هذا الكتاب في

إتمام الصورة التاريخية لسلب الفلسطينيين أرضهم عام ١٩٤٨ . ولد بنفينيستي في القدس عام ١٩٣٤ لذا فإنه أكبر من موريس وشلايم ومنّي بنصف جيل تقريبًا . وقد استهل حياته العملية في المجال الأكاديمي ثم انخرط في السياسة المحلية في القدس حتى صار نائبًا لرئيس بلدية القدس المرموق تيدي كوليك واستمر في منصبه هذا من العام ١٩٧١ حتى ١٩٧٨ . وقد نال هذا الرجل شهرة عالمية بفضل مشروع أجراه على مستوطنة يهودية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وتوصل إلى أنّ هذه المستوطنات قد باتت أمرًا واقعًا ويستحيل تفكيكها ، ولذا فإنّه دعا إلى تطبيق حل الدولتين الذي بدا له الحل الممكن الوحيد .(٣٩)

ومن بين كتاباته المتفرّقة حتى اليوم عن تلك القضية بالذات ، كتب بنفينيستي كتابًا عن أحداث ١٩٤٨ ، وأوضح فيه كيف قامت إسرائيل بكل حماسة بمسح القرى التي تركها الفلسطينيون وحولتها إلى أراضٍ مزروعة أو مستعمرات يهودية جديدة . كما شارك علماء الآثار ومهندسو التصميم في هذه الفورة من الحماسة حيث ادعوا أنّ القرى العربية قد قامت أصلًا على أماكن تاريخية ذكرت في الكتاب المقدس واقترحوا منح أسماء عبرية للمستعمرات اليهودية تكون قريبة من اسمها العربيّ ليخلقوا بذلك رواية تدعي أنّ المكان يهودي أصلًا ، في الزمن التوراتي ، ثم تعرّب فترة من الزمن ، وتّمت عملية استعادته الآن . وهكذا أصبحت قرية لوبيا تدعى لافي وأطلق على صفورية اسم تسيبوري أما معن فقد بقيت معن .

جميع المؤلفات التي أشرنا إليها قد أكّدت من خلال الوثائق الأرشيفية ما توصل إليه فلابان من خلال النظر بين سطور المواد المنشورة التي توفّرت لديه في وقته . كما تنبع أهمّية هذه الأعمال من أنّها قدمت طرقًا جديدة لدحض التفسير المتعارف عليه لفكرة إسرائيل . لكنّ الوضع قد تغيّر كذلك ، فقد صار لدينا سياق جديد صار من الأسهل فيه كتابة نسخةٍ من التاريخ أقرب إلى الرواية الفلسطينية منها إلى الرواية الصهيونية . فقد أتاحت جهود السلام لدى الطرفين وجود حوار جديد بين المثقفين الإسرائيليين والفلسطينيين ، وصار من

الممكن أن تسمع في بعض الجامعات الإسرائيلية وجهات نظر أكاديمية تعبّر عن الرواية الفلسطينية لما حدث عام ١٩٤٨ . وفي بعض الحالات ، كان الاعتراف بوجود رواية أخرى للقصّة أو حتى اعتمادها على أنها الرواية الصحيحة نابعًا من موقف أيديولوجي جديد ، كما كان لدى البعض نتيجة تبني منهجية نسبية تؤمن بتعدد الروايات التاريخية ، ولآخرين كانا كلا الأمرين معًا .

أهمّية تأريخ عام ١٩٤٨

لقد شكّل «التاريخ الجديد» مرحلة جديدة من إنتاج المعرفة في إسرائيل وذلك لأنّه كان نتاج عمل مؤرخين إسرائيليين متخصصين في الصراع العربي الإسرائيلي . إلا أنّ أثرهم كان محدودًا وذلك لأنّهم قلّة من بين أفواج من المؤرخين الإسرائيليين الذين دخلوا مكتب السجلات العامة(*) في كيو جاردنز ومكتب أرشيف الدولة الإسرائيلي الذي كان في قبو رئاسة الوزراء في القدس (وانتقل الآن إلى مكان جديد في جنوب المدينة) . فلم يخرج من بين هؤلاء سوى القليل من «المؤرخين الجدد» الذين رأوا أنّ الأدلة التي عثروا عليها تتعارض مع جزء أساسي من عملية التوثيق التاريخية لفكرة إسرائيل . ولا بدّ كذلك من الإشارة إلى أنّ الوثائق ليست هي الموادّ الوحيدة المستخدمة في رسم الصورة التاريخية . إن طريقة تفسير الأدلة تختلف من مؤرخ إلى آخر وعادة ما تكون هذه الطريقة متأثرة بخلفيته الأيديولوجية وموقفه السياسي ، وهكذا فإنّ الوثائق التي قمنا بعرضها ونقاشها أضحت اكتشافًا خارقًا وحساسًا حين بدأ النظر إليها بعين ناقدة للصهيونية بشكل عام وللسياسات الإسرائيلية المعاصرة على وجه الخصوص .

لقد ترتّب على»التاريخ الجديد» لحرب عام ١٩٤٨ أثران مهمّان في سياق التأريخ الإسرائيلي : فقد أعطى شرعية للرواية التاريخية الفلسطينية من جهة وقدّم فرصة لتطبيع الذاكرة الوطنية الجمعيّة . ولا بدّ من إعادة التأكيد مجدّدًا على أنّ

(*) ويعرف حاليًا باسم مكتب الأرشيف الوطني (المترجم)

هذا «التاريخ الجديد» لا يتبنى الرواية الفلسطينية بحذافيرها، فهنالك بعض الفصول في الرواية الإسرائيلية الجديدة التي ما تزال مرفوضة من قبل المؤرخين الفلسطينيين كالقول بأنّ الإنجليز كانوا محايدين في حرب عام ١٩٤٨. كما أنّ الإشارة إلى رغبة العرب في التسوية مع إسرائيل بعد حرب ١٩٤٨، رغمَ أنّها تظهر إسرائيل على أنّها الطرف المتعنّت، ليست مقبولة في الذاكرة الجمعية الفلسطينية عن تلك الفترة ولا في الذاكرة الجمعية العربية، وذلك لأنها تظهر عدم التزام العرب الجدّي تجاه القضية الفلسطينية، ولكنّ هذه الخلافات لا تضير بالإنجاز العامّ الذي حققه هذا «التاريخ الجديد». ففيما يتعلق بتاريخ إنتاج المعرفة عن فلسطين، والوقوف أمام تيار التسويق لفكرة إسرائيل، نرى أنّ «التاريخ الجديد» لحرب عام ١٩٤٨ هو أكبر مصدر للشرعية منح من قبل الأكاديميا الإسرائيلية لأي فصل من فصول الرواية التاريخية الفلسطينية عن تلك الفترة.

لقد قام «المؤرخون الجدد» وبطريقة وضعية صرفة بتقديم صورة عما يعتقدون بأنّه الطبيعة الحقيقية لسلوك إسرائيل أو فلنقل إساءة إسرائيل تجاه العالم العربي والفلسطينيين عام ١٩٤٨. لقد عمدوا إلى رسم صورة كان معظم الإسرائيليين غافلين عنها وترتّب على ذلك ردّات فعل غاضبة من شخصيات معروفة في المجتمع وفي وسائل الإعلام. فقد ذكرنا من قبل كيف قام شابتاي تيفيث، الكاتب المرموق الذي ترجم عن حياة بن غوريُن وكان أحدَ ألمع الصحفيين في هآرتز، بوصف «المؤرخين الجدد» بأنهم خونة. وهنالك آخرون مثله ساروا على أثره في هذه المواجهة وبطريقة أكثر جدّية، وكان بعضهم على استعداد للخوض في مناظرات عامّة بخصوص نتائج هذه المدرسة وكانوا مهتمّين في المقام الأول بمناقشة دوافعنا للخوض في هذا الأمر. لقد كان إطلاق الاتهامات هو ما ميّز ردود الفعل الأولى على نشر أعمال «المؤرخين الجدد». أذكر أنّ مؤتمرًا عقد في جامعة حيفا وكان الأول من نوعه للحديث عن «التاريخ الجديد» حيث قام رئيس قسم التاريخ في الجامعة بوصف الجهود البحثية التي تقوم بها المجموعة الجديدة بأنّها ترقى إلى جريمة خيانة الدولة في حالة الحرب، وهو نفسه الذي

دعاني في مقالة له في هآرتز بأني «لورد هاو-هاو»(*) الإسرائيلي.[٤٠]

ولكن حين بدأ كل من مورس وشلايم دراسة المرحلة التالية لحرب ١٩٤٨ وصولًا إلى فترة الخمسينات في المراحل الأولى من إعلان الدولة، فإنهما قد انطلقا من المنهجية النقدية ذاتها للتعامل مع الرواية الصهيونية. لم يكن هنالك قبل العام ١٩٦٧ أي وصف للسياسة الإسرائيلية بأنها عدوانية، عدا عن الذهاب إلى أنها قد تكون في أحيانٍ قاسية ووحشية ويصعب غالبًا تسويغها أخلاقيًا. ومع أنّ أعمال «المؤرخين الجدد» لم تتعامل بشكل كبير مع التأريخ، وبالأخص التأريخ الصهيوني، إلا أنّ أعمالهم أو فلنقل أعمالنا ساهمت في تسليط الضوء على كيفية كتم الحقائق في الإنتاج الأكاديمي التقليدي ومشاركته في تلفيق الرواية الوطنية حول أحداث عام ١٩٤٨.

نظرة جديدة إلى العقد الأول من عمر الدولة

إنّ الأبحاث المتعلقة بالعام ١٩٤٨ والتي جرت خلال الثمانينات قد مهّدت الطريق لنقدٍ أكثر عمقًا للصهيونية ودورها في الأكاديميا في إسرائيل. كما أنّ التغطية الإعلاميّة لهذه القضيّة شجّعت الباحثين على تجاوز التركيز على العام ١٩٤٨ سواء في بحث الموضوعات والقضايا أو السرد التاريخ. إن الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أنتجت ما أدعوه الرواد الأكاديميين والتاريخ الجديد هي نفسها التي أسهمت كذلك في تشكيل أجندة جديدة للبحث الأكاديمي في العقد الأول من تأسيس الدولة. هذه الفترة التي امتدت من العام ١٩٤٨ حتى ١٩٥٨ كانت مثيرة ليس للأكاديميين المختصين وحسب بل وللروائيين كذلك ولصناع الأفلام وكتاب المسرح والموسيقيين والشعراء والفنانين والصحفيين الذين عبروا عن رواية للأحداث لا تتسق مع الذاكرة الجمعيّة التي

(*) هو اللقب الذي أُطلق على وليَم جويس، المذيع الذي كان يعمل خلال الحرب العالمية الثانية في الإذاعة الألمانية لبثّ البر وباغاندا النازيّة الموجّهة للبريطانيين. أُلقي القبض على جويس بعد انتهاء الحرب، وحُكم عليه بالإعدام في بريطانيا بتهمة الخيانة العظمى. (المترجم)

خلقتها وحافظت عليها الدولة من خلال مؤسساتها وأجهزتها .

يكمن تميّز هذه الطاقة الجديدة ، عدا عن اختيار الموضوعات والمنهجيات المتبعة ، عن أيّ شيء سبقها ، في قبولها الراسخ بأن الصهيونية أيديولوجية وليست حقيقة مثاليّة . وعليه فإنه لا يمكن للباحثين أن يقفوا على الحياد بشأنها ، فإمّا أن يكونوا معها أو ضدّها . لقد كان هذا الجانب في النقاش غائبًا عن «التاريخ الجديد» . لقد كان تاريخنا الجديد عن عام ١٩٤٨ قائمًا على منهجية أيديولوجية جديدة ، رغم أن موريس وشلايم أنكرا ذلك وأصرّا على أنهما ينطلقان من موضوعية أكاديمية صرفة على نهج من كان قبلهما . أمّا أنا ، فقد كنت أميلَ إلى دراسة تأثير السلطة على المعرفة كجزء عام من العمل الذي نقوم به ، وهكذا كان هذا الكتاب من أكثر من جانب نتيجة لهذا التفكير .

لقد جاءت الموجة التالية من التأريخ الجديد في إسرائيل بسبب هذا الدافع ، إذ ظهرت مجموعة من الشباب الإسرائيليين المختصين بالعلوم الاجتماعية الذي أضافوا جانبًا تاريخيًا إلى محاولاتهم الرامية إلى فهم المجتمع الإسرائيلي المعاصر . لم يكن الأمر لديهم متعلقًا بالعثور على أدلة جديدة بقدر ما كان مرتبطًا بقراءة الوثائق التي بين أيديهم بطريقة مختلفة . الأهمّ من ذلك هو بحثهم كذلك عن أدلة من نوع مختلف قد لا تكون بالضرورة موجودة في سجلات الأرشيف السياسي . وهكذا كان هؤلاء الشباب مفعمين بالحسّ النقدي تجاه الماضي كما كانوا تجاه الواقع الاجتماعي القائم في إسرائيل ، حتّى أنّهم قد عزوا حالة القلق والشرخ الموجودة في المجتمع إلى السياسات الحكومية التي كانت قائمة في السنوات الأولى من عمر الدولة ، وبالأخص إلى التناقض الصريح بين الصهيونية وقيم الديمقراطية والليبرالية .

قد نجم عن الموجة الجديدة من التحديات التي خصصت لها الفصل القادم من الكتاب انطلاق حوار وثيق الصلة بأسئلة لم تطرح من قبل في إسرائيل : كيف يتم إنتاج المعرفة الأكاديمية؟ وكيف تخدم هذه المعرفة المجتمع أو تسيء إليه؟ وكيف يمكن جعلها أكثر عدلًا وديمقراطية؟ لقد جاءت الإجابات من بعيد ، من الولايات المتحدة ، كما أتت أيضًا من قريب ، من الواقع الاجتماعي من حولهم .

الفصل السادس

ظهور الأكاديميا ما بعد الصهيونية، ١٩٩٠-٢٠٠٠

في خريف عام ١٩٩٤ التقت مجموعة من الأكاديميين الإسرائيليين التقليديين بمجموعة من الباحثين الشباب في نقاش مفتوح عقد في المدفن العلماني للصهيونية، وهو المكان الذي دفن فيه ديفد بن غوريُن في صحراء النقب. ما زال يحتفى بهذا القبر حتى الآن لاستذكار أمجاد الماضي والتقدّم برؤى جريئة بشأن المستقبل.[1]

لقد كان الأمر ينضوي على تناقض عجيب، إذ كيف يسمح لأولئك الذين يسيئون إلى الضريح وينتهكون مقامه، وأنا معهم، أن يدخلوا إليه ويتكلموا فيه! إلا أنّ مقدمة الكتاب الذي خرج عن هذا الاجتماع يظهر أنّه قد كان هنالك أمل لهدايتنا إلى الصهيونية رغم ما يتمّ ادعاؤه من مبادئ الحريّة في تبادل الآراء والأفكار. على أيّة حال، وكما أنّ التباحث حول وجود الربّ في قدّاس الأحد يعدّ لحظة منعشة في تاريخ الدين، فإنّ هذه المناقشة بخصوص الصهيونية تجلب الأثر ذاته. سمعت في ذلك المكان للمرة الأولى مصطلح «ما بعد الصهيونية» كوصف لأولئك المارقين الذين يتجرأون على نقد المسلّمات الصهيونيّة.

لقد كان العام ١٩٩٤ عامَ خير لأمثالنا من الهراطقة، فقد كان هذا العام الذي شهد توقيع معاهدة أوسلو بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. فقد انبعث شيء من الأمل وأتيحت الفرصة لعقد لقاء مثل هذا في قلب المؤسسة الصهيونية. بيد أنّ هذا الحدث لم يبدُ وكأنّه أتى من فراغ، فقد كان يمكن لأي

شخص زار المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية في التسعينات من القرن الماضي يشعر بتغير ما قد طرأ فيها وأنّها قد باتت شيئًا آخر مختلفًا عمّا سبقها (أو بالأحرى عمّا تبعها) . ففي كل زاوية كنت ترى الملصقات والدعوات لحضور مؤتمرات وندوات لمناقشة موضوعات كانت من قبل ذلك من المحرّمات في الدولة اليهودية ، موضوعات من قبيل الصهيونية والكولونيالية ، النكبة ، التمييز ضد اليهود العرب ، العبث بذكرى الهولوكوست ، وما شاكل ذلك من قضايا . بل وأكثر من ذلك ما بدأ يظهر من مقالات في تلك الفترة في المجلات الأكاديمية وفي الصحف اليومية عن تلك الموضوعات وأشباهها والتي كانت قبل (وبعد) التسعينات تتهتم بأنّها شاذّة ومخالفة للمعايير المهنيّة .

هذه الرياح التي جلبت الانفتاح والمغامرة والتي هبّت في أروقة الأكاديميا وصلت كذلك إلى المجال العامّ ، فانطلقت حوارات حول الماضي والحاضر وتسلّلت هذه القضايا إلى البرامج الحوارية في محطات الإذاعة والتلفاز . وقد ساد شعور حينها بأن مثل هذه النقاشات قد تصبح مصدر إلهام جديد تستقي منه الكتب ومناهج الدراسة الثانوية في إسرائيل ، كما دعي جنود وضبّاط للمشاركة في النقاشات والمناظرات التي عقدت بخصوص «التاريخ الجديد لعام ١٩٤٨» أو عن السياسات التي انتهجتها إسرائيل في الخمسينات .

لقد كانت التسعينات على وجه العموم هي العقد الذي خضعت فيه فكرة إسرائيل بأكملها للاستجواب ، والدليل على ذلك ظهور عشرات الكتب الإنجليزية والعبرية ومئات المقالات والأبحاث ومئات غيرها من مقالات الرأي في الصحف والعديد من المقابلات التلفزيونية والإذاعية والبرامج الحوارية التي يظهر فيها أكاديميون يوجهون أصابع الاتهام للزملاء الأكاديميين الذي قدّموا دعامة أكاديمية للاضطهاد والتمييز . هذه الجهود التفكيكية قد أتت فعليا على كافة مجالات العلوم الإنسانية في إسرائيل من فنون وتاريخ وفلسفة وعلوم سياسية ونقد أدبي وغيرها من الحقول المعرفية في العلوم الاجتماعية والإنسانية . وظهر في الصحافة وصف «ما بعد الصهيونية» للحديث عن هذه

الطاقة الجديدة مع تذبذب في المواقف بين اعتبارها تطورًا إيجابيًا لها أو تراجعًا ينذر بالخطر . وصار مصطلح «ما بعد الصهيونية» يستخدم بشكل عام لوصف أي نقد أكاديمي للصهيونية في إسرائيل اليهودية ، وقد استخدم هذا المصطلح من قبل أولئك الذين يعرّفون عن أنفسهم بأنهم «ما بعد صهاينة» وذلك لأنّهم كانوا واضحين في مواجهتم للصهيونية وتحدّيها ، كما استخدم من قبل أولئك الذين يشجبون هذه الحركة وأتباعها ويتهمونهم بخيانة فكرة إسرائيل . وليس هنالك تعريف بسيط «ويكيبيديّ» لمصطلح «ما بعد الصهيونية» ولذا فإنّه من الأفضل وصفها بالتفصيل عوضًا عن محاولة التوصل لتعريف لها .

ما بعد الصهيونية؟

بعد مضيّ مايقارب العشرين من الأعوام على المرة الأولى التي سمعت فيها هذا المصطلح عند ضريح الرئيس المؤسس رأيت أنّه من اللازم أن نستوضح المقصود منه بشكل أوسع ، خاصّة أنّ هذه السنوات العشرين لم تقدّم لنا أيّ تعريف يقلّ عن أربع صفحات وعادة ما تعجّ الأسطر بكلمات الاستدراك والاستثناء في محاولات يائسة من قبل الكتّاب لتوضيح هذه الظاهرة التي تحيّر الألباب . ليس ثمة تعريف بسيط لهذا المصطلح الذي ظهر على الساحة ونجح في جمع زمرة من بضع مئات من الأكاديميين ومن يملكون تحدّيا ثقافيًا ضد الصهيونية في التسعينات . إلا أنّ الباب ما يزال مشرّعًا لتقديم نظرة مركّزة ومفصّلة بخصوص دوافع هؤلاء الأكاديميين وخبراتهم والأثر الذي تركوه على الإعلام والمجتمع .

لا بدّ أن تسمحوا لي بداية أن أشير بقدر ما أستطيع إلى بعض السمات المشتركة لهؤلاء الأشخاص ، ولعل أسهل طريقة للبدء هي النظر إلى نقاشاتهم الداخلية كي يكون في الإمكان معرفة نطاق النقد الذي تمّ على أيديهم ، وكان من أهمّ هذه النقاشات ما كان يتناول الأيديولوجيا . لقد كانت هذه المجموعة تشتمل على مناهضين للصهيونية وصهاينة أيضًا ، وكانت الفئة الأولى تمقت أن

ينعتهم أحدٌ بوصف «ما بعد الصهيونية» ويفضّلون أن تستخدم هذه الصفة على من بقي على صهيونيته رغم انتقاده لها . أما الفئة الأخرى فرحّبوا بهذا الوصف آملين في الوقت ذاته أن لا يوصفوا بأنّهم خونة لمجتمعهم .(٢)

هنالك نقاش آخر يتعلق بالأهمّية التي تعزى للخلاف بشأن الصهيونية والذي تصاعد في التسعينات ، فهنالك من رأى فيه مجرد حوار محليّ بخصوص إنتاج المعرفة في إسرائيل ودور الأكاديميا في ذلك على وجه الخصوص ، بينما نحى آخرون منحًى أكثر جدّية واعتبروا أنّهم يخوضون نقاشًا يتناول أساس الصهيونيّة على أمل التأثير على هوية وشكل الدولة في المستقبل .

كما تجلت الطموحات المختلفة في المشاريع الشخصية التي خاضها هؤلاء الذين أخذوا على عاتقهم تحدّي الصهيونية . كان بعضهم أشبه بصيادي الكمأة ، وأنا أستخدم هنا المصطلح الذي يروق استخدامه للمؤرخ الفرنسي إيمانويل لوروا لادوري وأخذه عنه المؤرخ البريطاني لورنس ستون لوصف المؤرخين المفرطين في التحقق من دقائق الأمور على مستوى الحكاية التاريخية بشأن حياة الصهيونة وإسرائيل من دون أن يضعوا بحوثهم في السياق العام لنقد الصهيونية . كما كان من بينهم الباحثون «المظليون» كما يعبّر عنهم ستون ، الذين يقدّمون عرضًا شموليًا عن الصهيونية والماضي والحاضر الإسرائيليين ولكن من دون تقديم أدلّة ملموسة على نقدهم٣,أما أفضل الأعمال فكانت بالطبع تلك التي تمكنت من الجمع بين كلا المنهجيتين للتعامل مع التاريخ .

كان هنالك أيضًا جدال دائر بين المؤرخين من الاتجاهين النسبي والوضعي ، حيث يرى الوضعيون أن الرواية الصهيونية محض تزوير للحقائق التاريخية ويعدّون ما قدّموه على أنّه الرواية الصحيحة لتاريخ إسرائيل . أما أصحاب الاتجاه النسبي فكانوا يسعون إلى إضفاء المصداقية على الروايات والتفاصيل الإضافية المتعلقة بالماضي والحاضر بغيةَ إضعاف الدور المهيمن للرواية الصهيونية .

أخيرًا كانت هنالك حالة من الغموض بشأن هذه المحاولات وإن كان يلزم اعتبارها مشروع غربيًا أو مشروعًا معاديًا للغرب . وبما أنّ التحدي كان موجّهًا في

جزء منه ضد الحضارة الغربية ، فإنّ بعض من قام بكشف الظلم والاعتداء في المجتمع الإسرائيلي قد عمدوا إلى تحليل ذلك باعتباره جزءاً من الأوهام والمغالطات التي تولّدت عن «التنوير» و «الحداثة» والتغريب» . وهنالك من قام بإجراء مراجعة نقدية للصهيونية وإسرائيل من منطلق أنهما دراسة حالة فاشلة لهذه العمليات ذاتها ، وكان هذا في رأيهم أمرًا إيجابيًا .

هل يمكن إذن للصهاينة ومناهضي الصهيونية ، الجادّ منهم وغير الجادّ ، الساكن أو الطموح ، الوضعي أو النسبي ، الأكاديمي أو الفنّان ، أن يكونوا جزءاً من الظاهرة نفسها؟ بما أنني لست قادرًا على تقديم تعريف مقتضب لما بعد الصهيونية فسأحاول عوضًا عن ذلك أن أقدم بطاقة تعريفيّة لها تغطّي عدّة أجيال تعاقبوا عليها .

لقد كنّا مجموعة من اليهود نمثل التنوع العرقي اليهودي في إسرائيل . معظمنا كان علمانيًا كما كان من الممكن أن تجد بيننا بعض اليهود المتدينين . وقد ضمت هذه المجموعة كما أسلفت أكاديميين وصانعي أفلام وكتّاب مسرح وصحفيين وفنانين ومعلمين وكتابًا وشعراء . كان الأكاديميون منّا ينتمون إلى عدّة تخصصات وكان أغلبنا مؤرخين وعلماء اجتماع . وكنّا جميعنا نعارض في أعمالنا المهنيّة ، بطريقة أو بأخرى ، المسلمات التي تقوم عليها الصهيونية . وكلما كان ما نهاجمه أكثر قداسة ، ازداد اعتبارنا مناهضين للصهيونية ، سواء في نظرتنا إلى أنفسنا أو نظر العامّة إلينا .

إلا أنّ هذا يثير سؤالًا مشروعًا طرح عليّ أكثر من مرّة : لم لا يُدعى هؤلاء الأفرادُ مناهضين للصهيونية والظاهرةُ بأكملها ظاهرةً مناهضةً الصهيونية؟ يمكن في الواقع الحديث مطولًا هنا عن وصف «مناهض الصهيونية» ، خاصة أن مئات الأكاديميين الذين وصفوا هنا بأنهم «ما بعد صهاينة» كانوا هم من لحقوا بالنقاد مناهضي الصهيونية الذي ظهروا مع ظهور الصهيونية نفسها . إنّ هذه المعارضة التي تأتي من الداخل إنما هي حلقة في سلسلة أطول تمتدّ رجوعًا إلى مرحلة متأخرة من القرن التاسع عشر . وكما كان أولاء الذين رسموا الطريق لمن

بعدهم ، غادر هؤلاء المعارضون كذلك تاركين مساحة الأمان التي توفّرها الصهيونية المتفق عليها ، ذلك لأنّ أفعالها وطموحاتها تتعارض مع القيم الكونية التي آمنوا بها كيهود وكأفراد في العائلة الإنسانية .

إذن لم لا ندعوهم مناهضين للصهيونية؟ قبل كل شيء لا بدّ أن نذكر أنّهم أنفسهم رفضوا أن يدعوا كذلك وفضلوا وسم «ما بعد الصهيونية» وهو اختيارهم ولا بدّ من احترامه . ووفقًا لأحد التفسيرات التي كثيرًا ما تقدّم من بعضهم فإنهم اختاروا هذا المصطلح لأنه يتناسب مع فترة ال «ما بعد» التي عاشوا خلالها والتي ظهرت فيها مصطلحات مابعد الكولونيالية ومابعد القومية ومابعد التركيبية ومابعد الحداثة . كل هذه الـ «ما بعدات» كانت تستخدم من أجل التأكيد على درجة ما من الانفصال عن مقولة ما من دون إنكار تامّ لها . وسواء كان هذا الأمر ممكنا أم لا فإنّه يبقى سؤالًا آخر ، وفي الواقع قلة فقط من الذين يدعون أنفسهم ما بعد صهاينة انتقلوا إلى تسمية أنفسهم بمناهضي الصهيونية .

وبفضلِ مراقبتي هذه الظاهرةَ من داخلها ، كوني قد كنت واحدًا من هؤلاء الأشخاص ، ومن خارجها ، بوصفي مؤرخًا للحركة ، فإنني أعتقد أنّ هذه السابقة : «ما بعد» قد أشارت إلى شيء من الحذر وشعور بعدم الأمان بخصوص المشروع الذي خاض فيه هؤلاء المنشقّون . فقد عمدوا إلى التعبير عن مواطن الشكّ والنقد لديهم بأسلوب بالغ في الحذر مقارنة بالطريق الذي شقّه أولئك الذين تحدّثنا عنهم في الفصل الثالث ، كما أنّ تقيّدهم بالخطاب الأكاديمي قد روّض انتقاداتهم وخفّف من حدّتها . لقد ألفوا رابطًا يجعلهم جزءاً من الصهيونية وسعوا إلى المحافظة على شيء من طموحاتها وتطلعاتها مع رفض النظرة العامّة السلبية المتعلقة بالآخر ، سواء كان هذا الآخر هو الفلسطيني أو اليهودي المزراحي أو الناجي من الهولوكوست . لقد قال حنان حيفر ، أستاذ الأدب العبري الذي عيّن مؤخرًا في جامعة ييل ، إنّه كان يشعر حين يدعو نفسه ما بعد صهيوني أنّه يتحمّل مسؤولية عن كل شرور الصهيونية وعن انجازاتها كذلك .(٤)

أمّا فيما يتعلق بأسئلة التعريف فإنّه من الجيّد دومًا الاستماع إلى أولاء

الذين راقبوا ظاهرة ما من الخارج من دون انشغال كبير بمسألة التعريف الدقيق لها مع معرفة وفهم لما يراقبون . لاحظ مجموعة من علماء الاجتماع المرموقين في إسرائيل والخارج في بداية التسعينات أنّ النقد الذي كان يصدر فيما سبق عن أفراد صار الآن يظهر بطريقة منهجية وأكاديمية ويصادق عليه عدد كبير نسبيًا من الأكاديميين ، والذين قاموابدورهم بتقديم بعض الأوصاف الانطباعية والحدسية سأورد مثالين عليهما لما ألفيته فيهما من فائدة .

قام كلّ من إدوَرد سعيد عام ١٩٩٨ وبيري أندرسُن عام ٢٠٠١ بوصف ما بعد الصهيونية بأنها حركة إيجابيّة تقوم بالنقد ذاتي لما هو خطير وخاطئ في الصهيونية وإسرائيل في الماضي والحاضر ، آخذَين عليها أنّها وقفت واكتفت بهذا النقد . كلا المفكّرين زارا إسرائيل خلال تلك الفترة النشطة من ظهور ما بعد الصهيونية وتمكّنا من نقل شيء من طبيعة ما بعد الصهيونية للقرّاء .

وبعد لقاءٍ عام ١٩٩٨ في باريس بتنظيم من صحيفة لوموند دبلوماتيك بين مؤرخين فلسطينيين وعدد من مؤرخي إسرائيل الجدد قال سعيد إنّه معجب بأنّه «يمكن معرفة حقائق الداخل التي تعدّ تجديفًا في الشتات»(٥) غير أنّه قد خاب أمله حين رأى أنّ الإسرائيليين الذين التقاهم كانوا راغبين في أن يكونوا هم من يحدد الأجندة البحثية وكانوا يديرون ظهرهم للجانب الفلسطيني من القصة :

> لم أر سوى إيلان بابيه ، ذلك المؤرخ الاشتراكيّ ذا المواقف الواضحة والمناهض للصهيونية في جامعة حيفا ، الذي أبدى قبولًا لأخذ وجهة النظر الفلسطينية بعين الاعتبار ، وهو في رأيي من قدّم أبرع المداخلات الإسرائيلية وأكثرها تمرّدًا . أمّا الآخرون فقد احتفظت الصهيونية لديهم ، وإن بدرجات متفاوتة ، بمكانتها بوصفها ضرورةً لليهود . فوجئت مثلًا حين اعترف ستيرنهيل في الجلسة الأخيرة أنّ هنالك ظلمًا كبيرًا قد وقع على الفلسطينيين وأنّ الصهيونية في جوهرها حركة قائمة على الإخضاع ، ثم أنهى كلامه بأنّ ذلك كان إخضاعًا «ضروريًا» .(٦)

وتكرّرت خيبة الأمل هذه لدى سعيد مرّة أخرى مع بيني مورس:

من بين أكثر الأمور عجبًا لدى الإسرائيليين، باستثناء بابي كذلك، هو ذلك التناقض الهائل الذي يكاد يكون حالةً من الانفصام في أعمالهم. فهذا بيني مورس على سبيل المثال قد كتب قبل عشر سنوات أهمّ عمل إسرائيلي حول ظهور معضلة اللاجئين الفلسطينيين... وقد أظهر مورس في عمله الدقيق هذا أنّ الضباط في الكثير من المناطق كانوا يتلقّون أوامر بطرد الفلسطينيين وحرق القرى وأنّ البيوت والأراضي كانت تسلب ضمن عمليّة منسّقة. لكنّ العجيب أنّ مورس في نهاية كتابه قد بدا متردّدًا في بيان الخلاصة الحتميّة التي تظهرها الأدلة التي توصّل إليها بنفسه. فعوضًا عن أن يعلنها صراحةً ويقول إنّ الفلسطينيين قد هجّروا حقًّا، قال إنّ بعضهم هجّر من قبل قوات صهيونية وبضعهم «غادر» نتيجة الحرب. بدا ذلك وكأن فيه ما يكفي من الصهيونية ليصدّق النسخة الأيديولوجية بأنّ الفلسطينيين هم من قرروا المغادرة وليس ذلك بسبب التهجير الإسرائيلي، مفضّلا ذلك على قبول أدلّته هو التي تشير إلى وجود سياسة صهيونية بتهجير الفلسطينيين.(٧)

أمّا بيري أندرسُن فقال: «إن ظهور البحث الأكاديمي والتفكير «ما بعد الصهيوني»، على صغر حجمه الآن، يعدّ من التطورات الإيجابية في السنوات الأخيرة. إلا أنّ سياق هذه التطوّرات يعطينا إشارة تنبيه لتجنّب الإفراط بالتفاؤل.»(٨)

لقد كان سعيد وأندرسن محقّين في نقطتين مهمّتين. الأولى أنّ مصطلح ما بعد الصهيونية مناسب لقياس مقدار مباينة هؤلاء المفكرين للمعسكر الصهيوني، ويبدو أنّ كثيرين منهم ما ابتعدوا كثيرًا، مما أثار الخيبة لدى كلّ من سعيد وأندرسن. (وعليه فإنّه يمكن القول إنّه وبموجب ضغط الأحداث والغضب

الشعبي الذي انفجر بعد العام ٢٠٠٠ فإنّ هؤلاء المفكرين قد كانوا قريبًا من تلك الدائرة بما أتاح لهم الرجوع إلى دفء محضنها .) أمّا النقطة الثانية فتشير إلى أنّ ما بعد الصهيونية هي مزاج أكثر من كونها أي شيء آخر ، وأنّها بتغيّرها كما يتقلّب المزاج سيكون من غير العسير إعلان وفاتها ، وهذا ما أعلنه بالفعل صحفي إسرائيلي في هآرتز في أيلول ٢٠٠١ . ويؤسفني ، من وجهة نظري على الأقل ، أن أقول إنّها قد ماتت بالفعل ، ويمكن القول إنّ هذا الكتاب في أكثر من وجه يعدّ تشريحًا لما بعد الصهيونية .

لمَ العام ١٩٩٤ تحديداً؟

كنت قد أشرت إلى أنّ ما بعد الصهيونية قد ظهرت في العام ١٩٩٤ وربطت ذلك بعملية السلام التي انطلقت في أوسلو . لا شكّ أنّ التطورات التي تكون على شكل خطاب جديد أو توجّه أكاديمي مستحدث لا تولد هكذا في لحظة محدّدة ، إلا أنّ هذا العام يرمز إلى تشكّل مجموعة من العمليات التي وصفتها من قبل بأنها الخلفية للتاريخ الجديد لحرب عام ١٩٤٨ قبل عقد من الزمن . لقد كانت ما بعد الصهيونية من عدّة نواح ردّة فعل متأخرة على العمليات السوسيو-سياسية والسوسيو-اقتصادية التي تولّد عنها نقد سابق في جامعة حيفا وبين ناشطي حركة مصبن ومجموعات أخرى في السبعينات من القرن العشرين .

لقد تطلب الأمر عدّة سنوات حتى يدرك بعض الأكاديميين آثار الانتفاضة الأولى وعملية السلام مع منظمة التحرير الفلسطينية . والمفارقة أنّ ذلك الظهور القصير لوجهة النظر ما بعد الصهيونية قد بدا وكأنه النتيجة الإيجابية الوحيدة لنينك الحدثين المهمّين ، إذ لم تستطع وجهة النظر هذه إحداث أي تغيير إيجابي ولو صغر على واقع الحياة اليومية للشعب الفلسطيني ، سواء كانوا تحت الاحتلال المباشرة في الضفة الغربية أو في قطاع غزة ، أو مواطنين من الدرجة الثانية في إسرائيل ، أو كانوا لاجئين . وستندلع كما سنذكر في الكتاب

الانتفاضة الثانية وستقضي على تلك النتيجة الإيجابية الوحيدة إلى حين.

المفارقة الأخرى هي أنّه حين قام هؤلاء «المؤرخون الجدد» بنشر بواكير أعمالهم في العام ١٩٨٨ تقريبًا لم تكن الانتفاضة الأولى في الأراضي المحتلة قد حققت المدى الأقصى من التأثير والأهمّية. لقد تمكّنت هذه الحركة الاحتجاجية الفلسطينية غير المسلحة المعروفة بالانتفاضة الأولى بتشكيل الرأي العالمي في الغرب ضد إسرائيل. وقد أثار هذا التحوّل نخبة المثقفين في إسرائيل، مع أنّه قد لاقى تجاهلًا تامًا في دوائرها السياسية. إن الأكاديميين والصحفيين والفنانين الإسرائيليين كانوا وما زالوا جزءاً مهمًا من المشهد الثقافي والأكاديمي في الغرب. ولذلك فإنّ التحول الذي حدثَ في الغرب كان كفيلًا بالتأثير على الطريقة التي كان فيها هؤلاء الإسرائيليون ينظرون إلى الحاضر، وإلى الماضي أيضًا. ثمّ إنّ الأعمال التي نشرها «المؤرخون الجدد» قد سهّلت على الآخرين سلوك هذه الطريق، كلّ في مجاله أو مجالها.

لقد بدأ «المؤرخون الجدد» بثلاثة أو أربعة أشخاص فقط، كما كان الأكاديميون المناهضون للصهيونية يشكّلون ثلّة صغيرة وحسب في تلك الفترة. ومع ذلك فإنّ فترة التسعينات قد شهدت انتشارًا واسعًا لآرائهم بين العديد من الأكاديميين الذين تأثروا باثنين من التطورات، الأول هو تحوّل المجتمع الإسرائيلي من حالة التجانس النسبي إلى التعدّدية الثقافية. فقد لفتت مجموعتان من الناس أنظارَ الأكاديميين في هذه البيئة الجديدة، وهما اليهود المزراحيون والفلسطينيون داخل إسرائيل أو في المناطق التي تحتلها. كما شهدت تلك الفترة كذلك وإن بمستوى أقل ظهورًا الفكر النسويّ في السياسة وفي الجامعات الإسرائيلية.

لقد كان قرار الأكاديميين بشأن ما يجب إعادة النظر فيه متأثرًا بشكل أساسي بأجندة الناشطين الاجتماعيين الذين انخرطوا في الحركات الاحتجاجيّة منذ أوائل السبعينات. وعادة ما يكون الأكاديميون أقلّ حماسة من الناشطين حين يتعلق الأمر بالوقوف في وجه الأمور التي صارت بحكم المقبول

بالضرورة ، ولكن حين تدبّ فيهم هذه الحماسة يتحولون بأنفسهم إلى حراكيين اجتماعيين (وهو دور لا يفضّله الكثيرون منهم ، وهذا من العوامل التي جعلت جذوة هذه الحركة تذوي) . لقد كان القرار المتعلق بكيفية إعادة النظر في هذه الفصول المريبة من الماضي واردًا من الغرب ومن الولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد .

لقد كانت البحوث الجديدة منصبّة على التاريخ ، وكانت هنالك مرحلة بعينها جذبت أنظار هؤلاء الناقدين ، وهي مرحلة العقد الأوّل من تأسيس الدولة ، أي فترة الخمسينات من القرن العشرين . وقد ظهرت هذه الفترة في عملهم على أنّها فترة تأسيسية تجلّت فيها معظم أمراض المجتمع الإسرائيلي للمرة الأولى إما على شكل سياسات من السلطات العليا أو على شكل توجّهات عند العامّة . نظر الأكاديميون الأكثر رسوخًا في الأكاديميا إلى العقد الأول من تأسيس الدولة ، أو السنوات التسعة عشرة الأولى منها ، وصولًا إلى العام ١٩٦٧ بنظرة مخالفة تمامًا ، إذا كانت تمثل لهم العصر الذهبي ، وإن كان ثمة أخطاء فالأولى الصفح عنها وتجاوزها لأنّها كانت فترة الريادة . لقد كان مردّ هذه النظرة بشكل من الأشكال إلى الإعجاب برجالات الماضي العظماء الذين كانت لهم هناتهم من وقت إلى آخر بلا شك . إلا أنّ تفسير هذه النظرة يكمن بالتوجه الذي يرى أنّ المشاكل التي واجهت المجتمع لم تكن نتيجة سياسات عقيمة أو أيديولجيا لاأخلاقية ، وأنّ السياسات التي تمّ اتباعها قد كانت هي الخيارات الوحيدة المتاحة حينها . لقد كانت إسرائيل دولة فقيرة في سنيّها الأولى ، وكانت الطريقة الوحيدة التي كان يمكن من خلالها تلقّي المهاجرين من العالم العربي هي دفعهم إلى «مدن التطوير» والسماح لهم بالقيام بالمهن البسيطة والتقنية .

كما أنّ الصراع العربي الإسرائيلي قد سوّغ فرض الحكم العسكري على الأقلية الفلسطينية في إسرائيل ، واللجوء إلى الردّ الهمجي على عمليات تسلل الفلسطينيين من قطاع غزة ولبنان والضفة الغربية وسوريا . وهكذا قام المؤرخون

أصحاب الاتجاه السائد بتسويغ قرار إسرائيل مشاركة إنجلترا وفرنسا في محاولتهما إسقاط جمال عبد الناصر في خريف عام ١٩٥٦ . كما لم يجدوا غضاضة في الإساءة إلى الأفراد والأطفال في نظام التعليم الجمعي ليهود الكيبوتس أو في الطريقة التي تم فيها إعادة النساء إلى المختبر في التجربة الصهيونية في الاشتراكية . وأخيرًا ، قام هؤلاء المؤرخون بالإطراء على دبلوماسيي دولتهم الفتية لنجاحهم في تأمين الشرعية الدولية لإسرائيل من خلال إقناعهم العالم بقبول الدولة اليهودية باعتبارها الرد الأخلاقي والعادل الوحيد على فظائع الهولوكوست .

أمّا المفكرون ذوو التوجّه النقدي في حركة ما بعد الصهيونية في فترة التسعينات فقد رفضوا هذه التسويغات ، ورأوا أنّ التهميش والقمع نتيجة للتحيّز الأيديولوجي ، اقتصاديًا وماديًا ، ضد اليهود المزراحيين والعرب على السواء ، بحيث تولّد عن ذلك عمالة رخيصة تتألف من المزراحيين والنساء والفلسطينيين . إنّ ما بدا للمفكرين الصهاينة الكلاسيكيين مثالًا ملهمًا على بناء الدولة كان لهؤلاء المعارضين أيديولوجية قمعية استخدمت بوحشيّة للتخلص من أي معارضة للثقافة الشرق أوروبية السائدة والمهيمنة .

لقد كان التعامل مع الأقلية الفلسطينية في إسرائيل في بداية الأمر موضوعًا للبحث يدرسه المفكرون الفلسطينيون بشكل أساسي ، شاركهم في ذلك بعدها عدد من الأكاديميين اليهود ما بعد صهاينة بغيةَ فضح طبيعة الاستبداد المفروض على الفلسطينيين خلال سنوات الحكم العسكري بين ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ . لقد كان الاتجاه السائد يضفي الشرعية على هذه السياسات باعتبار أنها استجابة للمشاكل «الموضوعية» المتعلقة بالأمن وقلة الموارد في الدولة الناشئة . أمّا المعارضون فقد عزوا هذه السياسات إلى أيديولوجية عنصرية قائمة على الفصل والتمييز . نجد على سبيل المثال ما كتبه أورين يفتاشيل ، وهو عالم جغرافيا في جامعة بن غوريُن يقول :

إن إعادة ترتيب الأراضي في الدولة قد كانت مرتكزة على عملية

تهويد شاملة وتوسعية تبنتها دولة إسرائيل الناشئة ، وذلك عقب هرب وطرد ما يقارب ٨٠٠,٠٠٠ من الفلسطينيين . لقد نجم عن هذا «فجوات» كبيرة في جغرافية الأرض ، فسارعت السلطات إلى ملئها بالمستوطنات اليهودية التي يسكنها المهاجرون واللاجئون الذين دخلوا إلى الدولة بأعداد كبيرة خلال الأربعينات وبداية الخمسينات٩,

وهنالك العديد من الشهادات الأخرى . سارة أوزاكي-لازار كانت تعمل في مؤسسة جفعات حبيبة ، وهي مؤسسة صهيونية يسارية ، وقد كتبت أثناء عملها مؤرخة لتاريخ دولة إسرائيل أنّ «النظام العسكري الذي فرض على العرب في إسرائيل قد تحوّل إلى أداة للسيطرة السياسية والاقتصادية والثقافية للدولة على حياة الأقلية العربية .»(١٠) كما كتب جان رابيوفيتز وهو أحد علماء الأنثروبولوجيا في جامعة تل أبيب كثيرًا عن أهمية استخدام تعبير «الفلسطينيون في إسرائيل» وترك استخدام تعبير «العرب في إسرائيل» والذي صاغته مؤسسة الدولة الإسرائيلية قاصدة منه أن تسلب الأقلية الفلسطينية من جذورها وهويتها . كما اتخذ دان موقفًا ناقدًا من انتشار ورش العمل والجمعيات الخيرية في الثمانينات والتسعينات والتي يعتقد أنها «عند تدقيق النظر ، تظهر جوانب أساسية . . . تم تصميمها خصيصًا للاستهلاك الإسرائيلي ، بحيث يصبح المشاركون والمنسقون الفلسطينيون فيها مجرد أشياء أو توضيحات في نقاش إسرائيلي محض يدور فوق رأس الفلسطيني .»(١١) أمّا هليل كوهين ، المؤرخ في الجامعة العبرية ، فقد كان من بين أول من كتب عن اللاجئين الفلسطينيين داخل إسرائيل ، أولئك الذين طردوا من منازلهم وصاروا لاجئين في بلادهم . وهنالك يواف بيليد ، أستاذ العلوم السياسية في جامعة تل أبيب ، والذي كتب عن الحاجة للاعتراف بعدالة بعض المطالب الفلسطينية في المفاوضات ولاسيما حق العودة .(١٢)

كما كانت دراسة النوع الاجتماعي والنسوية جزءاً من هذه الحركة ما بعد

الصهيونية ، وقد كان هذا من عدّة نواح من أكثر الأمور التي تم جلبها من أمريكا إثارةً للإعجاب ، مع أنّها ثقافة كانت في العديد من الأحيان تترك أثرًا سيئًا على المجتمع الإسرائيلي ، لكنّها في حالة ما بعد الصهيونية فتحت آفاقًا بنّاءة ومهمّة للبحث والالتزام للمثقفين المحليين . نتيجة ذلك ، ظهرت خلال السبعينات حركة نسويّة في إسرائيل وذلك بفضل دراسات النوع الاجتماعي ونشاط بعض الشخصيات النسوية وانخراطها في السياسة .

نمت الحركة النسوية بالتوازي مع الحركة النسوية الأمريكية وكانت متأثرة بها إلى حد بعيد . وكان من بين أهمّ الدافعين لهذه الحركة ناشطة أمريكية يهودية تدعى مارسيا فريدمان . ولدت مارسيا في الولايات المتحدة عام ١٩٣٨ وهاجرت إلى إسرائيل عام ١٩٦٧ ، وانخرطت فورًا باليسار الصهيوني ، ودعيت من قبل حزب جديد يدعى «راتز» أنشئ لخدمة السلام والحقوق المدنية على يد السياسية شولاميت ألوني ، للترشّح للانتخابات على قائمة الحزب ، وأبلت السيدتان بلاء حسنًا في انتخابات عام ١٩٧٣ ، وصارت فريدمان عضوًا في الكنيست . قامت فريدمان بالتعاون مع مجموعة من النساء بإنشاء أول مأوى للنساء المعنّفات في إسرائيل ، كما نجحت هي وسيدات أخريات في الكنيست باقتراح بعض التشريعات التقدمية بخصوص المساواة بين الجنسين وبعض القضايا التي تخصّ حقوق المرأة . ثم أعلنت فريدمان عن هويتها الجنسية المثليّة في تلك الفترة ، وهي من أوائل من فعلن ذلك في إسرائيل . وهي تقسّم وقتها الآن بين إسرائيل والولايات المتحدة .(١٣)

قبل تأسيس أوّل برنامج لدراسات المرأة في الثمانينات في جامعة إسرائيلية ، كانت مؤسسات المجتمع المدني في إسرائيل في أوج نشاطها موحّدة جهودها في سبيل الدفع نحو أجندة نسوية تقدمية ، بيدَ أنّها كانت منقسمة حول الإستراتيجية الأفضل لتحقيق ذلك . ولقد تناولت الأبحاث النسوية الصادرة عددًا من الموضوعات ومنها ما يتعلق بإعادة كتابة تاريخ المرأة في الحركة الصهيونية في إسرائيل ، مع تسليط الضوء على التحيّز ضد المرأة في المجتمع

والدولة في فترة الخمسينات ، والكشف عن القصص المنسية للشخصيات النسوية في الفترة السابقة على تأسيس الدولة والسنوات الأولِ بعد تأسيسها .

من الأمور التي وردت كذلك من أمريكا هي نظرية الشذوذ (Queer Theory) ، حيث بدأت الدراسات عن الجوانب السياسة لقضية المثلية الجنسية تتطور في الأكاديميا الإسرائيلية وصارت مرتبطة بالأجندة ما بعد الصهيونية . لقد قام الأكاديميون الذين أخذوا على عاتقهم طرح هذه القضايا في المجتمع الأكاديمي ، كأستاذ علم الاجتماع يوفال يوناي من جامعة حيفا ، بالكتابة بشكل مكثف عن الاحتلال والاستبداد الذي يعاني منه الفلسطينيون . إلا أنّ التركيز على حقوق المثليين الجنسيين في داخل إسرائيل لم يكن في العديد من الحالات مرتبطًا باضطهاد مجموعات أخرى في الدولة ، ولكن تبقى إثارة مواضيع المثلية الجنسية تطورًا ثوريًا ، خاصة بالنظر إلى نظرة اليهوديّة الصارمة ضدّ المثلية الجنسية .[١٤] كان أوّل الناشطين في هذه القضية اليهودي الألماني ثيوماينز الذي أعلن عن مثليّته عام ,١٩٥٦[١٥] كان على المثليين للعديد من السنوات أن يلتزموا بنشاطهم ضمن مؤسسة الحقوق المدنيّة في إسرائيل والتي تأسّست عام ١٩٧٢ ، وكان العمل من خلال غيرها من المؤسسات ممنوعًا في إسرائيل . لكن ثمانينات القرن العشرين قد شهدت تزايدًا في أعداد المؤسسات والمساقات الدراسية التي تناولت قضايا المثلية الجنسية في الجامعات مّما عزّز الشعورَ بالتعددية في البيئة الأكاديمية وفي المجتمع الإسرائيلي .

بيد أنّ هذا الانفتاح الجديد قد استخدم لاحقًا من قبل الأكاديميا الرسمية من أجل صدّ أي محاولة لانتقادها على رضاها عن الاحتلال أو اضطهاد الفلسطينيين . لقد سعت المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية أن تكتم تلك الدعوات المنادية بالمقاطعة الأكاديمية لإسرائيل في بداية الألفية الثالثة من خلال التعاون مع جمعيات المثليين الضاغطة حول العالم ، وهي مساعٍ عرفت فيما بعد باسم «الغسيل الورديّ» (pinkwashing) . ومن بين هذه الحملات الدعائية الإشارة إلى تل أبيب على أنّها أفضل مدينة صديقة للمثليين في الغرب (وهذا لقب

كثيرًا ما تفوز به تل أبيب فعلًا) . وقد تلقّت هذه الحملة دعمًا من الحكومة بغيةَ إفشال جهود المقاطعة . وهنالك بعض المجموعات ، من بينها مجموعات ذات تأثير في الولايات المتّحدة ، رفضت المشاركة في هذه الحملة الرسمية الإسرائيلية المسمّاة «وسم إسرائيل» (Israel Brand) إيمانًا منهم بأنه حتى لو كان بعض المثليين الجنسيين ينعمون بحياة رغيدة في تل أبيب ، فإنّه وعلى بعد بضعة كيلومترات عنهم ملايين الناس يقبعون في سجن كبير في الضفة الغربية وفي غيتو قطاع غزّة .

ازدهرت جوانب فكرية وبحثية أخرى وبشكل ملحوظ في التسعينات ومنها ما كان في ميدان الاقتصاد السياسيّ . انضمّ بعض المفكرين من أمثال مايكل شاليف وشيمشون بيشلر إلى صفّ علماء الاجتماع النقديين للإشارة إلى المصالح الاقتصادية والحقائق المادية وراء المشروع الأيديولوجي ، وليس ذلك في حرب عام ١٩٤٨ وحسب بل وفيما تلاها كذلك . وقد سار على خطاهم آخرون مثل داليت باوم ، الذي قام بوصف الحقائق الاقتصادية والمنافع المرتبطة باستمرار احتلال الضفة الغربية وقطاع غزّة .(١٦)

ومع تزايد أعداد أولئك المنتقدين توسع النطاق الزمني والموضوعاتي للأبحاث والدراسات التي تكتب بشكل كبير ، فصارت الفترات الزمنية السابقة والقديمة تدرس من جديد وباتت تلك الموضوعات التي كانت تعدّ مناقشتها من المحرّمات تخضع للبحث والتنقيب بطريقة جادّة وجديدة . لقد تم الخوض في الماضي التاريخي بتأثير النظريات حول القومية بوصفها قصة مختلقة تكشف لنا عن طبيعة الصهيونية المعاصرة أكثر مما توضّح لنا ما حدث حقًا في الماضي . لقد فتح باب النقاش في هذا المضمار على يد باروخ كيمرلنج الذي كشف عوار تلك القصة المبتكرة عن نفي اليهود لألفي سنة ووضّح كيف أنّها استغلت لتسويغ احتلال فلسطين .(١٧)

وقد أخذ يائيل زروبافل المؤرخ الإسرائيلي الذي عمل في السابق في الولايات المتحدة وجهة النظر المثيرة هذه وأضاف إليها أنّ قصص البطولة

التاريخية تلك ، كأسطورة مَسادا ، والتي كانت بمثابة العماد التي قامت عليه الصهيونية ،ليست سوى حكايات من الهزيمة والفشل الذريع ، كمثل العديد غيرها من القصص البطولية التي نسجت على منوالها .[١٨] هنالك وجهة نظر أخرى مشابهة إلا أنّها أشدّ وقعًا أتت على شكل صرخة حنق أطلقها عالم الاجتماع ناخمان بن يهودا على الأجداد المصطفَين الموقّرين للصهيونية ألا وهم من تمرّد من اليهود ضدّ روما .[١٩] يرى زروبافل من غير مجانبة للصواب أنّ تلك الثورة قد انتهت بالفشل التام ، وأنّ أولئك اليهود لم يكونوا سوى حفنة من السرقة والمجرمين ، كما انتقد علماء الآثار الصهاينة لدورهم في تقديم أساس علمي للرواية التي تدّعي البطولة فيهم . أتى من بعد ذلك شلومو ساند وجابرييل بيتربيرغ حيث قام كلّ منهما بطريقته الخاصّة بتسليط مزيد من الضوء على حقيقة مفادها أنّ الماضي ، بما في ذلك الماضي التوراتي ، قد ساعد في تشكيل مجتمع غارق بالقوميّة الرومانسية كما يرى ساند ، بالإضافة إلى مجتمع ذي توجه استيطاني كولونيالي كما يرى بيتربيرغ .[٢٠]

في المقابل لم يكن هنالك دراسة موسّعة للتاريخ الأقرب ، أي تلك القرون القليلة التي سبقت ظهور الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر ، ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أعمال أمنون راز-كاركوزكين ، والذي كان يعدّ نفسه مناهضًا للصهيونية ولم يكن في واقع الأمر راضيًا عن مصطلح «ما بعد صهيونية» ، إلا أنّه شارك رغم ذلك في العديد من ورش العمل والمؤتمرات والإصدارات التي ساعدت على دفع عجلة النقد الأكاديمي للصهيونية . وفي مقالة من جزأين نشرت في دوريّة مهمّة ومؤسسة للنقد في ما بعد الصهيونية في التسعينات بعنوان «النظرية والنقد» (أنشئت في العام ١٩٩١ في معهد فان لير في القدس) ناقش أمنون ما دعاه «الإنكار الصهيوني للنفي» .[٢١] يظهر الجزء الأول من المقالة كيف أنّ وصف حياة اليهود في أوروبا على أنّها جزء من قصّة النفي منذ نهاية العصر الروماني قد استغلّ في تسويغ حرمان الفلسطينيين حقّهم من العودة إلى أرضهم ، بينما يبحث الجزء الثاني منها في التحريفات التي وقعت

في هذا التوصيف، خاصّة أنّ الحياة اليهودية في أوروبا لم تكن مرتكزة ولا مرتبطة بفلسطين. كما يستقصي راز-كاركوزكين في المقالة كيف أنّ الفكرة التي تزعم أنّ حياة اليهود في التاريخ كانت حياة نفي وطرد قد خلقت التوجّه السلبيّ للصهيونية ضد اليهود العرب، فهم من وجهة نظر الرواية التاريخية الصهيونية قد كانوا أكثر من أسهموا في إطالة عمر حالة النفي هذه. وبعد عدّة سنوات، ظهر أستاذ من جامعة حيفا يدعى غور إلروي، يكشف عن عقم دوافع معظم المستوطنين الذين أتوا إلى فلسطين، إذ لم يكن لهجرتهم إليها أية علاقة بالرواية الرسمية التي تزعم أنّهم جاؤوا إلى فلسطين رغبة منهم في العودة إلى وطنهم بعد حياة المنفى التي عاشوها في أوروبا.(٢٢)

أمّا فترة الانتداب فقد كانت من المواضيع التي نوقشت بكثرة، فهنالك من المؤرخين وعلماء الاجتماع من أمثال زئيف ستيرنهِل من قلّل من دور الاشتراكية في المشروع الصهيوني في فلسطين ووصفها بأنها قوميّة رومانسية.(٢٣) وقد نحى بعض المؤرخين منحى إيجابيًا وذهبوا إلى أنّ الفطرة الطبيعية للفلسطينيين والمستوطنين تساعدهم على التعايش والتعاون على أساس من الانتماء الطبقي في سياق الصراعات المهنية، إلا أنّ هذه الغريزة قد سحقت على يد النقابات المهنية الصهيونية. فقد درس ليف جرينبيرغ الحراك المهني المشترك للسائقين، أمّا ديفِد دي فريس فقد بحث في تحرّك مماثل قام به موظفون من القطاع العام، ووصفت ديبورا أي بيرنشتاين بشيء من التفصيل السياسات التي اتبعتها النقابات الصهيونية.(٢٤)

أضف إلى كلّ ما سبق موضوعة العسكرة في إسرائيل، وهي من الموضوعات التي تكن الأكاديميا الإسرائيلية معنيّة بها إطلاقًا. وبدأ العمل على هذا الجانب البحثي اثنان من الباحثين من مجموعة حيفا التي سبقت الإشارة إليها وهما شولاميط كارمي وهنري روزنفلد. عمل هذان الباحثان كفريق من أجل بيان النمو الهائل في الصناعات العسكرية في إسرائيل، مشيرَين إلى أنّها أعاقت مجمل التقدم الاقتصادي عبر السنوات.(٢٥) وقد تبعهما عالم اجتماع

شابٌ يدعى أوري بن-إليعازر والذي كان حينها عضوًا في قسم علم الاجتماع في جامعة تل أبيب، فقام بوصف عملية عسكرة إسرائيل ليس باعتبارها نتيجة حتميّة للوجود الهشّ للدولة في محيط يتربّص بها وحسب بل كوسيلة كذلك لضمان الحصول على الالتزام التامّ من كل مواطن في الدولة، ولعل هذا ما يفسّر سبب التجنيد المستمر للفتيات وسبب دعوة الرجال لقوّات الاحتياط حتى سن الخامسة والخمسين.(٢٦)

ثم تحولّت البحوث المتعلقة بالعسكرة للتركيز على جانبين اثنين. الأول يتعلق بتاريخ الدولة ومرحلة ما قبل الدولة لبيان كيف أنّ استخدام القوة العسكرية كان ومنذ المراحل الأول جزءاً من الأيديولوجيا وليس مجرّد تحرّك تكتيكي. لقد كانت الخمسينات فترة بناء للدولة وهي الفترة التي شهدت تشكيل وحدات «القوّات الخاصّة» التي وظفت لملاحقة ومعاقبة اللاجئين الفلسطينيين الذين كانوا يحاولون الرجوع متسللين إلى وطنهم، وقاموا بتنظيم أنفسهم لاحقًا في مجموعات مسلّحة وتطوّر ذلك حتى أعلن عن تأسيس حركة فتح في منتصف الستينات. تلك الهالة التي أحاطت بالقوّات الخاصّة، وفي مقدّمتها الوحدة ١٠١ بقيادة أرييل شارون، قد جعلت من ينتمي إليها يصبح من النخبة التي يُختار القادة في إسرائيل منها، كما حدث مع إيهود باراك وبنيامين نتنياهو. إنّ نظرة هؤلاء الرجال إلى العالم قد حوّلت إسرائيل إلى عنصر بالغ النشاط والعدوانيّة في المشهد الإقليمي من خلال إيمانهم بأنّ لغة القوة العسكرية هي السبيل الأفضل للحفاظ على وجود الدولة ونجاحها.

لقد ربط ياغيل ليفي، وهو حاليًا أحد أساتذة علم الاجتماع في جامعة إسرائيل المفتوحة، الاهتمام بالجانب العسكري بطريقة التعامل مع المهاجرين اليهود الجدد القادمين من الدول العربية.(٢٧) حيث تظهر الأبحاث التي قام بها أنّ القرارات المتعلقة بالأماكن المخصصة لإقامة هؤلاء المهاجرين وكيفية دمجهم في المجتمع الإسرائيلي كانت لا تصدر عن السياسيين وحسب بل عن قادة الجيش أيضًا. لقد كان وضعهم في المناطق المحاذية للحدود مع الدول العربية يحقق أكثر

من غاية . فمواجهتهم لأي عدوان من العرب سيساعد في جعلهم يتنكّرون لهويّتهم العربية ، كما سيوفرون وجودًا بشريًا على الحدود الطويلة مع «الأعداء» كما أنّ تجنيدهم في الجيش قد كان أفضل السبل لجعلهم ينتمون إلى إسرائيل .

لقد كان تحديد الرابط بين التعليم وعسكرة المجتمع جزءاً من الأجندة الجديدة لدراسات ما بعد الصهيونية . فقد قام هاغيت غور-زئيف ، وريلا مازالي ، ونوريت بيلِد-إلهانان ، وديانا دوليف وغيرهم بتقصّي أثر العسكرة على النظام التعليمي وتوصّلوا إلى نتائج محبطة فيما يتعلق بإمكانية التغيير من داخل المجتمع الإسرائيلي فيما يتعلق بقضايا السلام والديمقراطية والمساواة .(٢٨) وقد كشفت أعمال هؤلاء الأكاديميين عن تلك المساحة المسكونة بالحسّ العسكري والتي يعيش فيها اليهود الإسرائيليون من المهد إلى اللحد .

لم يكن الجيش وحده محلًا للبحث والتقصّي ، بل إن الأكاديميا نفسها صارت موضوعًا للدراسة والنظر . لقد قام بتحليل الدور الذي اضطلعت به الأكاديميا مجموعة من خريجي جامعة نيو سكول ، وهي جامعة تقع في غرينيش فيليج في نيويورك والتي أضحت الجامعة الأم للعلوم الاجتماعية التقدّمية حول العالم . أحد هؤلاء يدعى أوري رام وقد كان له تأثير كبير في التوجه الجديد في مدرسة ما بعد الصهيونية فيما يتعلق بالمنهجية المتبعة ، فقد كان من بين أول من طرح أفكار ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة في المشهد الأكاديمي المحلي ، وهو يدرّس منذ أكثر من عشر سنوات في جامعة بن غوريُن في بئر السبع .(٢٩)

لقد أظهر رام كيف أن علماء الاجتماع الصهاينة في تحليلهم المجتمعَ الإسرائيلي قد طوروا نظريات لتتناسب مع بعض الأفكار من قبيل «اجتماع المنفيين» و «بوتقة الصهر» . لقد قاموا بوصف مجتمع حديث يقوم فيه الأبيض الغربي ، المهاجر اليهودي من أوروبا ، بقيادة البقيّة سواء كانوا من اليهود العرب أو الفلسطينيين الذين بقوا في إسرائيل ، لتعليمهم الاقتداء بهم ليصبحوا

مواطنين أفضل في ديمقراطية يهودية . إنّ نظريات التحديث التي تبناها علم الاجتماع التابع للمؤسسة الرسمية الإسرائيلية قد أسطقت من اعتبارها الطبيعة غير المتجانسة للمجتمع منذ العام ١٩٤٨ والذي ينتمي أفراده إلى إثنيات وثقافات مختلفة .(٣٠) لقد كانت إسرائيل لعلماء الاجتماع أولئك نموذجًا مثاليًا لعملية التحديث الناجحة . رفض رام هذا الادعاء وذهب أكثر من ذلك وقال إنّ علماء الاجتماع قد قدّموا تسويغات أكاديمية لسياسات تمييز وقمع تولّدت عن تفسير لفكرة إسرائيل .

لقد كان العلماء الذين اشتغلوا بتاريخ إسرائيل على وعي بالوقائع المحيطة بهم وبالنقاشات المعاصرة في العالم حول قضية السلطة والمعرفة . فمن العناصر الهامّة التي اشتملت عليها العناصر الجديدة ، إضافة إلى الجوانب المتعلقة بالتاريخ والمجتمع ، البحث الدائب في القضايا النظرية . فكان حوارٌ حيويّ بخصوص المعرفة والسلطة كانت ثمرته بعض الكتب المهمّة ليس في السياق المحليّ وحسب بل وفي إطار أوسع كذلك .

ونظرًا لهذا الاهتمام بالنظرية فقد بذلت جهود كبيرة لترجمة أهمّ الكتابات إلى اللغة العبرية ، وبالأخص أعمال ميشيل فوكو ، ومراجعة الترجمات القديمة لكتابات ماركس والكتابات الماركسية . وقد قامت إحدى دور النشر في تل أبيب ، ربسلنغ ، بنشر هذه الكتب كما تعهّدت بنشر المقالات التي تصدر عن مجلّة «النظرية والنقد» . وقد استلزمت هذه الجهود خبرة ومعرفة بالمناهج الفكرية الجديدة ، وذلك كي يتمكّن الأكاديميون كلّ ضمن مجاله من تسليط الضوء على ما ينتج من معارف الهيمنة وتقديم سبل لإعاقة هذه العمليات .

المنهجية ما بعد صهيونية

استمر الأكاديميون المنتمون لمدرسة ما بعد الصهيونية في مراكمة أدلة جديدة بخصوص الماضي كما جمعوا بيانات تتعلق بالفترة الراهنة ، وذلك ضمن المحدّدات التي فرضتها بطبيعة الحال ثلاثون سنة من التأخر في إعادة

تصنيف المواد في سجلات الأرشيف في إسرائيل. لقد كشفت الأدلة الأرشيفية الجديدة ما كان مستورًا من سياسات محلية وخارجية بعضها مروّع. من الأمثلة على ذلك عمليات اختطاف قصرية لأطفال رضّع من يهود اليمن من أمهاتهم في الخمسينات بحجّة أنّ الوالدين ليسا مؤهلين لرعاية أولئك الأطفال، وذلك كي يقوم زوجان من اليهود الأشكنازيين بتبنّي هؤلاء الأطفال. لقد كانت هذه العملية تتم والأمهات ما يزلن نزيلات في المستشفى، ثم تخبرهم المستشفى بأنّ الأطفال قد ماتوا. وحين تسرّبت هذه التفاصيل قام حاخام يمنيّ يدعى أوزي ميشولام بحبس نفسه وأفراد من أسرته في منزل في وسط إسرائيل عام ١٩٩٤ مطالبًا بكشف الحقائق وتحقيق العدالة.[٣١] كما وجد في هذه السجلات عبارات قاذعة ومهينة عن أي شخص ليس من اليهود الأشكناز على ألسنة وزراء وألسنة صحفيين من جميع الصحف الرئيسية في البلاد. كما أخرجت هذه الوثائق الأرشيفية إلى الضوء بعض ممارسات وكالات الاستخبارات الإسرائيلية في الدول العربية، سواء ما كان على شكل تدخّل في الشؤون السياسية في بلدان عربية وبعض السبل التي اتبعت لدفع اليهود العرب للهجرة إلى إسرائيل.

إلا أنّ تركيز معظم هؤلاء الأكاديميين لم يكن منصبًا على جمع أدلة جديدة، وإنما كانوا معنيين بتفكيك الأدلة والمعارف الموجودة بهدف كشف ما يقبع خلف النظرة الإسرائيلية السائدة من حقائق. فقاموا بإعادة قراءة المقالات الصحفية والخطابات والروايات ونظروا من جديد إلى الفنون والأفلام، وقد مكنهم ذلك من توجيه نقد أكثر عمقًا لفكرة إسرائيل.

قام اتسفي إفرات بإعادة دراسة مجموعة من الصور الفوتوغرافية من الخمسينات والتي رغم أنّها توثّق تدمير فلسطين كانت تعرض احتفالًا بزراعة الأشجار في الدولة، حيث قام الصندوق الوطني اليهودي بزرع أشجار الصنوبر الأوروبية في مساحات القرى المدمّرة والتي طرد منها سكّانها على يد جيش الدفاع الإسرائيلي في حرب ١٩٤٨.[٣٢] أمّا غاليا زلامانسوف ليفي فقد درست

كيف كان يتم تدريس الكتاب المقدس في المدارس الإسرائيلية كنصّ يسوّغ الاحتلال العسكري وغصب ملكية الآخرين من دون مناقشة للقضايا الأخلاقية أو الأمور المتعلقة بالعدالة . وقد نظر ألكساندر كِدار في قانون الأراضي الإسرائيلي ووصفه بأنّه أداة كولونيالية في أهدافه وآلياته .[٣٣] أمّا حاييم بيرِشيت فقد عمدَ إلى تفكيك تاريخ التخطيط الحضري في يافا بوصفه نموذجًا مصغرًا للسياسة الصهيونية لتهويد الدولة .[٣٤] وهنالك إيلان غور-زئيف الذي درس مبنى جامعة حيفا على جبل الكرمل بوصفه مشروعًا يهدف إلى «محو وجود الثقافات الأخرى على الجبل . . . بأبراجها المنتصبة التي تقتلع ذكرى القرى الفلسطينية المدمّرة من جذورها كما اقتلعت أشجار المنطقة» .[٣٥]

وهكذا جرَى النظر في كل الوسائط التي مرّت عبرها الرواية التاريخية الصهيونية وانتقلت من خلالها فكرة إسرائيل وتعرض كل ذلك للتفكيك ونُظر إليه على أنّه نص أخفى «الآخر» وشوّهه ورفضه وقمعه . وعلى غرار ما فعل أكاديميون في الغرب من نقد أفكارهم ومثلهم الوطنية السائدة ، فإنّ أكاديميي ما بعد الصهيونية قد سعوا إلى منح الحياة لتلك الأصوات التي كُتمَت أو قُمعت في المجتمع الإسرائيلي .

كما كان الاعتماد على تلك النظريات النقدية في القوميّة ، والفلسفات التاريخية النسبية ، والتقنيات الهرمنوطيقية ما بعد الحداثية ، والمنهجيات التفكيكية ، وذلك في محاولة لفهم كيف أثر التفسير الصهيوني للواقع على حياة كل من عاش أو كان يعيش في إسرائيل وفلسطين . لقد قام كل من جوناثان ودانيال بويارِن على سبيل المثال بتطوير حقل فرعي من الدراسات اليهودية ما بعد الكولونيالية لبيان كيف حوّلت الصهيونية اليهوديةَ بحيث صار الضحيّة اليهوديّ مجرمًا . أمّا حنان حيفر فقد قام بإعادة قراءة الأدب الإسرائيلي وفق أحدث التحليلات النظرية ما بعد الكولونيالية .[٣٦] ولعل أحد أهمّ الأمثلة على هذه الأعمال ما جاء كردّة فعل على إعلان اليونسكو أحد

المواقع في تل أبيب القديمة التي بنيت بين ثلاثينات وخمسينات القرن العشرين موقعًا من مواقع التراث العالمي . فقد أظهر المعماري الإسرائيلي شارون روتبارد مستخدمًا نظرة ما بعد كولونيالية أنّه ما كان لما يدعى المدينة البيضاء أن تقوم لولا المدينة السوداء ، تلك هي مدينة يافا[٣٧] التي هجّر منها أهلها وخضعت لعملية «التحسين» .(*)

وأنا أقرأ في هذه المصادر بدا لي أنّه سواء استخدم هؤلاء الأكاديميون كلمة «كولونيالي» أو «ما بعد كولونيالي» في دراساتهم فإنّ ذلك لن يشكل فرقًا للقراء الإسرائيليين العاديين . وحتّى لو انطلق أحد المفكرين من نظرية أكثر جدّة في دراسة الصهيونية فلن يكون هنالك من وصف لها أقرب من كونها مشروعًا كولونياليًا يستمر منذ القرن التاسع عشر حتى الآن باقتلاع الفلسطينيين من أرضهم بكل طريقة ممكنة . الجانب السلبي الوحيد هي أنّ تلك النظريات ، خاصة عند ترجمتها إلى العبرية ، أتت بمستوى متخصص من اللغة صعّبَ على العامة قراءتها .

وقد كان هنالك أداتان مسؤولتان عن اجتذاب هذا الخطّ الجديد من الاهتمام البحثي بشكل خاص ، الأولى هي التفكيكية التي تقدمها نظريات النقد الأدبي والهرمنوطيقا ، والنظرية الموقفية حسب استخدامها في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية . تعني الموقفية ببسيط العبارة ، وكما كانت تعرف في إسرائيل ، أن يكون للباحث الحق في اتخاذ موقف من البحث الذي يشتغل به وفق أي هويّة يختارها . وعليه فإنّ هويتك أو السياسة التي ترتبط بها هويّتك أيًا

(*) التحسين (Gentrification) وهي مصطلح يعبر عن اهتمام أبناء الطبقات الوسطى أو الغنية بمناطق مهملة من المدينة عادة ما تكون قريبة من المركز ، ويشير هذا المصطلح إلى دخول الأغنياء إلى أحياء كانت تنتمي للطبقة الفقيرة ، فتتحسن البنية التحتية فيها وترتفع قيم عقاراتها . لقد حصلت عملية التحسين هذه في يافا في فلسطين ولكنّها كانت على حساب العرب الذين وجدوا أنفسهم مرغمين على مغادرة أحيائهم القديمة «المحسّنة» إلى أحياء أخرى مكتظة وأكثر فقرًا . (المترجم)

كانت هذه الهوية ، فإنّها تلعب دورًا بالغ الأهمية في تحديد ما تبحث فيه وأسلوبك في البحث وغايتك منه . وكلما صارت الأكاديميا أكثر تمثيلًا لنطاق أوسع من المواقف فإنّ الإنتاج الأكاديمي سيكون أفضل ، أمّا إن حصل العكس ولم يكن هنالك تمثيل لنطاق واسع من المواقف فإنّ الأبحاث الناتجة ستكون متحيزة ضد تلك المجموعات التي غاب تمثيلها . ولعل أفضل طريقة لفهم طبيعة النظرية الموقفية هو مقارنتها مع الفكرة القديمة التي تقول إنّه وبما أنّ جميع البحوث علميّة فإنّ هويّة الباحث لا تؤثر عليها ، وهكذا تكون جميع الأبحاث دقيقة وصادقة ، حتى تلك التي يقوم بها مجموعة من البشر في مواضيع تتعلق بالبشريّة .

لقد ساعدت نظرية التفكيك الباحثين في إسرائيل على التعامل مع التفسير الصهيوني لفكرة إسرائيل على أنّه نص له القدرة على تدمير حياة النّاس أو تحسينها . وخلاصة هذه المنهجية أنّ الصهيونية ، سواء أكانت حركة وطنية عند البعض أم حركة استيطانية استعمارية عند البعض الآخر ، هي الراوي العليم ، وأنّها بالعديد من الجوانب وضع يعاش وفق نصّ هذا الراوي أو بخلافه . وبناء عليه فإنّه يمكن دراسة كل إدراك أو فعل أو عاطفة إنسانية على أنّها نص أدبي يمكن تحديد حبكته وأبطاله وأشراره وموضوعه .

تبدو الصهيونية من وجهة النظر التفكيكية قصّة قويّة ، وموقف الفرد فيها يحدد مصيره في واقع الحياة في الدولة اليهودية . إن كنت فلسطينيًا فأنت الشرير في القصة ، وإن كان مزراحيًا فإنك القريب البدائي . ولقد كان الوقوف عند هذه الأوصاف التي ظهرت في كل ميدان من الأكاديميا حتى السينما هي الخطوة الأولى في تطبيق هذه المنهجية . أما الثانية فقد كانت محاولة لربط السياسات والإستراتيجيات الفعلية مع الصور في الثقافة الشعبية والراقية للمجتمع على السواء . فإن كنت قد ظهرت هامشيًا أو عدوانيًا ، فإن هذا قد كان يظهر في تعامل السلطات معك في القضايا العادية والقضايا الوجودية . وهذا يعني أن قوة التفسير قد تكون مستقاة من أي جانب من جوانب الحياة ، حتى لو

كان ذلك في إعلانات تجارية في المذياع أو في شخصيات فن الكوميديا الارتجالية والمسلسلات أو أدب الأطفال أو الكتب المدرسية أو السياسات الحكومية أو خطابات السياسيين وما إلى ذلك .

وإضافة إلى أنّه يمكنك الرجوع إلى ما كان حاضرًا في الوسائط المكتوبة أو المرئية لمعرفة كيف تم نقل صورة صحيحة أو خاطئة عنك أنت أو عن الآخر أو أي شخص ، فإنّه يمكن أيضًا البحث فيما كان غائبًا . لقد أشار إدوَرد سعيد إلى أنّ موقف جين أوستن ومعاصريها من الكولونيالية كان واضحًا كل الوضوح من خلال غياب ذكر المستعمرات في تلك الروايات . وكذلك غاب العرب والفلسطينيون والمزراحيون والمرأة في الأعمال الفكرية الصهيونية والأفلام والمتاحف والروايات والاحتفالات الوطنية والرموز والشعارات ، وليست هذه القائمة التي ذكرتها من ضرب الخيال ، وإنّما هي من الأمور التي خضعت للتفكيك الموضوعي في فترة التسعينات . في الواقع لقد خضع كل شيء تقريبًا للتفكيك ، حتّى ليخيّل للمرء أنّ العملية قد ذهبت بعيدًا في تحليلها لكل جزء من ذلك اللغز باعتباره صالحًا للتمحيص والبحث . لكنّ عملية التفكيك هذه كانت على العموم عملية إنقاذ مذهلة لما كتم أو أخمد من أصوات بحيث لم يكن لها وجود في النصوص التي كتبها المستبدّون أو من هم في السطة . كما قامت هذه العملية بتقديم التاريخ الشفوي كمجال أكاديمي مشروع ، وهكذا فإنّ أولئك الذين لم يتمكنوا بسبب الأمّية أو الدمار الذي لحق بهم من كتابة شيء يدلّ على حكاياهم قد أضحوا قادرين على الإخبار بها والحديث عنها من خلال أعمال هؤلاء الباحثين .

إلا أنّ الأداة الثانية التي تعرف بالموقفية هي التي من شأنها أن تقيس الحالة الأكاديمية للباحث ، وهي أداة نظرية وردت كذلك من الخارج في فترة التسعينات . لقد تطلبت هذه الطريقة أن يقوم الباحثون بما هو أكثر من نحر المقدّس أو التفكيك الجهري لصورة الواقع التي رسمها القويّ ، وذلك بأن يظهروا التزامًا للناس الحقيقيين الذين باتوا ضحايا لهذه الصورة . لا شكّ أن مستوى

الصعوبة يزداد كثيرًا في هذه العملية وينخفض فيها مستوى المتعة .

تعني الموقفية أن تتخذ موقفًا لا في الرواية الوطنية الصهيونية وإنّما ضدّها ، لأنّك حين ترفض الادعاءات الوطنية عن ماضٍ جمعيّ أو هوية أو مستقبل ، فإنك تكون قد دخلت في ميدان علم سياسات الهويّة والتعددية الثقافية . وقد كان التمثل الأكاديمي الأكثر وضوحًا لهذا في سبعينات القرن العشرين في الولايات المتحدة . ففي تلك السنوات ، انخرط عدد لا بأس به من الأكاديميين الأمريكيين بما بات يعرف باسم «الحروب الثقافية» أو «حروب الأحرام الجامعية» والتي تشير إلى مجموعة من النقاشات المحتدمة بخصوص الهوية وسياسات الهوية كمعايير مقبولة للتوصل إلى حكم بشأن بعض القضايا كالقبول الجامعي للطلبة أو توظيف الأساتذة في الجامعة أو الترقية في الوظيفة أو وضع المناهج التعليمية وجودة العمل الأكاديمي وغير ذلك .(٣٨) حتّى إنّ هوليوود قد نجحت في نقل صورة عن هذه الحالة الثقافية في فيلم مشهور صدر عام ١٩٧٠ بعنوان (Getting Straight) ومن إخراج ريتشَرد رُش يظهر فيه رجل يدعى هاري بيلي كان قد خدم في الحرب في فيتنام (ويؤدي دوره الممثل إليوت غولد) يلعب دور طالب دراسات عليا يواجه مضايقات من الحركة المناهضة للحرب في حرم الجامعة من جهة ، ومن ضغوط الأساتذة المحافظين الذين يمتحنونه من جهة أخرى .

لقد كانت السمة اللافتة للنظر في سياسات الهوية الأمريكية في تلك السنوات أنّها كانت تظهر بشكل ملموس في الجامعات وفي أقسامها وطريقة تشكيلها وفي أجندة التدريس والتوجه البحثي بين أفرادها . وهكذا كان يمكن أن يطلب من قسم من أقسام التاريخ أن يبعث الحياةَ في الروايات التاريخية المتعددة التي كانت مطموسة أو محرّفة في الماضي لحساب رواية الأمريكي الأبيض المهيمن . فظهرت روايات تاريخية للأمريكين من أصول لاتينية أو أصول إفريقية وأخرى حسب النوع الاجتماعي وأخرى حسب التوجّه الجنسي ، وحدث الأمر ذاته فيما يتعلق بوجهات النظر الثقافية أو الأدبية وغيرها من

حقول المعرفة . وقد كان الحوار حول هذه المواضيع يدخل في جوّ أقرب ما يكون إلى حرب ثقافية ، لأنّ بعض هذه الدوائر كانت تؤمن أنّ إعطاء هذه الآراء حقّها في التمثيل الصحيح في الأكاديميا يعني أنّ أعضاء هذه الدوائر أنفسهم هم أفضل من يمكنه القيام بذلك ، وصارت عمليات التمييز الإيجابي هي الحلّ في بعض الأحيان ، وفي أحيان أخرى كانت الدعاوى القضائية ، وحلّ بعض الأقسام ، وطرد بعض الأساتذة بعض النتائج القاسية الناجمة عن هذه الحوارات . ولكن بقي الأمر عند هذا الحدّ ، ولم يمت في هذه الحرب الأكاديمية أحد ولا حتى جُرح .

وقد حاول الأكاديميون الإسرائيليون الاقتداء بنظرائهم الأمريكيين سعيًا منهم لتمثيل الفلسطينيين واليهود المزراحيين ووجهة النظر النسوية وطالبوا بأن يكون لهم وجود في الرواية الوطنية وأن يكون لهم موقع في التراث الثقافي . لقد كان أولئك الأكاديميون على قناعة تامّة أنّه من خلال تمثيل تلك المجموعات في الأكاديميا الإسرائيلية فإنّهم لا يميطون اللثام عن الإساءة التي تعرضوا لها في الماضي والحاضر وحسب ، بل إنّهم كذلك يقدّمون كفّارة عن هذه الشرور في المستقبل . وقد نجحوا إلى حدٍّ ما في تحقيق الهدف الأول المتمثّل بتوضيح المحن والمآسي التي قاستها الفئات التي تتعرض للقمع والاضطهاد والتهميش ، أمّا الهدف الثاني فهيهات . ولعل المرأة هي الوحيدة في إسرائيل التي حازت على تمثيل أفضل اليوم مقارنة بالتسعينات . أمّا الفلسطينيون واليهود المزراحيون ، ولاسيّما النساء الفلسطينيات والمزراحيات ، فيشكلون جزءًا لا يذكر من بين أكثر من عشرة آلاف من أعضاء هيئات التدريس في الأكاديميا الإسرائيلية (أقل من ١٪ من الفلسطينيين و ٩٪ من اليهود المزراحيين و ١٪ من اليهوديات المزراحيات) .(٣٩)

ومن أجل أن يكون الأكاديمي الإسرائيلي قادرًا على اختبار ما يدعى بالتمييز الإيجابي ، وأقول هنا «اختبار» لأنني أدرك سلبيات هذا الأسلوب ، فإنّ عليه أن يصبح ناشطًا ضد الصهيونية . إلا أنّ قليلًا من الأكاديميين لم يفعلوا ذلك

واكتفوا بكتابة المقالات وتأليف الكتب، لأنّهم يدركون خطورة التحوّل إلى النشاط السياسي الفعلي.

لقد كانت المطالبة بمنح صوت لفئات المجتمع الأخرى مسعى يشوبه التعقيد والمخاطرة، وكان على المرء أن يختبئ وراء بعض العبارات السياسية المثالية المستعارة من الولايات المتحدة. لقد كانت هذه اللغة مفرطة الحساسية والمبالغ فيها أحيانًا تشتمل على قدر قريب من الفائدة التي حققها الخطاب ما بعد حداثي الذي اقتُبس من قبل من أوروبا. وواقع الأمر أنّ الأكاديمي الذي ينتقد فكرة إسرائيل سيكون في مأمنٍ من عواقب ذلك إذا ما استخدم العبارات المطّاطة في خطاب ما بعد الحداثة، والتي يكون فكّ معانيها حين تكتب بالعبريّة أصعب مما لو كتبت بالإنجليزية، ولا يحسن فهمها إلا من هم على نفس الشاكلة من التفكير والتخصص.

ثمة استثناءات بالتأكيد، مثل كتابات تانيا رينهارت، التي سارت على هدي أستاذها نعوم تشومسكي وفضّلت الكتابة بعبارة واضحة من دون مواربة. لقد أظهر تشومسكي خنوع الأكاديميا الأمريكية أمام أيديولوجيات الهيمنة، وأثبتت رينهارت انقياد الأكاديميا المحلية للقيادة السياسية. ولقد كان تشومسكي مثالًا يحتذى لرينهارت وزملائها في قسم اللغويات في جامعة تل أبيب، كريتشل غيورا وميرا أريبل، وذلك لأنّه تمكّن من الجمع بين تخصّصه كعالم في اللغويات والتزامه ككاتب صاحب ضمير ومعرفة حول القضايا الدولية.[٤٠] وقد انضمّ إلى هذا الركب بعض الأساتذة في قسم الفلسفة من أمثال آنات بيلتزكي وأنات ماتار، والذين انتقدوا واستنكروا كباحثين متخصصين في فلسفة الأخلاق تلك الحالة من اللامبالاة لدى الأكاديميا الإسرائيلية على أحسن الأحوال، أو تواطئها على أسوأ الأحوال، مع الاحتلال والتمييز ضد الفلسطينيين. تقول بيلتزكي:

> علينا نحن الأكاديميين أن لا ننسى أبدًا أجندتنا السياسية والمتمثّلة في التخلص من الشر، وإنّ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين ليمثل

الشرّ بذاته . علينا إذن بصفتنا الأكاديمية أن نتعاطف مع المعلمين والطلبة الفلسطينيين الذين يعيشون في حالة قاسية من القمع . علينا بصفتنا الأكاديمية أن ننتقد إذعان الآخرين في إسرائيل للاحتلال . يتوجّب علينا نحن الأكاديميين أن نشجب الاحتلال وأن نستمر في ذلك .(٤١)

ولكنّ بيلتزكي لم تكن مع فكرة المقاطعة الأكاديمية ، بخلاف زميلتها أنات ماتار في قسم الفلسفة في جامعة تل أبيب والتي طالبت أن يصبح الأكاديميون أكثر نشاطًا ضدّ الاحتلال وأن يدعموا دعوة المجتمع المدنيّ الفلسطيني للمقاطعة الأكاديمية والثقافية :

حين تُرفع راية الحريّة الأكاديمية فإنّ المستبدّ عادةً هو من يرفعه لا المقموعون ، فما الذي تعنيه الحرية الأكاديمية للمجتمع الأكاديمي في إسرائيل يا ترى؟ متى كان هذا المجتمع معنيًا بوضع الحرية الأكاديمية في المناطق المحتلة؟ في المقابل نرى أساتذة الجامعات يدافعون عن حقهم بضراوة في إجراء البحوث العلمية في المجالات التي تنتظر منهم السلطة الاشتغال بها ونرى بعض المناصب الأكاديمية تمنح لضباط سابقين في الجيش . نرى مثلًا أن جامعة تل أبيب تفاخر بأنّ وزارة الدفاع تموّل ٥٥٪ من مشاريعها البحثية ، وأن وكالة داربا (وكالة المشاريع البحثية المتقدمة في مجالات الدفاع التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية) تموّل تسع جامعات أخرى . جميع الجامعات في إسرائيل تقدّم برامج دراسيّة لمؤسسة الدفاع .(٤٢)

لقد قدّم بعض الفلاسفة في جامعة تل أبيب وغيرهم من الأساتذة تفسيرًا مختلفًا لما يجب أن يكون عليه الأكاديمي بالإضافة إلى شخصيته الأكاديمية ، وذلك إمّا لتأثرهم ببعض الشخصيات من ذوي الالتزام والضمائر الحيّة أو بسبب نزاهتهم التي يتمتعون بها ، أو ربما الأمرين كليهما . المطلوب هو تيّار جديد من الأكاديميين الناشطين ، ويبدو مع الأسف أنّ ارتباط هاتين الكلمتين سويّة في

إسرائيل (وفي دول غربية أيضًا) قد بات يعدّ من التناقض الذاتيّ. ولكن كانت هنالك محاولات لخلق هذا التيار في التسعينات في إسرائيل قبل الدخول في مرحلة التراجع مع دخول الألفية الثالثة.

لقد كان مجرّد التحوّل إلى أكاديمي ناشط ضدّ التسلّط الذكوري أمرًا صعبًا، فقلّما كان الحراك النسوي والبحث الأكاديمي النسوي يلتقيان، إذ كان الناشطون يركّزون على ربط قضايا النوع الاجتماعي بالصهيونية والقومية، أمّا من فضّلوا المكوث في الأكاديميا فقد كانوا أكثر حذرًا وأحجموا عن القيام بمثل هذه المقارنات والتشبيكات. ولقد ظهرت بعد حين العديد من حالات الانشقاق والخلاف بين الأجندة النسوية الفلسطينية والمزراحية وتلك النسخة من النسوية الغربيّة التي تدّعي الكونيّة. وهنالك لحظة فارقة في تطور دراسات النوع الاجتماعي تتمثل في نشوء المؤسسات النسوية التي رغبت في أن تكون أكثر ارتباطًا بسياسات الهوية. فقد تأسست في العام ١٩٩١ مؤسسة الفنار النسوية الفلسطينية في إسرائيل، وأنشئت من بعدها بقليل جمعية أخوتي (Achoti) للمرأة في إسرائيل والتي أتاحت المجال للحركة النسوية بتمثيل الأجندة الخاصة للمرأة المزراحية.

لقد كان ذلك حوارًا محليًا يعكس حوارًا مثيلًا له في الشرق الأوسط بشكل عام يدور بين النسوية الإسلامية أو المسلمين وبين النسوية الغربية. كما أنّ رفض إسرائيل، الدولة والمجتمع على السواء، لأن تندمج في المنطقة وإصرارها على أن تكون جزءًا أصيلًا من الغرب قد أثر على القضايا المتعلقة بالنوع الاجتماعي.

فلو كانت النسوية في إسرائيل ذات بعد إقليمي لكان أمكنها ذلك من مدّ جسور من التواصل مع الحركات النسوية في العالم العربي التي ترفض أن تتواصل مع حركة نسوية تسعى للدفاع عن حقوق المجنّدات في الجيش ليتمكنّ من أن يصبحن طيّارات مقاتلات أو يلتحقن بالقوات الخاصّة. لقد كانت وحدات الطيّارين المقاتلين والقوات الخاصة مستعدّة لمهمّة واحدة لا غير، إحكام

السيطرة الوحشية على الضفة الغربية وقطاع غزّة أو الاعتداء على جنوب لبنان. إلا أنّه وبالرغم من كل هذه الصدوع نشأ خطّ من النشاط والتعاون النسوي بين بعض الجمعيات مثل جميعة إيشا لإيشا (امرأة لامرأة) وأخُوتي وجمعية الفنار.

ولكنّ هذا لا يعني إنكار الإنجازات المذهلة التي حققتها الحركة النسوية في إسرائيل، سواء بجناحها الأكاديمي أو بجناحها السياسي/الحراكي، والتي نجد مصداقها الأوضح على صعيد التشريعات والتغييرات التي حصلت في التوجّهات الرسمية والشعبية فيما يتعلق بقضايا النوع الاجتماعي. إلا أنّه لا بدّ أن نذكر في الوقت ذاته أنّه وكما هي الحال في العديد من الجوانب الأخرى في إسرائيل، تكون المظاهر الرسمية الخارجية ستارًا على واقع مثير للإحباط، فهنالك ارتفاع في معدّلات الجرائم ضدّ المرأة (في المجتمع العربي واليهودي على السواء)، وعدم المساواة في الوظائف، والتأثير المتزايد للتيارات الدينية المتطرفة. وكلّ هذا يؤدي إلى خلق حالة متجدّدة من التهميش في بعض الحالات والمزيد من الإقصاء للمرأة في القطاع الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع اليهودي.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ الصوت النسوي، وخاصة في الأكاديميا وفي المجتمع المدني، قد كان مؤثرًا من ناحتين. الناحية الأولى تتعلق برفد الأكاديميا بالأطر النظرية والمنهجية التي ساعدت الجهود النسوية حول العالم في إعطاء صوت للمرأة وإحياء تجاربها في الماضي وتمكينها في الحاضر، وهي أدوات ناجعة استخدمتها مجموعات مضطهدة ومهمشة أخرى. أما الناحية الثانية فتتعلق بالأبحاث النسوية التقدمية حول نظام التعليم الإسرائيلي الذي خلق أجندة جديدة تناهض العسكرة وتؤيّد السلميّة وتعدّ ذلك من الأهداف التي يمكن لحركة الاحتجاج داخل إسرائيل أن تعمل عليها. لقد كان النجاح على صعيد المجتمع المدني أكثر وضوحًا منه في الأكاديميا، ولكنّ الحالتين اشتملتا على حراك فعال وجريء لتفكيك النظام التعليمي الإسرائيلي بوصفه أداة للعسكرة والتحكّم ضمنت إذعان الشباب للجيش بعد أن ضمنت إعجابهم به بالإضافة إلى استنفار الحالة الأمنيّة في المجتمع.

لقد وجّهت دعوة للأمّهات لإعادة النظر في الحكمة من إرسال أبنائهنّ للموت في سبيل فكرة إسرائيل . وخلال الفترة الأخيرة من الوجود الإسرائيلي الذي طال في لبنان (١٩٨٢-٢٠٠٠) ترجمت مثل هذه الدعوات إلى حركة سياسية لم تعمّر طويلًا عرفت باسم الأمهات الأربعة (في إشارة إلى الأمهات الأربعة المشهورات في الكتاب المقدّس) ، وكانت حركة ضغط فاعلة على الحكومة الإسرائيلية لسحب قواتها من جنوب لبنان . وقد كانت هنالك محاولة شبيهة لاستخدام فكرة الأمومة لإنهاء الاحتلال في قطاع غزة والضفة الغربية إلا أنّهت منيت بالفشل الذريع . وفي المقابل خرجت قبل سنوات عديدة مجموعة من الأمهات كان أولادهن قادرين على الخدمة في القوّات الخاصة ولكنّهم عيّنوا في مهامّ لوجستية غير قتالية وتظاهرن غاضبات من ذلك عند مركز التجنيد الرئيسي قرب مستشفى تل هشومير في تل أبيب .

في نهاية التسعينات كان للتحركات في مجال النوع الاجتماعي ، خاصة حين انتقلت العمل الحقيقي من الجامعات إلى المجتمع المدني ، أثر على الدراسات ما بعد صهيونية بشكل عام . وحين خبت جذوة الجهود الأكاديمية أو كبح جماحها انتقلت الأجندة ذاتها إلى صعيد أصغر ولكن أكثر التزامًا من قبل المجتمع المدني ومؤسساته وعلى رأسها مؤسسة نيو بروفايل (الملف الجديد) ، والتي تأسست عام ١٩٩٨ على يد مجموعة من الناشطات النسويات في إسرائيل وتسعى لإقناع الشباب رفض الخدمة العسكرية . وتستخدم كلمة «ملف» في إسرائيل للإشارة إلى التقييم العام لكفاءة الشخص للانخراط في الجيش خاصة بين الذكور . ويشير الرقم ٩٧ إلى أعلى الملفات نقاطًا ، وهذا يعني أن المجنّد سيكون قادرًا على الالتحاق بالوحدات القتالية ، أما إن حصل أحدهم على الرقم ٢٤ فهذا يعني أنه لا يمتلك القدرات الذهنية الضرورية للالتحاق بالجيش (وتشير عادة إلى أنّ هذا الفرد لديه ميل نحو السلميّة) ويعني هذا كذلك أنّ فرصه في الحصول على منح دراسية أو حتى وظيفة ستكون محدودة . ومن هنا جاءت المنظمة بهذا الاسم : الملف الجديد .

تبقّى هنالك موضوع وحيد لم تتطرق إليه هذه المؤسسات المدنية بوضوح ، ألا وهو ما كان متعلقًا بقضية استغلال قصّة الهولوكوست ، ولم يظهر سوى قلّة من الكتّاب الذين تناولوا هذا الموضوع ، وجدير بنا أن نذكر قصتهم في الفصل القادم من الكتاب ، ذلك أنّهم هم الوحيدون الذين امتلكوا الجرأة على طرق باب لم يطرقه سواهم ممن انتقدوا فكرة إسرائيل .

الفصل السابع

ذكرى الهولوكوست في إسرائيل

في أغسطس/آب ٢٠٠٥ أخلت الحكومة الإسرائيلية ثمانية آلاف مستوطن إسرائيلي من قطاع غزّة بعد احتلال استمرّ منذ العام ١٩٦٧ . وفي محاولة بائسة لثني الحكومة عن قرارها ، قامت مجموعة من المستوطنين برسم علامات يقصد منها الربط بين عملية الإخلاء والهولوكوست ، إذ قاموا بخياطة نجمة داود صفراء على ملابسهم ووسم أذرعهم بأرقام . وخلال عملية النقل الفعلية ، كان العديد من المستوطنين في حالة من البكاء والعويل وهم في طريقهم إلى تلك الحافلات الفاخرة التي ستنقلهم إلى إسرائيل ، وقاموا بتمثيل مشاهد كانوا قد شاهدوها من قبل في أفلام عن الهولوكوست أو في المتاحف ، كما انهالوا بالشتائم على الجنود ورجال الشرطة ونعتوهم بالنازيين وشبّهوا قادة الجيش الإسرائيلي بهتلر .

لقد كان ذلك استغلالًا في غاية القبح لذكرى الهولوكوست في دولة أتقنت استخدام هذه الذكرى كأداة دبلوماسية في حربها ضد الفلسطينيين . ولكن حتى في تلك المواقف التي كان يبلغ فيها هذا الاستغلال مدى كبيرًا من المبالغة إلى مستوى مرضيّ ، فإنّ الأكاديميين الإسرائيليين التزموا الصمت حيال ذلك حريصين على ألا يبدو أي انتقاد لحدوثه .

إنّ ضرورة حماية ذكرى الهولوكوست من الانتقاد أو الثلب هي محلّ اتفاق واسع في إسرائيل ، ولهذا فإنّ الحديث عن أولئك الذين امتلكوا الجرأة في

التسعينات على طرح بعض الأسئلة المشروعة حول هذا الأمر في الأكاديميا سيشكّل جزءاً مهمّا من هذا الكتاب. لقد كانت جهود أولئك الكتّاب في فرادتها مماثلة لتلك الجهود التي بذلت من قبل أولئك الذين انتقدوا الأساطير المؤسسة للرواية التاريخية عن حرب ١٩٤٨، ولذا فلعله من غير المفاجئ أن يكون الأشخاص الذين ارتبطت أسماؤهم في البحوث الأكاديمية في كلا الحالتين قد أصبحوا من الصهاينة الجدد المدافعين عن الصهيونية وأشدّ المنتقدين لزملائهم السابقين، وهؤلاء هما بيني مورس فيما يتعلق بتاريخ العام ١٩٤٨، وإيلان غور-زئيف فيما يتعلق بذكرى الهولوكوست.

لقد كانت هنالك بطبيعة الحال محاولات مبكّرة في هذا الميدان، معظمها لم تكن من قبل أكاديميين، سعت لفهم أثر وأهمية ذكرى الهولوكوست في تشكيل فكرة إسرائيل وتسويقها. لقد كان البحث عن الحقيقة في هذا الصدد مدفوعًا بأسئلة أخلاقيّة، وقد مهّد ذلك الطريق للانطلاق في البحث الأكاديمي حين توفّر الظرف المناسب لذلك في الأكاديميا الإسرائيلية في التسعينات. كما أنّ هنالك تيارًا أكثر انفتاحًا في إسرائيل فيما يتعلق بذكرى الهولوكوست يظهر العلاقة بين رواية الدولة عن الهولوكوست وأسبابه وآثاره وتسويغها لما تتبعه من سياسات العنف ضد الفلسطينيين. وقد أضحت هذه العلاقة من النقاط الأساسية في انتقاد تيار ما بعد الصهيونية في عملية تخليد ذكرى الهولوكوست في إسرائيل.

لعل أوّل من تحدّث وأبدى قلقًا حقيقيًا من طريقة تداول ذكرى الهولوكوست في إسرائيل هو ناحوم غولدمان مؤسس ورئيس المجلس اليهودي العالمي، وذلك خلال سبعينات القرن العشرين، والذي هاجم رغم تقدّمه في السنّ الطريقة التي تلاعبت فيها إسرائيل بذكرى الهولوكوست لتبرير ما تمارسه من ظلم على الفلسطينيين، ووصف ذلك بأنّه ينتهك حرمة الدين.[1] وجاء بعده بسنوات طوال في هذا القرن رجل يدعى أبراهام بورغ، كان رئيس الكنيست وانضمّ لاحقًا إلى الوكالة اليهودية، وعبّر عن انتقادات مماثلة لما صدر

عن غولدمان ، ولخّص أفكاره في كتاب يعبّر عنوانه عن محتواه أصدق تعبير : «الهولوكوست انتهى : فلننهض من بين رماده» . يقول بورج في هذا الكتاب : «في واقع الأمر ، إنّ الأمل الوحيد الذي نملكه لتحقيق السلام مع العرب هو أن نتخلص من عقلية الهولوكوست وأن نتوقف عن التصرف وكأننا ما زلنا نعيش في بلدة صغيرة في أوروبا الشرقية» .(٢)

ولكنّ الصوت الأعلى قد جاء من بعض ضحايا الهولوكوست أنفسهم ، وفي مقدّمتهم كان إسرائيل شاحاك ، والذي كثيرًا ما تعثر في كتاباته على عبارة «تزوير الهولوكوست» :

> .... ليس صحيحًا أنّ نظام التعليم الإسرائيلي قد تمكّن من غرس «الوعي بالهولوكوست» في أذهان الطلاب . إنّ هذا الوعي لا يتعلق بالهولوكوست وإنّما يتعلق بخرافة الهولوكوست بله تزوير الهولوكوست (باعتبار أن الحقيقة المجزوءة أسوأ من الكذب) .(٣)

وفي فقرة أخرى يشير شاحاك إلى الخوف الموجود في إسرائيل من بيان أنّ بعض اليهود قد قدّموا تواطؤوا مع النازيين وكان لهم دور هامّ في تنفيذ مجازر الهولوكوست ، وهو لا يجد غضاضة في قتل أولئك اليهود المتواطئين على يد المقاومة في تلك الفترة ، كما يتفهّم لماذا قام بعض الفلسطينيين بقتل بعض العملاء خلال الانتفاضة الأولى :

> لو كنّا نعرف شيئًا عن الهولوكوست لكنا قد تفهّمنا على الأقل (سواء قبلنا أو لم نقبل) موقف الفلسطينيين حين يقومون بتصفية العملاء . إنّ هذه هي السبيل الوحيدة التي يمتلكونها للاستمرار في كفاحهم ضد نظامنا الذي يكسّر أضلع النّاس [في إشارة إلى إسحاق رابين حين دعاء الجنود الإسرائيليين إلى تكسير أضلع الفلسطينيين خلال الانتفاضة الأولى] .(٤)

لقد كان شاحاك كذلك أول من أشار إلى ذلك التحمّس الذي أظهره بعض قادة الصهيونية للنازيّة في أوائل الثلاثينات ، وهي فورة من الحماسة قد سكنَت

باعتراف شاحاك نفسه في نهاية الثلاثينات. ويقول شاحاك في معرض انتقاده لواحد من أهمّ الشخصيات المرموقة من الفلاسفة الصهاينة الليبراليين مارتن بوبر إنّ :بوبر قد مجّد حركة تعتنق وتدرّس أفكارًا عن غير اليهود لا تختلف عن الأفكار النازية عن اليهود.» كما تحدّث عن يهوياقيم برنز أحد أهمّ رجالات المؤسسة الصهيونية الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية وقال :

لقد قام برنز بتهنئة هتلر بمناسبة انتصاره على العدوّ المشترك المتمثّل بالقوى الليبرالية. إنّ الدكتور يهوياقيم برنز حاخام صهيوني هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية وعلا فيها شأنه حتى صار نائب رئيس المؤتمر اليهودي العالميّ وواحدًا من ألمع شخصيّات المنظمة الصهيونية العالمية (وأحد أصدقاء جولدا مائير المقربين). وقد نشر برنز في العام ١٩٣٤ كتابًا بعنوان «نحن ، اليهود» احتفالًا بما يدعوه ثورة هتلر الألمانية وهزيمة الليبرالية.(٥)

من الواضح أنّ شاحاك لم يجد بئسًا في الصراحة التامّة في هذا الشأن. فقد قام بالحديث عن محاولة قامت بها مجموعة من اليهود المتدينين خلال عملية الليطاني عام ١٩٧٨ ، حين قامت إسرائيل باجتياح جنوب لبنان ردًا على هجوم من منظمة التحرير الفلسطينية على حافلة على أطراف تل أبيب) لحضّ الأطباء والممرضين في الجيش على منع العلاج عن «الأغيار» واصفًا ذلك بأنّه نصيحة «على الطراز النازيّ».(٦) كما كانت له إشارات مشابهة عند الحديث عن المستوطنين اليهود. فبعد محاولات الاغتيال التي حصلت عام ١٩٨٠ على يد مجموعة من الإرهابيين اليهود مستهدفين بسّام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، والذي فقد كلا ساقيه في الهجوم ، وكريم خلف رئيس بلدية رام الله والذي بترت قدمه ، كتب شاحاك لقرائه يقول : «قامت مجموعة من النازيين اليهود بالتجمع في حرم جامعة تل أبيب ، وقاموا بشواء بعض القطط وقدموا لحمها للمارة على أنها «كباب» من سيقان رئيسي البلديتين العرب».(٧)

وعلى هذه الشاكلة كان بواز إيفرون والذي كتب مقالة عام ١٩٨٠ بعنوان

«الهولوكوست : خطر على الأمّة» .[٨] لقد طرح إيفرون سؤالًا يتعلق بفرادة التجربة اليهودية في المحرقة النازية ، حيث يشير إلى أنّ استئصال «الغجر» يفنّد «الافتراض الخاطئ بأنّ سياسة الإبادة النازية كانت موجّهة ضدّ اليهود حصرًا» .[٩] كما أشار إلى أن عملية تخليد ذكرى الهولوكوست في إسرائيل مسؤولة عن خلق حالة من «البارانويا» بين الإسرائيليين و «العمى الأخلاقي» ، مما يفرض «خطرًا حقيقيًا على الأمّة» ويمكن أن يتولّد عنه «توجهات عنصرية نازية» في إسرائيل نفسها .[١٠]

بعد ذلك بأحد عشر عامًا قام يهودا إلكانا ، والذي عايش أوروبا في الفترة النازية حين كان طفلًا كما هي الحال عند شاحاك ، بتكرار هذه الأفكار في مقالة نشرت في هآرتز .[١١] كان إلكانا في سن العاشرة حين احتجز في الأوشفتز وفي سن الرابعة عشرة حين وصل إلى إسرائيل عام ١٩٤٨ . حقق النجومية في فلسفة العلم وحصل على الدكتوراة من جامعة برانديز في ماسشوستس ودرّس في هارفرد بعض الوقت ، ثم كانت له مسيرة مهنية طويلة ومميزة في معهد فان لير في القدس ، وأخيرًا رئيس الجامعة الأوروبية الوسطى في بودابست .

في العام ١٩٨٨ شهد إلكانا بقلق متزايد شكلين من أشكال استعراض القوة والعنف من قبل إسرائيل . ظهر الأول في الوحشية الإسرائيلية خلال الأشهر الأولى من الانتفاضة الأولى ، والثاني في محاكمة جون ديميانيوك في القدس ، والمتّهم بأنّه قد كان حارسًا فاسدًا وشرسًا عرف باسم «إيفان الشرير» في معسكر الإبادة في تريبلينكا . وقد حكم على جون بالإعدام بعد أن تم تسليمه إلى إسرائيل من قبل الولايات المتحدة ، ثم أصدرت المحكمة العليا في إسرائيل حكمًا ببراءته بسبب نقص الأدلة التي من شأنها الكشف عن هويّته الحقيقية .

في الثاني من آذار ١٩٨٨ قام إلكانا بنشر مقالة في هآرتز بعنوان «الحاجة للنسيان» ، قال فيها إنّ على المجتمع الإسرائيلي أن يخفف من حدة انشغاله وهوسه بالهولوكوست ، وأشار إلى أنّ اليهود الإسرائيليين يعانون من فائض من

الذاكرة وسيكون من الأفضل لو أنّهم يضعون عن أنفسهم عبء هذه الرموز والاحتفالات وتلك الدروس المزعومة من ماضيهم الأليم. ويضيف إلكانا قائلاً:

«إنْ كان يتوجّب على العالم أجمع أن يذكر ما حصل (في الهولوكوست) فإن علينا نحن أن ننسى!». محذرًا أنّه ما من شيء أشدّ تهلكة لمستقبل إسرائيل من استمرار الانشغال صبح مساء بتلك الرموز والاحتفالات والدروس المتعلقة بالهولوكوست، داعيًا قادة الدولة نزع قانون الذكرى التاريخية من حياتهم.(١٢)

لقد رأى إلكانا في محاكمة ديميانيوك مثالًا على فرط الاهتمام بموضوع الهولوكوست، إلا أنّه ربط هذا الهوس بذلك السلوك الذي يدّعي أنّه «خلاف المعهود» للجنود الإسرائيليين ضد الفلسطينيين في الانتفاضة الأولى. وخلال بحثه عمّا يساعده لفهم هذا السلوك، فإنّه عزى تصرفات أولئك الجنود إلى الآثار السلبية التي يتركها التلاعب بذكرى الهولوكوست على الجيل الجديد، مؤكدًا أنّ ذلك قد حرف بوصلتهم الأخلاقية.

كما يرى أنّ الإسرائيليين يضمرون إحساسًا بفكرة الضحيّة ويجاوزون الحدّ في تصوّر ذلك في أنفسهم، وهذا نتيجة أشياء خاطئة استقوها من الهولوكوست حال دون أن يروا الفلسطينيين بشكل أكثر واقعيّة وأعاق تحقّق حل سياسيّ معقول للصراع العربي الإسرائيلي. وقد كان القلق يساور إلكانا بشأن صورة اليهود كضحايا دائمين بالنظر إلى ما حدث في الهولوكوست، إذ قد تغريهم هذه الصورة التي تلبّسوا بها بتسويغ أشدّ الأفعال قسوة ضد الفلسطينيين، واستعان بربط تلك الأفعال التي قام بها الجنود في المناطق المحتلة مع ما حدث في ألمانيا من فظائع، قائلًا إنّ الأمر قد يصل باليهود الإسرائيليين حد تقليد أسوأ أعدائهم، وهذا ما يمنح هتلر «نصرًا مأساويًا ينضوي على مفارقة كبيرة».(١٣) وقد لاقت هذه الفكرة تجاوبًا من بعض الكتّاب، مثل أموس إلون، الصحفي والكاتب الإسرائيلي الشهير، وكتب ردًا على مقالة إلكانا قائلًا: «قد يكون كل ما نحتاجه هو شيء من النسيان حقًا».(١٤)

هذه الطروحات المبكّرة لفكرة استغلال الهولوكوست والإغراق في استجلاب الذكرى والخطر الذي يمثّله ذلك قد مهّد الطريق لكتابات أكاديمية نقدية ما بعد صهيونية ظهرت في التسعينات . كما كان هذا الاستعداد لدى الأكاديميين لخوض غمار هذا الموضوع نابعًا كذلك من الكتابات الغنيّة حدّ العجب من أقلام تنتمي إلى المجتمع اليهودي الأمريكي . فهنالك بعض اليهود المنصفين في الولايات المتحدة من أمثال بيتر نوفِك وليني برينر ونورمَن فينكلستين ممّن بدؤوا بالوقوف في وجه استغلال مجتمعهم لذكرى الهولوكوست في خدمة إسرائيل .(١٥) إنّ أعمال هؤلاء المفكرين تساعد على فهم الدور المهمّ الذي يؤديه التمثيل الصهيوني لذكرى الهولوكوست في تسويق فكرة إسرائيل في الولايات المتحدة . فقد قام نوفِك بوضع الأفكار الأساسية في نقده قائلًا إن المجتمع اليهودي الأمريكي قد صار أكثر عزلة ويمينيّة في العقود الأخيرة ، وأن هذا عائد بشكل كبير إلى «تمركز الهولوكوست في عقليّة اليهود الأمريكيين» .(١٦) كما أنّه قد خلص إلى بعض الأمور من خلال النظر فيما أسماه «الوعي بالهولوكوست» حيث يرى إنّ هذا الوعي قد شجّع على تضخّم الذات اليهودية وحال دون أن تحصل الفئات المظلومة الأخرى من الحصول على التعاطف والاهتمام اللائقين .

لا شكّ أنّ أشد هؤلاء المنتقدين الأمريكيين سلاطةً هو نورمَن فنكلستين . ولد نورمَن في نيويورك عام ١٩٥٣ لأبوين كانا من الناجين من الهولوكوست ، وتوجّه منذ وقت مبكّر للعمل أكاديميًا في مجال العلوم السياسية ، وتوجّه إلى باريس في رحلته لإتمام دراساته العليا ومن ثم إلى جامعة برنستن حيث حصل على شهادة الدكتوراة . درّسَ بعدها في العديد من الجامعات الأمريكية ، وعانى كثيرًا في سعيه للحصول على منصب أكاديمي ثابت وذلك بسبب انتقاداته الصريحة لإسرائيل في العديد من مقالاته وكتبه ، والتي صبّ فيها تركيزه على الصهيونية وفلسطين .

في العام ٢٠٠٠ نشر كتابًا له بعنوان : «صناعة الهولوكوست : نظرات على

استغلال المعاناة اليهودية» . سعى فنكلستين في كتابه إلى انتقاد «الهولوكوست» من حيث ما هو تمثيل أيديولوجي لتاريخ فبرك وسُوِّق للمواطن الأمريكي من أجل إحياء الهويّة اليهودية المترنِّحة و «تسويغ السياسات الإجرامية لدولة إسرائيل والدعم الأمريكي لهذه السياسات» . كما يستهجن فنكلستين حقيقة أنّ إسرائيل «إحدى أكثر القوى العسكريّة تطوّرًا في العالم ، وذات السجلّ المشين فيما يتعلق بحقوق الإنسان ، تعرض نفسها بوصفها «الدولة الضحيّة» وتبحث عن سبل تساعدها على أن تُمنَح «الحصانة من النقد» . وليس أمر هذه الصناعة مقتصرًا على تسويق هذه الصورة وحسب ، بل لعلّه في واقع الأمر يتعلق بالمال أكثر . أولئك الأشخاص الذين اغتنوا عبر استغلال محنة الهولوكوست ما هم إلا «عصابة مقزّزة من التجّار والبلطجيين أصحاب الثروات» الذين يلهثون وراء التعويضات القانونية والتسويات المالية من ألمانيا وسويسرا ، وهذه الأموال تذهب إلى المحامين والمؤسسات التي عملت على الحصول عليها وليس إلى ضحايا الهولوكوست الحقيقيين .(١٧)

إلا أنّ ديدن هؤلاء المفكّرين هو المطالبة بما هو أكثر من مجرّد اقتناع لا يتزعزع ، ولذا كانوا يرغبون دومًا بالحصول على أدلّة ملموسة من شأنها أن تقلقل ثقتهم في رواية الهيمنة السائدة ، تمامًا كما كان شأنهم مع القضيّة الحساسة لحرب عام ١٩٤٨ . ولكنّهم كذلك وجدوا ضالّتهم مرّة أخرى في السجلات الأرشيفية والصحف القديمة . لقد ساعدت عملية إعادة النظر في بعض الوثائق التي ما عادت سريّة في الكشف عن العديد من القضايا ، لا بدّ من تناول أهمّ ثلاثة منها وهي : موقف القيادة الصهيونية القديمة من الفاشية والنازية والهولوكوست ، والموقف من الضحايا الذين وصلوا مهاجرين إلى فلسطين خلال فترة الإبادة وعقبها ، وطبيعة الانتفاضات التي حصلت في الغيتوهات وأهمّيتها .

«يمكن ليهوذا أن يحقق ما حققته إيطاليا!»

أول جانب امتلك المفكرون الجدد الجرأة لمناقشته في ذلك السياق الجديد والمنفتح نوعًا ما هو التعاطف الذي ظهر في بداية الثلاثينات مع الفاشية والنازية من قبل بعض الشخصيات في الحركة الصهيونية. فحتّى حين لم يكن قادة الحركة مقتنعين بتلك الأيديولوجيات في أنفسهم، إلا أنّ وجود إيطاليا وألمانيا بطرف معادٍ لبريطانيا قد كافيًا لكثير من الناشطين الصهاينة للسماح بقدر من التواصل مع تينك الدولتين في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية. بالإضافة إلى أنّ بعض القادة الصهاينة البراغماتيين، وقبل أن يعلموا بما كان يخطط النازيون من أمر إبادة اليهود، قد حاولوا الاستفادة من النازيين الراغبين في طردهم، لأنّهم رأوا في هذا الطرد فائدة ستعود على المجتمع اليهودي في فلسطين.[١٨]

لقد كانت هذه الصورة التي ظهرت على شكل رواية جديدة لما حصل في ذلك الزمن من تشابك هذه التحرّكات الصهيونية محرجة على أقل تقدير. فهنالك بعض الشخصيات الفكريّة الرائدة في المجتمع اليهودي من أمثال إيتمار بن-آفي (ابن أليعازر بن-يهوذا، الرجل الذي بعث الحياة في اللغة العبريّة) وآبا أهيمير، الذين امتدحوا الفاشيّة من دون مواربة، بل إنّ بن-آفي قد ذهب أبعد من ذلك وقال إنّ النموذج الفاشي الإيطالي يناسب المجتمع اليهودي في فلسطين، مدّعيًا أنّه «يمكن ليهوذا أن يحقق ما حققته إيطاليا!»[١٩]

في عام ١٩٢٨ كان آبا أهيمير، والذي صار عضوًا بارزًا في الجناح اليمينيّ المتطرّف من الحركة التصحيحية ، يكتب باستمرار في زاوية له عنوانها «من مذكّرات فاشيّ» في الصحيفة العبرية اليومية دوار هايوم والتي كان يرأس تحريرها بن-آفي. وقد لعب أهيمير عام ١٩٣١ دورًا أساسيًا في تأسيس «عصبة الأشدّاء» وهي مجموعة سريّة على طراز العصابات الفاشية كانت تهدف إلى مجابهة السياسات البريطانية في فلسطين. وفي محاكمة بعض أفراد هذه المنظمة الذين وجّهت لهم اتهامات بالتخريب الذين تسببوا به في إحدى

الفعاليات اليسارية في الجامعة العبرية مطلع العام ١٩٣٢ قال محامي الدفاع: «نعم، نحنُ التصحيحيين نكنّ كل الاحترام لهتلر، هتلر الذي أنقذ ألمانيا... ولو أنّه تخلى عن معاداته للساميّة لانضممنا إلى صفّه.»(٢٠)

وفي الصيف من عام ١٩٣٢ ذكر بن-آفي في صفحات دوار هايوم أنّه يجدر بنا أن نقبل حتميّة سيطرة هتلر، وقد ظهرت هذه الفكرة كذلك في صحيفة أخرى تدعى هازيت حَنَام والتي ترأس تحريرها آبا أهيمير و يشوع هيشل يفين، حيث قيل فيها «إننا على قناعة بأنّ في الأمر قشرة ولبًا، فالقشرة هي معاداة الساميّة وعلينا التخلص منها، ولكن علينا أن نحافظ على اللبّ المتمثل بمعاداة الماركسية»(٢١)، وقد جاء ذلك في معرض الردّ على ما كان يردّده بعض الاشتراكيين والديمقراطيين من أنّ حركة هتلر ليست إلا قشرةً بلا لبّ.

أمّا القيادة الصهيونية وقتها فلم تظهر مثل هذه الحماسة ولكنّها أحجمت في الوقت ذاته عن تبنّي موقفٍ عدائي ضد النظام النازي. وقد كشفت الوثائق الأرشيفية أنّ القيادة الصهيونية قد كانت معنيّة بشكل أساسي بمشروعها في فلسطين ولذا فإنّها لم تستحسن حملة المقاطعة التي أطلقها اليهود حول العالم ضد النازيين في الثلاثينات واعتبرت ذلك سياسة خاطئة. وقد قال زعيم المجتمع اليهودي في فلسطين حينها، ديفِد بن غوريُن: «إنّ الصهيونية تحمل على كاهلها التزامات تأسيس دولة، ولذا فإنّها لا تستطيع أن تخوض الآن معركة طائشة ضد هتلر ما دام في السلطة». وهو يعني بوصف «المعركة الطائشة» حملة المقاطعة.(٢٢)

وقد حاول بن غوريُن إقناع جمهوره وأشار إلى أنّ هنالك دولًا تناصب ألمانيا العداء مثل الاتحاد السوفييتي إلا أنّها لم تقطع جميع علاقاتها مع الرايخ الثالث. وهكذا، وبدلًا من أن تنضمّ الحركة الصهيونية إلى المجتمعات اليهودية الأخرى حول العالم في حملة مقاطعة البضائع الألمانية، فإنّها فضّلت اتخاذ موقف آخر، وكانت في ذلك الاستثناءَ من بين جميع المجتمعات اليهودية. وقد أبرمت المنظمة الصهيونية اتفاقًا مع الغيستابو (الشرطة السريّة الألمانية) بعدم

الانضمام إلى حملة المقاطعة تلك مقابل السماح ليهود ألمانيا بتصفية ممتلكاتهم وجلبها معهم عند الانتقال إلى فلسطين.[٢٣]

لم يكن أمر التواصل مع النازيين متعلقًا بتأييدهم بقدر ما كان متعلقًا بمصالح عمليّة، إلا أنّ مجرّد الكشف عن وجود هذا التواصل كان يتطلّب أكاديميًا مقدامًا لا يخشى التعبير عن آرائه، وكان هذا هو موشي زيمرمان.[٢٤] لقد كان زيمرمان خبيرًا في التاريخ الألماني في الجامعة العبرية وكان معتادًا على تشويه سمعته والإساءة إليه في الإعلام، خاصة بعد أن لفت إليه الأنظار حين انتقد المستوطنين وحركتهم الشبابية بأشدّ العبارات،[٢٥] ولذا فليس غريبًا عليه أن ينبش هذا الموضوع المثير للقلاقل. اكتشف زيمرمان بمساعدة كبيرة من المؤرخ الأمريكي ليني برينر أنّ التواصل الصهيوني مع النازيين قد بدأ على أشدّه في العام ١٩٣٣. وكان المحرّك الرئيسي لهذه العلاقة في ألمانيا الصحفي الألماني ليُبولد فون مِلدنشتاين الذي كان على علاقة وثيقة بالمنظّر والقيادي الصهيوني آرثر روبِين من يهود ألمانيا. وقد كان القادة الصهانية قد عرضوا من قبل التحالف مع ألمانيا وذلك بسبب العداوة بينها وبين بريطانيا.[٢٦]

ولكن حين اتّضحت بعد فترة طبيعة السياسات النازية المعادية لليهود تبنّت الأجندة الصهيونية محاولة التوصل إلى اتفاق يضمن هجرة اليهود إلى فلسطين بشكل حصريّ. وفي العام ١٩٣٦ التقى وفد مشترك من الوكالة اليهودية وهيئة الهجرة الألمانية في فلسطين مع القنصل الألماني في القدس وتقدموا باقتراح ينص على أن تقوم ألمانيا بإرسال ممثل إلى اللجنة الملكية لفلسطين، المعروفة باسم لجنة بيل، من أجل دعم الموقف الصهيوني (وقوبل هذا المقترح بالرفض).[٢٧]

إلا أنّ زيمرمان تابع هذه القضية ودخل في مساحات لم يدخلها غيره من الباحثين، ولم يتردد في بيان الهدف المشترك الذين كان بين الحركة الصهيونية والنازية والمتمثل في تهجير يهود أوروبا منها. ولكنّ هذا التعاون قد انقطع بطبيعة الحال وتلاشت تلك النظرة المشتركة بين الصهيونية والنازية حين ظهر أنّ

النازيين يخططون لإبادة اليهود . وحين قام المفكر الفلسطيني جوزيف مسعد بالإشارة مؤخرًا إلى هذه العلاقة في مقال له نشر على موقع الجزيرة ، تعرّضت القناة للضغط ورضخت له في البداية ومن ثمّ أعادت نشره مجددًا على الموقع .[٢٨]

قام توم سيغيف بأهمّ الأبحاث وأكثرها توسّعًا بخصوص العلاقات مع النازيين والتواصل معهم ، وسيغيف صحفي ومؤرخ إسرائيلي مختص بالتاريخ الألماني ، وبالأخص التاريخ النازي . وقد تناول في بحثه في الدكتوراة قصة قادة معسكرات الإبادة ، وركّز في أعماله الأخرى على فترة الانتداب والسنوات الأولى من عمر دولة إسرائيل . وقد أظهر سيغيف في أبحاثه عن الهولوكوست أنّ التواصل بين الحركة الصهيونية والنازيّة استمرّ حتى العام ١٩٣٧ ، بيدَ أنّه لم يقف عند ذكر هذا الشكل من التواصل كما فعل زيمرمان ، بل شجبه وانتقده . فقد قام سيغيف بالكشف عن لقاءات جرت بين أفراد من الهاغانا ، أكبر مجموعة يهودية مسلحة ، وشخصيات من النظام النازي ومن أهمّهم أدولف أيخمان ، وقد كان يحضر في هذه الاجتماعات قادة جهاز المخابرات النازي خلال شتاء عام ١٩٣٧ .[٢٩] ووفق الادّعاءات الصادرة عن المنظمات الصهيونية فإن الهاغانا كانت تريد لتوجيه اليهود الألمان للهجرة إلى فلسطين لا إلى أي مكان آخر . أمّا الخارجية الألمانية فلم تكن تشجّع على هذه اللقاءات ، وذلك لأنّها لم تر وجه المصلحة في تأسيس دولة صهيونية ، ولكنّ وفد الهاغانا أجاب عن هذا بالتأكيد على أنّ وجود أغلبية يهودية في فلسطين سيحقق في الواقع منافع لألمانيا ، لأنّ ذلك سيخلصها من اليهود الذين فيها وستكون هذه الدولة معادية لبريطانيا . لم يكن سيغيف متأكدًا من مستوى السلطة التي كان يتحدّث بها هذا الوفد ، ولكن وكما أظهر زيمرمان من قبل ، لم تكن هذه التحرّكات بعيدة أو مناقضة لتلك التي كانت تصدر عن القيادة الصهيونية .[٣٠]

ومن الواضح أنّه وبمجرّد أن تجلّت حقيقة النازية وسياسات الإبادة التي تنتهجها فإنّ هذا التوجّه قد تغيّر وانقطع هذا التواصل (باستثناء ما حصل من

محاولات لإنقاذ يهود هنغاريا عام ١٩٤٤ من خلال عرض الأموال على الألمان للحصول على الذخيرة) . وحينها ظهرت قضيّة أخرى : إلى أيّ مدى كانت القيادة الصهيونية عازمة على المشاركة في عمليات الإنقاذ بعد أن عرف مصير اليهود في أوروبا؟

في هذا الصدد أثبت سيغيف أنّه أشدّ من انتقد السياسة الصهيونية . فقد وصف القيادة الصهيونية في كتاب له بعنوان : «المليون السابع : الإسرائيليون والهولوكوست» بأنّها لم تكن تكترث إلا بإنقاذ اليهود الذين كانواعازمين على الهجرة إلى فلسطين أو أولئك الذين يمتلكون المقدرة الماديّة والذهنيّة للمساهمة في بناء المجتمع . وقد بدأ سيغيف في بيان هذه الفكرة منطلقًا من السنوات التي سبقت الحرب ، حيث كان إنقاذ يهود أوروبا يعني للقيادة الصهيونية بمقدار ما يسهم في بناء الدولة اليهوديّة وحسب . لقد قال ديفِد بن غورين :

> «لو خيّرت بين إنقاذ جميع أطفال ألمانيا عبر نقلهم إلى إنجلترا ، أو إنقاذ نصفهم عبر نقلهم إلى فلسطين ، لاخترت نقلهم إلى فلسطين ، ذلك لأنّ مسؤوليتنا تجاه تاريخ الشعب اليهودي بأكمله أكبر من مسؤوليتنا تجاه هؤلاء الأطفال» .(٣١)

ولقد تجلّى هذا التوجّه عمليًا كما وجد سيغيف في أنّ عمليّات الإنقاذ التي لم تكن ترتبط مباشرة بالمجتمع اليهودي في فلسطين لم تكن تلقى المساعدة . وقد تحدّث في كتابه عن هذا المجتمع الذي تابع شؤون حياته اليوميّة وقادته لا يبدون سوى ضيق الأفق ولا يظهرون سوى ما يوحي بأنّهم القادة الوطنيون وهذا فقط ما يمنعهم من أن ينخرطوا بالنفاق والمكائد التي لا تناسب سوى العصابات السريّة . إنّ الإحجام عن الاستثمار بشكل كبير في عمليات الإنقاذ لم يكن متعلقًا بوضع الأولويات وحسب ، بل لقد كان كذلك توبيخًا لأولئك اليهود الذين لم يبدوا ما يكفي من الحكمة وتجاهلوا التحذيرات الصهيونية . أو يمكن أن نقول بالأحرى إنّ الأولويات التي تم تحديدها فيما يتعلق بالتخصيصات المالية والبشرية لعمليات الإنقاذ قد عبّرت عن موقف كامن وأكثر عمقًا يظهر على

صورة توجّه رافض ليهود الشتات، حتّى في وقت الشدائد، وهذا جزء من نفرةٍ أعمّ من الشتات بذاته.

لقد كان هذا الموقف من بين أكثر العناصر جرأة في النقد مابعد الصهيوني لفكرة إسرائيل. لقد ادّعى سيغيف على سبيل المثال أنّ إنكار الشتات قد بقي ركنًا أساسيًا في العقيدة الصهيونية، هذا الإنكار الذي يظهر كما يقول سيغيف في المقت الشديد لدى المجتمع اليهودي أو حتّى القرف من الحياة اليهودية في الشتات، وذلك الشعور بالاغتراب تجاه أولئك الذين كابدوا مرارة الهولوكوست.[٣٢] ثم يخوض سيغيف في تفسير فيه شيءٌ من فكرة المؤامرة لتفسير تلك السياسات في المجتمع اليهودي، إذ يقول إنّه لاحظ وجود تحالف غير معلن بين المجتمع اليهودي في فلسطين والإمبراطورية البريطانية، حيث قدّمت وعود للحركة الصهيونية بمنحها مكانة متميّزة بعد الحرب إن التزمت الصمت حيال عمليات الإنقاذ وسمحت للحلفاء بالمضيّ في حربهم من دون تدخّل.

كل هذه النقاط تعود بنا إلى كتاب ليس بسهل القراءة. لقد ظهر كتاب «المليون السابع» بداية بالعبرية وكان مادّة لفيلم وثائقي تم عرضه في تلك الأيام الهانئة في عصر انفتاح الإعلام في فترة نشاط مابعد الصهيونية.[٣٣] لقد أظهر الكتاب ذلك الجانب الأكثر جدلًا في شخصية «اليهودي الجديد» الذي ولد في فلسطين، بطل فكرة إسرائيل. لقد أشار سيغيف بالعديد من الأشكال إلى أنّ ذلك التقديس للهولوكوست قد بات دينًا جديدًا لليهود العلمانيين في فلسطين، أو كما يقول سيغيف، باعتبار أن الدين لم يعد ذا أهمّية في هوية العديد من الإسرائيليين العلمانيين، حلّ محلّ الدين إجلالٌ لذكرى الهولوكوست كثيرًا ما يتحوّل إلى هوس مرَضيّ بالموت.

لقد كان سيغيف باحثًا مابعد صهيونيّ بامتياز، إذ أنّه لم يكتف بإخبارنا عمّا وجد في السجلات الأرشيفية، ولكنّه أضاف إلى ذلك أيضًا انتقادًا للجيل الذي سبق من المفكرين، وفي مقدّمتهم المؤرخون الذين تجاهلوا هذه الحقائق الشنيعة بسبب ولائهم للتفسير الصهيوني لفكرة إسرائيل، هذا التفسير الذي

يرى أنّ أولئك الذين قضوا في الهولوكوست قد ذهبوا «كالخراف إلى الجزّار» ولم ينتفضوا كما فعلت قلّة من بينهم ، تلك القلّة هي التي استحقّت الثناء ووسموا بالشجاعة بل ووصفوا كذلك بأنهم صهاينة ، ينتمون إلينا ، رغمَ أنّهم أخطأوا ولم يعجّلوا في الهجرة إلى فلسطين .

«سلف انتفاضة وارسو هو دولة إسرائيل»

دأب التأريخ الإسرائيلي الرسميّ والذي يعدّ الدعامة التي تتكئ عليها النخبة السياسية في إسرائيل على وصف الثورات التي اندلعت في عدد من الغيتوهات ومعسكرات الاعتقال فصلًا من تاريخ النضال الصهيوني الطويل ضدّ أولئك الراغبين في تدمير الشعب اليهودي . ولكن هذه رواية واحدة لما حصل وحسب ، وكان مجرّد التفكير بوجود رواية أخرى اقتراحًا يتطلب الكثير من الجسارة ، وهذا ما أقدم عليه مفكرو مابعد الصهيونية خلال التسعينات . فهم يرون أنّ هذه الثورات قد خضعت للصهينة في الذاكرة الجمعية الإسرائيلية والأكاديميا الرسمية ، كما أنّهم نظروا إلى عملية الصهينة هذه كمثال نموذجي يكشف كيف تقوم الحركات القومية بتعريف هويّة الشعب التاريخية وفق الاحتياجات الراهنة لهذه الحركات .

ففي مطلع العام ١٩٤٢ بدأ النظام النازي في بولندا بإرسال اليهود إلى معسكرات الإبادة ، وقد كان ذلك كفيلًا بأن يحاول الناس القاطنون في مخيّم وارسو ، على غير عادتهم ، تأخير موتهم بالقوّة . فقرّرت مجموعتان من اليهود في الغيتو البدء بالتمرّد ، وكانت المجموعة الأولى محسوبة على الحركات الاشتراكية اليهودية ، مثل الوحدة اليهودية العامّة المناهضة للصهيونية ، والأخرى كانت أقرب إلى الحركة التصحيحية الصهيونية ، وكلاهما تلقّى الدعم من حركات المقاومة البولندية السريّة . كان مارك إدلمان من بين قادة الفئة الأولى ، وهو من مواليد عام ١٩١٩ وكان قد انضمّ إلى الوحدة في شبابه . اندلعت الثورة الفعلية في كانون الثاني ١٩٤٣ ، وذلك حيث بدأت الدفعة الثانية من عمليات النقل

إلى الإعدام، واستمرّت الثورة حتى أيّار إلى أن تمّ إخضاعها بالقوّة العسكرية للقوات النازيّة.

قرّر إيدلمان بعد الحرب دراسة الطب في بولندا وصار طبيب قلب، وفي العام ١٩٧٦ انضمّ إلى حركة التضامن المشهورة بقيادة ليخ فاونسا وتبوأ مكانة مرموقة بين مفكّري بولندا. كثيرًا ما عالج فاونسا في كتاباته بعض القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان والحقوق المدنية في العالم بالإضافة إلى أنّه وجّه انتقادات للصهيونية وإسرائيل بسبب سياسات التمييز ضد الفلسطينيين، ثم صار في نهاية الثمانينات عضوًا في البرلمان البولندي. في العام ١٩٩٣ توجّه رئيس الوزراء الإسرائيلي حينها، إسحاق رابين، على رأس وفد رسميّ إسرائيلي للاحتفال بذكرى اليوبيل لثورة غيتو وارسو، وطلب الرئيس البولندي ليخ فاونسا من إيدلمان أن يكون من بين المتحدثين الأساسيين في تلك المناسبة، غير أنّ ضغوطًا كبيرة من الوفد الإسرائيلي نجحت في إلغاء كلمته في اللحظات الأخيرة.(٣٤)

ولو أخذنا الملاحظات التي قدمها لنا منتقدو القوميّة، مثل بِندكت أندرسُن وإرك هوبسبوم، الذين يرون أنّ أفضل ما يمكن فعله هو منح صبغة قوميّة ما لأشخاص موتى، وذلك لأنّهم لا يسعهم أن ينكروا تلك الهويّة التي ألصقت بهم، فإنّ بوسعنا حينها أن ندرك مقدار الإزعاج الذي كان يسبّبه مارك إيدِلمان، أحد أهمّ الشخصيات في تمرّد وارسو.(٣٥) فقد كان إيدلمان في تلك الفترة عضوًا في منظمة مناهضة للصهيونية، وبقي اشتراكيًا بولنديا بعد الهولوكوست، وما زال رجلًا ينبض بالحياة والنشاط. لقد كان من سوء طالع المسؤولين عن الإنتاج الثقافي الرسمي في إسرائيل أن لا يكون إدلمان هذا متوافقًا مع الصورة التي كانوا يبحثون عنها في قادة ثورة وارسو، والأدهى من ذلك أنّ إدلمان قد وقفَ بالمرصادِ متحدّيًا هذه الصورة المنشودة. ففي عام ١٩٤٥ ألّف كتابًا عن الثورة أسماه «مواجهات الغيتو» والذي تأخر صدور ترجمته العبرية حتى العام ٢٠٠١.(٣٦) لم ترق لإدلمان في هذا الكتاب تلك المحاولات التي تظهره وأصدقاءه سواء فيما

صدر من أفلام أو كتب في إسرائيل وقال «لم يكن أيّ منّا قريبًا حتّى من هذه الصورة . . . لم يكن لديهم بندقيّات ولا ذخائر ولا خرائط ، كما كانوا سُمرًا شُعثًا ، بعيدين عن تلك الصورة المثالية للشابّ الهودي الأبيض الأنيق الذي يظهر في المتاحف الإسرائيلية الخاصة بالهولوكوست وفي الصور التي تزيّن الكتب الرسميّة .[٣٧]

لقد أوضحَ إدلمان أنّ الثورة بالنسبة له لم تكن سوى خيار بشريّ لاختيار طريقة الموت (وهذا ما قاله بريمو ليفي كذلك) . لكنّ الموت لم يكن بالقضيّة البسيطة في نظر النخبة السياسية الإسرائيلية ، وهي المشغولة على الدوام بتشكيل الذاكرة الجمعية لمجتمع المهاجرين من جهة ، وتقوم في الوقت ذاته باستعمار شعب بأكمله في بلد يقاومها ويلجأ أحيانًا إلى القوّة . لقد شعر القادة في الماضي كما في الحاضر بالحاجة إلى وضع الموت في ترتيب هرميّ ، بحيث يكون للموت شكل عظيم وآخر حقير . وهكذا يصير الموت في الثورة ضدّ الهولوكوست موتًا عظيمًا يستحق الثناء ، بينما يكون الموت في الهولوكوست من دون مقاومة مثارَ تساؤل وانتقاص . ذلك الموت في سبيل الوطن هو ما يرقى إلى أعلى مستويات الإنسانيّة .[٣٨]

لقد جرى تجاهل إدلمان في النصوص الإسرائيلية الرسميّة عن الهولوكوست ، وهو معروف الآن بفضل إيدِث زِرتال والتي قدّمت قصّته للعالم في فترة الانفتاح النسبيّ في النقاشات العامّة في فترة التسعينات .[٣٩] لقد كانت زِرتال رئيسة تحرير الملحق الأسبوعي الشهير في صحيفة هآرتز كما كانت رئيسة تحرير مجلة زمانيم التاريخية ، وهي دوريّة ربع سنويّة كانت تصدر عن كلية التاريخ في جامعة تل أبيب ، وهي تدرّس اليوم في سويسرا . في كتابٍ لها بالعبرية بعنوان «الأمّة والموت» ناقشت زِرتال ثورة وارسو ، ولأنّها تنتمي إلى المؤسسة الرسميّة فقد تمكّنت من نشر كتابها في دار نشرٍ معروفة وكبيرة رغمَ أنّه تحريضيّ إلى حدّ كبير ضد النّظام السياسيّ . لقد وصفت الكاتبة إسرائيل في كتابها بأنها منجذبة إلى الموتى ومهووسة ومسكونة بالموت ، وخاصة معسكرات

الموت في الهولوكوست ، فهي غير قادرة على استيعاب فظاعة ما حصل ، ولكنّها قادرة على استغلال وإساءة استخدام تلك الذكرى لخدمة أهدافها السياسيّة .

ولقد تمكنّا من خلال كتاب زِرتال من معرفة حجم مأسسة ذكرى الهولوكوست في الدولة اليهودية الفتيّة ، خاصّة أنّ الكاتبة توضّح ما جرى من بناء رواية متحيّزة فصّلت تاريخ الهولوكوست بما يناسب الغايات الإستراتيجية والأيديولوجية لإسرائيل . وهنالك جانبان مهمّان في هذا الصدد ، الأول يتعلق بغرس تلك المقارنة في المخيال العامّ اليهودي بين اليهودي الجديد «الشجاع» وأولئك الذين ذهبوا «طوعًا» إلى حتفهم في معكسرات الإبادة في أوروبا . أمّا الجانب الثاني فيرتبط بقومنة أو صهينة الثورات ، وبالأخص ثورة وارسو ، ووصفها بأنّها كانت إرهاصات لإعادة بعث اليهود كأمّة جديدة في أرضهم «المستعادة» . وسأقتبس هنا من بندِكت أندرسُن ، وهو ممّن تأثرت زرتال بكتاباتهم ، إذ يقول : «إن سلفَ انتفاضة وارسو هو دولة إسرائيل» .(٤٠) وحين نأخذ هذين الجانبين بعين الاعتبار فإننا سنلحظ بوضوح أنّ اليهود الذين شاركوا في الثورة قد وصفوا في الدولة الإسرائيلية الجديدة على أنّهم «الصهاينة الأوائل» ، وليسوا كما رآهم بريمو ليفي وغيره أشخاصًا كانوا راغبين في اختيار الموت الذي يناسبهم في وجه تلك الإبادة الشاملة .(٤١)

كانت تلك المظاهرات في الرواية الرسمية من الذاكرة الجمعية جزءاً من الرواية عن فلسطين التي يظهر فيها اليهود الشجعان ، سواءً في وارسو في الحرب العالمية الثانية أو في شمال الجليل في العصور الرومانية ، صامدين رابطي الجأش في مواجهة الأعداء . «لقد أضيئت شعلة الثورة في الغيتوهات باسم أرض إسرائيل» كما يقول زلمان شازار الذي صار لاحقًا ثالث رئيس لدولة إسرائيل .(٤٢) ووفقًا لهذه الرواية ، فإنّ الثوّار قد استقوا العزيمة من اليهود الذين وقفوا في وجه هجمات العرب في العشرينات . ولقد كانت هذه المنهجية الاختزالية كما ترى زرتال طريقة أنانيّة في بناء القصّة ، إضافة إلى كونها تسير في فلك توجّه نفسيّ لاستيعاب الهولوكوست : «فمن خلال أفعال المتمرّدين

صار المستحيل ممكنًا وغير المعقول معقولًا» .(٤٣)

لقد أفادت زرتال كثيرًا من أعمال حنا أرندت . فخلال محاكمة أدولف أيخمان في إسرائيل بين العام ١٩٦١ و١٩٦٢ انتقدت أرندت عمليات التشويه الفجّة التي أجرتها إسرائيل على الهولوكوست .(٤٤) وقد تعرّضت جراء ذلك للتوبيخ بشكل فاق ما تعرض له إدلمان بل وخضعت لحملة من الشيطنة والتخوين . ولم تكتف أرندت بالتناول الفلسفي للرواية التاريخية ، بل فحصت أيضًا بعض الجوانب الأخلاقية في القوميّة واليهوديّة والشرّ ، وقدّمت نظرة هيومانيّة وكونيّة جديدة للهولوكوست واليهودية المعاصرة .

أمّا التربويّ يائير أرون فقد ذهب في التسعينات إلى حدّ اقتراح إجراء تغيير جذريّ في طريقة تدريس الهولوكوست في إسرائيل ، حيث اقترح أن يتم تدريسها كجزء من التاريخ الحديث للإبادة الجماعية .(٤٥) وقد لقي أرون تأييدًا في طرحه هذا لدى إيلان غور-زئيف ، أستاذ فلسفة التعليم في جامعة حيفا ، والذي كان في التسعينات من الدعاة المتحمّسين للنزعة الكونيّة . ولقد استهجن غور-زئيف ما أسماه «رغبة النظام التعليمي الإسرائيلي في السيطرة على ذكرى الهولوكوست» واستثناء أي توجيه كونيّ للقصّة ، حتّى قال إنّ «الهولوكوست قد بات صنمَ الصهيونيّة» .(٤٦) إن النظام التعليمي الإسرائيلي ليس سوى أداة محافظة غير نقديّة وتحكّميّة تحرّم كل منهج آخر وترفض منتجاته .

لكنّ الانتفاضة الثانية جعلت غور-زئيف يندم على ماضيه مابعد الصهيوني فاعتنق الرواية الصهيونية القديمة من جديد وتفسيرها للهولوكوست . أمّا الفيلسوف عادي أوفير ، محرّر مجلة النظرية والنقد ، فقد بقي ثابتًا على موقفه النقدي ولم يتحوّل عنه ، وقد كان في العام ١٩٨٦ قد شبّه ذلك الانشغال الإسرائيلي بالهولوكوست بالعبادة الدينية ، وقال إنّ أي شخص يجرؤ على «تقديم رواية مختلفة» أو «يدّعي حتّى أنّه يعرف حقيقة ما حصل هناك» فإنه سيوصف بالوثنيّة والخيانة .(٤٧)

اليهوديّ المُخجِل، شيطنة الناجين من الهولوكوست

كانت هذه النزعة الهيومانيّة والكونيّة في التعامل مع الهولوكوست تسعى بشكل من الأشكال إلى نزع الصهينة عن الثورات التي حدثت وخلق مساحة لروايات مختلفة عن أولئك الذين نجوا من المعسكرات ومن الإبادة، وقد ساعدت وجهة النظر هذه على إعادة النظر في طريقة التعامل مع أولاء الناجين حين وصلوا فلسطين، وما صار لاحقًا إسرائيل.

لقد كانت دراسات الهولوكوست حتى التسعينات من القرن العشرين تخصصًا شائعًا في إسرائيل، فكل جامعة وكليّة كانت تشتمل على قسم أو مركز متخصص في إجراء البحوث في هذا الجانب. لكنّ نوعيّة تلك البحوث كانت تقتصر عادة وبشكل أساسيّ على النازيين أنفسهم والثورات التي قامت ضدّهم، وبدا أنّ معظم الباحثين كانوا يتجاهلون تلك النقطة الشهيرة التي ذكرها يشاياهو لايوبفِتز حين سأله المخرج إيال سيفان في الفلم الوثائقي «تذكّر: عبيد الذاكرة»(*) وهو فيلم عن ترسيخ ذكرى الهولوكوست في إسرائيل (وسنتكلم بالتفصيل عن الفيلم في الفصل التاسع) حيث يقول: «لم علينا أن نهتمّ بالهولوكوست؟ إننا الضحايا. إنّ الألمان هم من يجدر بهم أن ينظروا فيما فعلوا».(٤٨)

في الأبحاث الأكاديمية مابعد الصهيونية في فترة التسعينات وخلال التوسع في نطاق البحث حدثَ للمرة الأولى أن انكشفت للدولة اليهودية ونخبتها السياسية صورة واقعية لأولئك الذين نجوا من المحرقة واختاروا أن يصبحوا مواطنين في إسرائيل (أو أرغموا على ذلك). فهؤلاء الضحايا لم يكونوا

(*) عنوان الفيلم بالإنجليزية هو «Yizkor: Slaves of Memory» وكلمة «يزكور» هذه عبرية تعني «تذكّر» وهي تشير كذلك إلى صلاة يهودية معروفة تتلى لتذكّر الموتى وتتلى عند اليهود في كنسهم أربع مرّات في السّنة، في عيد الفصح اليهودي، وعيد الأسابيع، وعيد الثامن الختامي، ويوم الغفران (المترجم)

على تلك الصورة التي رُسمت لليهودي الجديد، وهو تباين يظهر في الأفلام الوثائقية التي ظهرت في الأربعينات والخمسينات. لقد لاحظَ هذا الأمر نوريث غيرتز، أستاذة الدراسات الأدبية في الجامعة المفتوحة، والتي قدّمت إسهامات مهمّة عديدة في دراسات السينما مابعد صهيونية. فقد أظهرت غيرتز أنّ الضحايا قد ظهروا في تلك الأفلام بشخصية اليهوديّ العنيد الغريب الذي لم يكن يرغب في الاندماج في المجتمع الجديد. وهي تصف هذا التمثيل بأنه عملية من إسكات الذاكرة، إذ لم تعط تلك الأفلام مساحة للرواية الشخصية ولا الجمعية للضحايا، فقد كانت روايتهم كما تقول غيرتز «مطموسة تحت الرواية الجمعية عن الهولوكوست والبطولة».(٤٩) وتضيف غيرتز:

> إنّ ذكرياتهم تنتأ في الحاضر وتنغّص على الرواية الصهيونية التي تتخلّص من ماضي الشتات وتصل إلى بناء حاضر إسرائيل ومستقبلها. هذه رواية الناس الذين بقوا غرباء يمثلون «الآخر» في المجتمع الإسرائيلي، ولم يبدّلوا هويّتهم كما انتظرت منهم الصهيونية. وتحاول هذه الأفلام أن تدمج هؤلاء الناس في العقل الجمعي الإسرائيلي.(٥٠)

وليس هناك من شيء يمكن من خلاله الحدّ من سلبيّة هذه الصورة. وفي هذا يذكر توم سيغيف أنّه وبالرغم من أنّ ثلث الجنود الذين قاتلوا في حرب الاستقلال كانوا من الناجين من قبضة هتلر، ورغمَ أن البعض منهم كانوا قد عزموا على المشاركة في التمرّد، فإنّ هذا لم يكن ليغيّر شيئًا من صورتهم الدونيّة. إنّ دولة إسرائيل الفتيّة كانت ما تزال «محرجةً من الهولوكوست» على حدّ تعبير سيغيف. لقد قامت الدولة اليهودية على مبدأ اليهودي «الجديد»: الصلب الذي يفتخر بعبريّته التي يتحدّث بها ويعمل في الأرض معتدًا بنفسه معتمدًا عليها. أمّا من ذهب ضحيةً للهولوكوست فقيل عنه إنّه قد أسلم نفسه للجزّارين. ذلك هو اليهودي «القديم» ابن المدينة الذي يتحدّث اليديشية في المنفى ويعتمد على التجارة.(٥١)

ويظهر أنّ دولة إسرائيل تمكّنت من استيعاب اليهود الذين قضوا في الهولوكوست ولم تحسن القيام بذلك مع الناجين. وتشير إلى هذا أستاذة التاريخ في جامعة بن غورين، حنا يابلُنكا، حيث تقول إنّ هنالك نظرة صهيونية سائدة ترى أنّ الذين نجوا من الإبادة مذنبون، وذنبهم هذا هو أنّهم بقوا على قيد الحياة، وهم في ذلك يمثّلون ماضيًا كان الإسرائيليون راغبين في نسيانه.(٥٢) كما انتبهت إدث زرتال هي الأخرى إلى هذا في كتاب سابق لها بعنوان «من الكارثة إلى السلطة: ضحايا الهولوكوست وقيام إسرائيل» تسلّط الضوء فيه على تلك النظرة الفوقيّة الرافضة بين اليهود الجدد تجاه الناجين ومعضلتهم، مشيرةً إلى أنّ هذا الأسلوب قد تركَ جروحًا عميقة في أرواح أولئك الذين هربوا من الهولوكوست ووصلوا فلسطين.(٥٣)

وبالرغم من ذلك الازدراء الذي تعرّض له الضحايا فإنّهم كانوا عند الحاجة إليهم يستخدمون، رغمًا عنهم في أحيان كثيرة، لخدمة المشروع الصهيوني في فلسطين. لقد بدأ هذا الأمر منذ اليوم الأول من إنقاذ هؤلاء الضحايا من معسكرات الإبادة في أوروبا، وهذا ما كشفه لنا يوسف غرودزنسكي، أستاذ اللغويات العصبية في جامعة تل أبيب. لقد كان والده من الناجين من المحرقة وعضوًا في منظمة «التضامن» وهي المنظمة التي ما فتئت حتى بعد الهولوكوست تنادي بوجود بديل اشتراكي عالمي عن الصهيونية.(٥٤) ولقد شجّع هذا التاريخ الشخصي غرودزنسكي على الخروج من اختصاصه البحثي وأن يخطو هذه الخطوة في كتابة دراسة تاريخية عن أناس مثل أبيه وعن تعامل الحركة الصهيونية معهم بعد الهولوكوست، حين وضعوا بعد نجاتهم من الحرب في معسكرات للنازحين في أرجاء ألمانيا.

لقد أدّت معسكرات النازحين دورًا هامًا في المعركة الدبلوماسية التي خاضها الصهاينة بخصوص مصير فلسطين في مرحلة ما بعد الانتداب. ففي تلك الأيام كانت الحجة المقابلة للفلسطينيين ضد فكرة الدولة اليهودية هي أنّ العرب في فلسطين يشكلون الأغلبية المطلقة من السكّان بواقع الثلثين وأنّ لهم

لذلك الحق الديمقراطي في تقرير شكل الدولة التي يريدون بعد الانتداب . أمّا البروباغاندا الصهيونية فقد حاولت جهدها في بداية الأمر وحسب وبعبارات مبهمة أن تربط بين اليهود حول العالم ومصير المجتمع اليهودي في فلسطين . وبهذه الطريقة بات التوازن الديمغرافي القائم غير ذي أهمّية ، وحاولت المنظمة الصهيونية أن تأخذ كل اليهود أيًا كانوا بالاعتبار ، وهكذا خلقوا احتمال أن تكون لهم الأغلبية في فلسطين .

إلا أنّ لجنة التحقيق المشتركة التي شكّلت في العام ١٩٤٦ من شخصيات إنجليزية وأمريكية للتوصل إلى حل مقترح للنزاع في فلسطين قد رأت أنّ تلك الطريقة عقيمة وافتراضيّة . فصار من اللازم إقامة علاقة ملموسة بين مصير يهود أوروبا وأولئك الذين في فلسطين ، ولإثبات ذلك كان لا بدّ على اليهود في معسكرات النازحين أن يعبّروا عن رغبتهم جميعًا في الهجرة إلى فلسطين . وهكذا ، وبعد أن كان ريتشَرد كروسمان غير مقتنع بالحجّة التي ساقها الصهاينة حين عيّن في اللجنة ، اختلفت وجهة نظره حين قام بزيارة معسكرات النازحين وأخبرَ بأن معظم الناس هنالك راغبون في الذهاب إلى فلسطين . ولكنّه لو سأل المسؤولين الأمريكيين والبريطانيين في تلك المعسكرات لأخبروه بأن أغلب الناس هنالك يريدون الهجرة إلى بريطانيا أو الولايات المتحدة .(٥٥)

لقد اكتشف غرودزنسكي أنّ اللجنة الأنجلوأمريكية واللجنة التي أتت بعدها والمعروفة باسم لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (UNSCOP) قد استمعتا إلى طرف واحد وحسب في معسكرات النازحين تلك . ففي كتاب له بعنوان «أصل إنساني جيّد» يصف فيه مرحلة من الرعب الصهيوني ضدّ أيّ شخص يحاول الهرب من معسكرات النزوح والهجرة إلى مكان غير فلسطين (مع أنّ بعض الجهات الأخرى كلجنة التوزيع الأمريكية اليهودية المشتركة على سبيل المثال كانت تساعد اليهود الراغبين في الذهاب إلى الولايات المتحدة) . ولقد انتشرت في تلك المعسكرات مكاتب للتجنيد في الهاغانا حيث يؤدي النازحون القسم كجنود في المنظمة ، وإن غيّروا رأيهم فإنّهم يعاملون كمتهرّبين من أداء الواجب .

كما وصف غرودزنسكي بعض الطرق المشينة الأخرى التي اتبعت لصهينة الناجين من الهولوكوست واستخدامهم في العمل العسكري والاستعانة بهم لمنع المنظمات الأخرى من التواجد في المخيمات.(٥٦)

ثم واصلت القيادة الصهيونية استخدام الناجين بعد مغادرتهم المخيمات ووصولهم إلى فلسطين، وقد ظهر ذلك في بعض الأبحاث من حركة مابعد الصهيونية من خلال إعادة دراسة قضيّة «إكسُدُس ١٩٤٧»، تلك السفينة التي أبحرت من أوروبا محمّلة على متنها أكثر من أربعة آلاف من الناجين من الهولوكوست، ورفضت سلطات الانتداب إدخالها إلى فلسطين وأرغمت على العودة بمن عليها إلى ألمانيا.

في الحادي عشر من تمّوز ١٩٤٧ أبحرت أكسدس أس أس(*) من فرنسا في منتصف الليل محمّلة بناجين يهود كانوا في مخيمات النزوح في أوروبا، ولم يحصل أيّ منهم على تأشيرة لدخول فلسطين الخاضعة حينها للانتداب. وقد تعقّبت البحرية البريطانية الملكية السفينة واعترضتها.

وقد كانت تلك هي النتيجة المرجوّة من كل هذه العمليّة، إذ كانت الوكالة اليهودية تسعى إلى لفت أنظار العالم إلى الحصار الذي تفرضه بريطانيا على سفن المهاجرين الكبيرة التي تحاول الوصول إلى فلسطين. وقد أظهرت المؤرخة الإسرائيلية أفيفا هَلاميش أنّ اللاجئين قد أخبروا بأن يتوقّعوا أن يتمّ اعتراضهم وتمّ تزويدهم ببعض التعليمات حول كيفية مواجهة القوات البريطانية حين يصعدون إلى السفينة.(٥٧)

وُزّع المسافرون على ثلاث سفن صغيرة، وتوجّهت السفن إلى فرنسا ولكن لم يسمح لها أن ترسو هناك، فقررت الحكومة البريطانيّة توجيه السفن إلى ألمانيا وهو المكان الذين غادر منه معظم النازحين. وتلك كانت خطوة صادمة: إعادة

(*) تعرف هذه السفينة باسم SS Exodus أو Exodus ١٩٤٧. (المترجم)

الناجين من الهولوكوست إلى ألمانيا عام ١٩٤٧ ، ووضعت الوكالة اليهودية كل جهودها الإعلاميّة لاستغلال هذه الحادثة .

لقد صارت هذه الحادثة جزءاً مما دعاه نوفِك ومن بعده فنكلستين صناعة الهولوكوست في الولايات المتّحدة . هنالك كاتب أمريكي مشهور يُدعى ليون أورِس ، قد كتب رواية عن الحادثة نشرت عام ١٩٥٨ . لقد كان أورِس مراسلًا حرًا يعمل مع العديد من الصحف الأمريكية لتغطية العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ، وقد ألحق كما يقال اليوم بالقوات الإسرائيلية ، واستخدم حادثة أكسُدس في تلك السنوات لكتابة حكاية تعكس الرواية الصهيونية . بطل الرواية هو أري بن كنعان ، وهو من أبناء الكيبوتس الشجعان الذي يكون قائدًا للسفينة . وهنالك شخصيات أخرى يمثلون من خلال قصص حياتهم فصولًا من الرواية الصهيونية . وقد تم إحياء شخصية أري بن كنعان حين حوّلت الرواية إلى فيلم عام ١٩٦٠ وقام بأداء دور أري الممثل الأمريكي بول نيومَن .(٥٨) بالنسبة للتوجّه الصهيوني السائد كانت هذه الرواية بمثابة نسخة حديثة من قصة الماسادا(*) ، أو لعلها تكون تكفيرًا عمّا حدث في الماسادا .(**) لقد كانت قصّة

(*) ماسادا (Masada) هي قلعة يهودية تقع على مرتفع صخري قرب منطقة البحر الميّت سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرّد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية ، إلا أنّ القصّة اليهودية تقول إنّ اليهود عادوا واستعادوا هذه القلعة في العام ٦٦ للميلاد وذبحوا كل جنود الحامية الرومانية الذين كانوا فيها ، وتستخدم هذه القصة في الأدبيات اليهودية للإشارة إلى وحدة اليهود ورفضهم الاستسلام . (المترجم)

(**) تذكر بعض المصادر أنّ الرومان قد تمكنوا بعد فترة من محاصرة القلعة مما دفع القائد اليهودي ، إليعازر بن يائير ، بعد مضيّ عدة أسابيع على الحصار إلى إقناع من معه بالانتحار بدلًا من الوقوع في أسر الرومان ، مما أدى إلى انتحار قرابة ألف من اليهود بعد أن أقنعهم بن يائير بمشروعية الانتحار في الديانة اليهودية . (المترجم : انظر لمزيد من التفاصيل عن هذه القصة «موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية» لعبد الوهاب المسيري (الجزء الأول ص ٤٢٤-٤٢٥) .

مؤثرة وبطوليّة تحوّلت من خلال رواية ليون والفيلم الذي اعتمد عليها إلى إحدى أهمّ المصادر التي تذكرها وسائل الإعلام لتوجيه الرأي العام الأمريكي لصالح القصة الصهيونية .

إلا أنّ القراءة مابعد الصهيونية لهذه الحادثة قد كانت معاكسة تمامًا للطريقة التي ينقلها التأريخ الرسمي السائد . إذ تعكس الرواية الأخرى التي ظهرت في التسعينات مقدار الغشّ والاستغلال الذي تنضوي عليه قصّة سفينة أكسدس . ففيها يظهر اللاجئون على أنّهم حجار شطرنج في لعبة عنوانها الحصول على ضمانة دوليّة لمستقبل الدولة اليهودية . لقد طالب الناجون البائسون ، أو هكذا نقلت الصورة للعالم ، بالسماح لهم بالاستقرار في فلسطين ، وإن رفض طلبهم فإنّ مصيرهم سيكون العودة إلى مخيمات النزوح في ألمانيا . لقد أرسلت هذه الرسالة خصيصًا إلى لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين والتي قامت في منتصف العام ١٩٤٧ بزيارة فلسطين من أجل التوصل إلى حل بعد أنّ أعلنت بريطانيا قبل عدة أسابيع عزمها على إنهاء انتدابها على هذه الدولة الممزقة . ولكنّ بريطانيا تعهّدت بحفظ القانون والنظام وكانت حريصة على منع الهجرات اليهودية الضخمة ، خوفًا من تدخّل عسكري عربي قبل مغادرة آخر جندي بريطاني أرض فلسطين .(٥٩)

لقد كان الهدف من حادثة أكسدس إقناع اللجنة الخاصة بأن تهويد فلسطين هو الحل الوحيد لهؤلاء اليهود الذين هاجروا وبقية اليهود الذين نجوا من محنة الهولوكوست ، فإنّهم إن لم يأتوا إلى فلسطين فسيرسلون إلى حتفهم في ألمانيا . ولقد آتت هذه المناورة أكلها إلى حدّ ما ، لقد منعت السفينة من تفريغ حمولتها وأعيدت من حيث قدمت ، إلا أنّ الرأي العام ، وخاصّة رأي لجنة الأمم المتحدة ، قد بدأ يربط بين مصير يهود أوروبا بمستقبل المشروع الصهيوني في فلسطين . وهكذا قررت الأمم المتحدة (بعد القرار الإستراتيجي من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي لدعم المشروع الصهيوني) الانحياز إلى المجتمع اليهودي وأوصت بإنشاء دولة يهودية في فلسطين . وبمجرّد أن تحقّق هذا الأمر ،

لم تعد القيادة الصهيونية تكترث بمصير لاجئي أكسدس الذين أعيدوا إلى ألمانيا في ظروفٍ قاسية ومهينة .

وحتى بعد أن قام النقاد في الحركة مابعد الصهيونية بتسليط الضوء على قصتهم ، فإنّ قليلًا منهم أظهروا عزمًا على انتقاد الرواية التي وضعتها الدولة عنهم وعن مصيرهم . إلا أنّ هذا ليس ناجمًا عن خوفهم بقدر ما هو نتيجة أعمق للفظائع التي شهدوها ، وهذا ما تثبته أرندت وليفي والعديد سواهما من الباحثين . لقد أشارت أرندت إلى كون هذا الصمت آلية دفاعية أمام حالة الرعب التي لا يمكن وصفها والتي تفوق بسطوتها «الواقع وجميع التصورات التي نعرفها» .(٦٠) أمّا ليفي فقد وضّح الرابط الذي تشكّل بين النجاة من المحرقة والشعور بأنّهم قد كانوا محظوظين في معسكرات الإبادة ، وقد عنى لهم ذلك ، كما يقول ليفي «أننا نحن الناجين لسنا الشهود الحقيقيين» على الهولوكوست .(٦١)

ومع كلّ تلك الفظائع التي قاساها هؤلاء الناجون ، والتي تستعصي على أي وصف أو تحليل ، فإنّ من تمكّن منهم من الوصول إلى إسرائيل لم يكن بوسعه أن يقف أمام ما جرى من عملية تشكيل الذاكرة الرسمية والتلاعب بها ، بل وألفوا أنفسهم مرغمين على مسايرتها ودعمها . كما وجدوا أنفسهم صهاينة بأثر رجعي خلال الهولوكوست ، طوعًا أو كرهًا ، أمّا أولئك الذين لم يشاركوا في المقاومة والتمرّد فقد عدّوا صهاينة من الدرجة الثانية . والأدهى من ذلك أنّ الناجين من الهولوكوست ، إلا إن كانوا من قادة المجتمعات الذين صاروا فيما بعد من الطغمة الحاكمة في إسرائيل ، كانوا عرضةً للخضوع إلى محاكمات بسبب أفعالهم في المخيّمات ، فبعضهم حوكم لأنهم كانوا قادة عصابات إجرامية (وهذا مقبول ربّما) أو لأنهم تعاونوا تحت الإكراه (لإنقاذ حياتهم) بأيّ من الطرق التي كانت متوفّرة للسجناء في المعسكرات النازية .

لقد كانت هذه المحاكمات الرعناء التي استهدفت الناجين من الهولوكوست

نابعةً من الرغبة في وضع حادثة الهولوكوست برمّتها أمام المحاكمة ، وهذا أمرٌ لم ينجح إلا بشكل محدود جداً . ربّما نجح الإسرائيليون في العام ١٩٦٠ في القبض على النازيّ أدولف أيخمان وعقدت له محاكمة شبه استعراضيّة في العام الذي يليه بدت أقربَ إلى محاولة وعظيّة منها إلى عملية قانونية للبحث عن العدالة . ولكنّ معظم تلك العقول المدبّرة للهولوكوست كانوا قد ماتوا أو اختفوا أو حوكموا في محاكمات نورمبيرغ(*) ، وبما أنّ هؤلاء غائبون فقد تم استهداف المتهمين بالتواطؤ معهم .

وهذا ما جرى في قضيّة إلسا ترانك إحدى الناجيات اليهوديات التي أرغمت لفترة ما على أن تشرف على أحد الأقسام في أوشفيتز ، وهي بذلك قد أسهمت بالفعل في إيذاء السجناء الآخرين . لقد عيّنها النازيون وأوكلوا إليها مهمّة حفظ النظام في أكواخ المعسكر . وقد تم تحديد هوية ترانك في إسرائيل من قبل أحد الناجين الآخرين وعقدت لها محاكمة بتهمة إيذاء السجناء في المعسكر وضربهم . وقد أشير في المحكمة إلى أنّها قد كانت تضرب باستخدام يديها لا باستخدام أي سلاح ، غير أنّ المحكمة وجدتها مذنبةً .(٦٢)

إنّ إطلاق الصبغة الصهيونية على ذلك الكفاح قد تجاهل أو أسقط قصص النضال البطولية اليومية لأولئك الذين تمكّنوا من «مجرد» النجاة . وقد كان أكثر ما تكون هذه الرسالة وضوحًا في محاكمة أيخمان ، حيث كان أثر هذه المحاكمة في مأسسة ذكرى الهولوكوست ، من وجهة النظر مابعد الصهيونية ، قد أضاف زاوية أخرى للقضية لم تكن حنا أرندت قد تنبّهت إليها ، والتي تجلّت بشكل أشدّ وضوحًا في كتابات إديث زرتال . تقوم زرتال بالربط بين المحاكمة وأثر

(*) مجموعة من المحاكمات العسكرية التي عقدتها قوات الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية والتي جرى فيها محاكمة عدد من قادة ألمانيا النازيّة السياسيين والعسكريين والاقتصاديين ، وقد جرت هذه المحاكمات في مدينة نورمبيرغ في ألمانيا بين تشرين الثاني ١٩٤٥ والأول من تشرين الأول ١٩٤٦ . (المترجم)

التحكّم والاستغلال لذكرى الهولوكوست على طريقة النظر إلى الفلسطينيين داخل المجتمع اليهودي الإسرائيلي وأسلوب التعامل معهم. ولعل أهمّ موضوع في هذا الربط هو إطلاق صفة النازيّة على النضال الفلسطيني، وهكذا صار الفلسطينيون أيضًا ضحايا لهذا التلاعب بذكرى الهولوكوست.

اتّهام الفلسطينيين بالنازيّة

بيّنت زرتال كيف نشأت الحجج المعادية للفلسطينيين من خلال استغلال قصة الحاج أمين الحسيني، ذلك القائد الفلسطيني الذي تعرّض للنفي من فلسطين وارتكب حماقةً حين امتدح هتلر وموسوليني سعيًا منه لتشكيل تحالف معهم ضد بريطانيا وسياساتها المنحازة للصهاينة. إلا أنّ الفلسطينيين لم يكونوا وحدهم المستهدفين في حملة التشويه هذه التي قادها وأشرف عليها رئيس الوزراء ديفد بن غوريُن بنفسه خلال محاكمة أيخمان والتي تزامنت مع انتخابات مهمّة لحزبه. فقد كان من بين المستهدفين الرئيس المصري جمال عبد الناصر، والذي كان بن غورين قد ساواه بهتلر عام ١٩٥٦ وقال: «إن الخطر الذي يمثله الطاغية المصري يشبه ذلك الخطر الذي حلّ بيهود أوروبا»، وذلك في خطاب له أمام الكنيست داعيًا إلى التحضّر لشنّ حرب على مصر.(٦٣)

كما نال عبدالناصر نصيبه من التشنيع عليه قبل حرب حزيران ١٩٦٧، حيث قامت البروباغاندا الإسرائيلية بتشبيهه مرارًا وتكرارًا بهتلر مع التحذير من احتمال وقوع هولوكوست جديد ضد اليهود في إسرائيل. ولكنّ استخدام التهمة النازيّة وُجّه بعد فترة ضدّ الفلسطينيين بشكل عام وضد منظمة التحرير الفلسطينية على وجه التحديد. ولعل أشهر حادثة في هذا الصدد ما وقع خلال حرب لبنان الأولى عام ١٩٨٢، حين اجتاحت القوات الإسرائيلية بيروت وفرضت حصارًا على المكان الذي تحصّن فيه ياسر عرفات. وقد تحوّلت بيروت إلى برلين في أيام النازيّة الأخيرة، إذ صار عرفات هو هتلر الذي ينتظر مصيره في مخبئه وشبّه نصّ ميثاق منظمة التحرير بكتاب «كفاحي» الذي وضعه

هتلر ، وهذه إشارات عكف على استخدامها في تلك الفترة رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن ، والذي أعلن في اليوم الذي بدأ فيه الاجتياح أن «البديل عن القتال هو وقوع تريبلينكا جديدة ، ونحن عزمنا على عدم السماح بتكرار مجازر تريبلينكا» .(٦٤) ولقد كانت هذه الإشارات حتى في نظر بعض الصهاينة أنفسهم مبالغًا فيها ، ومنهم الروائي أموس أوز الذي قال عن بيغن : «إنّك تقوم مرّة تلو المرّة بالكشف أمام النّاس عن تلك الرغبة الغريبة لإحياء هتلر لتعيد قتله كل يوم من خلال قتل الإرهابيين» .(٦٥)

ومن الأمثلة الأخرى الواضحة على الاعتماد على الاتهام بالنازية هو ما ذكره لنا بيتَر نوفِك من أنّ الحسيني قد أدرج في الموسوعة الإسرائيلية الأمريكية للهولوكوست وكانت المادّة التي كتبت عنه هي أطول مادّة كتبت عن أيّ شخص في الموسوعة بأسرها باستثناء ما كتب عن هتلر! فلقد بدا هذا الرجل أفظع من هاينرِش هِملَر وهيرمَن غورِنغ وبات ما ألحقه هذان الرجلان من العذاب بيهود أوروبا أقلّ شأنًا ممّا قام به ذلك القائد الفلسطيني المثير للشفقة الذي كان جرمه أنّه كان مذيعًا ينقل الأخبار للعرب وقت الحرب من برلين .(٦٦)

هنالك هدف آخر وإن كان أقل وضوحًا ، ويتمثّل في استغلال ذكرى الهولوكوست بطريقة تساعد النخبة السياسية والعسكرية في إسرائيل على التأثير بالرأي العام لصالحهم عند اتخاذ قرارات حساسة تتعلق بالصراع مع العالم العربي أو دفع تهديد حقيقي أو مزعوم . فمن تسويغ القتل الوحشي للفلسطينيين عام ١٩٤٨ وفي الحرب ضد المتسللين منهم إلى الأراضي الإسرائيلية وفي عمليات بث الرعب بين الإسرائيليين عشية حرب ١٩٦٧ ، وتسويغ المواقف المتصلبة من عملية السلام بعد الحرب ، وما يجري حاليًا من سياسات قمعية ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة ، كل ذلك يتم من خلال استغلال ذكرى الهولوكوست والاستفادة منها في ردّ المعارضين وتكميم أفواههم والمضيّ قدمًا في السياسات العدوانية للدولة .

نعود الآن إلى العام ٢٠٠٥ من حيث بدأنا هذا الفصل . لقد كان من

السهل والعاديّ جدًا على حركات الاستيطان المتطرفة في الأراضي التي احتلتها إسرائيل عام ١٩٦٧ أن تقوم باستغلال ذكرى الهولوكوست لتبرير النزعة التوسعية والثيوقراطية والعنصرية للصهيونية ، وهذا ما انعكس في نهاية المطاف على الدولة نفسها .

الأمَة التي لا يندمل لها جرح

إنّ دفع الأمّة لتكون دائمًا في حالة من الحرب لم يكن تعلقًا بإطلاق صفة النازيّة على العدوّ وحسب ، فلقد كانت هنالك حاجة لذعر مستمر ، يمكن إثارته بسهولة من خلال استدعاء الهولوكوست . وحتى هذا الشكل من أشكال التلاعب بذكرى الهولوكوست قد بات موضوعًا تناوله الكتّاب من حركة مابعد الصهيونية ، ولعل أبرزهم إيلان غور-زئيف الذي أكّد على أنّه لو تمّ الاحتفاء بالهولوكوست من رؤية كونيّة فإنّ ذلك سيحرّر المجتمع من هذا الشكل من الاستغلال .(٦٧)

وهنالك أبحاث أخرى في هذا الصدد قد تكون أكثر أهمّية مما كتبته غور-زئيف ، وهي الأبحاث التي قام بها موشيه زوكرمان ، أستاذ علم الاجتماع في جامعة تل أبيب ، والذي أظهر كيف أنّ السلطات الرسمية تسعى لإعادة إحياء المصيبة في المجتمع اليهودي الجديد والإبقاء على القلق والذعر حيال احتمال وقوع الهولوكوست من جديد . ويذكر زوكرمان مثالًا أساسيًا على ذلك يتجلّى في موقف الحكومة الإسرائيلية من حرب الخليج عام ١٩٩١ ، إذ يصف في كتابه «الهولوكوست في غرفة مغلقة» تفاصيل دقيقة تبين كيف تمّ تعريض المجتمع الإسرائيلي بلا داع إلى الترويع الذي كان يهدف منه تجديد الهلع من هولوكوست وشيك لتقول السّلطة لهم إنّ الدولة اليهودية هي الوحيدة القادرة من إنقاذهم من هذا المصير .(٦٨)

ويشير مصطلح الغرفة المغلقة الوارد في عنوان الكتاب إلى الغرفة الأكثر أمنًا في البيت والتي كان يلجأ إليها الإسرائيلي خلال الحرب عام ١٩٩١ خوفًا من أي هجمات بالسلاح الكيماوي أو البيولوجي ، وذلك حين تنطلق صفارات الإنذار

ويضع المواطن اليهودي قناع الغاز على وجهه ويغلق تلك الغرفة على نفسه وعائلته . لقد كان اجتماع هذه الأشياء في آنٍ معًا ، صفارات الإنذار والغاز والغرفة المغلقة ، يوحي للكثير من اليهود ، ومن بينهم أمّي ، بصورة غرف الغاز في الهولوكوست ، ويعزّز من وضوح هذه الصورة ذكر الرجل الذي قد يشنّ مثل هذه الهجمات ، وهو في هذه الحالة صدّام حسين ، هتلر الجديد . مع أنّ الأمر كان لا يعدو عن استخدام بعض القذائف البسيطة التي لا تقتل إلا إذا أصابت الشخص مباشرة برأسه ، وكانت الضحية الإسرائيلية الوحيدة أثناء تلك الحرب رجل يهودي مسنّ أصيب بالهلع حين اختنق بقناع الغاز الذي وضعه على وجهه .

هنالك فئة من المجتمع الإسرائيلي اليهودي كانت عصيّة على مثل هذا التلاعب وهي فئة اليهود من الدول العربية والإسلامية . فحين طرق اليهود المزراحيون المنتمون إلى التفكير مابعد الصهيوني مواضيع تتعلق باستغلال ذكرى الهولوكوست ، ووجدوا أنّ جميع اليهود العرب قد وقعوا ضحيّة هم الآخرون لهذا التلاعب الرسمي والجمعي بهم . ولذا فإنّ مجموعة من الناشطين البارزين قرروا في التسعينات استذكار الهولوكوست بطريقة مختلفة بعيدًا عمّا تفضّله الدولة .

عمد اثنان من الناشطين وهما شلومو سفيرسكي وسامي شالوم شِتريت بتأسيس أكاديمية ثانويّة تُعنى بثقافة وقيم اليهود في الدول العربية ، وتمكّنوا من جعل التخرّج من هذه الثانويّة معتمدًا لأغراض الدخول في الجامعة ، وأطلق اسم كيدما على هذه المدرسة ، وتعني بالعبريّة التوراتيّة (نحو الشرق) . وفي هذه المدرسة يستذكر الطلاب في ذكرى الهولوكوست الرسميّة في إسرائيل (Yom Hashoah) مذابح أخرى حصلت في العالم إضافة إلى الهولوكوست ، وساعد هذا على إعطاء صبغة أكثر كونيّة للحدث . وفي حين يحمل كبار الزوّار إلى متحف ياد فاشيم الخاص بالهولوكوست ستّ شمعات ، كل شمعة تشير إلى مليونٍ من الضحايا اليهود في الهولوكوست ، فإن الطلاب في مدرسة كيدما يشعلون شمعة سابعة لتذكّر المذبحة الأرمنيّة التي حدثت خلال وبُعيَد الحرب العالمية الأولى ، كما تشير إلى بعض الأقليّات الأخرى التي خضعت للاستبداد

والظلم مثل سكان أمريكا الأصليين والأمريكيين من أصول إفريقية .(٦٩)

لقد كان التعاطف مع الأقليات الأخرى ، وبالأخص سكّان أمريكا الأصليون والأمريكيون الأفارقة من السمات الأساسية في التفكير مابعد الصهيوني الذي كان يهتمّ اهتمامًا كبيرًا باليهود المزراحيين ، أو اليهود العرب كما يفضّلون أن يسمّوا أنفسهم ، وسنتناول قصّتهم في فصلنا التالي .

الفصل الثامن
فكرة إسرائيل واليهود العرب

في كانون الثاني من عام ١٩٥٢ شهدت بغداد إعدام اثنين من العملاء السريين المتعاونين مع الحركة الصهيونية بتهمة التخطيط لتفجير أهداف يهودية في العاصمة العراقية لدفع اليهود فيها لتركها والهجرة إلى إسرائيل. لقد كانت مثل هذه الأفعال مصدر قلق لمجتمع عريق في العراق لعلّه الأقدم فيها ويشكّل جزءاً عضويًا من المجتمع والتاريخ فيها. إلا أنّ نجاح تلك العمليات الصهيونية لم تكن السبب الوحيد وراء هجرة يهود العراق منها، فقد ساعد في ذلك أيضًا ما قامت به الحكومة الوطنية بزعامة نوري السعيد حينها بالتشكيك في يهود العراق بمجملهم واتهامهم زورًا بأنهم موالون للصهيونية ويشكّلون خطرًا على الدولة. وقام السعيد بالاستيلاء على أموالهم وممتلكاتهم وأمرهم بالمغادرة.

وفي الأيام التي أعقبت الإعدامات قامت الحكومة الإسرائيلية بتسيير مظاهرات حاشدة ومظاهر للحداد والاحتفاء بالقتلى في كافّة أرجاء البلاد، ولكنّها كانت تعمل بجهد أكبر لتوجيه رسالة لمئات الآلاف من اليهود العراقيين الذين أتوا إلى إسرائيل للمشاركة في تلك الفعاليات وإقناعهم بالبقاء فيها. هؤلاء اليهود العراقيون كانوا قد قدموا قبل أشهر معدودة وحسب من بلاد عاشوا فيها وأجدادهم مئات من السنين، وكانوا سيبقون فيها لو أنّ دولة إسرائيل لم تكن هناك. وتشير بعض الوثائق التي ظلّت سريّة لفترة من الزمن ولم تنشر إلا في الثمانينات أنّ أحد القادة السياسيين الإسرائيليين قد نما إلى علمه أنّ العديد من أولئك المهاجرين الذين حشروا في مخيمات للاجئين لدى وصولهم إلى إسرائيل قد قالوا متعجّبين: «هذا انتقام الله من الحركة (الصهيونية) التي أتت

بنا إلى هنا (أي إلى مخيمات اللجوء الكريهة)» .[١]

لقد كان يهودا شِنهاف أستاذ علم الاجتماع في جامعة تل أبيب هو من اكتشف هذه الوثيقة وغيرها من الأدلة من السجلات الأرشيفية في إسرائيل وصار في طليعة الباحثين الذين أضافوا إلى عمل «المؤرخين الجدد» وذهبوا به إلى مستوى جديد يتجاوز الحديث عن معاناة الفلسطينيين . لقد رأى شِنهاف على غرار كثيرين مثله من المؤرخين الجدد ، أنّ التخطيط لزيارة أرشيفٍ ما في إسرائيل ضمن إطارٍ معيّن من التفكير قد يؤول إلى عملية فضح مباشر للأساطير والمثل التي تأسست عليها الدولة . كانت الجزئيّة التاريخية التي استهدفها شنهاف في بحثه هي تلك العملية التي وصفت في التأريخ الرسمي على أنّها المثال الأسمى على الإنسانية وشرعيّة الصهيونية ، والمعروفة بعملية «عزرا ونِحِميا» . هنالك زعم سائد بأنّ هذه العملية كانت تنشد إنقاذ يهود العراق من خلال «ترحيلهم» إلى أرض الوطن . عزرا ونحميا نبيّان يرد ذكرهما في الكتاب المقدّس وهما اللذان قادا جموع القبائل العبرية المنفيّة في بابل في القرن السادس قبل الميلاد ليعودوا إلى القدس وقيل إنّهما قاما ببناء الهيكل الثاني فيها .[٢]

وتحتل عملية ترحيل يهود العراق في الرواية الصهيونية الرسمية مكانة بطوليّة توازي في عظمها عملية إنقاذ يهود أوروبا من أهوال الهولوكوست . لكنّ شنهاف وغيره من باحثين مابعد الصهيونيّة شكّكوا في كونها عملية إنقاذ ، وذلك لأنّهم لم يجدوا إلا القليل من الأدلة التي تثبت رغبة يهود العراق في المجيء إلى فلسطين . هنالك بعض الحوادث المشينة التي وقعت بالفعل خلال الحرب العالمية الثانية التي تعرف بأحداث الفرهود في نيسان١٩٤١ ، تعرض اليهود خلالها للاعتداء والقتل بعد تاريخ طويل من السلم والعلاقات المتميّزة مع المكوّنات الأخرى للشعب العراقي . لقد كانت هذه الهجمات كفيلة بإثارة قلق المجتمع اليهودي ودفعت عددًا من أعيان اليهود إلى الهجرة ومعظمهم توجّه إلى المملكة المتّحدة ، لكنّ الأمر لم يصل إلى حدّ اندلاع حالة من الهلع والمطالبة

بالرحيل ، فقد كان معظم يهود العراق في تلك الفترة يشهدون نضال بلدهم للحصول على الاستقلال ويشاركون بأنفسهم فيه ، مع أنّه نضال اتّسم بالهدوء مقارنة بما حصل في نزاعات وحملات ضد الاستعمار في المنطقة .

لم تكن عملية عزرا ونِحميا في نظر شنهاف عملية إنقاذ ، وإنما رآها مناورة من الحكومة الإسرائيلية للتعامل مع الضغوط الدولية المتزايدة للسماح بعود اللاجئين الفلسطينيين إلى بلادهم . لقد سعت الحكومة إلى إقناع المجتمع الدوليّ إلى أنّ شكلًا آخر من انتقال السكان قد حدث بالفعل في الشرق الأوسط ويصبّ في مصلحة الجميع يتمثل في رحيل الفلسطينيين إلى الدول العربية ورجوع يهود العراق إلى «وطنهم» . ثم أعيد إنتاج هذه الصورة بصورة سلبية أكثر ، حيث تعاملت إسرائيل مع نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات على أنّها امتداد لفترة مابعد الحرب العالمية الثانية التي شهدت انتقالات كبيرة للبشر وعمليات النزوح وإعادة رسم الحدود ، إلا أنّ المجتمع الدوليّ قابل كلا المقترحين بالرفض ، وما تزال الأمم المتحدة تؤكد سنويًا على التزامها الذي يعود إلى كانون الأول ١٩٤٨ بالدفع نحو إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين ، إلا أنّه التزام لا يجد دعمًا من الولايات المتحدة وحلفائها ولم ينجم عنه شيء حتى اللحظة .[٣]

كما أظهرت الوثائق التي كشف عنها شنهاف أنّ الحكومة كانت تبذل قصارى جهدها للحيلولة دون هجرة الكثير من اليهود العراقيين إلى أوروبا أو الولايات المتحدة بدلًا من إسرائيل . كما يرى شنهاف أنّ النسخة الرسمية التي تصف سبب وطريقة هجرة يهود العراق إلى إسرائيل بأعداد كبيرة قد شوّهت الحقيقة ، ويؤكّد هذه النظرة التي شكّلها شنهاف مجموعة من المقابلات التي عقدها مع مهاجرين من تلك الفترة . وقد كتب في عام ١٩٩٩ يقول :

> دفعني إلى القيام بهذا البحث ما وجدته من تباين بين النسخة الرسمية للأحداث ، تلك التي تعلمناها على مقاعد الدراسة ، وقصص أولئك المهاجرين العراقيين الذين تحدثت إليهم بنفسي . فالعديد منهم يرفضون الرواية الرسمية وحدثوني عن قسوة العملاء

الصهاينة وما مارسوه من إكراه عليهم من أجل استخدامهم في الصراع الوطني (الصهيوني) . . . قصص هؤلاء المهاجرين هي البديل عن الرواية الصهيونية ، وهو بديل تمّ الستر عليه وكتمه . إن التزامي تجاه هذه الفئة التي قمع صوتها من المهاجرين العراقيين هو ما يوجّه جهودي البحثية في محاولة لكشف أدلة جديدة في هذا التاريخ .(٤)

لم يكن هذا النقد الذي مارسه شنهاف مقتصرًا على التعامل مع حالة عدم الدقّة أو الفبركة التاريخية ، بل إنّه كان يساوره الشكّ بخصوص الرواية الصهيونية السائدة في إسرائيل عن اليهود المزراحيين بشكل عام ، وأنّهم كانوا صهاينة تؤزّهم الحماسة للمجيء إلى إسرائيل وأنّ الدولة أنقذت حياتهم حين أعادتهم إلى «وطنهم» . لقد محّص شنهاف ذلك الادّعاء الذي يرى أنّ الصهيونية قد أدّت دورًا مهمًا في حياة اليهود في العالم العربي بشكل عام وفي العراق على وجه الخصوص . ومع أنّه يقرّ بأنّ هؤلاء اليهود كانوا يؤمنون برابطة وصلة مع أرض إسرائيل ، إلا أنّه يعتقد أنّهم لم ينظروا إليها كمكان يجدر بهم الانتقال للعيش به ولم يبدوا أية رغبة في استعماره . كما أكّد شنهاف على الحسّ الوطنيّ الذي كان يكنّه اليهود تجاه وطنهم العراق والوطن العربي بشكل عام ، ولذا فإنّهم لم يجدوا ما يدفعهم على تركه . كما يذهب شنهاف إلى حدّ القول بأنّ هؤلاء اليهود قد جلبوا إلى إسرائيل لتوفير قوّة عاملة رخيصة يسدّون مكان الفلسطينيين الذين طردوا من أرضهم وللمساعدة في تحقيق توازن ديمغرافي في الدولة الجديدة . فقد أدرك القادة الإسرائيليون في السنوات الأولى من عمر الدولة أنّه وبالرغم من التطهير العرقي الذي حدث عام ١٩٤٨ إلا أنّ الدولة اليهودية كانت ما تزال تشتمل على أقليّة فلسطينية وأنّ أعداد اليهود القادمة من الغرب للاستقرار في إسرائيل ما تزال قليلة . ولقد شكّك شنهاف كذلك ومن دون مواربة بدعوى الحركة الصهيونية حول كونها حركة تحرير ، قائلًا إنّها قد تكون حرّرت يهود أوروبا ولكنّها استعبدت اليهود المزراحيين .

لم يكن لشنهاف ليتذكّر تلك الأحداث بنفسه لأنّه كان صغيرًا وقتها ،

ولكنّ إيلا شوحاط تذكر تمامًا ما كان يعنيه أن يكون المرء يهوديًا عراقيًا في دولة إسرائيلية الجديدة . تدرّس إيلا اليوم في جامعة نيويورك وهي من الشخصيّات الرائدة في حقل الدراسات الثقافية الذي حاولت نقله إلى الأكاديميا الإسرائيلية ولم تفلح . كانت شوحاط ما تزال فتاة يافعة في الستينات ، وكانت تحاول التخلص من لكنتها العربية وترفض أن تأخذ معها إلى المدرسة أنواع الأطعمة التي من شأنها أن تكشف عن هويّتها العربية . كما لاحظت أنّ معظم الجيران قاموا بعبرنة أسماء عائلاتهم ، وحاولت هي كذلك التأقلم مع ذلك (مع أنّها عادت إلى استخدام الأسماء العربية كجزء من نضالها الشخصيّ لتحقيق المساواة في المجتمع) .(٥)

كانت هذه التجربة الشخصية كفيلة لدفع شوحاط في مسيرة طويلة من الحراك والبحث الأكاديمي الذي تعرّفت من خلاله على عالم تحليل النصوص والسينما وعلى أعمال إدوَرد سعيد وتفكيكه للاستشراق . وكانت هي أولّ من صاغ تعبير «اليهود العرب» وكانت من أكثر من وجهٍ رائدةَ النقد مابعد الصهيوني والمناهض للصهيونية لفكرة إسرائيل .

أفضل من العرب بقليل فقط

لقد كان إخفاء اليهود العرب لأصلهم ممارسة شائعة بينهم . هنالك قصّة تخبرنا بها أرييلا أزولاي ، وهي الأخرى مختصّة بالدراسات الثقافية وقد أشرفت على العديد من المعارض مابعد الصهيونية في إسرائيل خلال التسعينات ، وهي قصّة أبيها الذي ولد في وهران في الجزائر . حين وصل أبوها إلى إسرائيل خطا خطوته الأولى نحو الأسرلة حين أعلن بكل ثقة ردًا على سؤال ضابط الهجرة عن مكان الميلاد قائلًا إنّه من وهران ، فرنسا . لم يكن أحد راغبًا كما تقول أريبلا في الاعتراف بأنّه من أصل جزائري .(٦)

هذه التجارب التي مرّت بها إيلا شوحاط ووالد أريبلا أزولاي هي ذات التجارب التي مرّ بها العديد من اليهود العرب لدى وصولهم إلى إسرائيل . لقد

كانوا يشعرون بالمهانة والاحتقار من قبل المجتمع المضيف ، وهذا التوجّه كان سائدًا بين النخبة والعامّة على السواء . ولقد سنّ هذا الأمرَ رئيس الوزراء بن غورين حين وصف اليهود العرب بأنهم يفتقرون «للحد الأدنى من المعرفة» وأنّهم لا يمتلكون ولو «مسحةً من التعليم اليهودي أو الإنسانيّ» . لقد كان بن غورين قلقًا من أنّ هجرة اليهود العرب إلى إسرائيل قد تحوّلها إلى دولة عربيّة ، فقال عن هذا «إننا لا نريد أن يصبح الإسرائيليون عربًا» ، وأضاف يقول : «إننا ملتزمون بواجبنا للوقوف في وجه تلك الروح الشاميّة التي تفسد الأفراد والمجتمع» .(٧)

وهنالك غيره من السياسيين الإسرائيليين الذين عبّروا عن توجّهات مماثلة . فقد كان أبا إيبان مثلًا قلقًا من «سيطرة المهاجرين من أصول شرقيّة» .(٨) أمّا ناحوم غولدمان الذي كان وقتها رئيس الوكالة اليهوديّة فقد أكّد أنّ يهود أوروبا الشرقية أفضل مرّتين من يهود كردستان واقترح بأنّ يتم جلب عدد قليل منهم وحسب إلى إسرائيل .(٩) وتساءلت جولدا مائير مرّة قائلة : «هل سيكون بوسعنا يا ترى أن نرفع من سويّة هؤلاء المهاجرين [إلى رقيّ الحضارة الغربية]؟»(١٠)

وقد تردّدت هذه الأفكار في مقالات العديد من صحفيي إسرائيل المرموقين ، وقد كتب أحدهم في العام ١٩٤٨ يقول :

> إننا نتعامل مع أشخاص بلغت البدائية فيهم قمّتها ، ومستوى المعرفة لديهم يؤول إلى الجهل المطبق وأسوأ من هذه أنّهم يفتقرون إلى مهارة فهم أيّ من أمور الفكر . إنّهم على العموم أفضل بقليل فقط من العرب والزنوج والبربر في هذه المناطق . ولكنّهم على أية حال أدنى درجةً حتّى من العرب الذين كانوا في إسرائيل . ثمّ إنّ لهؤلاء اليهود صلات واهية باليهودية ، وذلك أنّهم يسلّمون أنفسهم بالكليّة للغرائز الوحشية والبدائية . فإنّك واجدٌ بينهم كما هي الحال بين الأفارقة الميسر وشرب الخمر والبغاء . . . والكسل المزمن وبغض العمل ، فلا شيء مبشّر بشأن هذا العنصر المعادي للمجتمع ، والذين يصعب حتّى على الكيبوتسات استيعابهم .(١١)

وفي بداية السبعينات بلغ هذا الأمر حدًا لا يطاق عند الناشطين المزراحيين فاندفعوا لإطلاق حملة لإقناع المؤسسة الرسمية بأنّهم ليسوا عربًا .

هل نحن عرب؟

ثار الناشطون والسياسيون من اليهود المزراحيين ومنذ فترة مبكرة على تلك الصورة السلبية التي ترسم عنهم ، وكان معظم هذا الحنق موجّها ضدّ حزب العمال الإسرائيلي الذي ظلّ ممسكًا بزمام الحكم في البلاد من العام ١٩٤٨ حتى ١٩٧٧ ، ولذا لم يكن مستغربًا أن يكون موطن هذه التوتّر هو أحزاب المعارضة اليمينية بقيادة الليكود . استفاد مناحيم بيغن ، الزعيم البولندي لليكود ، من هذا الغضب واستخدمه في حملته الانتخابية عام ١٩٧٧ ونجح حزبه في الانتخابات وصار على رأس السلطة في البلاد . وما يزال الليكود حاكمًا حتى اليوم بمساعدة فئة جديدة أخرى من المهاجرين الغاضبين ، وهم أولئك القادمون من الاتحاد السوفيتي المنحلّ والمعسكر الشرقيّ .

لقد ردّ الليكود على هذه الصور السلبية عن اليهود المزراحيين بالقول بأنّهم يهود ومواكبون للحداثة ، وأنهم ليسوا عربًا ، بل هم في الحقيقة أوروبيون كغيرهم من اليهود . وقد تمّ تقديم أدلة أكاديمية تدعم هذا الادّعاء من قبل مفكرين يساريين صهاينة مختصين بدراسة المجتمعات اليهودية في العالم العربي ، وكانت طريقتهم تتمثل ببيان أنّ هذه المجتمعات كانت تمتلك هويّتها الخاصّة وثقافتها ونسق حياتها الذي لم «تلوّثه» الثقافة العربية المحيطة بهم .

ولكنّ هذا لم يثن اليهود الأوروبيين عن النظر إلى اليهود العرب على أنّهم أقرب إلى العرب لا إلى اليهود . ولعل هذا يفسّر تلك الرغبة التي اعترت الكثير من اليهود العرب ليندمجوا بشكل أسرع بوصفهم يهودًا وغربيين في «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط» . ولكنّ ملامح هؤلاء اليهود العربيّة قد عقّدت عملية اندماجهم ، بل إنّ هذه الملامح نفسها كانت تتسبب أحيانًا في اعتقالهم أو الإساءة إليهم من قبل قوّات الأمن . فكان لزامًا عليهم إذن أن يسعوا

للتخلّص من كلّ ما يذكّر بأصلهم العربيّ في عيون المجتمع الأشكنازي من حولهم . فلجأ بعضهم إلى وضع قلادة كبيرة لنجمة داود على صدره ، أو ارتداء اليارمُلكة(*) وقد ساعد هذا على التعبير عن يهوديّتهم أمام الآخرين .

تلك الرغبة كانت مختلفة أشدّ الاختلاف عن تلك التي انقدحت لدى المفكرين والناشطين المزراحيين في الحالة مابعد الصهيونيّة في التسعينات . فلقد ادّعوا أنّ مؤهلاتهم التي تجعلهم صهاينة ويهودًا قد كانت تتعرض للتجاهل والإنكار والانتقاص من قبل المؤسسة اليهودية الأشكنازية . كان الجيل الجديد في المقابل يريدون الاعتراف بهم كعرب في عرقهم وثقافتهم ، وليس بالضرورة في قوميّتهم . ولقد كان هذا التوجّه كفيلًا كما سنرى بخلق فجوة هائلة هيهات أن تنغلق بين المفكرين المعارضين خلال التسعينات وأنصارهم التقليديين .

ولكن كان هنالك أيضًا خطّ مشترك آخر ، فقد كان ما كشف عنه الباحثون بشأن نطاق وعمق التمييز الذي حصل في الماضي محّل ترحيب بين اليهود المزراحيين ، والذين أكّدوا أيضًا الاتّهامات التي تذهب إلى أنّ التمييز ما يزال قائمًا ضد المزراحيين في إسرائيل . بيد أنّهم في المقابل كرهوا مقارنتهم مع الفلسطينيين ورفضوا أي رؤى غير صهيونية للمستقبل ، كأنْ يكون هنالك مثلًا اندماج ثقافي للمجتمع اليهودي في العالم العربي .

لقد كان هنالك أيضًا في هذا الميدان بعض الرواد المؤثرين ، وهم بعض أعضاء حركة الفهود السود وهي أهمّ الحركات المزراحية تأثيرًا في السبعينات . لقد كانوا على خلاف مع حزب العمال ، ومع ذلك فإنهم لم يدعموا الليكود ، كما كانت تساورهم شكوك حول الصهيونية بمجملها . ولعل هذا ما دفع بعض قادة هذه الحركة إلى إقامة روابط وثيقة مع الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي قدم تفسيرًا طبقيًا لمشكلة اليهود المزراحيين والفلسطينيين . وقد تمكّن تشارلي

(*) Yarmulke وتعرف بالكِبة (Kippah) أيضًا وهي القبعة الصغيرة التي يعتمرها كثير من اليهود الأرثوذكس على رؤوسهم . (المترجم)

بيتون وهو أحد أعضاء هذه الحركة من الدخول إلى الكنيست ضمن القائمة البرلمانية للحزب الشيوعي . ولقد كان لهذه الحركة كذلك علاقات قويّة مع علماء الاجتماع الماركسيين في جامعة حيفا في السبعينات .

كل هذا قد جعل التفسير الماركسي أساسًا محتملًا للحراك المزراحي ، بشرط أن يحد أنصار التفكير الماركسي من انتقادهم الصهيونية . ولكن مفكري مابعد الصهيونية في فترة التسعينات والذين كانوا يهودًا مزراحيين أو أشكنازيين كانوا معنيين بسياسات الهويّة أكثر من القضايا المتعلقة بالتمييز الطبقيّ ، وقد كانت الدراسات مابعد الكولونيالية ، خاصة كتابات إدوَرد سعيد ، من أهمّ مصادر التأثير على أعمالهم .

الدولة اليهودية الاستشراقية ومستشرقوها اليهود

لقد كان لإدوَرد سعيد أثرٌ كبير في اللحظة مابعد الصهيونية في إسرائيل وذلك لكونه فلسطينيًا من جهة ومفكرًا وضع نفسه في مواجهة مباشرة مع الاستشراق الغربي ، مع أنّه لم يكن دائمًا قادرًا على التحرّك بسهولة بين نقده العامّ للاستشراق والتزامه بالقضيّة الفلسطينية ، ولعلّ هذا الاهتمام المزدوج المفتوح هو ما يفسّر طبيعة التناول مابعد الصهيوني لأعماله وأفكاره . فقد كان من الممكن التعامل معه كمفكّر كونيّ في لحظة ما في حين كان يمكن أن يرفض التعامل معه كوطنيّ فلسطينيّ إن كان يترتّب على ذلك إشكال مّا .

وهنالك ميل للفصل بين أعمال إدوَرد سعيد النظريّة عن الأدب والثقافة عن كتاباته المتعلقة بفلسطين ، وصحيح أنّه تعامل مع الموضوعين في كتب ومقالات منفصلة تختلف في كلّ حالة بالمحتوى والأسلوب أيضًا ، إلا أنّه من الممكن تعقّب علاقة جدليّة بينهما . ولعلّ هذه العلاقة تتضح في أعماله عن فلسطين ، والتي يوجّه فيها القرّاء إلى بعض السياقات النظرية عند نقاش قضايا بعينها تتعلق بفلسطين قد تظهر في كتاباته النظرية التي لا تتعلق بالقضيّة الفلسطينية بشكل مباشر .

هذا التداخل بين السياق العامّ لأفكاره وفلسطين كحالة محدّدة قد خلق نوعًا من صراع دائم ضمن أعمال سعيد . ففي سياق أفكاره العامّ نراه ينتقد القومية ، ولكنّ قضية فلسطين تستدعي موقفًا أكثر تقبّلًا أو حتّى توقيرًا لها . ولعل هذا يفسّر سبب إحجام الكثير من الكتّاب حول القضيّة الفلسطينية عن استخدام النماذج الفكريّة التي قدّمها سعيد ، كما يمكن أن يفسّر ذلك ندرة المؤرخين الفلسطينيين الذين ساروا على طريقته ولهذا أسباب معقّدة وذات وجاهة . ومع هذا فإنّ الأعمال الرائدة التي عمدت إلى تنحية النزعة القومية عن التاريخ الفلسطيني كما فعل سعيد لم تبدأ بالظهور إلا بعد اتفاقية أوسلو عام ١٩٩٣ والتمظهر القبيح للدولة بقيادة السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزّة .

إنّ المنهجيّة ذات النزعة الكونيّة في دراسة فلسطين ، واستخدام الأدوات الاستدلالية والاستنباطية لم تضمن في بداية الأمر وجود كثير من المتابعين لأعمال سعيد في إسرائيل . فقد أظهرنا من قبل أنّ العمل الأكاديمي في إسرائيل كان صهيونيًا بشكل أساسي واستمر ذلك حتى ظهور حركة مابعد الصهيونية ، وبمجرّد أن ظهرت بعض الجهود في مجال انتقاد الصهيونية صار إدوَرد سعيد من أهمّ مصادر التأثير على الكثير من المفكرين في تلك المرحلة . وقد بدا واضحًا أنّ العديد من الأكاديميين الإسرائيليين والمعلقين الإعلاميين والأدباء لم يتمكّنوا من مقاومة رغبة سعيد في الحوار الإنساني ومقدرته في ذلك .

يمكن تعقّب تأثير سعيدٍ في العديد من الجوانب الأساسية ، كدراسة إسرائيل كدولة «استشراقيّة» ودراسة العلاقة الجدلية بين السلطة والمعرفة الأكاديمية في السياق المحليّ ، وإدخال المنهجية مابعد الكولونيالية في دراسة المجتمع ، ونقد عملية السلام والبحث عن طرق بديلة لحل الصراع وتحقيق التقدّم . بيدَ أنّ منهجية سعيد في تفكيك صور الشرق وبيانه لما تمثله هذه الصور قد ترك أوضح الأثر لدى المفكرين والباحثين المزراحيين وعلى طريقة نظرهم إلى

الظروف الماضية والراهنة لليهود العرب في دولة إسرائيل .(١٢)

ومن بين باكورة الأعمال المهمّة في هذا الجانب ما كتبه إيلي أفراهام الذي قام بدراسة صورة المزراحيين في الإعلام خلال الثمانينات والتسعينات . وقد وجد أفراهام عددًا من الشيمات المتكررة في هذا المشهد كالعنف والجريمة والاضطراب الاجتماعي والسفاهة والإهمال وغيرها من الصور غير الملائمة التي تصف المزراحيين بأنّهم بدائيون يعيشون بعقلية القطيع وأنّ هذا هو ما يمنعهم من أن يكونوا يومًا «مثلنا (نحن الأشكنازيين)» .(١٣) أمّا أبرز الأعمال المتأثرة بسعيد فهي كما أسلفت الأبحاث التي قامت بها إيلا شوحاط . كتبت شوحاط عن الصهيونية بعد تأثرها بمقالة سعيد «الصهيونية من وجهة نظر ضحاياها» من وجهة نظر ضحاياها من اليهود .(١٤) فهي ترى أن اليهود العرب جزء من الشرقي وضيع القدر في عين الغرب ، وخاصّة في نظر المستوطن اليهودي الأوروبي . وانطلاقًا من ذلك تمكنت شوحاط من رسم العديد من خيوط الصراع على أرض فلسطين ، ليس بين الإسرائيليين والفلسطينيين ، ولكن بين العرب (أتباع الديانات التوحيدية الثلاثة) واليهود الأوروبيين ، فهي ترى الأمر برمّته صراعًا بين الشرق والغرب .

لقد كان التأثير الأساسي لسعيد في واقع الأمر يتمثل في مساعدة هؤلاء الباحثين على إدراك وجه الحساسية في سياسات الهوية في الدولة اليهودية التي جلبت أكثر من مليون يهودي من الدول العربية في الخمسينات . بدأت جهود المراجعات البحثية هذه بالنظر إلى الطريقة التي أثّرت بها الصهيونية على مسألة الهوية اليهودية في العصر الحديث ، وذلك من خلال الإشارة إلى أنّ تحوّل الصهيونية من حركة قوميّة في أوروبا حيث كان اليهودي يظهر بالمفارقة مع غير اليهود «الأغيار» ، إلى مشروع استعماري في فلسطين نجم عنه تعريف جديد لليهودي ، إذ صار اليهودي هو الشخص غير العربي .

تظهر قضية الهوية بشكل واضح في كتابات الناقدين المزراحيين . فهذا التعريف الاستشراقي الجديد لليهودي في فلسطين قد يفهم بشكل أفضل فيما

بيّنه سعيد في «الاستشراق» عن أنّ فكرة الشرق ساعدت في تعريف أوروبا والغرب باعتباره النقيض الحتمي له بالأفكار والشخصية والتجربة . وهكذا يظهر أنّ الصهيونية من هذه الزاوية قد شوّهت الفكرة اليهودية العربية عن المجتمع والثقافة وفرضت عليها هويّة صهيونية وإسرائيلية ، في عملية تشكيل استشراقيّة تعتمد على هويّة جمعية ذات مثال أوروبي أعلى يطمس السمات العربية ويشيطنها .

بيد أنّ هؤلاء المفكرين المزراحيين قد ذهبوا إلى أبعد مما وصل إليه سعيد ، إذ لم يكتفوا بتفكيك التوجّهات الاستشراقيّة الإسرائيلية نحو اليهود القادمين من دول عربية ، بل حاولوا كذلك تقديم صورة أخرى عن حياة اليهود العرب قبل مجيئهم إلى إسرائيل . فقد رفضوا وصف تلك الحياة في الدول العربية والإسلامية بأنها بدائية كما يزعم ، وبيّنوا أنّ المدن التي كان يعيش فيها اليهود ويعملون قد كانت تتفوّق كثيرًا من الناحية الثقافية على ما كان موجودًا في القرى اليهودية الصغيرة في أوروبا الشرقية .

وكان هنالك تأكيد على أنّ الهوية السابقة لليهود العرب لم تكن مختلفة وحسب بل كان لها إسهامات كذلك في إحلال السلام في المجتمع ، وقد لعبت هذه الفكرة دورًا بالغ الأهمية في كتابات اليهود المزراحيين . لقد رأى موشيه بيهار أحد أهمّ الناشطين في فترة التسعينات والذي يعمل حاليًا أستاذًا في جامعة مانشستر أنّ فرض الهوية الغربية ، والتي كانت تمثل المستعمر في الشرق الأوسط ، قد كان من العوامل الأساسية التي أفشلت أي جهود للمصالحة بين الإسرائيليين والفلسطينيين . كما يقدّم بيهار رواية مقبولة في العالم إلا في إسرائيل الرسميّة توضّح أنّ حياة اليهود في المجتمعات العربية والإسلامية كانت حياةً من الاندماج والتعايش .(١٥)

ويشير بيهار إلى أنّ هنالك حادثة واحدة في التاريخ القديم تم التفريق فيها بين العرب واليهود ، أصيب جراءها اليهود بحالة من الفصام المجتمعي ، وقد كان ذلك في عصر هارون الرشيد (٧٦٣-٨٠٩) حين أجبر اليهود في زمانه على

ارتداء وشاح أو شارة صفراء لتميزهم عن غيرهم من العرب . ويبدو أنّ الصهيونية قد أعادت هذا الفصام من جديد في العصر الحديث . ويجد الباحثون المزراحيون أنّ هذا التاريخ الطويل من التعايش العضويّ قد منح اليهود العرب مكانة مهمّة في البحث عن السلام بين اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين ولاسيما اللاجئين . بيد أنّ هذه النظرة بقيت مع الأسف حبيسة أحلام نظرية ولم يسمح للمزراحيين بأداء هذا الدور المهمّ في عملية السلام .(١٦)

وضّحت أفكار إدوَرد سعيد سبب حالة العداء والعنصرية في الدولة اليهودية الناشئة . فمن وجهة النظر الصهيونية ، سعت الدولة الجديدة إلى جلب مليونٍ من اليهود العرب بعد طرد عدد مماثل من الفلسطينيين وذلك لضمان التفوق اليهودي وحصريّته في فلسطين . وكما يظهر بوضوح في أعمال شتريت(١٧) وشنهاف وغيرهما فإنّ القيادة الصهيونية كانت تفضّل أن يبقى اليهود العرب حيثما كانوا لو لم تقع حادثة الهولوكوست ولم يكن هنالك نقص في أعداد اليهود المهاجرين من الغرب بعد عام ١٩٤٨ . لكنّ هذه القيادة حلّت هذه المعضلة من خلال نزع الصبغة العربية عن هؤلاء اليهود العرب بمجرّد وصولهم إلى إسرائيل ، وتمّ استخدامهم للوصول إلى التوازن الديمغرافي المنشود وتقليل أعداد «العرب الحقيقيين» داخل إسرائيل .

هذا التحوّل الذي حصل في منهجية التفكير قد أتاح لطرح مثل هذه الأسئلة كالتي لدى شنهاف عن الدوافع التي جعلت اليهود في الدول العربية والمسلمة يقررون الذهاب إلى إسرائيل . ففي حين تؤكد السرديّة الصهيونية أنّ السبب الرئيسي لحركة الهجرة هذه هي إخلاص اليهود العرب للصهيونية ، في نسخ شبه تامّ لقصّة صعود الصهيونية في أوروبا ، فإنّ الباحثين المخالفين أظهروا سببين وراء هذه الهجرة : الضغط الصهيوني الشرس وظهور القومية العربية المعادية لليهود .

كما كانت هنالك مراجعة أخرى مشابهة لهذه السرديّة فيما يتعلق بدوافع الحكومة لاتباع سياسات تمييزية وعدائية في التعامل مع المهاجرين . تشير

الرواية الرسمية السائدة إلى وجود ظروف موضوعية تتعلق بقلة الموارد والمشاكل الأمنية ، إلا أنّ الباحثين المزراحيين قد سلطوا الضوء على توجّه عنصري حيال أولئك اليهود باعتبارهم عربًا وكشفوا عن الرغبة الرسمية في تحديثهم وتغريبهم وإهمال تقاليدهم ونفي أصولهم .

كما قام الباحثون المزراحيون متأثرين كذلك بأفكار إدوَرد سعيد بتفكيك الخطابات السوسيولوجية والأنثروبولوجية والتأريخية الموظفة في الأبحاث التي تتناول «العرب» ، سواء أكانوا فلسطينيين في إسرائيل ، أم عربًا في الدول العربية المجاورة ، أم يهودًا مزراحيين . ولذلك فإنّ الباحثين الذين قاموا في جامعة حيفا بجعل العرب والفلسطينيين ويهود الشرق موضوعًا واحدًا للبحث الأكاديمي في إسرائيل ، فإنهم قد أحدثوا ثورة في هذا الميدان ، وقد تعزّز هذا التوجه في المرحلة مابعد الصهيونية خلال التسعينات خاصّة بعد اعتماد المنهجية النقدية التي اتبعها سعيد في «الاستشراق» . لقد كان مثل هذا التجميع ولسنوات عديدة من بين المحاذير المرفوضة وهذا ما علمته إيلا شوحاط حين واجهت انتقادات دفعتها إلى مغادرة إسرائيل .

وفي هذا الصدد كذلك طرأ هنالك تطوّر غير معهود على الإنتاج المعرفي الإسرائيلي نتيجة لهذا التأثر العميق بأعمال سعيد . فالاستشراق يفرق بين الاستشراق الكولونيالي في القرن التاسع عشر بسماته ومنطقه الخاصّ ، والاستشراق الذي استمرّ بعد انتهاء الكولونيالية في النصف الثاني من القرن العشرين ، وهي الفترة التي تعرف بمابعد الكولونيالية ، وهي الظاهرة التي يجري ضمنها مناقشة انطباعات الماضي الكولونيالي وانعكاساته على سلوك الدول الغربية أو المؤسسات الغربية أو حتى الإنسان الغربي تجاه كلّ ما ليس غربيًا في أيّ مكان في العالم . لكنّ الأمر يختلف في فلسطين ، إذ انقضى القرن العشرون وهي ما تزال تحت الاستعمار . وهكذا كان السؤال عن أي منهجية يجدر استخدامها من أعمال سعيد : أهي منهجيته مع التعامل مع الحالات الكولونيالية التاريخية ، أم منهجيته في دراسة المجتمعات التي كانت خاضعة للاستعمار في الماضي .

كان هنالك حوار جادّ حول هذا السؤال في ربيع العام ٢٠٠٢ في المجلة الرائدة في الفكر مابعد الصهيوني : «النظرية والنقد» والتي خصّصت عددًا من أعدادها للحديث عن مابعد الكولونيالية حسبما فهمها وتعامل معها المفكرون الإسرائيليون .(١٨) وقد كان هذا موضوعًا بحثيًا صعبًا في دولة يعتقد الكثيرون أنها ما تزال كولونيالية . ومع أنّ ما وصفته هذه الأبحاث قد كان أقرب إلى كونه واقعًا يمثل الحقبة الكولونيالية ، إلا أنّ النقاش اعتمد على أدوات تفترض أن الكولونيالية الحقيقية لم تعد موجودة . ولم يكن هذا الأمر مجرّد هذرٍ فكريّ . فالحركة الوطنية الفلسطينية وأنصارها قد عجزوا عن تقديم تحليل واضحٍ لماهيّة الصهيونية : أهي حركة كولونيالية وعليه يكون النضال الفلسطيني نضالًا ضد الكولونيالية؟ أم إنّ إسرائيل دولة ذات ماض كولونيالي فيكون النضال ضدها اليوم ضمن صراع بين حركتين قوميتين؟ هذا الإشكال لم يحلّ إلا مؤخرًا حين قام بعض المفكرين من أمثال باترِك وُلف وإدورد كافاناخ ولورِنزو فيراسيني بوضع منهجية فكرية جديدة للتعامل مع مثل هذه الحالات كهذه التي أمامنا في فلسطين ، إذ اقترحوا أن يتم التعامل مع الكولونيالية الاستيطانية بوصفها «أمرًا من الماضي كما هي من الحاضر» .(١٩) لقد رفض هؤلاء المفكرون اللجوء إلى مصطلحات من قبل «الكولونيالية الجديدة» أو «مابعد الكولونيالية» لوصف حقيقة ما هو قائم في فلسطين ، وذلك لأنّ الكولونيالية ما تزال متحكّمة فيها ، بسبل وطرائق جديدة في القرن الحادي والعشرين .

لقد كان لهذا المأزق الفكري انعكاسات سياسية لم يكن بالوسع إدراك أبعادها إلا مؤخرًا . فقد كان المفكرون المزراحيون يتعاملون من قبل مع بعض القضايا الراهنة والتي يلزم تسويتها من دون تأخير ، ووجد أولئك الذي اعتمدوا على منهجية إدوَرد سعيد أنّهم باتوا في صدام مباشر مع أنصارهم المباشرين في دولة إسرائيل . فكان هنالك جانبان أساسيان من التحليل اختلف حولهما المفكرون وأولئك العاملون في مجال سياسات الهوية ، الأول يتعلق بكيفية التعامل مع الصهيونية ، أما الثاني فيتعلق بطبيعة البدائل التي يمكن تقديمها لليهود المزراحيين .

لقد أقرّ السياسيون تلك الرؤية التي ألفت رغبة واسعة بين المزراحيين للاعتراف بهم «صهاينةً صالحين» وكان ذلك في رأيهم أساسًا للاندماج والنجاح . بيد أنّ المفكرين المخالفين قد رأوا في هذه الطريقة كارثة حقيقية . وقد كان سعيد قد قدّم جوابًا يفسّر التأييد الذي حظي به هذا الأسلوب ، معتمدًا على أفكار فرانز فانون وكيف تقوم المجتمعات المحلية بالتعامل مع صورتهم السلبية في نظر المستعمر كما استدعى سعيد عملية الاستبطان في هذا الصدد ، والتي تعني أنّ ضحايا الكولونيالية العنصرية يبدأون باستيعاب وقبول الصور السلبية التي يكوّنها المستعمر عنهم ، وينشدون حلّ هذه المعضلة بالتماهي مع هذا المستعمر ، ولكنهم يفشلون في ذلك وينتهي بهم الأمر في حالة أكثر خطرًا من تلك التي كانوا بها من قبل .

لقد بينت إيلا شوحاط أنّ هذا السلوك السياسي قد كان نتيجة استبداد مارسه اليهود الأشكنازيون سنوات عديدة . فهي ترى أنّ اليهود المزراحيين قد استبطنوا التوجه المتعالي للأشكنازيين حيالهم إلى حدّ ولّد لديهم كراهية لذاتهم المزراحية . أي أنّ الشرق صار ينظر إلى نفسه عبر مرآة الغرب المشوّهة . وفي هذا تنقل شوحاط ما قاله مالكوم أكس من أنّ أسوأ جريمة ارتكبها الرجل الأبيض هي جعل الرجل الأسود يكره ذاته ، كما تشير إلى أنّ كراهية المزراحيين للعرب هو انعكاس لكراهية الذات الناجمة عن استبداد أشكنازي امتدّ لسنوات عديدة .(٢٠)

أمّا نقطة الخلاف الثانية فكانت تتعلق بالنظرة التي سادت بين العديد من الباحثين المزراحيين والتي اعتبرت اليهود المزراحيين عربًا وأنّهم مرّوا بمعاناة مماثلة لتلك التي يعانيها الفلسطينيون . وقد بدا هذا التفكير وما يزال مستهجنًا من قبل قادة المجتمع ومفكريه . فبالرغم من أن الكثيرين من هؤلاء المفكرين قد تأثروا بإدوَرد سعيد وعمله في حقل الاستشراق ، إلا أنّ مفكّري الاتجاه السائد في إسرائيل كانوا يرون سعيد مجرّد عدوّ لهم ، فلسطينيّ .

أعلن المفكرون في مدرسة مابعد الصهيونية بعد أن قرنوا أنفسهم بالنقد الذي قدّمه إدوَرد سعيد في أعماله أنّهم راضون بأنّ يعدّوا من العرب. وكان بعض هؤلاء من أمثال شوحاط وشينهاف وغيرهما يسعون للتعرف إلى أصولهم العربية سواء أكانت يهودية أو لا، وقد كان هذا يعني في العديد من الحالات أن يتعلموا اللغة العربية من جديد بعد أن طلبَ منهم آباؤهم أن يتخلصوا منها وينسوها في محاولة للتخلص من هويتهم كيهود مزراحيين في إسرائيل.

ولعل أكثر المفكّرين وضوحًا في شأن هذه الفكرة وأشدّهم تحمّسًا لها هو عالم الاجتماع سامي شالوم شطريت. لقد كان شطريت من اليهود المغاربة والذين يشكلون أكبر تجمّع لليهود من شمال إفريقيا في إسرائيل. عملَ أستاذًا في عدد من الجامعات الإسرائيلية ثم انتقل لمتابعة عمله الأكاديمي في مكان آخر، وقد ذهب إلى الولايات المتحدة كما حصل مع شوحاط. ولد في المغرب ونشأ في أسدود وهي مدينة تطوير أنشئت قرب مدينة المجدل الفلسطينية التي فرّغت من أهلها. يطعّم شطريت أعماله الأكاديمية البديعة عن اليهود العرب في إسرائيل بذكرياتٍ شخصية عاشها بنفسه، ولقد كانت له صولات في ميادين الحراك الحقوقي في إسرائيل مثل كثير من رفاقه.(٢١)

أسّس شطريت بالتعاون مع صديقه شلومو سفيرسكي ثانويّة كيدما، وهي المدرسة التي أتينا على ذكرها في الفصل السابق، كما لعب دورًا كبيرًا في تأسيس منظمة تدعى تحالف القوس الديمقراطي الشرقي وهو تجمّع (ومركز بحثي) يعبّر عن بعض المطالب المتعلقة بزيادة الحقوق الثقافية والاجتماعية لليهود المزراحيين وتحقيق العدالة في توزيع ثروات الدولة ومواردها، ولاسيما الإسكان، بين الفئات اليهودية على اختلاف أعراقها في فلسطين. وكان من أبرز إنجازات هذه المجموعة من الناشطين منح مستوطنات اليهود المزراحيين الفقيرة الحق في الحصول على الأراضي العامّة المخصخصة كما حصل في الماضي مع اليهود الأشكنازيين. (ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الأراضي كانت مصادرة

أصلًا من الفلسطينيين عام ١٩٤٨ ، ولكنّ تجمع القوس الشرقي لا يعترف بذلك بشكل تام .) ولكنّ الخوف من التوجّهات المعادية للعرب جعلت هذا التجمّع يحجم عن إلزام نفسه بالدفاع عن حقوق فلسطينيي إسرائيل بالحصول على حصتهم في الأراضي العامّة والمساكن ، إذ لم تكن النزعة الكونيّة متأصّلة عند هؤلاء الناشطين .(٢٢)

ما أن اندلعت الانتفاضة الثانية حتّى انحلّ تجمّع القوس ، فقد كانت هنالك رغبة في الانضمام إلى إجماع جديد في إسرائيل بعد انهيار الأمل في إحياء معاهدة أوسلو ، وسنناقش آثار هذا الأمر في الفصل الأخير من الكتاب ، حيث وجد معظم أعضاء تجمّع القوس أنفسهم قد رجعوا إلى المربّع الصهيونيّ . قلّة باقيّة فقط استمرّت في نقدها المتصاعد للصهيونية وفكرة إسرائيل كدولة يهودية ، ولقد كان شطريت من هذه القلّة ، فقد كان كونيًا في نزعته ، وبقي يهوديًا عربيًا أكثر من أي شيء آخر . كما كان يكتب الشعر ، وكان أحيانًا يخرج قلقه وإحباطه الذي يلفّه ورفاقه في واحدة من أفضل قصائده التي يقول فيها :

حين أسمع فيروز تغنّي «أنا لا أنساكي فلسطين»
أقسم لك رافعًا يديَ اليمين
أنني من تلك الأرض ، من فلسطين
وفجأةً أدرك أني لاجئ عربي
وإن لم أكن
فليبق لساني عالقًا في سقف فمي .(٢٣)

ولقد كان على هؤلاء المفكّرين خلال التسعينات أن يتعاملوا مع التوجّه اليميني الصاعد لدى معظم اليهود المزراحيين في إسرائيل ، وهو أمر ترافق عندهم أيضًا مع جنوح إلى تبني منهجية أكثر تديّنا بل وربّما تطرّفًا في سياسات الهويّة لديهم . لقد كان هذا التوجّه الجديد مزيجًا من الصهيونية المتطرفة والأرثوذكسية المتطرفة وكانت النتيجة هي التأكيد على تفوّق التقليد

الديني المزراحيّ في اليهودية على غيرها من الاتجاهات والطرق . ولقد خضعَ هذا التوجّه كذلك للمأسسة حين قام حاخام مشهور من شمال إفريقيا يدعى عوفاديا يوسف بمساعدة حاخام أشكنازي ذي توجّهات أرثوذكسية متطرفة يدعى أليعازر شاخ بتأسيس حزب جديد يدعى شاس ، والذي لقي قبولًا متزايدًا بين اليهود العرب الذين كانوا يرزحون في أسفل السلّم الاجتماعي والاقتصادي والجغرافي في دولة إسرائيل الحديثة .

كان شعار الحزب يقول : «فلنعد التاج إلى مكانه» (أي فلنستعد مكانتنا العظيمة) ، ولكن ليس هذا موضع خلاف بالنسبة للمفكرين المزراحيين المخالفين . فقد كانت هنالك رغبة مشتركة في إحياء المنسيّ وإظهار المكتوم والمهمّش من التقاليد الدينية والثقافية . ولكنّ محلّ الاعتراض كان في تلك الرغبة لدى هذا الحزب في إعادة إنتاج هذه التقاليد بصبغة صهيونية معادية للعرب ومعادية للفلسطينيين ، وهكذا افترقت سياسات الهوية لدى أولئك المفكرين عن تلك التي لدى السياسيين المزراحيين .

إنّ الأمر المثير للإعجاب في المثقفين المزراحيين من الحركة مابعد الصهيونية أثناء التسعينات هو أنهم مجموعة كبيرة وأنّهم مضوا مثابرين وثابتين على نظرتهم النقدية حتى مع دخول الألفية الجديدة ، وتعرّضت أجندتهم للرفض من قبل أنصارهم بشكل أكبر من أي وقت مضى . كما بقي لآرائهم أهمّية بالغةً بالرغم من الفجوة الأيديولوجية التي باتت تفصلهم عن القوى المجتمعية الأخرى التي تدافع عن حقوق المزراحيين ، وذلك لأنّ التمييز بقي على حاله لم يتغيّر . ثم إنّ ظهور حزب شاس وإتاحة المجال قليلًا للسياسيين المزراحيين داخل الليكود (وبعدها في حزب العمال) قد حقق بعض التقدّم لهذا المجتمع من اليهود على مستوى السياسة والثقافة نهاية التسعينات ، وصار يمكن رؤية المزراحيين في مناصب حكومية وعسكرية بارزة في الدولة . ولكن كان هنالك ما يؤزّ المثقف وأيّ مشتغل بالمعرفة للاستمرار في البحث والتمحيص كان عن جذور التمييز ضدّ اليهود المزراحيين وحقيقته ، خاصّة أنّ الفجوة الاقتصادية لم

تنرتق ، بل ولعلها اتّسعت في المجتمع بالعديد من الأشكال . ولقد كان أحد أهمّ أسباب ذلك هجرة اليهود الروس بأعداد كبيرة إلى إسرائيل خلال التسعينات ، وهو أمر دفع إحدى الناشطات المعروفات من اليهود المزراحيين وتدعى سمادر لافي إلى شنّ هجوم على الحكومة الإسرائيلية لمحاولتها «إبراز العنصر الأبيض في المجتمع اليهودي» عبر جلب أعداد كبيرة من اليهود الروس الذين كان الكثيرون من بينهم مسيحيين في واقع الأمر .(٢٤)

في نهاية القرن العشرين كان ٩٠ بالمئة من أصحاب الدخل المرتفع في إسرائيل من اليهود الأشكنازيين ، و٦٠ بالمئة من ذوي الدخل المنخفض من المزراحيين . وقد أشار يوآف بيليغ أستاذ العلوم السياسية في جامعة تل أبيب إلى أنّ في إسرائيل «تقسيم ثقافي للعمالة» ويقصد أنّ هنالك علاقة بين العرق ومستوى الدخل .(٢٥) فقد كانت معظم العائلات الفقيرة وذات الدخل المحدود من أصل مزراحي ، أمّا الطبقة تحت المتوسطة فقد اشتملت على نسبة من الأشكنازيين والمزراحيين ، مع أغلبية بسيطة للأشكنازيين ، أما الطبقة المتوسطة العليا والطبقة العليا فقد كانت شبه محصورة على الأشكنازيين .

بالرغم من أنّ المزراحيين يشكّلون أكثر من نصف السكّان في إسرائيل ، ومع ذلك فقد كانت نسبة الحاصلين منهم على شهادة جامعية في العام ٢٠٠٠ واحدًا مقابل كل أربعة من الجامعيين الأشكنازيين .(٢٦) ولا شكّ أن التعليم هو أحد الجوانب الذي لا يملك الناشطون المزراحيون تجاهلها سواء أكانوا صهاينة أم غير ذلك . ويرى شطريت أنّ الفجوة الحاصلة في مجال التعليم هي نتيجة سياسات انتهجتها الدولة منذ الخمسينات ولم تتغير كثيرًا حتى الآن . ففي المناطق التي ينتمي معظم سكانها إلى اليهود الأشكنازيين ترى المدارس الثانوية تركّز كثيرًا على تحضير الطلبة للدخول في سلك التعليم العالي والعمل للأكاديميا والوظائف المهمّة في الدولة ، أمّا في مناطق المزراحيين فقد بنت الدولة مدارس ثانوية خاصة (تدعى ماكيف و آمال) توفر التدريب المهني بشكل أساسي ، وهذا التباين في المستويات التعليمية قد أدى إلى اختلافات في

طبيعة الأعمال ومستوى الدخل بين الفئتين.(٢٧)

كما يرى ياكوف ناحون أنّه وبالرغم من التزاوج بين المزراحيين والأشكنازيين وما يبذله المزراحيون من جهد للاختلاط بالمجتمع الأشكنازي إلا أنّ الفجوات بين الفئتين اتّسعت في نهاية القرن العشرين بدلًا من أن تضيق. ومع أنّه لاحظ بعض «الاختلافات الموضوعية» بينهم، كحجم العائلة الأكبر عند المزراحيين مثلًا، فإنّ هذه الفجوة في رأيه تبقى نتيجة سياسات رسميّة في الماضي والحاضر تتسم بالتمييز والتحيّز لطرف دون آخر.

ولقد أشار المفكرون المزراحيون في مدرسة مابعد الصهيونية إلى حقيقة هذا التمييز، والتي يدلّ عليها كذلك تحرّكات بعض السياسيين المزراحيين، الذين يتفقون أحيانًا مع بعض ما يشير إليه الباحثون المزراحيون سواء أكانوا مناهضين للصهيونية أم منتمين إلى المدرسة مابعد الصهيونية، ولكنّهم كانوا يرفضون تفسيرات هؤلاء المفكرين حول أسباب التمييز في المجتمع الإسرائيلي الحاصل وما يزال ما دامت الدولة صهيونية.

وصل التحدي الأكاديمي المزراحي مابعد الصهيوني أو المناهض للصهيونية ذروته في العام ٢٠٠٠، ولقد كان هذا جانبًا مهمًا من التحدي الذي تواجهه فكرة إسرائيل وتسويقها داخل الدولة وخارجها، ولكنّه وكما أظهرنا في الكتاب ليس الوحيد. كما أنّ أشكال الانتقاد الأخرى تراجعت بعد العام ٢٠٠٠، ولكنّ وجهة النظرة المزراحية النقديّة ما تزال تسمع في القرن الحادي والعشرين، وذلك لأن هنالك بعض الجوانب النقدية الأساسية التي يطرحها مفكرون مزراحيون ويتبناها سياسيون صهاينة. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه ليس ثمة إنكار لتلك الدعاوى المتعلقة بالتمييز، وإن واصل المفكرون تسليط الضوء على هذا التمييز في القرن الحادي والعشرين، وعمل الشعراء والمخرجون والفنانون على رفضه، فلا ضير في ذلك، إذ سيستمر التحليل بينما يتم استبعاد النقاش حول مستقبل المشكلة وطريقة علاجها.

لقد اختار المفكرون المزراحيون في القرن الحالي أسلوبًا أقل حدّة من

السابق ، مطالبين بالاعتراف بحقوقهم الثقافية وأن تقوم الدولة على وضع سياساتها في التعليم والثقافة بناء على منظور أكثر انفتاحًا على التعددية الثقافية ، وهو من المطالب التي باتت تعدّ معقولة اليوم ، في العقد الثاني من هذا القرن ، بشرط أن يقدّم بخطاب وفلسفة صهيونية . إلا أنّ هنالك بعض الفنانين والشعراء والكتاب الذين ما يزالون متمسكين بأجندة اليهودية العربية التي وضعها المثقفون أول مرّة في فترة التسعينات . وما يزال المشتغلون بالثقافة من اليهود المزراحيين يشكلون حتى يومنا هذا تحديًا لفكرة إسرائيل كما تريدها المؤسسة الرسمية وكما تدركها الغالبية الساحقة من اليهود في الدولة .

الفصل التاسع
اللحظة الثقافيّة مابعد الصهيونية

في مدينةٍ صغيرة في البصرة جنوب العراق كانت هنالك ثلاثون مليون نخلة، ولكن لم تكن هنالك أي لوحة لزهور عباد الشمس لفان جوخ . . . لقد كان جورج شميش واحدًا من أولئك الذين غادروا أنهار بابل ووصلوا إلى القدس، ووجد هنالك زارسكي [رسام إسرائيلي أشكنازي معروف] ملك الرسامين فيها. هذا ما اكتشفه أيضًا بيني إفرات من لبنان، وبين حاييم ودوكتوري من العراق، والعديد ممّن صاروا يدعون انتقاصًا بفرانك [وهو لقب مهين كان يستخدمه الأشكنازيون للإشارة إلى المزراحيين] بعد أن وصلوا إلى تلك الأرض. ولكن لم يظهر من هؤلاء «زارسكي» جديد، فلم نرهم ينخرطون في صناعة الفنّ «اليهودي» أو «الصهيوني» . . . ولكنّهم حين ذهبوا إلى أمريكا سمعوا من ماتيس الفرنسي وسول لويت الأمريكي أن الجميع [في الغرب] كانوا يتحدثون عن الفنّ الإسلامي، ولوهلة قصيرة كان ذلك كفيلًا بإثارة ذكرياتهم.

جورج شميش، نصّ من المعرض الفني «ستة فنانين إسرائيليين من دول عربيّة» في تل أبيب ١٩٧٨(١)

انطلقت في ربيع عام ٢٠٠٢ فعاليات مهرجان اللسان الأم الذي اشتمل على معارض ومهرجان للأفلام ومؤتمر أكاديمي. ولقد لخّص هذا المهرجان بطريقة

أو بأخرى تلك المحاولات التي جرت في التسعينات لإنتاج خطاب مزراحي متميّز واضح المعالم أو الإشارة إليه على الأقل. لقد كان جوهر تلك الأفلام ومعارض الفنون البصرية والمحاضرات التي ألقيت في المؤتمر يدور حل فكرة الرابطة القويّة والتي لا يمكن إنكارها بين العروبة واليهودية المزراحية. ولكنّ هذه الفكرة عبّرت عن مفارقة هذا المهرجان: كيف يمكن للثقافة المزراحية أن تعود إلى أصولها من دون إعادة الاعتبار بين المزراحيين على الأقل للغة العربية، اللسان الأم لتلك الثقافة؟

كانت معظم الأفلام والنقاشات في المهرجان بالعبرية في تأكيد لحقيقة أنّ اللغة العربية لم تكن من مكوّنات الثقافة الجديدة. أمّا المشاركون في المهرجان فقد كانوا من اليهود العرب، ولكنّهم يرغبون أن ينظر إليهم ثقافيًا على أنّهم مزراحيون، شرقيون. لقد كان ذلك الولاء للعبرية أمرًا براجماتيًا وليس أيديولوجيا. أو لعل استخدام العبرية ينضوي على مستويات أعمق، إنّ العديد من صانعي الأفلام والفنانين البصريين المزراحيين كانوا يعدّون أنفسهم في التسعينات من اليهود العرب، ولكنّ اللغة العربية لم تكن لتظهر إلاّ في حلم أو قل في كابوس، كما أشار إلى ذلك الكاتب اليهوديّ العربيّ المرموق شمعون بالَس.

وبالإضافة إلى اليهود العرب شارك في مهرجان اللغة الأم بعض الكتّاب اليهود من شمال إفريقيا والذين أكّدوا أنّ مجرّد إعادة تعلّم العربية وإحياء الاحترام لها ليس كافيًا لتشكيل تهديد لغويّ لفكرة إسرائيل، وبعضهم كان يحمل هذه القناعة فيما يخصّ الفرنسيّة كذلك. فقبل الهجرة إلى إسرائيل واعتناق الصهيونية كان اليهود من شمال إفريقيا يتحدّثون فيما بينهم بالفرنسية في معظم الأحيان، إلى حدّ أنّ درور ميشاني، وهو كاتب مزراحيّ، ذهب إلى القول بأنّ الرجوع إلى الفرنسية كإستراتيجية تعريف ثقافيّ سيضمن مستوى أقلّ من الاغتراب بين عموم المجتمع الإسرائيلي اليهودي، إذ أنّها ليست لغة العدوّ على الأقل، أو لأنّ ذلك كما يقول ميشاني سيخلق مساحة لغويّة «لا

يعكّر فيها اليهودي المزراحيّ المشهد الثقافيّ» .(٢)

لكنّ الحال بين اليهود المزراحيين لم تكن تتمثّل في تضييع العربيّة أو الفرنسيّة وحسب، بل في فقدانهم كذلك القدرة على الحديث بالعبرية بلكنة تعكس أوجه القرابة بين اللغات الساميّة، وبالأخص فيما يتعلّق بالقرب بين العربية والعبريّة. ولعلّ أجمل ما يعبّر عن هذه الحالة قصيدة كتبها سامي شالوم شتريت يقول فيها:

في الطريق إلى عين حارود [مستوطنة صهيونية]
ضيّعت رائي المرتعشة [حرف الراء في العبريّة]
وبعدها لم أشعر بضياع عيني الحلقيّة
ولا بالحاء الهوائية [حرف الحاء بالعبريّة]
التي ورثتها عن أبي
الذي كان قد اكتسبها هو
في طريقه إلى الأرض .(٣)

الموسيقى مابعد صهيونيّة

إن كان ثمّة نقطة التقاء بين المجتمع المزراحيّ الذي نشأ في التسعينات والمفكرين في حركة ما بعد الصهيونيّة فإنّها ستكون متمثّلة في ذلك التوق إلى الموسيقى التي تركوها وراءهم ولكنّهم ما فتئوا يستمعون إليها عبر المذياع أو التلفاز ومؤخرًا عبر الإنترنت. لقد كانت هنالك خطّة محكمة لتسويق إسرائيل على أنّها دولة غربية حديثة صعدت من بين ركام من البدائية والهمجية العربيّة. ولكنّ الموسيقى جزء من الثقافة المحليّة، وهي كالطعام العربيّ، قد تضطلع بدور مهمّ في المستقبل في عملية دمج إسرائيل جديدةٍ في العالم العربيّ، مع أنّ هذا الدور ليس بواردٍ الآن.

ولعل هذا هو ما دفع إلى تأسيس أوركسترا الديوان الغربي-الشرقي، وهي أوركسترا عربية إسرائيلية أسسها إدوّرد سعيد ودانيل برنباوم. وإن كان يمكن

للمرء استقاء مؤشر ما من النظر إلى نصيب الموسيقى العربية في إسرائيل فإنّ الظنّ سيخيب عند التفكير في مستقبلها هناك . إنّ مقدار انتشار الموسيقى العربية يدلّ على وجود عملية من استحواذ الموسيقيين المزراحيين عليها باعتبارها موسيقى مزراحية خالصة . بيد أنّ الموسيقى لا تشتمل على أية تأثيرات سياسية أو ثقافية جوهرية بالنسبة لهوية أو سلوك المجتمع أو الدولة ، بل إنّ الأحزاب اليمينية في بعض الأحيان كانت تستخدم مثل هذه الموسيقى في الحملات الانتخابية التي كانت توظّف خطابًا معاديًا للعرب . وحتى القناة السابعة ، وهي الأثير الإذاعي لمستوطنة غوش أمونيم في الضفة الغربية قد كانت تذيع نسخًا «معبرنة» بشكل ما من بعض الأغاني العربية . ورغم كل هذه المؤشرات ، كانت الموسيقى في التسعينات إحدى الوسائل العديدة التي وظّفت للوقوف في وجه الهيمنة الثقافية لليهود الأشكينازيين .

لقد أضحت الموسيقى المزراحيّة ، التي تخلو من أية كلمات عربيّة ، سمة بارزة في الثورة الموسيقية ما بعد الصهيونية التي بدأت في التسعينات ، حتّى أنّها أصبحت نوعًا موسيقيًا قائمًا بذاته يعرف باستخدام الأغاني العبرية على موسيقى عربيّة الطراز ، حتّى أنّ الخطوط الجوية الإسرائيلية «إل آل» توفّر للمسافرين فرصة الاستماع إلى «الموسيقى المزراحيّة» على متن طائراتها ، وصار هذا النوع الموسيقى معروفًا في دكاكين الموسيقى والمحطّات الإذاعية والتلفزيونية . كما شهدت التسعينات انتشارًا للأغاني العربية نفسها الواردة من العالم العربيّ ، سواء الأغاني الكلاسيكية كأم كلثوم أو المعاصرة كأغاني الراي في شمال إفريقيا .

لقد كانت حالة التفاؤل التي سادت في التسعينات تدفع المفكرين المزراحيين إلى الاعتقاد بأنّ الانتشار المتزايد لهذه الموسيقى مؤشرٌ على أنّ إسرائيل تندمج ولو ببطء مع العالم العربي من حولها . لقد نظروا إلى الموسيقيين ، خاصّة الفوج المبكّر منهم ممّن لم يكن لديهم من المال أو العلاقات ما يمكّنهم من استخدام الاستديوهات المعروفة ، وكانوا لا يجدون بدًا من إنتاج

أغانيهم على أشرطة غير مرخّصة ، ليس على أنّهم ناشطون مخرّبون يعملون ضدّ القانون أو متحدّون لهيمنة الموسيقى الغربية وحسب ، بل وروادُ عصر جديد في دولة إسرائيل . لقد كانت أشرطة تلك الأغاني تقارن بالأشرطة التي استخدمها آية الله الخميني في إيران ، إذ كانت الأشرطة وسطًا تنتقل عبره خطاباته الثورية وتنتشر (كما اعتمدت حركات إسلامية سياسية أخرى كذلك على أشرطة الكاسيت في تلك الفترة) .

اتّجهت الموسيقى مابعد صهيونية إلى أن تكون أكثر عربيةً في أسلوبها ومالت إلى استخدام كلمات في أغانيها تشكّل بعض التحدّي لمسلّمات صهيونية أساسيّة . أمّا في الغناء السائد فلم يجرؤ سوى القليل من مغنّي موسيقى البوب الغربية في إسرائيل على المخاطرة بصورتهم لدى الجماهير وتبنّي خطّ «سياسيّ» ما . من هذه القلّة كان نجم البوب أفيف غيفن ، حتى العام ٢٠٠٠ على الأقل ، وبعدها خضع كما خضع غيره للضغط الأيديولوجي . لقد كانت أغانيه تعبّر عن انتقادات لاذعة وإنْ مبسّطة ضد حالة العسكرة في إسرائيل ، كما أنّه رفض هو نفسه الخدمة العسكرية . بيدَ أنّ شهرته لم تكن نابعة إلا من أسلوبه القريب من أسلوب مايكل جاسكون ، ولكنّ محافظته على شهرته تلك تشير في الوقت ذاته إلى ازدياد في تقبّل الأغاني ذات الكلمات التي تنضوي على شيء من الانتقاد والتي قد تشي بقبول أفكار أقلّ تعصبًا من الناحية القوميّة بين الشباب ، ولكنّ ذلك مع الأسف لم يتمّ .(٤)

كتابة جديدة؟

رغمَ أنّ الموسيقى تروق للجميع على اختلاف اهتماماتهم ، إلا أنّ الطبقة المثقّفة في التسعينات قد كانت أكثر ميلًا إلى التعبير عن فكرة إسرائيل من خلال الأدب شعرًا ونثرًا وبطرق قد تكون صداميّة بل وقد تكون تخريبيّة في بعض الأحيان .

من الصعب الجزم بالقول بوجود أدب ما بعد صهيوني . لقد كانت القراءة

نشاطًا أساسيًا للتسلية في المجتمع الإسرائيلي، وهو مجتمع حظي بالعديد من الكتاب المميّزين الذين كتبوا باللغة العبرية. وحين كان يتعلق الأمر بأفكار حركة ما بعد الصهيونية كانت تبرز اختلافات واضحة بين الرواية والشعر في إسرائيل. قلّة وحسب من كتّاب الرواية تجاوزوا الخطوط المجمع عليها أو اعترفوا بأنّهم كانوا يكتبون ضمن القيود الأيديولوجية التي تفرضها الصهيونية. أمّا الشعراء فقد كانوا أقدر على تبني وجهات نظر بديلة وتجريبها. لقد كانت حرب لبنان عام ١٩٨٢ كفيلةً بأن تجعل بعض الشعراء المرموقين ينظمون قصائد عن السلام أو حتّى أشعارًا مناهضةً للحرب، واستمرّت حالة شجب مفاسد الاحتلال الإسرائيلي من خلال توظيف الشعر حتى اندلعت الانتفاضة الأولى. ومع أنّ هذه القصائد لم تُجمع بطريقة تجعل من السهل الرجوع إليها، إلا أنّ الشعر كان ولا يزال لا يقرأ على نطاق واسع في إسرائيل. هنالك في المقابل حركة ترجمة مهمّة تنقل إلى العبريّة أعمالًا لشعراء من العراق ولبنان وفلسطين وسوريا، وهي حركة تشهد صعودًا منذ السبعينات. وقد بدأت المجلّة الأدبيّة إيتون ٧٧ بنشر مثل هذه القصائد بشكل دوري في الثمانينات، وإن كان من المشروع التشكيك في سعةِ الأثر الذي بوسع مجلة ذات جمهور صغير أن تحققه، إلا أنّ تلك الترجمات كانت تمتلك المقدرة على تعرية تلك النظرة السلبية الضيّقة عن «الثقافة العربية» وأن تنالَ إلى حدّ ما من تلك الرغبة الإسرائيلية في أن تكون معقل الثقافة الأوروبية. إلا أنّ أفول مرحلة ما بعد الصهيونية قد أمات كل هذه الاحتمالات في مهدها.

ولكنّنا لاحظنا من جهة أخرى وفي مجال الأدب أنّ دور النشر الرئيسية في إسرائيل قد أبدت اهتمامًا متزايدًا في ترجمة مشاهير الكتّاب من العالم العربي، وبالأخص أولئك الروائيين من فلسطين ومصر، مع استثناء القصص الفلسطينية التي كانت تحمل رسائل سياسية، إذ لم تكن تحظى بفرص كبيرة في التوزيع ولم تنل إقبالًا واسعًا من القرّاء. ونرى في المقابل أنّ الترجمة العبرية لرواية الروائي الفلسطيني الإسرائيلي إميل حبيبي التي قامت بإعادة رسم صورة

عن تلك الأيام المريرة أثناء الحكم العسكري الذي فرض على الفلسطينيين في إسرائيل حتى العام ١٩٦٦ قد كانت كفيلة في تعريف القرّاء الإسرائيليين على تلك الفترة التي اقترفت خلالها الدولة جرائم ما كان لهم أن يعرفوا عنها شيئًا لو لم تكتب هذه الرواية. لقد تبنّت نشر أعمال حبيبي المبكّرة دورُ نشر معروفة على نطاق ضيّق وحسب، ولكنّ حبيبي صار لاحقًا اسمًا معروفًا في كلّ بيت، وغدت رواياته من أكثر الكتب مبيعًا، كما منح جائزة إسرائيل في العام ١٩٩٢.

وحتّى حين انقطع الاهتمام بهذا الشكل الواسع بأعمال حبيبي وغيره من الروائيين في العالم العربي في نهاية التسعينات، ظلّت هنالك محاولة محمودة لمواصلة هذه العمل المهمّ ولكنّها قد منيت بالفشل فيما بعد. عادة ما كانت دار النشر التي تأخذ على عاتقها هذه المهمّة تقوم على رجل واحد، أو على امرأة واحدة كما هي الحال في «أندلس» وهي من الدور المكثرة في النشر. لقد تخصصت أندلس في العقد الأول من القرن الجاري بنشر الترجمات من العربية إلى العبرية. وقد كانت تختار الأعمال المترجمة بعناية من قبل صاحبة الدار، يائيل ليرير، والتي كانت ترغّب القارئ الإسرائيلي بأعمال الكتاب الفلسطينيين والعرب ولاسيما تلك الكتابات التي تركّز على بيان رأي العرب والفلسطينيين بالغرب وإسرائيل. لقد تمكّنت يائيل من تعريف القرّاء في إسرائيل بشكل أكثر عمقًا على أعمال نجيب محفوظ (والذي ترجمت أعماله قبل ذلك في دور نشر مشهورة في إسرائيل) كما عرّفتهم على كتّاب رائدين من أمثال السوداني الطيّب صالح. ولا شكّ أنّ ترجمة رواية باب الشمس لإلياس خوري من الإنجازات المهمّة في هذا الصدد، إذ تحكي هذه الرواية قصّة النكبة وما ترتّب عليها من آثار.

أمّا فيما يتعلق بالأعمال التي كتبت بالعبريّة التي تقدّم نظرة جديدة عن الفلسطينيين أو المجتمع الإسرائيلي فلم يكن هنالك سوى القليل من الكتّاب الذين كانوا على هامش الساحة الأدبية ولم يكونوا قطعًا يعدّون من الكتّاب

الوطنيين . لقد كان شمعون بالاس على سبيل المثال من الكتاب أصحاب الشهرة في العراق حيث نشأ وكان شيوعيًا ، ولكنّ النقّاد في إسرائيل تجاهلوا أعماله أو نعتوها بأنّها لا تمثّل سوى شكل بدائيّ من الكتابة الأدبيّة . وكذا الأمر كان مع دور النشر التي رفضت نشر أعمال بالاس التي تنتقد الصهيونية أو الاستشراق الغربي وانتقدت ما فعله العرب بشكل عام من استبطان الاستشراق ، زاعمين بأنها أعمالٌ لا حظّ لها في البيع أو أنّها تفتقر إلى القيمة الثقافية الكافيّة . وقد أشار يراخ غوفر في كتاب له بعنوان «الصهيونية : حدود الخطاب الأخلاقي في الرواية الإسرائيلية» والذي نشر في التسعينات إلى أنّ بالاس اليهودي العربيّ قد قدّم روايةً مضادّة ، وهويّةً يعبّر عنها بلا مواربة كيهودي عربيّ ، ولم يجد من المدافعين عن الصهيونية في إسرائيل إلا أن يتّهموه بأنّه خائن لأمّته .

أمّا ألبير سويسة ، الذي ولد في الدار البيضاء في نهاية الخمسينات ، فقد هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٦٣[٥] . يخبرنا ألبير في أشهر رواياته ، (Bound) عن المحن والمصاعب التي مرّ بها صبيّ مغربي يدعى عيوش في إسرائيل السبعينات . لقد كانت هذه القصة والمقالات العديدة التي كتبها سويسة تمثّل رواية مضادّة أقل حدّة ، ولعلّ هذا ما ضمنَ له الفوز بجائزة أدبية مهمّة عام ١٩٩١ . ولكنّ سويسة عزف عن الكتابة ولم ينشر أي كتاب آخر وانتقل من الكتابة إلى إدارة مقهىً في القدس .

إنّ الكاتب الأكثر تأثيرًا وحضورًا في هذا الميدان هو سامي ميخائيل ، فقد كان يتمتع بمقروئية أعلى من بالاس أو سويسة ، وكانت مساهمته الأبرز تتمثل في مقدرته على التعبير لقرائه بالعبرية عن النظرة الفلسطينية للحقيقة الإسرائيلية . لقد ترك هو الآخر خطّ الكتابة في مناهضة الهيمنة مفضّلا الانتقال إلى شكل من العيش أقل صدامًا وأكثر إنتاجًا .

كما نجد هذا النوع من الرواية المضادّة عند الشاعر إسحاق لاؤور في روايته «الشعب ، غذاء يلائم الملك» وهي رواية وُظّف فيها كل ما يمكن من أساليب

أدبية من اللعب على أسماء الأبطال إلى تعقيدات الحبكة من أجل إثارة أسئلة حول مسلّمات أساسية عن المجتمع الإسرائيلي.[٦] تتكلم هذه الرواية عن وحدة من الجيش تستعدّ للمشاركة في حرب عام ١٩٦٧، وتقدّم الرواية للقارئ عدّة نهايات وتنتهك أكثر من مقدّس إسرائيلي. يسخر لاؤور من هالة القداسة المفترضة للجيش ومن بطولته في الحروب ويرفض قبول فكرة الصداقات الأصيلة التي تنعقد في المعارك. وفي كتاب آخر نراه يتحدّث عن النكبة ويقصّ حكاية عن صفّ من الدبابات يصل بالخطأ إلى تل أبيب في يوم الاستقلال:

> وصل الموكب إلى المركز التجاري الجديد، وتعالت الصيحات في أرجاء البلاد كافّة: «من نحن؟ - نحن إسرائيل! كلّنا من؟ - كلّنا إسرائيل!» إلا أنّ حادثةً ما قد أفسد تلك الفرحة التي لا حدّ لها (لقد هاجم الموكب مجموعة من الراقصين كانوا يعترضون الطريق، وطلبَ من الراقصين بالتوقف قليلًا كي يتمكّن الموكب من المسير). لقد كان في تلك الحادثة «سميرة المجنونة» وكانت أصغر حفيدة للشيوعيين العراقيين في الحيّ، وقد كانت من بين أولئك الأطفال الذين لا يُستدعى أولياء أمورهم إلى المدرسة إن أساءت التصرف وتعرضت للعقاب، فلم يكونوا يثقون بأولياء أمرها تمامًا كما لم يثقوا بها. فجأة صرخت سميرة تقول «أما سمعتم بدير ياسين؟ أيها المجرمون! أيها القتلة! ألم تسمعوا بما جرى؟» ثم شرعت بتمزيق الزي العسكريّ الذي كانت ترتديه ليوم الاحتفال. سخر الجميع من سميرة وقال أستاذ التاريخ: «هذا ليس بعذر؟»[٧]

كما قدّمت كتابات ديفِد غروسمان عن الاحتلال الإسرائيلي والتعامل مع الفلسطينيين في إسرائيل وجهة نظر ليس من السهل أن يقرأها أو يسمعها اليهود في إسرائيل عادة. وبخلاف بعض الروائيين سالفي الذكر، فإنّ غروسمان قد كان من بين الكتّاب الأكثر مبيعًا لعدّة سنوات. ومع أنّه قد كان ميّالًا إلى

السائد أكثر ولم يكن ناقدًا على الدوام، إلاّ أنّ قاعدة القرّاء التي يتمتّع بها جعلته جزءاً مهمًا من حلقة التحدّي.[٨] لقد كانت كتاباته الحذرة كفيلة على الأقل بتعريف القرّاء على وجهة النظر الفلسطينية وإن لم يترتب على معرفتها اعتراف بشرعيّتها أو حتى صدقها.

إعلام ما بعد صهيوني؟

لقد قامت وسائل الإعلام الإسرائيلية بفتح أبوابها أمام الأكاديميين الجدد وإن لفترة قصيرة خلال التسعينات، وقد يفهم هذا على أنّه جزء من دور غامض لعبته وسائل الإعلام في المجتمع الإسرائيلي. فقد كانت وسائل الإعلام من الناحية التقليدية تلعب دور إعلام الدولة في بيئة غير ديمقراطية، فارضةً على نفسها قيودًا إلى مستوىً لا مثيل له في دول ديمقراطية. أما من الناحية الديمقراطية، فإنّ الصحافة قد عملت وفق قوانين الطوارئ التي فرضتها سلطات الانتداب البريطانية عام ١٩٤٥، والتي أبقت عليها دولة إسرائيل الناشئة. وبالرغم من أنّ هذه الأنظمة قد استخدمت بشكل شبه حصريّ ضد الفلسطينيين في إسرائيل، فإنها قد استخدمت كذلك وفي حالات نادرة ضد الصحافة، كما حصل حين أغلقت الصحيفة اليومية الشيوعيّة كول حاثام عام ١٩٥٣ وصحيفة حاداشوت عام ١٩٨٤.[٩] أضف إلى ذلك أنّ الصحف قد قامت بتعديل مدّونات السلوك فيها بحيث قدّمت «الاعتبارات الأمنية» على «الحق في المعرفة» في حالات الطوارئ على المستوى الوطنيّ. وليس هنالك في إسرائيل أي قانون يضمن حريّة الصحافة، إذ تبقى هذه الحريّة أمرًا مفترضًا في دولة تصف نفسها بالديمقراطية من دون أن تحظى بحماية وفق القانون.

وقد تقبّلت الصحف حتّى العام ١٩٧٧ إملاءات الدولة في جميع ما يتعلق بالسياسة الخارجية والدفاع، وتجنّبت تناول أي ملفّات حسّاسة تتعلق مثلًا بسياسة إسرائيل «الانتقامية» من الدول العربية خلال الخمسينات، أو ملف الأسلحة الذريّة في أواخر الستينات، أو صفقات تجارة الأسلحة خلال

السبعينات . وقد كانت هذه الطريقة التوافقية للتعامل مع القضايا ذات الطابع «الأمنيّ» تفترض عدم اضطرار الدولة لفرض أي عقوبات على الصحف الرسميّة الصادرة فيها ، وسرى الأمر نفسه على قنوات التلفاز والإذاعة . ولم يتغيّر الأمر إلا مع مقدم الإنترنت الذي كان مساحة تضمن التعدّدية ولا تطوله يد الحكومة ، إلا أنّ ذلك لم يضمن تراجعًا لسطوة الرقابة الذاتيّة .

كانت إذاعة إسرائيل حتى العام ١٩٦٥ تابعةً لمكتب رئيس الوزراء ، ثم انتقلت إدارة الإذاعة الرسميّة الإسرائيلية (والتلفاز حين ظهر في إسرائيل عام ١٩٦٨) إلى مؤسسة عامّة سمّيت بهيئة الإذاعة والتلفزيون الإسرائيلية ، لها مجلس استشاريّ يتألّف من ممثلين من عدّة أحزاب سياسيّة . ولعلّ أحد أهمّ دواعي التعاون الوثيق بين الحكومة والإعلام في العقود الأولى من تأسيس الدولة الإسرائيلية هو أنّ معظم الصحفيين قد كانوا ينتمون إلى الحركة العمّالية التي تولّت السلطة في إسرائيل مذ تأسست وحتى العام ١٩٧٧ .

وقد خلق صعود حزب الليكود اليمينيّ إلى السلطة شرخًا بين الإعلام ذي الميول اليسارية عمومًا والحكومة اليمينية ، فلم تقبل وسائل الإعلام مثلًا السياسات العدوانية الاستيطانية لحزب الليكود في الضفة الغربية وقطاع غزّة ، كما لم تبدِ تأييدًا لحرب لبنان عام ١٩٨٢ . لكنّ الانتقادات الشديدة لسياسات الحكومة لم تغيّر شيئًا في الأسلوب الأساسيّ للتعامل مع الموضوعات «الحسّاسة» التي جعلت فكرة إسرائيل تصل إلى ما هي عليه اليوم .

لقد كانت وسائل الإعلام (وما تزال) تُوجّهها لجانٌ من رؤساء التحرير يجري تعيينهم من داخل المؤسسة يلتقون بشكل دوريّ مع الرقيب العسكري ويتلقّون نصائح منه حول قضايا تتعلق بأمن الدولة . وهنالك لجنة تعرف باسم لجنة المحررين ، تأسست في العام ١٩٤٨ ، تراجع كل ما ترغب وسائل الإعلام في نشره مما يتعلق بالجيش أو مؤسسة الأمن في الدولة . ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الرقابة الذاتيّة قد وقف وراءها دعم شعبيّ واسع خلال الثمانينات حيث كانت تكشف استطلاعات الرأي أنّ أغلبيّة اليهود في إسرائيل يفضّلون الحدّ من

حريات الإعلام عند الحديث عن قضايا تتعلق «بالأمن القوميّ» . يظهر إذن أنّ وسائل الإعلام لم تحدْ عن الإجماع الصهيونيّ لا في لهجة التقارير الإعلامية ولا في توجّه المقالات الصحفيّة .

كما لم يحدِ الإعلام عن مخيال العامّة الذي تشكّل حول فلسطينيّي إسرائيل بوصفهم «طابورًا خامسًا» من الأغراب ، حيث ترسّخت هذه الصورة في إعلام ينتقصُ من العرب عامّة والفلسطينيين خاصّة ، إذ كثيرًا ما كان يشار إليهم في الإعلام باسم «عرب إسرائيل» أو بالأحرى «أفراد الأقليّات» (Bnei Miutim) ، وقد صيغ هذا المصطلح الأخير في السنوات الأولى من قيام الدولة . أمّا عند ذكر الضحايا اليهود مقابل الضحايا الفلسطينيين ، سواء أكان ذلك بسبب حوادث عاديّة أو أعمال إرهابية ، فإنّ وسائل الإعلام كانت تستخدم حجم خطّ مختلف لكلا الصنفين من الناس ، كما كان مكان المعلومة في الصحيفة يتغيّر بروزًا أو إخفاءً حسب الضحيّة ، مع تقديم المزيد من المعلومات والتفاصيل إن كان الأمر متعلقًا باليهود مقابل إشارات مختصرة وعامّة عند الحديث عن ضحايا فلسطينيين ،(١٠) فقد كانت المصائب والخسائر تكال بمكيالين مختلفين بالنّظر إلى الطرف المتضرّر . بل إنّ مجرّد الحديث عن «مراسلنا الخاصّ بتغطية الشؤون العربيّة» والمكلّف بالحديث عن القضايا السياسيّة العربيّة داخل إسرائيل ، وإن كانت مثل هذه التغطيات تحدث بشكل متقطّع ومحدود ، لهو إشارة إلى وجود حالة من الفصل والتمييز (إذ لم يكن هنالك في المقابل مراسل عربيّ مختصّ بالشؤون اليهوديّة) .

أمّا في التسعينات فقد طرأت بعض التغييرات في الإعلام الإسرائيلي ، كما طرأت في الأكاديميا ، ويعود هذا من ناحية إلى انتشار أفكار أيديولوجية جديدة في المجتمع الإسرائيلي ، بالإضافة إلى الخصخصة الجزئية للصحافة والإعلام الإلكتروني في تلك الفترة . فقد كانت الصحف اليومية الرئيسية الثلاث ، وهي هآرتز ومعاريف ويديعوت أحرونوت ، مملوكة لعائلات ثلاثة في إسرائيل ، أمّا القناة الثانية الإسرائيلية ، والتي بدأت في التسعينات (بالإضافة

إلى القناة العاشرة التي ظهرت مع ظهور خدمة تلفزيون الكابل) فقد كانت تُدار من قبل شركات خاصّة تقاسمت الأوقات على القناة .[١١] وقد كان هذا كفيلًا بتحويل الإعلام إلى رقيبٍ متحرّر ، وهي وظيفةٌ لم تكن قد شغلت من قبل في إسرائيل ، ومع تزايد حريّة التعبير عن الرأي شرعت وسائل الإعلام باتّخاذ مواقف ضدّ انتهاكات حقوق الإنسان في إسرائيل والتي كان يعاني منها الفلسطينيون . كما أتاحت الخصخصة إلى ظهور مقالات جريئة تكشف عن الفساد والابتزاز المالي في مؤسستي الجيش والأمن في إسرائيل .

هنالك عامل آخر أسهم في حالة الانفتاح النسبيّة والتعدّدية التي اتّسم بها الإعلام ألا وهو تلك النقاشات التي دارت حول حرب لبنان والانتفاضة الأولى . ومع أنّ الانتفاضة كانت قد اندلعت عام ١٩٨٧ ، إلا أنّ الصحفيين الإسرائيليين ، خاصة في الصحافة المطبوعة ، لم يشرعوا في بيان ما كان يواريه الإعلام الوطني الرسمي في التلفاز والراديو إلا في العام ١٩٨٩ ، حيث كشفوا عن الأعمال الوحشية اليوميّة ضدّ الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة . وهنالك أسباب عديدة لهذا التأخر الذي حصل في تغطية هذا الجانب من الانتفاضة ، ومنها أنّ الحكومة كانت حكومة وحدة وطنيّة (استمرّ تحالف العمل والليكود في السلطة بين العام ١٩٨٤ وحتى ١٩٩٠) ، وقد كان الإعلام ذو التوجّهات الموالية لحزب العمل يتردّد في انتقاد ممارسات جيش الدفاع الإسرائيلي في الأراضي المحتلّة ، ثمّ تغيّرت الحال حين انتقلت السلطة إلى تحالف يمينيّ بقيادة إسحاق شامير عام ١٩٩٠ .

كان جدعون ليفي من صحيفة هآرتز من بين أولئك المراسلين الإسرائيليين الذين قرّروا تغطية تلك القضيّة ليعلم القرّاء الإسرائيليون بالمآسي الإنسانية الحاصلة جرّاء استمرار حصار الضفة الغربية وقطاع غزة ومناقشة مدى أخلاقيّة تلك الممارسات . برز كذلك من هآرتز قلم أميرة هاس التي عاشت ثلاث سنوات في غزة وساعدت في تقديم صورة عن طبيعة الحياة تحت الاحتلال كما قامت خلال التسعينات بتجليةِ الأوهام التي حيكت حول باتفاق أوسلو وحالة

الخيبة التي ارتبطت بهذا الاتفاق .

وصل الأمر ببعض الصحف حدّ معارضة الرقابة العسكريّة على الصحافة ، فقد قامت هآرتز مثلًا غيرَ مرةٍ منذ أوائل التسعينات برفض التعاون مع الرقابة . أمّا صحيفة حداشوت فقد كانت الأبرز في هذا الصدد ، وتعرّضت للإغلاق عدّة أيام عام ١٩٨٤ حين أصرّت على مخالفة توجيه مباشر يقضي بعدم نشر صورة أسيرين من الفدائيين الفلسطينيين شاركا في اختطاف حافلة إسرائيلية(*) . وقد اعترض جهاز الشين بيت على نشر الصورة لأنها الدليل الوحيد الذي يظهر أنّ الأسيرين اللذين ضربا حتى الموت من قبل عناصرَ بارزة في الجهاز بعد التقاط الصورة ، قد كانا على قيد الحياة حين ألقي القبض عليهما .

لقد كانت الصحافة المطبوعة بشكل عام تتمتع بمقدرة أكبر على تقديم وجهات نظر مختلفة مقارنة بالإعلام الإلكتروني وخاصّة التلفاز . فالصحيفة بحكم تقسيمها إلى أجزاء منها متعلق بالأخبار ومنها يقدم المقالات والمقالات التحريرية من قبل كتّاب يعملون في الصحيفة أو من خارجها ، بالإضافة إلى ما تشتمل عليه من ملاحق ثقافية وملاحق أخرى خاصّة بنهاية الأسبوع وغير ذلك يمنحها نطاقًا أوسع لعرض آراء غير تقليدية . فقد وفّرت الملاحق الثقافية

(*) تعرف هذه الحادثة في بعض المصادر باسم «فضيحة الحافلة ٣٠٠» وذلك حين قام أربعة عناصر من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في تاريخ ١٢ نيسان ١٩٨٤ متسللين من قطاع غزّة بالهجوم على حافلة إسرائيلية واختطافها بغيةَ الضغط على إسرائيل لتفرج عن أسرى من الجبهة . وبعد ١٤ ساعة من المفاوضات مع الخاطفين ، هاجمت وحدة خاصّة إسرائيلية الحافلة ، وقتلت اثنين منهم وأسرت الآخرين ، ثم قامت بتصفية الأسيرين ميدانيًا بأمر مباشر من رئيس جهاز الشاباك حينها أبراهام شالوم بعد أن تعرّضا لضرب وحشيّ من عناصر الجهاز الذين تجمعوا في ذلك المكان . قام أليكس ليفاك من صحيفة حداشوت بالتقاط صورة للأسيرين وهما على قيد الحياة وفي كامل وعيهما ، وتسبب نشر الصورة بفضيحة وضجّة إعلامية كبيرة داخل إسرائيل وخارجها . (المترجم)

حيّزًا للنقاشات التي خاضها «المؤرخون الجدد» وظهرت فيها أولَ ما ظهرت تلك الأفكار الأكاديمية لمدرسة ما بعد الصهيونية ، حتّى وصل صدى هذه النقاشات في منتصف التسعينات إلى المقالات الافتتاحية في الصحف ، مما زاد في مقروئية الأفكار ما بعد صهيونية في المجتمع الإسرائيلي . ثم انتقل النقاش إلى البرامج الثقافية في التلفاز والتي ساعدت رغم نسب المشاهدة المنخفضة مقارنة بالبرامج الأخرى على وصول هذه الآراء إلى جمهور أوسع من العامّة الذين لا يتابعون المجلات المتخصصة ولا يشاركون في المؤتمرات العلميّة . ولا شكّ في أنّ ظهور هذه النقاشات في الصحافة المطبوعة وفي محطتي التلفاز في إسرائيل (في البرامج الثقافية) يعدّ مؤشرًا مهمّا على التغيير الحاصل حينها ، إذ لم يكن من الممكن تخيّل حصول ذلك قبل عشر أو خمس عشرة سنة . حتّى أنّ تعبير «الفلسطينيون في إسرائيل» قد ظهر في المقالات التحريرية وأعمدة الرأي بل وحتّى في قسم الأخبار في الصحف ، كما صار مصطلح «ما بعد صهيوني» شائع الاستخدام تأييدًا أو انتقادًا .

بيدَ أنّه لا يجدر بنا المضيّ بعيدًا في تصوّر حجم التحوّل الطارئ على الإعلام أو أثر ذلك التحوّل في تلك الفترة ، إذ لم يفتأ الإعلام عن كونه صهيونيًا ، حتّى لو أتاح الفرصة لظهور آراء ما بعد صهيونية بين الفينة والأخرى في خضمّ الصهيونية الأساس . ولا تعدو الأمثلة سالفة الذكر عن كونها استثناءات لا تغيّر من الخطّ الإعلامي العامّ ، حتّى في هآرتز نفسها . فمهما بلغ عدد المقالات التي انتقدت سياسات الحكومة في تعاملها مع فلسطينيّي إسرائيل أو فلسطينيّي المناطق المحتلة فإنّها لم تكن كافية لتغيير صورة «الآخر» بشكل جذري في الموادّ الإخبارية الرئيسية ، فقد استمرّت التقارير الإخبابة التي تنقل «الحقائق» في الراديو والتلفاز والصحف في نقل أجندة وطنيّة واحدة وتوظيف خطابٍ قوميّ واحد . كما كان المذيعون في الراديو أو التلفاز عند إجراء مقابلات مع شخصيات فلسطينيّة أو عربيّة يتصرّفون ويكأنّهم يمثّلون الحكومة أو يمثّلون على الأقلّ وجهة النّظر المجمع عليها .

وقد اتّضحت منهجية الإعلام في التعاطي مع التفسيرات المختلفة للواقع وذلك أثناء تغطية الصدامات التي اندلعت في أيلول عام ١٩٩٦ في المناطق المحتلة . كانت حكومة نتنياهو في ذلك الشهر قد قرّرت حفر نفق أسفل الحرم الشريف مما أثار موجة غضب عارمة في العالمين العربي والإسلامي وأشعلَ حراكًا كاد يقترب من الانتفاضة الشاملة في الضفة الغربية . وفي حين انتقدت معظم وسائل الإعلام قرار الحكومة ذاك ، إلا أنّ صحفييها حين تناولوا المواجهات التي تبعت القرار قد أشاروا إلى أنّ السلطة الفلسطينية كانت قد أعطت أوامر لرجال الشرطة بإطلاق النار على الجنود الإسرائيليين . أمّا الرواية التي تناقلتها وسائل الإعلام الدولية فقد أشارت إلى احتماليّة أنّ إسرائيل أرادت استفزاز عناصر الشرطة الفلسطينية للمشاركة في المواجهات عند رؤية الجنود الإسرائيليين يطلقون النار عشوائيًا على المتظاهرين الفلسطينيين العزّل ، غيرَ أنّ هذه الرواية لم تجد أي صدىً لها في أيّ من الصحف الإسرائيلية الرئيسية ولا في البرامج التلفزيونية .

لقد كانت وسائل الإعلام الإسرائيلية تعمل وفق طراز خاصّ يجمع بين رقابة ذاتيّة ذات بعد وطنيّ من جهة ومحاولة العمل كعالم يتّسم بحريّة الأفكار من جهة أخرى . وقد وجدت وسائل الإعلام نفسها في هذا الواقع تخدم غايتين متناقضتين أحيانًا ، أو بالأحرى عادة ، في آنٍ واحد ، متوهّمَة أنّ ذلك يتيح لها أن تعمل بحريّة دون أن تخالف ما تمليه عليها الالتزامات الوطنيّة . لقد كان هذا التأرجح مقصودًا ، ولعله قائم على الافتراض بأنّ قسم الأخبار يحصد مقروئية أعلى بين العامّة مقارنة بالمقالات وأعمدة الرأي . كلّ هذا لا ينفي وجود شيء من التطوّر الإيجابيّ ، فقبل بضع سنوات وحسب لم يكن لوجهة النظر الفلسطينية أو العربية أي ذكر في وسائل الإعلام على الإطلاق ، ولكنّها صارت تذكر الآن وإن مقترنةً بترجيح واضح لنسختنا «نحن» من الأحداث .

ولعله يجدر التنويه كذلك ببعض المساعي لإنشاء صحف جديدة لتقديم الأخبار بطريقة جديدة متكاملة توظّف وجهة النظر «مابعد الصهيونية» أو «غير

الصهيونية» في تغطية الأخبار والتعليق عليها، إلا أنّ معظم هذه المحاولات لم يكتب لها النجاح طويلًا. لقد كان لأوري أفنيري تجربةٌ مع صحيفة هعولام هزيه (هذا العالم) إلا أنّه حتى مع استخدام الكلام المعسول ونشر صور العريّ فيها لم يتمكّن من إنعاش الصحيفة واضطر إلى إغلاقها أوائل الثمانينات بعد فشل ماليّ ذريع. أمّا صحيفة حداشوت فقد قدّمت نفسها كصحيفة شعبية يومية ذات توجّه أيديولوجي غير صهيوني، فكان خطابها مختلفًا وعلى قدرٍ من الحياد مع ميل إلى التطرّف أحيانًا، إلا أنّها كذلك أرغمت كذلك على الإغلاق بسبب مشاكل ماليّة. أمّا صحيفة كول هائير الأسبوعية الصادرة في القدس فقد كانت الصحيفة الوحيدة في إسرائيل التي تمكّنت من الاستمرار في نقل الأخبار المحلية والإقليمية بأسلوب يحرص على الموضوعية والحياد- ممّا يعدّ تطرّفًا في نظر الدولة.

ورغم أمثلة الفشل العديدة إلا أنّ المحاولات لم تتوقف. فقد ظهرت في التسعينات مثلًا نسخة عبرية من التقرير الأسبوعي الصادر عن مركز المعلومات البديلة، وكانت تصدر بعنوان مِتساد شيني (الجبهة الأخرى). لقد مثلّ هذا التقرير نافذة على الموقف الرسميّ الفلسطينيّ كما عرّفت القراء الإسرائيليين على الطبيعة التعدّدية للثقافة والسياسة في فلسطين بخلاف الصورة الاختزالية التي يقدّمها الإعلام الرسميّ. وقد كان يقف وراء هذا التقرير هدف لمّا يتحقق يتمثّل في بناء جبهة مشتركة بين جميع من وقعوا ضحيّة الصهيونية في العصر الحديث. وقد كانت القائمة المقترحة لهذه الأطراف حينها تشتمل على حماس والمنظمات الفلسطينية اليسارية والمناهضة لأوسلو، وفلسطينيي إسرائيل، واليهود المزراحيين في المستوطنات الجديدة، والمنظمات النسويّة. إلا أنّه قد تبيّن أنّ متساد شيني قد كانت تقرأ من قبل دائرة محدودة من الناشطين ولم يصل تأثيرها إلى العامّة ولم تعدُ عن كونها مجلّة أسبوعيّة تنتشر بين أوساط المهتمّين من الناس وحسب.

ولا بدّ أن ننتظر ونرى إن كان المستقبل سيلد لنا مشاريع مشابهة تسعى

للوصول إلى القارئ الإسرائيلي العاديّ . لقد ظهرت لفترة وجيزة صحيفة سوشياليزم ناو (الاشتراكيّة الآن) كمحاولة لتقديم وجهة نظر مناهضة للصهيونية ، كما تأسست صحيفة ميتان (وتعني بالعبريّة قنبلة أو عبء) وما تزال تطبع حتى الآن . كما تصدر عن الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة صحيفة زو هدريخ (هذه هي الطريق) وشهد العام ٢٠٠٥ تأسيس مجلة شهريّة متميّزة يرأس تحريرها إسحاق لاؤور تحمل عنوان مِطاعم (وهي كلمة لا يسهل ترجمتها ، إذ تعني «نيابة عن»- نيابة عن السلطة أو القوات المضادة- ولكنّ لها ارتباطًا كذلك بالطعم) ، ولكنّها توقّفت عن الصدور بعد سبع سنوات من تقديم مساحة نقديّة نادرة للنقاش العامّ .

وقد انتقلت معركة الإعلام حول المعرفة والمعلومات في السنوات الأخيرة إلى ميدان الإنترنت ، فقد ظهرت العديد من المواقع والمدوّنات النشطة التي يمكن للقارئ الإسرائيلي الوصول إليها لو أراد معرفة الحقيقة بشأن الاحتلال أو القمع الحاصل في الداخل الإسرائيلي ، أو لو رغب في قراءة تحليلات أكثر عمقًا بشأن الصهيونية أو العولمة أو الإمبريالية الأمريكية أو غيرها من الموادّ التي تساعد في وضع الأحداث المحلية في سياق إقليمي ودوليّ . إلا أنّه ما يزال من الصعب حتّى الآن تقييم مدى تأثير هذه المواقع الإلكترونية . فبالرّغم من أنّ شبكة التواصل الاجتماعي فيسبوك قد ساعدت في تشكيل حراك احتجاجي غير سياسيّ وغير فعّال في صيف ٢٠١١ ، إلا أنّه لم يكن للفيسبوك ولا مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى أن يكون لها تأثير على ارتباط منتجي المعرفة ومتلقّيها بالفكرة الصهيونية الكلاسيكية لإسرائيل بل حتّى ذلك التفسير النيوصهيوني الذي نشأ مؤخرًا حول فكرة إسرائيل . مع هذا فلا ضير في الإشارة إلى أكثر هذه المواقع الإلكترونية نشاطًا وهو موقع هاأوكيتز (اللدغة) وهو مساحة مفتوحة تعرض آراء جديدة في مجتمع أصمّته الرقابة .

أخيرًا ، ماذا عن الصحفيين أنفسهم؟ لقد عرفنا حالات استثنائية من أمثال جدعون ليفي وأميرة هاس وربّما توم سيغيف والذين تجلّى لديهم ذلك الحس

النقديّ في أعمالهم ، ولا يمكن أن يلحق بهذه القائمة منذ التسعينات حتى يومنا هذا سوى أسماء قليلة يسهل عدّها .

لم تكن تمثّل ما بعد الصهيونية في نظر الإعلام موقفًا ذا شرعيّة ، فلم ينظر إليها على أنّها القطب اليسار في ميدان السياسة ، بل لقد كانت في نظرهم تقع خارجه تمامًا . لقد كان «اليسار» في إسرائيل وما يزال يعني ذلك الاستعداد من الناحية المبدئية على التخلّي عن الأرض مقابل السلام والاعتراف بحق الفلسطينيين في تقرير المصير ، وهذا تعريف لا علاقة له بموقف اشتراكي أو نظرة محددة للقضايا الاقتصادية .

بناء على هذا قدّم الصحفيون اليساريون أجندة بعيدة كلّ البعد عن تلك التي طرحها الأكاديميون والفنانون في مرحلة التسعينات . فقد كان انتقادهم متعلقًا بشكل حصري بالسياسات التي انتهجتها إسرائيل بعد العام ١٩٦٧ وسلوكها تجاه العالم العربيّ ولاسيّما الفلسطينيين . وهذا يعني أنّهم يعترفون بشرعيّة ما قامت به دولة إسرائيل ومن قبلها الحركة الصهيونية بفلسطين حتى العام ١٩٦٧ ، منطلقين بما دعوه قلقًا على مصير الصورة الدولية لإسرائيل أو اليهودية في حال استمرار احتلال المناطق الفلسطينية وأثر ذلك على «الروح» الداخلية والأزليّة لها . أمّا مصاب الفلسطينيين فليس سوى أمر ثانويّ ، هذا إن لم يسقط من الاعتبار كليّة . أمّا الرغبة في السلام مع الفلسطينيين فتنبع لديهم من رغبة في الإحاطة بالفلسطينيين بطريقة تعفي إسرائيل من أي مسؤولية مستقبلية بشأنهم ، غير آبهين بتدارك حالة الظلم التاريخية التي وقعت عليهم أو إنهاء سلوك غير أخلاقيّ قائم . أضف إلى ذلك أنّ مقاربتهم للقضيّة تستثني في أيّ حلّ مستقبليّ فئتين من الفلسطينيين : اللاجئين والأقلية الفلسطينية داخل إسرائيل . أمّا اللاجئون في نظرهم فيمكنهم العودة إلى أيّ كيان يمكن أن يعرّف على أنه الدولة الفلسطينية في المستقبل ، أمّا أيّ اقتراح آخر من قبيل عودة اللاجئين إلى فلسطين التي طردوا منها فكان يعدّ تهديدًا وجوديًا للدولة اليهوديّة . أمّا الأقليّة الفلسطينية داخل إسرائيل قبل حدود العام ١٩٦٧ ، فهي

معضلة لا يمكن التوصل إلى حلّ لها من خلال إقامة دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل ، كما أنّ أيّ إشراك لهم في مباحثات سلام سيجري تفسيره بتلك الهستيريا عينها . والحقيقة هي أنّ الصحفيين ذوي التوجهات اليسارية قد صدّوا عن إشراك الفلسطينيين في إسرائيل في أيّ نقاش يتعلق بقضيّة فلسطين ، إذ كان القيام بذلك يعني الشروع في نقاش حول شرعيّة إسرائيل والتنويه بجوانب أخرى لصورة إسرائيل تتسم بالعنصرية وغياب الديمقراطية ، وهي قضايا اعتاد اليسار الإسرائيلي تفادي التعرّض لها . كما حازت وجهة النظر هذه على دعم كبير من الأكاديميين الذين يدّعون أنّهم من اليسار ولكنّهم وقفوا موقفًا حازمًا ضدّ الأكاديميين من الحركة ما بعد الصهيونية أو المناهضة للصهيونية في التسعينات أكثر من أي طرف آخر .

ويجتمع هؤلاء الصحفيون والأكاديميون تحت سقف واحد يتمثّل بحزب ميرتس الصهيوني (رغم أنّ بعضهم التزم بولائه لحزب العمّال) وصحيفة هآرتس . لقد كان الأكاديميون المنتمون للأحزاب اليسارية الصهيونية هم من انبرت أقلامهم باستمرار لكتابة مقالات الرأي في الصحف الأكثر ليبرالية وكانوا يظهرون ضيوفًا ومحللين في النشرات الإخبارية والبرامج الحوارية . وفي عصرنا الحاليّ نرى أنّ الكثير من الصحفيين البارزين الذين عملوا مع هآرتز بالإضافة إلى أولئك الذين كانت لهم برامج إذاعية «يسارية» قد انضمّوا كسياسيين إلى حزب ميرتس أو العمّال ، ومنهم شيلي ياشيموفِتش التي قادت حزب العمّال عام ٢٠١٢ .

لعلّ أوضح مثال على الخطاب الصهيوني الليبرالي هو كتابٌ من تأليف يارون إزراحي ، أحد المنظرين السياسيين الذين ظهروا مرارًا على وسائل الإعلام خلال التسعينات كأحد أصوات العقل واليسار . عنوان هذا الكتاب هو : «رصاصات مطاطيّة : السلطة والضمير في إسرائيل الحديثة» ، وهو كتاب من بين عددٍ من الكتب التي كتبتها أقلامٌ صحفيّة صهيونية ليبرالية في ردّة فعل على اندلاع الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ .(١٢) ويجمع الكتاب بين تحليلات

تعكس شخصية الكاتب ومحاولاته للبحث عن روحه الضائعة والتحليلات الأكاديمية ، وهو أحد أفضل الكتب من هذا النوع . إلا أنّه في الوقت ذاته أوضح مثال ألفيته على العصبيّة داخل الإعلام الصهيوني الليبرالي ، وتسير على هذه الشاكلة أيضًا صحيفة هآرتز وعدد جديد آخر من الأعمال والمؤسسات ، مثل منظمة جي ستريت في الولايات المتحدة وبعض الأفلام الإسرائيلية ذات السمعة الدولية المرموقة مثل «والتز وبشير» وفيلم «حراس البوابة» .(١٣) ويخلق كتاب «رصاصات مطاطية» توازنًا لطيفًا بين الشخصي والعامّ وبين ردة الفعل المباشرة على أحداث وقعت في الانتفاضة والتقييم الأكثر هدوءاً للوضع بعمومه . ولهذا فإن القراء المهتمّين بالجانب السيكولوجي والأيديولوجي لداعية السلام اليساريّ الصهيونيّ سيجد ما يبتغيه في هذا الكتاب الذي لا يكشف عن قوّة في الموقف وحسب ، بل ويجلّي الكثير من العبث والغموض في ذلك الموقف أيضًا .

كما يعدّ هذا الكتاب سبرًا عميقًا لما يمكن وصفه بالصهيونيّة المخفّفة ، ونعني بذلك تلك الممارسة التي تعيد النظر في الرابط بين الصهيونية والليبرالية ومن ثمّ ترتدّ على أعقابها بعد هذه الرحلة قلقة مضطربة . وقد قام إزراحي بمقاربة المفاهيم الليبرالية والحداثية للأخلاق ومقارنتها مع الأيديولوجيات والممارسات الصهيونية عبر التاريخ وخَلص إلى أنّه يصعب على الهيومانيّة الليبراليّة أن تتسرّب إلى الثقافة السياسيّة في إسرائيل أو أن تصبح جزءاً منها . غير أنّه بدا غامضًا في تحليله أسباب هذه الحالة المتردّية . كان قادة الحركة الصهيونية وإسرائيل حين يجدون في أنفسهم الرغبة في الاعتراف بالحالة المزرية لليبرالية في إسرائيل يسوّغون ذلك عبر التذكير بما أسموه «البيئة الموضوعية» التي أرغمتهم على التأنّي في منح الحقوق الإنسانيّة والليبرالية . وإن كان إزراحي يتهكّم أحيانًا بهذا التسويغ إلا أنّا نراه في أحيان أخرى مقتنعًا به أشدّ الاقتناع .

ويتّضح هذا الغموض أكثر وأكثر عند الاقتراب من نهاية الكتاب ، ونرى أنّ الأمر عند إزراحي يتلخّص في تقسيم الفترات التاريخيّة . إذ يرى أنّ القادة

الصهاينة في إسرائيلَ ما قبل العام ١٩٦٧ قد كانوا معذورين في عدم مقدرتهم على اتخاذ قرار واضح ما بين القوّة والأخلاق أو بين حقوق الإنسان والواجبات القوميّة. والحقيقة أنّ إزراحي لا يخصص سوى صفحتين اثنتين في الكتاب للنقاش- بأسلوب غير مباشر ومراوغ أيضًا- لما تعنيه النكبة الفلسطينية على الضمير الإسرائيلي. وباستثناء تلك الصفحتين لن يجد القارئ في ثنايا الكتاب أي ذكر لكلمة «النكبة» أو أية إشارة إلى المأساة التي تعرض لها الفلسطينيون عام ١٩٤٨. ويصف إزراحي لاأخلاقية بعض الممارسات بعد العام ١٩٦٧ بطريقة مُستطرَفة، مسلّطًا الضوء على قضيّة استخدام الرصاص المطاطيّ ضد الفلسطينيين خلال الانتفاضة، وقد كان الإسرائيليون يعتبرون استخدام هذا النوع من الذخيرة أكثر إنسانيّة من استخدام الذخيرة الحيّة، فصارت عبارة «الرصاص المطاطي» مفهومًا في الكتاب وليس مجرّد إشارة إلى نوع من أنواع الذخيرة. مفهوم الرصاص المطاطيّ هذا يظهر في الكتاب كمحاولة أخرى من بين المحاولات الإسرائيلية العديدة لتربيع الدائرة: إن كان استخدام الذخيرة الحيّة ضد الشباب العزّل أمرًا لاأخلاقيًا، فإنّ تغطية هذا الرصاص بالمطّاط سيجعلُ الأمر متوافقًا مع ما يمليه الضمير اليهوديّ. لكنّ إزراحي يطبّق هذا الاختبار على أخلاقيّة إسرائيل في الفترة ما بعد العام ١٩٦٧ وحسب، وخاصّة في المرحلة التالية للعام ١٩٧٧ خلال حكم حزب الليكود. ويكاد يكون هذا الغموض سمةً راسخةً متأصّلة في عقليّة وتوجّه اليسار الصهيوني في إسرائيل. وهذا ما يجعلُ كلمات الثناء التي وسمَ بها شمعون بيريز هذا الكتاب تبدو صحيحة إذ قال: «سيكون هذا الكتاب المتقن دليلًا لغير الإسرائيليّ كي يفهم الواقع المعاصر للمجتمع الإسرائيلي متجاوزًا دُخَان الخرافة والافتراضات المسبقة» .(١٤)

إنّ هذا الكتاب في واقع الأمر ليس سوى مظهر لتفسير اليسار الصهيوني للواقع المعاصر في إسرائيل، إلا أنّ دخان الخرافة لم ينقشع بعد- تلك الخرافة المرتبطة بإسرائيل الصغيرة الوديعة قبل العام ١٩٦٧ وبالأخص قبل العام

١٩٤٨ . كما نرى في افتتاحيّة الكتاب بكلّ جلاء أنّ إزراحي لم يكن قادرًا على استيعاب ما حدث في الانتفاضة ، فانطلق في كتابه شارحًا ما شعر به ببراعة ، وتوصّل إلى اتّخاذ موقف أخلاقي ومنطقي يدعم حقوق الفلسطينيين لإقامة دولتهم المستقلة ، وكان هذا الكتاب عاملًا مهمًا جعل العديد من اليهود في المجتمع الإسرائيلي يؤيدون اتفاقيّة أوسلو . لكنّ أولئك الذين على شاكلة إزراحي لا يفهمون من السلام سوى إنهاء الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية وقطاع غزّة ، وهو أمر كفيل حسب رأيه بأن تتخلص العبريّة من مصطلحات بائدة وأن يتحرر الجيش من ممارسات لاأخلاقية كاستخدام الرصاص المطاطيّ .(١٥)

لكنّ مطالب الفلسطينيّين لا تقف هنا ، فهم يريدون تعويضًا أو تصويبًا لشرور الماضي الذي يعود حتّى العام ١٩٤٨ . وعليه فإنّ ما ينقصُ مثل هذه المقاربة التي يقترحها الكتاب هو ردّة فعل مشابهة لما تولّد لدى إزراحي خلال الانتفاضة ، على الجرائم الإسرائيلية المروّعة التي حدثت خلال حرب ١٩٤٨ وما تلاها من اجتثاث الناس من أرضهم وارتكاب المجازر في حقّهم . إلا أنّ الراجح أنّ الفلسطينيين لن يحصلوا على ردّة الفعل هذه من إزراحي ، وهو الذي لا يريد كما يظهر جليًا في كتابه أن يواجه أباه بحماقات الصهيونيّة في الماضي ، رغمَ أنّه يرغب في أن يعي ابنه الحقيقة من خلال أخذ درسٍ من فظائع ما حصل في الانتفاضة .

إنّ كتاب إزراحي لا يخوض إلا بشكل جزئيّ في ذلك الجانب المظلم من الروح الجمعيّة لإسرائيل . وهي محاولة نابعةٌ من رغبة مجموعات من اليهود الأشكنازيين المترفة في إسرائيل في التوصّل إلى تسويةٍ مع الفلسطينيين بشرط أن يخلّصهم ذلك من عقدة الشرق ، ومن الشرق الأوسط ، ومن العالم العربيّ ، علمًا أنّهم يصبحون أقلّ ليبرالية واستعدادًا للتنازل عند مواجهتهم لتلك الأقلّيّة الفلسطينية المحسوبة عليهم أو أولاء اليهود العرب الذين لم تؤثّر فيهم آليّات نزع العروبة عنهم في دولة إسرائيل ولم تؤت ثمارها المرجوّة فيهم .

إنّ كتاب «رصاصات مطاطيّة» ليعدّ وصفًا صادقًا لتلك التناقضات التي تمزّق المجتمع اليهوديّ ، كما أنّه يقدّم دليلًا مقنعًا بوجود سرديّة كبرى للصهيونية لا اعتبار فيها عند الحديث عن حلّ منتظر للصراع العربي الإسرائيلي لفلسطينيي المخيّمات ولا لفلسطينيي الشتات ولا حتّى للفلسطينيين في الداخل الإسرائيلي . ولذا فإنّ الكتاب يعرض تحوّل اليسار الصهيونيّ ضمن حدود هذه السرديّة الكبرى .

حين كتبت يحدوني التفاؤل في فترة التسعينات حول الإعلام مابعد الصهيوني كنت قد افترضت مخطئًا أنّ الليبرالية التي اتّسمت بها وسائل الإعلام التابعة لليسار الصهيوني قد تتيح الفرصة لظهور وجهات نظر أكثر انتقاداً للصهيونية وأن يحدث ذلك في جوّ من الحريّة والتفاعل الكامل مع مثل هذه الأفكار . لكنّه كان من المستحيل أن يحتمل الإعلام الإسرائيلي هكذا أفكار لفترة طويلة . لقد ساد بين صانعي الأفلام انقسام أكثر طرافة بين فنانين غير صهاينة من جهة وصهاينة ليبراليين من جهة أخرى ، وقد كان لأعمالهم مابعد الصهيونية حضورٌ أطول مدىً كما قد يكون لها في المستقبل أثرٌ على فكرة إسرائيل أدوَم من سواها . وسنخصص الفصل الآتي للحديث عن هذه الأعمال ، وهكذا نكون قد وصلنا لآخر فصول هذا الكتاب المخصصة للحديث عن تاريخ إنتاج المعرفة في إسرائيل .

الفصل العاشر
المسرح والسينما في الحركة مابعد الصهيونية

نقبّل مؤخَّرتك أيها الجنرال بوم ،
ولو لم نفعل ذلك لقبلنا كلوم (وتعني «لا شيء» بالعبرية)
أذكر كيف أخفضت كتفيك حين سقط الجنود ، أيها الجنرال
بوم ،
لقد خسرت كلا ولديّ ، لكن لولاك أنتَ لحصلت على كلوم
أذكر كيف احتنقت عيناك الحمراوتان بالدماء أيها الجنرال بوم
أنا الآخر غمرتني الدماء برهةً ، ولولاك لما تبقى لي شيء سوى
كلوم
لهذا نحن نحبّك أيها الجنرال بوم ، نحبّ خدّيك المتورّدين في
الحفلات الرسميّة
وارتفاع ذقنك في صحفِ المساء
لذا نقبل مؤخرتك أيها الجنرال بوم
لولاك لما تبقّى لنا سوى كلوم .

في هذه الفقرة من مسرحيّة : «أنت وأنا والحرب المقبلة» يقوم الكاتب المسرحي حانوخ لِفين بالسخرية من أكثر الفئات هيبة وتقديرًا في تاريخ إسرائيل ومزاجها الجمعيّ ألا وهي فئة الجنرالات العسكرية . ولد لِفين في تل أبيب عام ١٩٤٣ وعرض هذه المسرحية في كاباريه صغير في صيف ١٩٦٨ في وقت كان فيه الشعب الإسرائيلي ثملًا بنشوة الانتصار بعد حرب حزيران ١٩٦٧ .[1]

واستمرّت مسرحيّاته مذّاك الحين بالتعبير عن حالة من نفورٍ عن الطبيعة المعسكرة القوميّة والصهيونية للثقافة الشعبية وللتوجهات السياسيّة والإنسانيّة. كما أبدع لِفين في تقديم صورة عن الحياة العاديّة للناس البسطاء بكلّ همومهم وقسوتهم وأحلامهم. ففي مسرحية «مَلِكة حوض الاستحمام» والتي عرضت عام ١٩٧٠ قدّم لفين مجموعة من الاستعراضات (السكتشات) الساخرة التي لم تبقِ على شيء من الروح الإسرائيلية إلا وسخرت منه، ولم يسمح بعرضها مرّة ثانية إلا بعد سنوات طويلة. وعلى هذه الشاكلة ظهرت مسرحيّات احتجاجية لاذعة أخرى في الثمانينات والتسعينات، وعادة ما كان يرافقها احتجاج مقابل من النّاس ومحاولات من العامّة من باب رقابة المجتمع على ذاته لإسكات هذا المسرحيّ المبدع والموهوب الذي توفّي عام ١٩٩٩.

لم يكن لِفين المسرحيّ الشجاع الوحيد في إسرائيل، فقد لمعت في فترة سابقة على التسعينات أسماء مثل يوسف مُندي، وجوشوا سوبُل وغيرهما الكثير مّمن أدركوا أنّ المسرح مساحةٌ لقول أسوأ ما يمكن قوله على لسان الآخرين. وحين خبتْ شعبيّة المسرح وتراجعت أهمّيته وتأثيره في نظر السلطات، ازدادت جرأة هؤلاء المسرحيين وشرعوا بالتعريض بأشدّ المواضيع حساسية في الصهيونية على غرار ما فعل الأكاديميون والفنانون في مرحلة الفكر مابعد الصهيونيّ.

لكنّهم بقوا رغم ذلك زمرة صغيرة في المسرح الإسرائيلي الذي كان، باستثناء هذه الحالات الاستثنائية وفترة الانفتاح خلال التسعينات، مواليًا للصهيونية، بل وقد مثّل انعكاسًا فظًا لفكرة إسرائيل. يكشف دان أوريان في كتابٍ تفصيليّ صدر في العام ١٩٩٦ بعنوان «صورة العرب في المسرح الإسرائيلي» أنّ معظم المسرحيات قد صوّرت العرب كشخصيّات ساذجة أحادية الجانب، حيث كانوا لكتّابها موضوعًا للكراهية والخوف والعدائية.[٢] أمّا مخرجو هذه المسرحيات فكانوا زيادة على النصوص العنصريّة يظهرون العرب بصورتهم «المعروفة» بملابسهم الرثّة ولهجتهم الثقيلة. لقد كانت هذه الصور

النمطية حاضرة دومًا منذ أوائل المسرحيات في إسرائيل عام ١٩٣٦ ولم يكن إنتاجها حصرًا على المثقفين اليمينيّين .

لقد كان انتقاد الذات في المسرح ، على غرار مجالات ثقافية أخرى ، مقتصرة بشكل عام على الفترة التي تلت العام ١٩٦٧ في إسرائيل وكان التركيز منصبًا على التداعيات الأخلاقية في المجتمع اليهودي الإسرائيلي لاستمرار الاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزّة . هذا التحديد المفروض ذاتيًا على نطاق النقد والذي يقضي بعدم التطرق إلى ما قبل العام ١٩٦٧ قد ظهر جليًا في المسرحيّات التي كتبها صهاينة ليبراليون ويساريون إبّان حرب لبنان الأولى . وبما أنّ مدار الاهتمام كان حول اليهود دون الاكتراث بما يعانية الضحايا العرب ، فلم تفلح حتّى أكثر المسرحيّات نقدًا في التعامل مع الفلسطينيين إلا من خلال النظر إليهم في أدوار ثانويّة ، بينما يظهر الأبطال اليهود في شخصيات متطوّرة ويشاركون في إطلاق النار والقتل والتعذيب ومن ثمّ يندمون على أفعالهم .

كما عرفَ المسرح الإسرائيلي كذلك مقاربة غير صهيونيّة ، غيرَ أنّها كانت على هامش الإنتاج المسرحي من الناحية التجارية ولم يكن لها أثر سياسيّ كبير على المجتمع . وقد ظهرت هذه المقاربة في أعمالٍ فلسطينية مترجمة إلى العبريّة وأعمالٍ أخرى أصليّة تتبنّى وجهة نظر غير صهيونية . كانت رواية غسّان كنفاني «رجال في الشمس» من بين الأعمال الفلسطينية التي ترجمت إلى العبريّة لتمثّل على المسرح المحليّ في الثمانينات ،[٣] إلا أنّها فشلت فشلًا ذريعًا بمعيار الربح التجاريّ ، ولكنّها بقيت رغم ذلك محاولة على الاطّلاع على الإنتاج الأدبيّ الفلسطينيّ . تحكي هذه الرواية قصّة ثلاثة لاجئين فلسطينيين يحاولون الذهاب إلى الكويت مرورًا من العراق في رحلة تعكس حالةً من اليأس بعد النكبة . ولكن تبقى الأعمال التي كُتبت بالعبريّة أكثر شهرةً بطبيعة الحال . فهنالك مثلًا روايات لسامي ميخائيل أخرجت مسرحيًا وصارت أول مسرحيّات تضفي طابعًا إنسانيًا على الفلسطينيين وذلك من خلال منح الشخصيّات أسماء وتاريخًا وأحلامًا .[٤] ولعلّه من الضروريّ هنا الإشارة إلى المسرح التجريبي

الإبداعي أو مسرح الهامش والذي قدّم فرصةً لمشاهدة نصوص مسرحية كتبها فلسطينيون في إسرائيل حول الاحتلال وحياة الفلسطينيين داخل إسرائيل عبر قصص شخصية وفرديّة . ومن الأمثلة على هذا ما قامت به مجموعات مسرحية فلسطينية وإسرائيلية في القدس عندما مثّلت نسخةً معاصرة من مسرحية روميو وجولييت .(٥)

وقد قدّم إسحاق لاؤور للمسرح ، رغم كونه شاعرًا أصلًا ، بعض الأعمال غير الصهيونية التي ضمّنها نقدًا عامًا للعسكرة في المجتمع الإسرائيلي . وقد كان لاؤور بخلاف الصهاينة الليبراليين أقل اهتمامًا بما يحدث في المجتمع الإسرائيلي نتيجة الاحتلال واهتمّ أكثر لما يعانيه الفلسطينيون أنفسهم . فقد اشتملت مسرحيته «أفرام يعود إلى الجيش» على وصف واقعي لإجراءات التحقيق وعمليات التعذيب التي كان يقوم بها جهاز الشين بيت ، وحين أخرجت على المسرح في منتصف الثمانينات جرى منعها لفترة من الوقت بحجّة التعريض بسياسات الاحتلال الإسرائيلي ومقارنته بالسلوك النازيّ .(٦)

ربّما ما كان لجوشوا سوبُل أن ينتقد جوهر الصهيونيّة إلا أنّه كان في غاية الوضوح في تناوله لشرور الاحتلال . ففي مسرحيّة له كتبها عام ١٩٨٥ بعنوان «البنت الفلسطينية» قدّم لنا نسخةً من الاحتجاج وإن كانت أقلّ حدّة مما عبّر عنه لاؤور . ولد جوشوا في فلسطين عام ١٩٣٩ وهو كاتب مسرحيّ غزير الإنتاج وقد نجح في أعماله التي تربو عن الستين في وصف كل جانب من جوانب الحياة في إسرائيل ، وقد كان هذا الوصف في العادة من باب النّقد ، بل وحتّى بأسلوب متمرّد في بعض الأحيان . في إحدى مسرحياته الأخيرة وكانت بعنوان «دارفو عندنا» تصرخ إحدى الشخصيات بكلام يعبّر عن فكرة استغلال الهولوكوست التي ناقشناها في الكتاب ويقول :

لو كنت حقًا تعتقد بأنّ الهولوكوست قد حصل لما كنت سمحت بأعضاء الكنيست بإقرار قانون يحظر تقديم شربة ماء للاجئين اوالإشارة هنا إلى اللاجئين الأفارقة الذين بدأوا الهجرة إلى

إسرائيل في العام ٢٠٠٥] . أنتَ بهذه اللامبالاة التي لديك وأعضاء الكنيست الذين انتخبت والذين يضعون عقوبة بالحبس عشرين عامًا لأي شخص يساعد لاجئًا ، إنّكم الدليل على أنّه لم يكن هنالك ثمّة هولوكوست .(٧)

لكنّ هذا يبقى استثناءً على القاعدة العامّة ، وأغلبُ الظنّ أنّ فظائع الاحتلال كانت قد وجدت طريقها إلى المسرح الأكثر انفتاحًا والمسرح ما بعد الصهيونيّ إن صحّ القول خلال فترة التسعينات . وما زال أولئك الذين كتبوا هذه المسرحيّات يكتبون حتّى اليوم ، إلا أنّ شهرة هذا الفنّ قد انحسرت كما أنّ نسبة المسرحيات «السياسيّة» قد انخفضت إلى حدّ كبير .

السينما مابعد الصهيونيّة

قرّر مخرج الأفلام الإسرائيلي رام ليفي في مطلع السبعينات تناول القصّة المشهورة التي كتبها يزهار سميلانسكي حول أحداث العام ١٩٤٨ بعنوان «خربة خزعة» في عمل سينمائيّ . يكمن العجب في هذه الرواية في الوصف التفصيلي لحالة التطهير العرقي التي جرت في هذه القرية المتخيّلة ، وأثارت بعض الأسئلة الأخلاقية حول تلك السياسة الإجراميّة وذلك من خلال حوارات مؤثّرة تدور بين الجنود .(٨)

انطلق ليفي ليبحث عن قرية مناسبة للتصوير ، ولكنّه اكتشف أثناء الحديث مع يزهار أنّ تلك القرية المتخيّلة موضوع الرواية قد كانت مبنيّة على أخرى حقيقيّة شهدت أحداثًا مشابهة . لكنّ هذه القريةَ الحقيقية على غرار خمسمئة مثلها كانت قد أبيدت تمامًا وشيّدت فوقها مستعمرة يهوديّة . وأثناء جولة من التطواف في الضفة الغربية (وكان بمقدور الإسرائيليين في تلك الأيام التجول بسهولة في المناطق المحتلّة) وجد ليفي قريّة تشبه في رأي يزهار تلك التي كانت في العام ١٩٤٨ . توجّه ليفي إلى مختار تلك القرية ونجح في إقناعه بالسماح له بتصوير الفيلم ، ولكنّ المختار اشترط أن لا يُستخدمَ أهالي القرية

فيه ، فاضطر ليفي إلى البحث عن قرية أخرى أكثر تعاونًا يوافق أهلها المشاركة في التصوير ، وتمّ له ذلك في نهاية المطاف بمساعدة حاكم عسكري إسرائيلي في المنطقة . ويذكر المخرج فيما بعد أنّ الناس كان ينقلون إلى موقع التصوير بالشاحنات في مشهد أشبه بعمليّة عسكريّة .[٩] وقد كان الفيلم تصويرًا خياليًا مؤثرًا للجريمة الإسرائيلية ، وهو أمرٌ لم ينجح في نقله سوى واحد أو اثنين من الأفلام التي أنتجت خلال فترة التسعينات . وقد كان يمكن لصناعة الأفلام أن تمثّل تحديًا لفكرة إسرائيل لو أنّ القائمين عليها امتلكوا الرغبة في ذلك ، وسنعود إلى مناقشة هذا الموضوع لاحقًا .

لقد مرّت صناعة الأفلام الإسرائيلية بمسار شبيه بذلك المسار الذي مرّ به المسرح ، ولكنّ الفيلم كان أقدرَ على تقديم تحدّيات أعمق للصهيونية في سرديّتها التاريخية وخطابها أكثر من أيّ وسط آخر ، ولعلّ هذه الحقيقة مرتبطة بأنّ اتباع أيّة مقاربة مختلفة للواقع سيكون لها أثر أعمق في السينما مقارنة بأي شكلٍ فنّي أو أدبيّ آخر . لقد كانت مشاهدة الأفلام نشاط التسلية الأكثر شيوعًا في إسرائيل ، خاصّة وأنّ الدولة كانت تتمتع بنظام بثٍّ تلفزيونيّ يتيح للمشاهدين متابعة الأفلام على شاشة التلفاز بعد سنة تقريبًا من عرضها في دور السينما .

لقد كان إنتاج الأعمال الرائدة من هذا القبيل ، بخلاف ما يمكن للمرء أن يتوقّع ، يتمّ في استديوهات التلفزيون الوطنيّ الإسرائيلي . ولعلّ هذا قد حصل لأنّ المخرجين الذين عملوا في التلفزيون الوطنيّ في السبعينات كانوا يحصلون على تمويل لأفلامهم ولا يخضعون للقيود المتعلقة بالتقييمات (فقد كانت هنالك قناة واحدة فقط) أو الاعتبارات التجاريّة ، بخلاف ما كانت عليه الحال مع زملائهم الآخرين في قطاع إنتاج الأفلام التجاريّة أو الخاصّة . لهذا السبب كانوا إذا ساورتهم فكرة متطرّفة يحاولون على الأقل ترجمتها إلى فيلم ، إلا إذا اعترض بعض السياسيين طريقهم وقد كان هذا يحدث بالفعل بين الفينة والأخرى . ثم وبما أنّ هنالك محطّة رسميّة واحدة في البلاد فإنّ الكثير من الجهود كانت تبذل لإنتاج أعمال دراميّة محليّة كان معظمها ذا صبغة سياسيّة .

في العام ١٩٧٦ عُرض فيلم ليفي «خربة خزعة» على شاشة التفلزيون الرسميّ، القناة الأولى الإسرائيلية، وليس في دور السينما. ولقد كان يشرف على برامج التلفاز في تلك الفترة مجلس من السياسيين، وكانوا قد منعوا هذا الفيلم من العرض عند مراجعته. وفي ردّة فعلٍ غير مسبوقة على هذا التصرّف، تمكّن مجموعة من التقنيّين والصحفيين المدافعين عن حرية التعبير من التشويش على القناة في الوقت الذي كان يفترض فيه عرض الفيلم المحظور. ثم نجحت حملة شعبية وقانونيّة في رفع الحظر عن الفيلم وعرضه لفترة وجيزة.

وهكذا أصبح رام ليفي رغم استمراره مع التلفزيون الرسمي أهمّ منتجي الأفلام الوثائقية الدراميّة التي سبقت تلك الموجة من الأفلام مابعد الصهيونية خلال التسعينات. من أفلامه الأولى «أنا أحمد» من إنتاج عام ١٩٦٦ قبل ظهور التلفاز وينتقد فيه تعامل الدولة مع الفلسطينيين في إسرائيل، كما أنتج في العام ١٩٨٦ فيلمًا بعنوان «خبز» والذي يعرض فيه بشكل مؤثر حياة اليهود المزراحيين في المستعمرات الإسرائيليّة.

أمّا فيما عدا محطّات التلفاز فقد التزمت صناعة الأفلام الأجندة القوميّة حتى أوائل السبعينات وقد فعلت ذلك أكثر من أيّ شكلٍ ثقافي آخر باستثناء مجال تأليف كتب الأطفال. فقد كانت هنالك صورة نمطيةٌ واحدة للعرب تمثّل الشر والوحشية والغباء والمرض ويضطرون في نهاية الأمر الخضوع للبطل الإسرائيلي المتفوّق. وقد سبق أن ذكرنا أنّه كثيرًا ما تعرض هذه الأفلام مثلًا صورة أطفال إسرائيليين يلقون القبض على رجال مسلّحين من العرب الإرهابيين أو المعتدين. أمّا فيما جرينا على تسميته بالسينما مابعد صهيونية فإنّ المقاربة قد تحولت بشكل جذريّ حتى صارت تقدّم صورة أكثر تعقيدًا وإنسانيّة عن الفلسطينيين، ولاسيّما أولئك المنخرطين في مقاومة العدوان والاحتلال الإسرائيليين.

اندلعت حرب لبنان الأولى عام ١٩٨٢ وحرّكت السينما المحليّة في هذا الاتجاه الجديد، إذ شرع منتجو الأفلام في إسرائيل بمنح صوت للأفراد والفئات

المهمّشة داخل الدولة ، مع أنّ التحوّل بقيَ من شاكلة «الصهيونيّة المخفّفة» . فلم يحد أيّ فيلم من الأفلام عن السرديّة الكبرى للصهيونيّة أو عن أيّ فصل من فصول التأريخ الأسطوري الذي تعلّمه الإسرائيليون في المدارس ، واقتصر الحراك بنفسه على التعامل مع معضلة إسرائيل مع الفلسطينيّين بعد العام ١٩٦٧ . مع هذا ، ورغم ميل صانعي الأفلام إلى عرض قصة الصراع بتوظيف الغرام والرومانسيّة ، إلا أنّ هذا تطوّر مذهل مقارنة مع ما كان عليه الأمر في الستينات . فقد صار الفلسطينيون على الشاشة أناسًا حقيقيّين بل وظهروا أبطالًا في بعض الأفلام .

حلّ مكان «الصهيونية المخفّفة» خلال التسعينات جهدٌ سينمائي أكثر جرأة يتعامل بشكل مباشر مع جوهر الصهيونيّة ، وصار الفيلم في واقع الأمر في طليعة المحاولات اليهودية المحليّة لإعادة النظر في الصهيونية . ولقد ساعد الانفتاح السياسي النسبي في السنوات الأولى التي تبعت التوقيع على اتفاق أوسلو على جعل ممارسة الانتقاد ومحاولة التعبير عن أصوات المهمّشين أمرًا رائجًا له جمهوره ، وهذا الرّواج أمر لا غنى عنه في السينما ، ولا غنى عنه كذلك في المجال الثقافي عمومًا ، وقد ظهر لفترة وجيزة أنّ الأفلام التي تحمل رسالة متطرّفة ما لها إمكانيّة تحقيق نجاح مادّي كبير .

كما بدا أنّ صانعي الأفلام قد كانوا أكثر انفتاحًا فيما يتعلّق بأجنداتهم العرقية أو القومية أو تلك المتعلقة بالنوع الاجتماعي مقارنةً بالأكاديميين ، إذ لم يتردّدوا في مناقشة هذه القضايا في المقابلات الإعلامية أو الندوات التي تعقد بعد عرض فيلم من أفلامهم أو حتّى في الحوارات التي تضاف إلى نصوص الأفلام . لقد تناولت الأفلام للمرة الأولى اليهود العرب داخل إسرائيل والذين يعيشون في وضع اجتماعي واقتصادي لم يتحسّن إلا قليلًا منذ العام ١٩٤٨ ، فقد سلّطت هذه الأفلام الضوء على حالة الاستياء المتزايد بينهم ولاسيّما لما يرونه من إثراء بين طبقات الأغنياء من اليهود الأشكنازيين ، مقابل حالة التهميش الجغرافي والاجتماعي الذين يعيشون فيه في مستعمرات المهاجرين

والأحياء الفقيرة الهامشيّة وعدم مقدرتهم على الاستفادة من المصادر المالية، بالإضافة إلى تشويه صورتهم على المستوى الوطني. وقد تعامل بعض صانعي الأفلام الذين صوّروا حياة المزراحيين مع الفلسطينيين أيضًا، ومنهم رام ليفي الذي تناول في فيلميه سابقي الذكر، «خربة خزعة» و «أنا أحمد» وضع الفلسطينيين كما عالج قضية أحياء المهاجرين في فيلم «خبز» والذي يحكي قصّة بؤس وقنوط عائلة يهودية هاجرت إلى إسرائيل من شمال إفريقيا ولم تجد لها مكانًا إلاّ في الهوامش الجغرافية والاجتماعية في المجتمع الإسرائيلي اليهودي حيث وجدوا أنفسهم عالقين في ذلك الواقع المزري غيرَ قادرين على الخروج منه.

يرى جاد (يهودا) نعيمان، وهو نفسه صانع أفلام وأكاديميّ عبّر عن آرائه بقوّة خلال التسعينات، أنّ تلك الأفلام الجديدة قد نقلت من خلال نصوصها وإشاراتها الضمنيّة نقدًا جذريًا للصهيونيّة.(١٠) ولكنّ الحقيقةَ هيَ أنّ العرض السينمائي التصويريّ أو الوثائقيّ لانتهاكات الصهيونية أو الإشكالات التي تنضوي عليها فكرة إسرائيل لم يخلّف سوى أثر محدود على المجتمع. ولعل السبب في هذا يعود إلى الخلفية السوسيو-اقتصادية لصانعي الأفلام أنفسهم، إذ أنه وبصرف النّظر عمّا وصلت إليه تلك الحركة الجديدة من صناعة الأفلام، إلا أنّ العنصر الأشكنازي كان الغالب فيها، فأتت معظم الأفلام التي يمكن تصنيفها على أنها تتخذ موقفًا غير صهيونيّ أو مناهضًا للصهيونية لتصف العلاقة بين العرب واليهود في إسرائيل من منظور مترفي الطبقة العليا في تل أبيب. لقد كانت صناعة الأفلام في الثمانينات شأنًا خاصًا ينفرد فيه صانعو الأفلام الأشكنازيون عمومًا، وقد كان ميلهم إلى معالجة الصراع مع الفلسطينيين أقوى من رغبتهم في التعامل مع محنة المزراحيين. وقد كانت الأجندة اليسارية المتطرفة تتحدّد من خلال موقف أحدهم من الصراع العربي الإسرائيلي لا من القضايا الاجتماعية. وبما أنّ تلك الأفلام قد انطلقت من أجندة سياسية لا اجتماعية فإنّها كانت تجد رواجًا بين المشاهدين الذين

يعيشون في بحبوحة أكبر من العيش والذين يمتلكون القدرة على التعاطف مع «الآخر» . وقد وجدت تلك الأفلام قبولًا حسنًا بين فلسطينيّي إسرائيل بكل تأكيد ، وبهذا المعنى كانت قادرة على تعزيز التعاون العربيّ اليهوديّ ، أمّا أولئك الذين يقطنون في المناطق الفقيرة والأقل حظًا فلم تحظَ لديهم غالبًا بمثل هذا الاستحسان .

لا شكّ بالرغم مما سبق أن نؤكّد على أنّ بعض الأفلام في تصويرها للإسرائيلي كمحتل ومستعمر وللفلسطينيّ كضحية تحمل دلالةً على أنّها كانت تثير قدرًا من الاهتمام كافيًا لخلق حالة من التعاطف ، أو الفضول على أقل تقدير ، ولاسيّما أنّ عرضها كان يستمرّ لأسابيع عديدة في إسرائيل . ولا شكّ كذلك أنّ هذا النّوع من الأفلام الناقدة ، سواء كان النقد مباشرًا أو غير مباشر ، قد نال قسطًا وافرًا من الرواج في مرحلة معيّنة ، وهو رواجٌ ناجم عن الاندماج الحاصل بين نسخة متطرفة من اقتصاديّات السوق الحرّ وبروز حالةٍ من التعدّدية الثقافية في المجتمع الإسرائيليّ . كما أنّ استمرار التحوّل إلى الرأسماليّة في الاقتصاد الإسرائيلي من شأنه أن يوضّح ذلك النجاح ، أو بالأحرى ذلك الدافع نحو المزيد من التحرّك النقديّ للسوق الثقافية المحليّة وإدراك أنّه ليس مجرّد مظهر لأجندة أيديولوجيّة . وقد أصاب بيير بورديو حين قال مرّة إنّ المنتجات الأكاديمية والثقافية لا تمثّل تحولات سياسية واجتماعية وحسب ولكنّها كذلك منتجات اقتصاديّة يلزمها التسويق .(١١) وهذه الحال في السينما أكثر وضوحًا منها في الأكاديميا .

إلا أنّه يمكن الحديث عن بعض الحالات التي احتلّت فيها الاعتبارات التجاريّة منزلة ثانويّة . لقد كان بعض صانعي الأفلام يرغبون بالارتباط أو بإعادة الارتباط بالعالم الذي أتوا منه ، ولعل هذه الحالة تصدق خاصّة على صانعي الأفلام المزراحيين أو الفلسطينيين . لقد بدأ صانعو الأفلام المزراحيون ينتجون أفلامًا تركّز أكثر على الجانب النقديّ في وقتٍ تحسّنت فيه ظروف اليهود المزراحيين الاقتصادية والقانونية والسياسية داخل إسرائيل . ولكنّ التحسّن لم يكن كافيًا ، في نظر أولئك الفنّانين على الأقل . فقد كانوا كغيرهم من أفراد

مجتمعهم مستائين من حالة التباين الاجتماعي والاقتصادي المتواصلة في المجتمع اليهودي في إسرائيل، خاصّة في ظلّ التهميش الذين يعانون منه على مستوى السرديّة والأسطورة القوميّة.

لكن وبالرّغم من تلك المحاولات العظيمة والمقاربات المهمّة لوجهات نظر مغايرة فقد كان التعامل مع «الآخر» في الأفلام والمسرحيات يصطدم بعائق فرض الصورة الإسرائيلية على تلك الخاصّة بالفلسطينيين. فقد كان يبدو الأمر وكأنّه لا يمكن فهم الطرف الآخر إلا إن تصرّف الأبطال فيه كما يتصرّف الإسرائيليون أو أيّدوا فكرة الإسرائيلي عن الواقع. فلو أخذنا مثلًا فيلمًا من قبيل «أفانتي بوبولو» (١٩٨٦) سنرى أن جنديًا مصريًا، يتحدث باللهجة الفلسطينية (وهذا ما لا يلاحظه المشاهد اليهوديّ) يتحدّث برسالة مليئة بالقيم الإنسانية المشتركة بين الطرفين مستخدمًا اقتباسًا يرد على لسان التاجر اليهوديّ شيلوك في مسرحية تاجر البندقيّة لشكسبير. لا شكّ أنّ وجود جنديّ مصريّ بسيط في أرض المعركة في سيناء يمتلك مثل هذه الثقافة الإنجليزيّة لمن نوادر الأمور إلا أنّ هذه هي الصورة التي اختيرت له لضمان التعاطف معه من قبل الجمهور الإسرائيليّ.[١٢]

إنّ محاولة تقديم العالم من وجهة نظر ضحايا الصهيونية من خلال قصص خياليّة أو حقيقيّة تدور حول علاقة حبّ مستحيلة لهي من بين أكثر المحاولات جرأة في هذا الصدد كما يرى الراحل إدوَرد سعيد.[١٣] إن لقصص الحبّ والجنس رواجًا لا يحظى به غيرها، والجانب الرومانسيّ في الأفلام هو أهمّ السبل لجذب المزيد من جمهور السينما في إسرائيل. وقد جاءت معظم هذه الأفلام بحبكة من شاكلة الحبكة التي نعرفها في قصة روميو وجولييت، حيث تقع فتاة يهوديّة في حبّ شابّ فلسطينيّ في تحدّ منهما لرغبة العائلة والمجتمع. لقد كان وقوع مثل هذا الأمر في واقع الحياة مستبعدًا غاية الاستبعاد، وهذا يظهر حجم الإقصاء الذي يتّسم به المشروع الصهيونيّ، ولاسيّما حين نعرف أنه لم تنشأ هنالك على مدى أكثر من قرنٍ من الاستيطان أي روابط رومانسية،

ناهيك عن العلاقات العائلية ، بين المستوطنين والسكان الأصليين ، وهذه الحالة من «النقاوة» لا تكاد تجدها في أي مجتمع استيطانيّ آخر باستثناء مجتمع البيض في جنوب إفريقيا .

إنّ إدخال عنصري الحبّ والجنس في الصراع من شأنه توليد تعاطف حسّي شهوانيّ مع الأبطال ، كما تفعل أفلام هوليوود مع الشخصيات الأمريكيّة ذات الأصول الإفريقية . ففي الحالة «المتنوّرة» من صناعة الأفلام الإسرائيلية يظهر «العرب» بأناقة أو جمال استثنائيّين . كما يتيح استحضار الجنس والجمال ما يدعوه علماء النفس بآليّة النقل (displacement) والتي تعني أنّ تعاطف المشاهد المفترض مع القضيّة المتمثّلة بالظلم الواقع على طرفٍ ما يتحوّل إلى تعاطف مع القلبِ الكسير للبطل الجذّاب في الفيلم . كما يلزم الانتباه فيما يتعلق بقضايا التعاون والصداقة أو حتى الحبّ عبر هذا الشرخ إلى الاختلاف المثير بين الموقف الذي يتخذه المؤرخون ، ولاسيّما في عصر النسبية الجديد أو حتّى ما بعد الحداثة ، وموقف صانعي الأفلام . ففي حين يميل المؤرخ إلى استخلاص نتيجة متفائلة من مثل تلك الأحداث التاريخية ، نجد أنّ السينما تتناولها عادة في مقاربة تراجيدية تشير إلى فجوةٍ بين الطرفين لا سبيل إلى ردمها . وهكذا يكون الخيال أكثر واقعية في تصوير العلاقات مقارنة بالأوهام الأكاديمية النموذجيّة بخصوص الإنسانيّة والبشر .

بالرّغم ممّا سبق ، فإنّ الأفلام التي أظهرت اليهود أشرارًا والفلسطينيين أبطالًا قد كان لها أثرٌ في الفترة التي ظهرت فيها ، إذ لا ريب في أنّ عكس الأدوار التقليدية قد ساعدَ على إعادة التفكير في صورة العرب في السرديّة الصهيونية . كما لا يمكن لأي عمل أكاديميّ أن يصل إلى مثل هذا الجمهور الواسع للسينما أو أن ينقل رسالة واضحةً بالوضوح الذي تتيحه السينما . وقد كانَ أفضل الأفلام من هذا النوع هو فيلم «خطّ النّار» (Esh Tzolevet) عام ١٩٨٩ والذي تجاوز الرومانسيّة وقدّم بطريقة لم يسبقها مثيل وجهةَ نظر فلسطينيّة لما جرى في حرب ١٩٤٨ ، ويجدر بنا تناول هذا الفيلم بشيءٍ من التفصيل .(١٤)

«خطّ النار»: شيءٌ من الإنسانية في قصّة النكبة

افتقرت الغالبية العظمى من الأفلام التي ظهرت في الفترة مابعد الصهيونية في التسعينات إلى التعاطف مع الموقف الفلسطيني فيما يتعلق بالنكبة، وخاصّة مع تلك المشاعر المرتبطة بالكارثة التي حلّت بالفلسطينيين وحقّهم في الرجوع إلى أرضهم، وذلك بغضّ النظر عن مدى التقدّميّة التي تمتّعت بها تلك الأفلام. فقد كانت الأفلام ذات التوجّه النقديّ تعبّر عن احتجاج على الاحتلال الذي جرى عام ١٩٦٧، ولا شكّ أنّها أضفت على العربيّ صبغةً أكثر إنسانيّة دون تقييد بزمان، كما أنّ هذا العربي قد ظهر بشخصيّة البطل في العديد من الأحيان.

كما غاب في هذه الأفلام البعد التاريخي؛ إذ وقعت خارج أيّ إطار كرونولوجيّ أو جغرافيّ محدّد. فلم يكن المشاهد قادرًا على تمييز المكان وما إذا كان واقعًا داخل الخطّ الأخضر أو خارجه، أو معرفةِ وقت أو سنةِ وقوع أحداث الفيلم. ورغم ذلك فقد قدّمت هذه الأفلام المحتل/المستعمر اليهوديّ والسكّان العرب الأصليّين/«الآخر».

ويعدّ فيلم «خطّ النّار» أحدَ الأفلام التصويرية القليلة في الحالة مابعد الصهيونيّة التي تعاملت بشكلٍ مباشر مع حرب عام ١٩٤٨، على غرار الأفلام الصهيونيّة الكلاسيكيّة. قلّة من الناس في إسرائيل قد شاهدوا الفيلم، سواء في وقت صدوره أم بعد ذلك، ولم يكن جدعون جناني صاحب الفيلم ينتمي إلى تلك الطبقة من صانعي ثقافة الهيمنة في إسرائيل، ولهذا فإنّ هذا الفيلم لا يعدّ مثالًا مناسبًا على توجّه أو تطوّر بارز، ولكنّه يجلّي لنا على الأقلّ وجود إمكانٍ لمقاربة بديلة لفكرة إسرائيل.

يعتمد الفيلم على قصّة حقيقيّة لعلاقة عشق مستحيلة بين جورج خوري الفلسطينيّ وميريام سيدمان اليهوديّة. يحدث اللقاء بينهما مصادفةً عند نقطة تفتيش بريطانية قبل النكبة بعام تقريبًا، وتتعرّض ميريام للمضايقة من الجنود الإنجليز حين يرمون السلّة التي كانت معها وينثرون ما فيها على الأرض.

يساعدها جورج في تلك اللحظة في التقاط ما تبعثر على الأرض وتعرّفا إلى بعضهما . كانت ميريام تعمل في مطعم تديره أمّها شماليّ تل أبيب ، ويتعمّد جورج زيارة المطعم مرّة مدّعيًا أنّه اضطر للوقوف في تلك المنطقة لأنّ حرارة المحرّك ارتفعت كثيرًا وأنّه احتاج لبعض الماء . ثم يعود جورج ويزور ميريام مرّة أخرى ، ولكنّه يُطرد من المطعم حين يراه أخو ميريام ورفاقه وكان أخوها عضوًا في الهاغانا . تعتذر ميريام لجورج ويكون هذا الاعتذار بمثابة دعوة للقاء مجدّدًا ، وتوالت الزيارات بالفعل بإلحاح من ميريام ومبادرة منها . ومع أنّ اللقاءات كانت تتمّ في أماكن ملائمة للعاشقين ، كصخرة أندروميدا في يافا حين ذهبا للسباحة هناك ليلًا ، إلا أنّ الحميميّة بينهما لم تذهب بعيدًا ، وذلك لأنّ جورج لم يكن ليستغل الفرص العديدة التي لاحت له غير مرّة مع تلك الفتاة . ومع تدهور الأوضاع في فلسطين وازدياد حالة الكراهية بين الفلسطينيين واليهود تنتقل لقاءات الحبيبين إلى نادٍ إنجليزي ، وفي أثناء واحد من تلك الجلسات هناك يقتحم إرهابيان من عصابة شتيرن ذلك النادي ويقتلان ضابطًا إنجليزيًا . ويشكّ أفراد من عصابة شتيرن بأنّ ميريام تتعاون مع العدوّ فيلحقون بهما .

تعلن ميريام لجورج بأنّها لن تتخلّى عنه ، وهذا الموقف الحازم منها هو ما يُبقي على جذوة الرومانسية ملتهبة ، وتصير لقاءاتهما الآن في يافا العربيّة ، ولكنّ صفو اللقاء يتعكّر دومًا بتدخّلات أخيها شراغا المتعصّب والمحتدّ دومًا . ويضربها أخوها ضربًا مبرّحًا ولكنّه يتركهما يلتقيان وحدهما . أمّا السفهاء في أفراد عصابة شتيرن فقد وجدوا أخيرًا ذريعة للقضاء على ميريام وجورج ، فهما شاهدان على مقتل الضابط الإنجليزيّ في النادي ولا بدّ من قتلهما ، فيلفّقون تهمة ضدّهما بأنّ ميريام قد ساعدت جورج في التخطيط على الهجوم على مقرّ العصابة في تل أبيب . وبينما كانت ميريام في انتظار جورج في لقائهما الأخير في فلسطين والذي كانا يخططان بعده للسفر إلى الخارج يقوم أفراد من عصابة شتيرن بتصفيتها .

ذكرنا سابقًا أنّ الأفلام مابعد الصهيونية التي تعالج قضايا الحبّ بين العرب

واليهود كانت تنتهي بمأساة أو بالأحرى بموت ، وتظهر عبثيّة هذا الموت وتوقّع مثل هذه النهاية بمشهد جميل في الفيلم حيث يقوم رجل فلسطينيّ يرعى الماشية بالتقاط صورة لهما ويعطيها بعد ذلك لأخي ميريام ، ولكنّه لا يستطيع معالجتها فيضطر إلى فبركة صورة ليظهر أنّ الاثنين كانا معًا ، ولعل هذه إشارة على جوهر تلك العلاقة الرومانسية وكيف أنّها مصطنعة وسطحيّة وفي واقع الأمر مستحيلة . حتّى ذلك الخيار الذي بدا ممكنًا لوهلة لإنقاذ ذلك الحبّ المستحيل ، أي الهرب إلى الخارج ، ما كان له أن يتحقّق .

بالإضافة إلى المضمون التراجيديّ الواضح للفيلم فإنّ هنالك رسائل أخرى ضمنيّة تمنح لهذا الفيلم فرادته التي لم أجدها في أيّ فيلم سواه ممّا شاهدت وعرفت . فهذا الفيلم هو الوحيد الذي لم يكتفِ بإعطاء اعتبار للرواية الفلسطينية لما حدث في العام ١٩٤٨ بل قبل بهذه الروايةِ ودقّتها . إنّ تصفية الفتاة اليهوديّة على يد يهودٍ يعدّ بذاته قلقلةً للصورة التقليدية عن العربيّ المتوحّش المتعطّش للدماء . كما طرق الفيلم ما لم يطرقه سواه من الأفلام ، دونما قصد ربّما ، حين قدّم وجهة النظر الفلسطينية حول أحداث عام ١٩٤٨ على أنّها تخاطب العقل وتستحقّ التعاطف . ولعلّ أكثر المشاهد توضيحًا لما نحن بصدده هنا هو ما حدث في تشرين الثاني من عام ١٩٤٧ في إحدى المقاهي العربية حيث يجلس مجموعة من العرب يستمعون بقلق إلى المذياع الذي يبثّ وقائع التصويت على قرار التقسيم . لقد كانت هذه هي المرّة الأولى والأخيرة التي يظهر فيها كاتب النصّ في فيلم إسرائيلي حالة الوعي بالمخاوف التي سيطرت على الطرف الآخر ، بخلاف ما كان عليه الأمر تمامًا لدى الطرف اليهوديّ ، مع أنّ الكثير من الأفلام الوثائقية والتصويريّة منذ العام ١٩٤٨ قد دأبت على استخدام هذا المشهد الذي يظهر فيه مجموعة من اليهود يستمعون بقلق وتخوّف لنتائج التصويت ثم ينطلقون يرقصون في الشوارع منتشين بفرحة عارمة .

يبرز جانب آخر لا يقلّ أهميّة في هذه السرديّة يتمثّل في كيفيّة تفسيرها لسبب اندلاع الحرب . فالسردية الصهيونية الكلاسيكية كما ذكرنا سابقًا في

معرِض حديثنا عن فيلم دان وسعادية تدّعي أنّ الحرب قامت هكذا بلا سبب مفهوم حين هاج العرب من تلقاء أنفسهم وقرّروا الهجوم على اليهود . أمّا في هذا الفيلم فالحرب تندلع بعد أن تخسر الحكومات العربية دبلوماسيًا في أروقة الأمم المتحدة ويقوم ديفد بن غورين بإعلان الدولة اليهوديّة . فحين تؤخذ هذه التفاصيل بعين الاعتبار يصبح من السهل تفسير حالة الحنق والاستياء التي تولّدت لدى الفلسطينيين واعتدائهم على المواكب والمستوطنات اليهوديّة . كما يتّضح هذا الأمر أكثر في حوار مع أحد أصدقاء جورج في مشهدٍ في قاعة بليياردو في يافا ، حيث كان يتكلم عن لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (وهي لجنةٌ تمّ تعيينها في ربيع عام ١٩٤٧ للتوصّل إلى حلّ مقترح للصراع في فلسطين) وكيف أنّها سمحت لأفواج المهاجرين اليهود بالدخول إلى فلسطين في الوقت الذي كان يجدر بها مناقشة مستقبل الدولة . وقد كان جليًا أنّ هؤلاء المهاجرين الجدد لن يغادروا فلسطين بغض النظر عن القرار الذي ستقترحه الأمم المتّحدة ، وهنا يقول صديق جورج : «وهكذا سيبقى العرب غير قادرين على الدفاع عن أنفسهم حين يغادر الإنجليز ويبقون وحدهم في مواجهة هؤلاء اللاجئين» ، وهي إشارة لا تحيل على السرديّة الفلسطينية حول تلك الحرب وحسب ، بل وترتبط كذلك ببعض الآراء التي قدّمها بعض المؤرخون الإسرائيليون الجدد في هذا الصدد .

نرى من ناحية أخرى أيضًا أنّ الفيلم يجلّي ذلك الجانب الإنسانيّ لدى الفلسطينيين الذين يقعون في الفيلم ضحايا الهجمات اليهوديّة . فيُقتل في إحدى هذه الاعتداءات أحد أقرباء جورج ويُدعى بيير ، والذي كان كذلك صديقه المقرّب ، فينحني جورج في ذلك المشهد على جثّة بيير ويضع رأسه على صدره . يبدو جورج في الفيلم حسن الوجه أنيق الثياب يقود سيّارة جميلة كما أنّه يفوق ميريام ثقافة وعلمًا ، إضافةً إلى أنّه يتقن الإنجليزيّة تمامًا ، ويتجلّى ذلك حين تطلب منه ميريام أن تساعده في الحديث مع الإنجليز . ولكنّا نجدُ أنّ الشخصيات الفلسطينية الرئيسية في الفيلم قد كانت مسيحيّة ، وإن كان هذا

راجعًا في المقام الأول إلى سياق القصّة الأصليّة ، إلا أنّه يشير دونما قصد إلى أنّ صورة العرب الإيجابية تنحصر في المسيحيين وحسب . ولكن حتّى الفلسطينيون المسلمون الذين ظهروا في الفيلم بشخصيّات ثانويّة كانوا أناسًا طبعيين بأبعادهم الإنسانية المتعدّدة . وهكذا يعرف المشاهد في هذا الفيلم ما يحلم فيه الفلسطينيّ وما يخشاه كما أنّه يتعرّف على الدوافع التي توجّه أفعاله ، بخلاف فيلم دان وسعادية ، فالفلسطينيّون هنا يستحقون التعاطف لأنّهم يتصرّفون بوعي وذلك لأنّ المشاهد يتابع الحوارات الذكيّة والدقيقة التي تدور بين أولئك الفلسطينيين .

ما يزيد من مصداقيّة الفيلم أيضًا هو عدم ظهور جميع الفلسطينيين كأناس طيبين يستحقون الإعجاب . فبعد مقتل بيير على سبيل المثال نرى أنّ جورج ورفاقه يبدأون بالتخطيط لهجوم انتقاميّ . ولكن حتّى هذه الصورة تبقى مخالفةً لما رسمه التأريخ الصهيوني حول حرب عام ١٩٤٨ وكل مواجهة أخرى مع العرب ، إذ كان التأكيد دومًا على فعلٍ عربيّ يستتبع انتقامًا إسرائيليًا ، أمّا هنا فالفعل الإسرائيلي يحدث أولًا . ثم تبوء محاولة الانتقام تلك بالفشل لأنّ أحدَ الفلسطينيين بلغ به الطمع أن أفشى أمر تلك الخطّة لعصابة شتيرن مقابل مبلغ كبير من المال ، وهو الشخص ذاته الذي يقدّم معلومات للعصابة عن ميريام ممّا انتهى في نهاية المطاف إلى مقتلها .

أمّا الشخصيات اليهوديّة في المقابل فبدت بصورة سلبيّة ، وكان شراغا ، أخا ميريام ، أسوأ تلك الشخصيّات ، إذ يظهر في الفيلم بالنطاق الكامل لمواصفات مقاتل الهاغانا كما أنّه يتصرّف كبلطجيّ لا يردعه عقل ولا ضمير . فيقول في إحدى المشاهد موجّهًا كلامه إلى مرؤوسيه من بعض المقاتلين الذين أخفقوا في إصابة الأهداف المحدّدة لهم خلال تدريبات التصويب : «تخيّل أنّك تطلق النّار على عربيّ أو جنديّ بريطانيّ ، فهذا سيساعدك .» كما أنّه يفكّر بطرد جورج من فلسطين قبل أن يقرّر قتله ، وفكرة الطرد هذه هي أفضل ما يمكن أن يربط ما بين التأريخ الإسرائيلي الجديد والرواية الفلسطينيّة .

وحتى أعضاء جهاز المخابرات العسكري التابع للهاغانا والمعروف باسم «شاي» كانوا يتصرفون في الفيلم على أساسٍ من العنصريّة والتعصّب، فقاموا بإلقاء الاتّهامات جزافًا ضدّ ميريام، وذلك ليس لكونها تمثّل خطرًا وجوديًا من أي نوع ولكن بسبب حبّها المستنكر لشخص عربيّ. ولعلّك لست واجدًا مثلَ هذا التوصيف إلا في أعمال أكثر المؤرخين الجدد جرأة، وأعني هنا مجرّد التعريض إلى أنّ دولة إسرائيل الفتيّة قد اتّبعت بعض السياسات أو أنّ نخبتها السياسيّة اتّخذت بعض القرارات تجاه الفلسطينيين لا على أساس الاعتبارات الأمنية وإنّما انطلاقًا من محض عنصريّة.

ومع ذلك فإنّ الفيلم لا يستبدل شخصيّات يهوديّة مسطّحة بشخصيّات فلسطينيّة مسطّحة. فإسرائيل، ذاك الصديق الأقرب لشراغا، يبدو لطيفًا طيّب القلب، وهو أيضًا ممزّق القلب لأنّه يحبّ ميريام ويعلم أنّه لهذا يتعاون مع شراغا لطرد جورج وتلقينه درسًا قاسيًا. كما نرى أنّ عددًا من أعضاء شاي ينتفضون امتعاضًا حين سماعهم باقتراح القتل (ولكن ليس الضرب والطرد). الحقيقة أنّ صورة الهاغانا في هذا الفيلم قد كانت مذهلة، فأفرادها لا يندفعون إلى القتل مباشرة، وإنّما يتناقشون حينًا ويترددون حينًا آخر بخلاف صورة أفراد عصابة شتيرن الإرهابيين. وهكذا، وبطريقة صهيونية تقليدية، فإنّ أعضاء الهاغانا لا يطولهم الاتّهام بأنّهم كانوا يستخدمون العنف لأجل العنف وحسب، فيصبح من الأيسر إلصاق العنف في الفيلم بعصابة شتيرن لا بالهاغانا. وفي أحد المشاهد يسأل جورج ميريام قائلًا: «هل كنت قادرة على التعرّف على هويّة أيّ من المهاجمين الذين اغتالوا الضابط الإنجليزي؟» ويردف يقول: «إنكم جميعكم رفاق السّلاح.» كما يقوم جورج بالربط بين مقتل ضابط إنجليزيّ آخر واحتمال وجود تهديد على حياة ميريام، سائلًا باستنكار: «أتعرفين ما سيفعله هؤلاء القتلة حين يفرغون من قتل الإنجليز؟»، وتجدر الإشارة هنا إلى كلمات من قبيل «قتلة» أو «مجرمين» تظهر كثيرًا في الفيلم عند ذكر عصابة شتيرن. أمّا المشهد الأخير من الفيلم فتظهر فيه صورةٌ مركّبة لجورج وميريام مع نصّ يقول: جرى

إعدام ميريام سيدمان رميًا بالرصاص على يد عصابة شتيرن بتهمة الخيانة ، وهي تهمةٌ ألصقت باسمها ولم تثبت عليها أبدًا ، وما زال أولئك المسؤولون عن قتلها طليقين لم تطلهم يد العدالة .»

ولكنّ هذه ليست مجرّد حكاية للمأساة الفلسطينية ، إذ يسعى الفيلم إلى أن يكون رسالة إنسانيّة عالميّة . تتميّز الأفلام إجمالًا على التأريخ عند التعامل مع مثل هذه القضايا وذلك للأثر المباشر الذي يستثيره الفيلم ، وهذه ميزة لا يمكن للنص المكتوبِ أن يحوزها . فالفيلم أقدرُ على الربط بين الجغرافي والسياسيّ ، وهكذا فإنّ معظم اللقاءات بين ميريام وجورج كانت تقع على الشاطئ حيث تظهر الحدود بين تل أبيب اليهودية ويافا الفلسطينية . ذلك هو المكان الوحيد الذي أمكن فيه للحبيبين أن يفصلا نفسيهما مؤقتًا عن البيئة المشحونة بالعدائية من حولهما . كما يقابل المخرج بين هذه اللقاءات على الساحل مع نقاشات تدور في مقرّ الهاغانا حول المصير الذي يجدر أن تلقاه ميريام .

كما يبرز ذلك التباين الحادّ القائم بين بطلي الفيلم وذلك المحيط القاتم والعدائي والطافح بالعنف في طريقة ظهور كلّ من ميريام وجورج على الشاشة وطبيعة الأماكن التي يلتقون بها . فكلاهما على قدر من الجمال والشباب ويرتديان دائمًا أجمل الثياب ، بخلاف أولئك الذين يلبسون الزيّ الكاكيّ الداكن من حولهم ، كما يظهر في الخلفيّة حين يجتمعان منظرٌ بانورامي للبحر وغروب الشمس ، بينما تقع المشاهد الأخرى في أماكن يسود فيها هرج العسكرة وصخبها القبيح .

تحاول ميريام وجورج مرارًا الانفصال عن المخطّطات القوميّة التي ألفيا نفسيهما عالقين فيها ، فذلك جورج يلقي في البحر قنبلة كان يعزم على تفجيرها في منطقة يهوديّة ، وتلك ميريام يذبل وجهها حزنًا عند مسمع الهتافات الجذلة لليهود وهم يحتفلون بما تحقّق من نصر دبلوماسي في الأمم المتحدة . لقد اشتمل الفيلم على كل هذا ، رغم محدوديّة قدرة صانعي الأفلام

على التعاطف مع الآخر مقارنة بما لدى المؤرخين من إمكانيّات . إنّ الأفراد هم محور السينما ، ولذا فإنّ صانعي أفلامها أقدر على التعاطف مع الطرف الآخر- وإنْ كان استدعاء هذا التعاطف مقابل الأسطورة أو السرديّة القوميّة للمرء نفسه يفرض نوعًا من التحدّي . وتتولّد العاطفة عمومًا عند التفاعل العاطفيّ مع بطل الفيلم أو من نظرة كونية ونقدية على الحياة ، وقلّما يكون هذا التعاطف مبنيًا كما هي الحال عند المؤرخين على حقائق جديدة . أمّا التوثيق الجديد في أفلام ذات بعد تاريخيّ فيعدّ أمرًا لا غنىً عنه ، غير أنّه ليس عنصرًا أساسيًا في خلق صورة تأريخية جديدة للماضي . صحيحٌ أنّ للفيلم التاريخيّ كاتبًا ومخرجًا عليه أن يدعّم القصة التاريخية بالمواد الوثائقية ، ولكنّه يكون قادرًا في الوقت ذاته على تحديد أجزاء القصّة التي تفتح المدى أمام الخيال . وحتّى لو كان الفيلم تدور أحداثه حول قصّة حقيقيّة كفيلم «جي أف كي» وفيلم «فروست/نكسون» من إخراج أوليفر ستون(*) ، أو فيلم «غاندي» الذي أخرجه ريتشَرد أتنبورو ، فإنّه يبقى فيلمًا يمزج بين الحقيقة والخيال ، وهذا ترفٌ لا يمكن لصانع الفيلم الوثائقي أن ينعم به .

التوجّه النقدي مابعد الصهيوني في الأفلام الوثائقية

لم يكن فيلم إش تزوليفيت (خطّ النّار) الوحيدَ من بين الأفلام الإسرائيلية التي سلّطت الضوء على بعض الإشكالات والتابوهات ، فهنالك أفلام أخرى عديدة تجاوزت خطوطًا حمراء كثيرة وتناولت قضيّةً مثل استغلال ذكرى الهولوكوست في سياسة إسرائيل وخطابها . فهنالك فيلم من إخراج إيلام موشينسُن صدر عام ١٩٧٩ بعنوان «المسدّس الخشبي» يخبرنا عن القلق الإسرائيلي بخصوص العلاقة المحتملة بين رغبة النازيين في إبادة اليهود في

(*) يقصد الكاتب هنا فيلم «نكسون» (Nixon) وهو من إخراج أولفَر ستون ، أما فِيلم فروست/نِكسُون (Frost/Nixon) فهو من إخراج رون هوارد . (المترجم)

أوروبا من جهة ورغبة الحركة الصهيونية في رؤية اليهود يُطردون من أوروبا لما في ذلك من صلاح للمجتمع اليهودي في فلسطين . كما كانت بعض هذه الثيمات تعالَج في الأفلَام الدراما الوثائقية التي تعرض على التلفاز ، مثل المسلسل التلفزيوني القصير «محاكمة كاستنر» والذي جاء في ثلاثة أجزاء من إخراج موتي ليرنر عام ١٩٩٤ ، والذي يستند إلى القصّة الحقيقية للناشط الصهيوني الذي قام بإنقاذ يهود من هنغاريا من خلال رشوة النازيين ، وقد حاول فيما بعد تبرئة اسمه في محاكمة تشهيريّة ولكنّه باء بالفشل . لقد تناول الفيلم ذلك الرابط المربك بين القيادة اليهودية في فلسطين والهولوكوست ، وقدّم خلاصة مشوّشة مفادها أنّ مصلحة الجماعة اليهوديّة في فلسطين حظيت دومًا بالأولويّة . أما فيلم الدراما الوثائقية «المليون السابع» الذي يعتمد على كتاب توم سيغيف الذي يحمل العنوان نفسه وأخرجه بيني برونر عام ١٩٩٥ فقد ركّز على قرار القادة اليهود بالإحجام عن المشاركة في العمليات الساعية لإنقاذ اليهود إن لم ينجم عنها انتقال الناجين إلى فلسطين ، وأن ينصبّ الاهتمام على إنقاذ اليهود الأكفأ جسديًا وذهنيًا والأقدر على الإسهام في بناء الدولة .

أمّا بعد ذلك فيأتي صانعو الأفلام الوثائقية الذين لا يجرون سوى تغييرات طفيفة في المادّة الحقيقية الأصلية من الفيلم ، إذ يعتقدون جازمين بأنّ الحقيقة تتحدّث عن ذاتها . ويعدّ إيال سِيفان أحد أفضل صانعي الأفلام الوثائقية في إسرائيل ، فهو الذي اختبرَ في واحد من باكورة أفلامه «يزكور : عبيد الذاكرة» الحدود التي للمرء أن يصلها في النقد الذاتيّ لقيمه القوميّة والمنهجيّة القائمة . فيتتبع سيفان في الفيلم استغلال ذاكرة الهولوكوست في نظام التعليم الثانويّ في إسرائيل في الفترة ما بين احتفالات عيد الفصح اليهودي وذكرى الهولوكوست (يوم هشوآه) وصولًا إلى احتفالات عيد استقلال إسرائيل (يوم حانسماوورت) . تكاد الكاميرا لا تنتقل عن غرفة الصف أو باحة المدرسة في الوثائقي ، وهنالك نسخةٌ مزيدة منه تشتمل على مقابلة في غاية الكدَر مع يشعياهو ليبوفتش الذي أتينا على ذكره في الفصل الرابع . ولا يكاد يغيب عن

ذهني تعليق ليبوفتش عن أنّ الهولوكوست ليس شأنًا يهوديًا حين قال : «لسنا نحن من فعل ذلك ، بل الألمان ، ولذا فإنّ تلك مشكلتهم هم .»أمّا الاحتلال فيجب أن يكون شأنَ اليهود في إسرائيل ، ذلك أنّ الاحتلال شرّ من صنع أيديهم . ولقد كان توجيه الدعوة لإسرائيل لتلتفت إلى جرائمها هي بدل العيش في إهاب الضحيّة أمرًا نادرًا ما يُسمع حتى في ذروة مرحلةِ مابعد الصهيونية .

يخامرُ المشاهدَ للوثائقي «يزكور(*)» مزيجٌ من التفاؤل والقنوط . فالمدرسة تنتج سرديّة يهوديّة خاطئة وغير مقنعة من طهوريّة وتلبّس بشعور الضحيّة تستحضر قصص الماضي البعيد عن اليهود في عصر فرعون وتجمع إليها قصص أوروبا النازيّة وحرب الاستقلال عام ١٩٤٨ . ومع أنّ الطلابَ لا يقعون دومًا ضحيّة هذه السرديّة ، إلاّ أنّهم قلّما يحصلون على بدائل لها ، وهكذا سيصبحون على الأغلب عبيدًا لهذه الذكرى الخاضعة للاستغلال . ثمّ إنّها تظهر تلك الممارسة البغيضة لتعبيد الذاكرة لأغراض أيديولوجية ويتجلّى ذلك في استخدام مؤثّر للمواد في مراسم تخليد متعدّدة ذات مسحة مابعد حداثيّة يكون فيها كلٌ شيء متشابهًا سواء أحدث قبل خمسة آلاف سنة أو في الأمس القريب . ثم يأتي المعلّم الفعّال الذي يوعز إلى طلابه بالحفاظ على البوسترات التي تصف خروج اليهود من مصر وذلك لاستخدامها في العروض التقديمية التي تتحدّث عن مخيّمات الإبادة في الهولوكوست . وفي يوم هشوآه يتلقّى كل واحد من الطلاب رايةً مكتوبًا عليها اسمُ واحد من المعتقلات وترى عند مراقبة

(*) عنوان الفيلم الوثائقي ، وتحيل هذه الكلمة في العبريّة إلى صلاة تقرأ في المعابد اليهودية على أرواح الموتى في بعض أعياد اليهود ، كما تحيل في الوقت نفسه إلى خيمة «يزكور» وهي بناء على شكل الخيمة ضمن مؤسسة ياد فاشيم المعنية بدراسة وتوثيق الهولوكوست والتي تشتمل على مجموعة من المتاحف والمعارض . وتجري في الخيمة المراسم الرسميّة لإحياء ذكرى الهولوكوست في إسرائيل .(المترجم)

الطلاب حالة أشبه بالتنافس فيما بينهم للحصول على الراية التي تمثّل أسوأ موقع حدثت في الإبادة النازيّة .

يتناول المخرج غزير الإنتاج عشير تلاليم في فيلمه «هذا الهولوكوست لي : ابتعد عنه»(١٥) موضوعَ استغلال ذكرى الهولوكوست من زاوية جديدة من خلال ربطها مع اليهود المزراحيين . يراقب تلاليم في الفيلم مجموعة من الممثلين العرب واليهود في إسرائيل يشاركون في مسرحية حول الهولوكوست ويتساءل عمّا يجب أن تعرفه الأجيال اللاحقة وتدركه عن هذا الحدث المرعب، كما يستكشف المخرج في فيلمه غالوت (المنفى) عام ٢٠٠٠ متلازمة المنفى والهولوكوست في التجربة اليهودية .

حريٌّ بنا أن نذكر هنا أنّ سيفان وتلاليم قد تركا إسرائيل وهاجرا إلى أوروبا ، وقد صنع سيفان في مهجره عشرة أفلام ، اثنان منهما عالجا تاريخ فلسطين . في أحد أفلامه المتأخرة بعنوان «يافا ، ميكانيكيّة البرتقال» يتتبع سيفان السردية الصهيونية في عملية تفكيك متعدّدة الأوجه لقصة البرتقال اليافاويّ ، إذ يعتمد على هيمنة الصهيونية على زراعة الحمضيّات في فلسطين كصراع مصغّر يعطي صورة عن الصراع في الأرض بعمومها . ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يتعامل فيها سيفان مع تاريخ فلسطين ، فقد جاء فيلمه الثاني الذي عمل فيه مع المخرج الفلسطيني ميشيل خليفة بعنوان «الطريق ١٨١» ليبينا المغالطات التي انطوى عليها قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ والذي قضى بتقسيم فلسطين ، ولينقلا قصّة النكبة في نظر الضحية والجاني في حوار سينمائي مذهل .(١٦)

والحقيقة أنّ سيفان هو من القلائل من بين صانعي الأفلام الإسرائيليين ممّن انخرطوا بشكل مباشر مع قضيّة النكبة . ففي أوائل التسعينات عمل مع ديفِد بنشتريت مخرج الفيلم الوثائقي «عبر حجاب المنفى» الذي سلّط فيه الضوء على محنة ضحايا نكبة ١٩٤٨ من دون أيّة تحفّظات . يعرض بنشتريت في فيلمه هذا حكاية ثلاث نساء فلسطينيات من مستويات مختلفة على صعيدي

التجربة والتعليم ، تبدأ قصّة كل واحدة منهنّ في العام ١٩٤٨ . دلال أبو قمر من مخيّم الشاطئ ، وماري الخص من حيفا ولكنّها تعيش في غزّة منذ العام ١٩٦٧ ، وأمّ محمّد من مخيم عين سلطان غرب أريحا . يكون العام ١٩٤٨ محطّة انطلاق قصصهنّ الشخصية ، ويقبل الفيلم من دون أي تحفّظ حكاية اللجوء كما ترد في الرواية الفلسطينية ، حيث تعيد هذه القصص بكل وضوح تصوير عمليات وضع السكّان في الشاحنات وطردهم من بيوتهم ، تمامًا كما لو كان الفيلم بإنتاج فلسطينيّ . إنّ هذا الفيلم عبر ما يقوم به من نقل قصّة الفلسطينيين باعتبارها قصّة أناس حقيقيين وضحايا للصهيونية ، لأشخاص يحملون أسماء وآلامًا وآمالًا كغيرهم من البشر ، وليس بوصفهم ضحايا لإسرائيل ١٩٦٧ ولكن أيضًا كضحايا لذلك الوجه الصغير والأليف لإسرائيل التي لطالما رنا إليها الصهاينة الليبراليون ، ليعدّ بحقّ تجسيدًا لكل ما لم يكن بوسع السينما والتأريخ والأدب في الحقبة الصهيونية الكلاسيكية أن تصوّره .

يظهر التعاطف مع رواية الطرف الآخر من القضيّة منذ اللحظة الأولى من الفيلم ، إذ يضع المخرج أغنية عربيّة عن الحنين ثم تظهر صورة لشاحنة محمّلة بالناس تمرّ عبر أرض وعرة تتبعها صورة من مخيّم للاجئين . تعيد قصة دلال ، أولى الشهود في الفيلم ، بناء الرابط بين اللاجئين وعالمهم الذي أبيد تمامًا في الحرب ، إذ لم يكن مسح بيتها عن الوجود حدثًا عارضًا في الفيلم ، بل كانت هنالك يدٌ مدمّرة ، تلك هي يد إسرائيل . وتمثّل دلال فصلًا بالغ الأهمّية في الرواية الوطنية الفلسطينية ليس لها مكان في المخيال الإسرائيلي ، ذلك أنّ دلال تتحدّث عن ذلك الشعور بالعرضيّة المؤقّتة الذي صاحبهم في السنوات الأولى في مخيمات اللجوء ، ولعل هذا ما يفسّر رفضَ اللاجئين بناء بيوتٍ لهم في المخيمات لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ قرار الأمم المتحدة ١٤٩ الصادر في كانون الأول ١٩٤٨ يعطيهم الحق في العودة إلى ديارهم . لقد شكّل ذلك القرار فسحة الأمل لديهم في العودة غير أبهين بما ألحقته إسرائيل ببيوت الفلسطينيين من دمار أو بمسار الصراع العربي الإسرائيليّ .

أمّا قصّة ماري الخص فتطالعنا بجانب آخر من الحرمان حيث تصف لنا كيف قامت الجرّافات الإسرائيلية (كاتربيلر دي ٩) بتسوية بيتها بالأرض، ويسير الفيلم مؤكّدا ما ترويه ماري من استيلاء عائلات يهودية على بيوت الفلسطينيين في أحد الأحياء في وادي النسناس في وسط المدينة في حيفا. ويؤكّد الوصف الذي قدّمته ماري ما ورد في الوثائق التي رفع عنها الحظر في الثمانينات والتحليلات التي قدّمها المؤرخون الجدد في إسرائيل. من المثير للفضول في المقابل أن نجد ماري الخص تؤكّد في أحد المقاطع ادّعاء صهيونيًا يرى أنّ الفلسطينيين قد غادروا لأنّهم سمعوا في المذياع أنّ عليهم أن يتركوا بيوتهم، مع أنّ كلّا من إرسكين شلدرز عام ١٩٦١ وبيني موريس عام ١٩٩٢ قد دحضا هذا الادّعاء ولم يجدا أيّ دليل على صدور إيعازات على هذه الشاكلة.(١٧)

وقد عزمَ بنشتريت ذو الأصل المغربيّ على إنتاج ثلاثية تتحدّث عن يهود المغرب. وفي نهاية نيسان ٢٠٠٤ وفي الوقت الذي كان يعمل فيه على فيلم عن اليهود الذين كانوا يعيشون في الاتّحاد السوفيتي ومنعوا من الهجرة إلى إسرائيل وفيلم آخر عن حرب لبنان الأولى، توجّه بنشتريت إلى وزارة الدفاع الإسرائيليّة لموعدٍ تمّ التنسيق له مع المتحدث باسم جيش الدفاع. وبدل إجراء المقابلة وجد نفسه وقد وضع تحت الاعتقال وقيّدت يداه وألقيَ على الأرض وتعرّض لضرب وحشيّ من قبل أفراد الأمن في الغرفة، وقضى بعدها وقتًا طويلًا في المستشفى معانيًا كسرًا في القدم وكدمات في جسده. وقد وضّح الكادر الأمنيّ لاحقًا أنّهم ظنّوا أنّه عربيّ.(١٨)

لم يتعرّض كل صانعي الأفلام لمثل هذه المحنة التي مرّ بها بنشتريت، ولعلّ هذا ما يؤكّد أنّ مثل هذه الوثائقيّات النقديّة السياسيّة ظلّت تمثّل الاستثناء لا القاعدة، فقد كانت معظم الأفلام الوثائقيّة الأخرى متحفّظة حذرة، تصنع للعرضِ على القناة المحليّة، وتحاول أن تلتزم بالخطّ الرسميّ للدولة. وبما أنّ الأفلام الوثائقية التي تعرض على التلفاز لا بدّ أن تخضع لمرحلة من الاستشارة

الأكاديميّة ، فإن معظم الاستشاريين المقترحين كانوا من أكاديميي التوجّه الرسميّ السائد في إسرائيل .

ويتجلّى غياب تفهّم الطرف الآخر عند عرض صورٍ للاجئين الفلسطينيين في هذه الأفلام ، إذ لا يصدر عن التعليق عليها ذرّة من تعاطف معهم ، كما أنّه نادرًا ما كانت تستخدم كلمة «لاجئين» لوصفهم .

هنالك أيضًا بعض صانعي الأفلام الوثائقيّة ممّن مالوا في البداية نحو عمل أفلام نقديّة حقيقيّة ، غير أنّهم رجعوا بعد حين إلى التيّار السائد وعمدوا إلى ترويض غرائزهم النقديّة المبكّرة . تلك كانت حالة عاموس غيتاي الذي لمع اسمه سريعًا في مطلع الثمانينات . ففي فيلمه الأول عام ١٩٨٠ بعنوان «بيت» (ويحمل المعنى نفسه في العربيّة والعبريّة) يخبرنا بقصّة بيت في القدس يخضع لبعض الإصلاحات . تعود الملكيّة الأصلية لهذا البيت لطبيب فلسطينيّ ولكنّه طرد منه عام ١٩٤٨ وقامت السلطات الإسرائيلية ببيعه لمهاجر جزائريّ وزوجه . يتحدّث الفيلم مع جميع من استأجروا البيت وأولئك العاملين في ترميمه ولاسيّما عمّال البناء الفلسطينيين . ومع أنّ البيت رمزٌ للاستقرار والطمأنينة ، إلا أنّ هذا البيت بعد النكبة قد أضحى كالأرض التي عليها رمزًا للصراع والنزاع . ويعترف هذا الفيلم بحق العودة الفلسطينيّ من دونِ أن يشكّك في شرعية ملكيّة ذلك المهاجر الجزائري في البيت . ويمكن العثور على تحليل لمثل هذه الثيمات في أعمال غيتاي الأخرى ولكن ليس بهذا القدر من الاقتناع والوضوح .[١٩]

هذا التقلّب الحذر بين النظر الفاحص لفكرة إسرائيل من جهة وعدم القدرة على الانفصال عنها كليّة من جهة أخرى يظهر بقوّة في سلسلة من الأفلام الوثائقيّة المهمّة في إسرائيل في الفترة مابعد الصهيونية بعنوان «ميلاد جديد» (تكوما) .[٢٠]

تكوما: الفشل في تحديد الموقع

إنّ الرابط بين المقاربة الأكاديميّة والإعلاميّة للماضي في الفترة الذهبية للنقد مابعد الصهيوني تظهر جليًا من خلال إلقاء نظرة فاحصة على المسلسل التلفزيوني «تكوما» ، والذي يتناول تاريخ دولة إسرائيل وجرى عرضه على القناة الإسرائيلية الرسميّة عام ١٩٩٨ بالتزامن مع احتفالات اليوبيل الذهبي لتأسيس الدولة ، وكان الهدف أن يكون المسلسل جزءاً مهمًا من تحضيرات التلفزيون الإسرائيلي لتلك الاحتفالات . فعنوان المسلسل مثلًا يتّسق مع السرديّة الصهيونيّة ، إذ تعني كلمة «تكوما» العبريّة إعادة قيام الشعب اليهودي في أرض الميعاد في فلسطين . ولكنّ هذا العنوان ارتبط ببرنامج تلفزيونيّ يعبّر في بعض أجزائه عن رسالة مابعد صهيونية ، أو متأثرة على الأقل بالتفسيرات مابعد الصهيونية لنقاط أساسية في تاريخ إسرائيل . وقد كان ذلك العنوان بمثابة الغلاف الخارجي أو الإطار الذي تضمّن تلك الرسالة واحتواها وخفّف من حدّة بعض الزوايا في النقد مابعد الصهيونيّ . كما أنّ تلك الآراء مابعد الصهيونية قد ظهرت في المسلسل ضمن سردية صهيونية تقليدية فسّرت الواقع في فلسطين من منظور يهوديّ حصرًا ، ولكن ورغم أنّ التاريخ كان يُنقل فيه باعتباره قصّة صهيونية ، إلا أنّه قد كانت هنالك مؤشرات على وجود قصّة أخرى مختلفة . وصحيح أنّ قصّة الآخر لم تحصل على ذات التركيز الذي حازته الرواية الصهيونية وأنّ ذلك قد أوحى للمشاهد ربّما بأنّ الأخيرة هي الأصحّ ، إلا أنّ المسلسل مع ذلك قد كان يقدّم في بعض المواقف بعض التأكيدات للدعاوى الفلسطينية على لسان بعض الإسرائيليين . بل إنّ الراوي نفسه في الفيلم قد كان يتكلّم عن عدالة وجهة النظر الفلسطينية ، وهكذا يبقى المشاهدون في حالة من الغموض والتشويش .

هذا التذبذب بين الرغبة في إعادة سرد الحكاية الصهيونية والرغبة المقابلة في الحرص على الموضوعية في عرض الموقف الفلسطينيّ يأخذ أشكالًا متعدّدة . كلّ قسم من المسلسل يبدأ بمونولوج عاطفي منمّق صهيونيّ الطابع بصوت يهورام

جاعون أحد أشهر المغنّين في إسرائيل ، ثم يشرع الراوي بسرد القصّة بأسلوب شجيّ بشكلٍ متناغم مع النظرة الصهيونية ، ولكن يقطع هذا النسق في القصّة في بعض المواقف شهود عيان ، فلسطينيون ، ومصريون ، وأردنيون ، بل ويهود من شمال إفريقيا والعراق في بعض الأجزاء التي تتحدث عن سلوك الدولة تجاه اليهود المزراحيين .

يمكن بالنظر إلى انتهاء الحالة مابعد الصهيونيّة ، أو اختفائها المؤقت على الأقل مطلع القرن الحادي والعشرين ، أن نفترض أنّ المسلسل لم يترك أثرًا كبيرًا في المجتمع الإسرائيلي . ولكنّه يبقى من المثير للفضول أن ننظر إليه عبر ذلك الغموض الذي تشكّل على إثر عرضه وذلك لأهمّيته في نجاح أو فشل أي نقدٍ للصهيونية من الداخل في المستقبل . ويؤكّد لنا مسلسل «تكوما» ذلك التذبذب بين المجاراة والانتقاد ويكشف لنا عن المخاطرة التي تكتنف الرحلة بينهما .

ينقسم المسلسل إلى اثنين وعشرين فصلًا ، ولن أتطرق هنا سوى لتلك الفصول ذات الارتباط بصميم النقد مابعد الصهيوني ، أي ما ارتبط بحرب عام ١٩٤٨ والتعامل مع العرب في إسرائيل واليهود المزراحيين في أوائل الخمسينات . لقد كان المسلسل يوجّه انتقادات صريحة إلى حد بعيد في انتقاد إسرائيل ما بعد ١٩٦٧ ، لكن وكما أسلفنا فإنّ هذا الانتقاد كان يقع ضمن حدود الخطاب الصهيوني الشرعي ، ولهذا فإن بعض الفصول المتأخرة وإن كانت مثيرة للاهتمام والتعاطف إلا أنّها لم تشكّل أمثلة حقيقية في حالة مابعد الصهيونية . ومع أنّ الصورة التاريخية للأحداث التي سبقت العام ١٩٦٧ كانت ما تزال تعدّ من قبل «الصهيونية المخفّفة» في هذا المسلسل- وذلك لإعجابها بما ساد من عدالةٍ وخير قبل عام ١٩٦٧ وعزوها كلّ أخطاء إسرائيل لما حدث بعد هذا العام من احتلال- إلا أنّه كشف في واقع الأمر عن شروخ خطيرة في هذه النظرة الحالمة . فقد لمّح المسلسل مثلًا إلى أنّ إسرائيل لم تكن فيما فعلته في العامين ١٩٤٨ و ١٩٤٩ بذلك القدر من الحرص الأخلاقي كما يحلو للبعض أن يصوّر الأمر ، بل لقد كانت تمارس التمييز والعنف في تعاملها مع السكّان العرب

واليهود القادمين من شمال إفريقيا، بالإضافة إلى عدوانيتها تجاه الدول المجاورة وما أبدته من تعنّت حتّى لو لاحت فرصة للسلام في المنطقة. وهكذا فإنّ الفصول التي تتناول المرحلة التالية للعام ٦٧ قد وضّحت كيف أنّ السلوك السابق يفسّر السلوك الراهن، وكيف أنّ تلك السمات التي انطبعت فيها الدولة في بداية تأسيسها لم تزل قائمة وإن بأقنعة عديدة حتّى التسعينات.

يحسن التنبيه كذلك إلى وجود أسباب أخرى أقلّ أهمية للطرائق المتباينة في المسلسل تبعًا لاختلاف الفصول والفترات التاريخية التي تتناولها. ومع أنّ للمسلسل مخرجًا واحدًا، إلا أنّه قد كان كلّ فصلٍ يُكتب ويُنتج ويُخرج من قبل فريق مختلف. وصحيحٌ أنّ لجنة تتألف من خمسة من المؤرخين الرسميين قد أدّت دورًا استشاريًا عامًا في المسلسل بأكمله، إلا أنّ مخرجي الفصول على اختلافها قد مالوا نحو إبداء النقد وتبني توجّهات مابعد صهيونية وذلك لم يكن واردًا عند تلك اللجنة الاستشارية.

وبما أنّ المسلسل معنيّ بتاريخ خمسين سنةٍ من عمر الدولة لا بتاريخ الصهيونية بحدّ ذاته، فإنّه لم يجرِ تناول أسس وجوهر الصهيونية إلا بالحدّ الأدنى، ولم تخرج أي إشارة عن الفترة السابقة للعام ١٩٤٨ عن النسخة الصهيونيّة المعتمدة. لذلك فإنّ عدم التطرّق لجوهر الصهيونيّة- بتجنّب الحديث مثلًا عن الصهيونية كمشروع استعماري- فإنّ الرسالة العامّة للمسلسل قد كانت مختلفةً أيّما اختلاف عن الرسالة التي خرجت عن الأعمال التي قدّمها الأكاديميون في الحالة مابعد الصهيونية خلال التسعينات.

وتنبع أهمّية القسمين اللذين خُصّصا للعام ١٩٤٨ من أنّهما قد كانا تمهيدًا للمسلسل بأكمله، وقد كان بيني موريس أحد الاستشاريين الذين شاركوا في ذينك القسمين، بيدَ أنّه لم يكن مستشارًا أساسيًا، أي أنّه لم يكن عضوًا في اللجنة الاستشارية، ولكنّ اسمه ذكرَ من بين المشاركين، والأهمّ من ذلك أنّ بصمته كانت واضحة فيهما. بل إنّ بعض الحلقات في الفصلين عن العام ١٩٤٧ و١٩٤٨ قد أخرجت وكأنّها فقرات كاملة من كتابه «مولد مشكلة

اللاجئين الفلسطينيين ، ١٩٤٧-١٩٤٨» . ولقد كان أهمّ أثر تركه انخراط مورِس هو المركزيّة التي منحت لمسألة اللاجئين في النقاش التاريخي حول حرب ١٩٤٨ ، إذ لم تحظ قضيّة اللاجئين حتى ذلك الحين بأي اعتبار حقيقيّ في السياق العامّ الذي حدّده المؤرخون الرسميّون للدولة الإسرائيلية . ولم يقتصر الأمر على تسليط الضوء على مسألة اللاجئين في القصة التي يعرضها المسلسل ، بل وتعدّاه إلى خلق نقاش حول السّبب الحقيقيّ الذي جعل الفلسطينيين يتركون بلادهم . لكنّ الجواب أتى وسطًا بين الرأي الصهيونيّ ورأي مورِس ، فذهب المسلسل إلى أنّ نصف السكان كانوا قد رَحَلوا أمّا النصف الآخر فقد طردوا . ولم تأت هذه الفصول على أيّ ذكرٍ للتفسير الإسرائيلي التقليديّ بأنّ الفلسطينيين قد غادروا بناءً على دعوةٍ شاملةٍ لهم من العرب بالرحيل .

وقد اعتمد البرنامج على شهود عيانٍ لتقديمِ أدلة على القصص التي يرويها ولم يتحدّث مع المؤرخين . وقد ذكر بعض الشهود الفلسطينيين أنّهم كانوا قد ظنّوا أنّ بإمكانهم الرحيل لأنّ العرب سيقفون إلى جانبهم لاحقًا ، ولكنّهم لم يذكروا أيّ شيءٍ عن دعوة أو أوامر وجّهت إليهم بالرحيل . أمّا معظم الشهود الفلسطينيين فقد سردوا حكاياتٍ عن الطرد والاقتلاع من الأرض . كما تعامل الفصلان الأولان بشيء من الاستفاضة مع مسألة المجازر . لقد كان هنالك إقرار بأنّ ما حدث في دير ياسين لم يكن حادثًا منفصلًا ، كما أتى المسلسل على ذكر مجازر أخرى بعبارة عامّة ، ولم يرد ذكرٌ صريح لها إلا مع مجزرة بلد الشيخ : (في الليلة الأخيرة من عام ١٩٤٧ قامت القوّات اليهودية بارتكاب مجزرة في القرية التي تقع على الأطراف الشرقية من حيفا وقتلت جميع الرجال فيها ، وذلك ردًا على اعتداء على عمّال يهود في المصفاة القريبة) . غيرَ أنّ هذا وصفٌ بعيدٌ حتّى عمّا كان مورِس نفسه يصوغه بعناية وحذر عن المجازر الأخرى ، ناهيك عمّا هو محفور في الذاكرة الجمعيّة للفلسطينيين كما جاء في الأعمال المهمّة لوليد الخالدي ولاسيّما كتابه «كي لا ننسى : قرى فلسطين التي دمّرتها إسرائيل سنة ١٩٤٨ وأسماء شهدائها» ، أو حتّى ما تمّ إثبات حدوثه في أعمال إسرائيلية ذات

صبغة أقلّ صهيونيّة.[٢١] ومع ذلك فإنّ مجرّد الحصول على اعتراف إسرائيليّ بفظائع ارتكبت في الماضي يمثّل تقدّمًا عظيمًا. هنالك جملةٌ خرجت على لسان أحد كبار الضباط الإسرائيليين في إحدى حلقات المسلسل ولا تزال عالقةً في ذهني مذ سمعتها. لقد وُجّه سؤال إلى هذا الضابط حول عقيدة «طهارة السلاح»- ذلك التعبير المتضارب الذي وُلد في إسرائيل مع حرب ١٩٤٨- فما كان منه إلاّ أن اطّرح السؤالَ من أصله وظهر على وجهه تعبير يوحي بالغيظ ثم قال: لم يكن للإسرائيليين طبعًا أن يلتزموا بعقيدة «طهارة السلاح» وهم يحاربون السكان المدنيين. كل قريّة أمست هدفًا، وجميعهم «أكلتهم النيران كما تأكل الحطب». بل إنّه يعيدُ هذا الوصف المرعب كرّة أخرى: «أكلتهم النيران كما تأكل الحطب، كما تأكل الحطب». كما أنّه يعترف بأنّ الأبرياء والمقاتلين قد قضوا في أجيج تلك النيران.

يُظهر المسلسل بوضوح كذلك أنّه وحتى أيار من عام ١٩٤٨ قد كان الطرف الآخر يعاني من نقصٍ في أعداد المقاتلين. ويمكن أن نلحظ في واحدٍ من الفصول التي تحدّثت عن حيفا بناءً على شهاداتٍ من أناسٍ عاصروا الأحداث معالجةً ناقدةً أكثرَ حتّى مما يمكن استخلاصه من الوصف الذي ورد في كتاب موريس والذي تحدّث فيه عن هروب السكّان من حيفا لا عن طردهم منها. لكنّ شهادات العيان مدعومة ببعض مقاطع الفيديو النادرة قد أظهرت أنّ ما حصلَ في حيفا لم يكن سوى عمليّة طردٍ. ثم تردُ قصّة عن زيارة جولدا مائير للمدينة وصدمتها على غير عادتها ممّا جرى للسكّان الفلسطينيين هناك، وهي قصّة من شأنها أن تعزّز الانطباع بأنّ ما حصل ليس حادثة منعزلة. ويظهر أنّ ذلك قد ذكّرها بما قاساه اليهود من مذابح وإبادة في الماضي، وجعلها تفكّر لوهلةٍ في المأساة الفلسطينية ولاسيّما في الدور الصهيونيّ في صنع هذه المأساة. بيدَ أنّ هذا البحث عن راحة الضّمير لا يدوم طويلًا ولا يُفلح في تغيير المواقف المعادية للفلسطينيين عند تلك المرأة التي صارت فيما بعد رئيسة الوزراء.

بقي أن أشير أخيرًا في جزئية النكبة إلى أنّ حلقات المسلسل قد تحدّثت

عن استيلاء المهاجرين اليهود على بيوت فلسطينيّي المدن وذلك عقبَ طردِهم منها أو هروبهم عنها . أمّا المسكوت عنه فهو حكاية قرى فلسطين ، تلك القضيّة الجوهرية التي تظهر إلى سطح الحقيقة عبر ما قدّمه «المؤرخون الجدد» في إسرائيل حولها وفيما ورد في أعمال المؤرخين الفلسطينيين عنها ، كما أنّها تمثّل ثيمةً مهمّة في أعمال الروائيين والشعراء الفلسطينيين . ولا ترد في مسلسل «تكوما» أية إشارة إلى ما جرى من إبادةٍ للقرى والاستيلاء على أراضيها وضمّها لمستوطنات يهودية قائمة أو لإنشاء مستوطنات جديدة فوقها ، وهي مستوطنات كثيرًا ما تحمل أسماء معبرنة تذكّر بأسمائها العربيّة القديمة .

لقد خصّص المسلسل مساحة معتبرة للحديث حول جهود السلام بعد حرب ١٩٤٨ ، وقد كان مجرّد ذكرها أمرًا لا يخلو من جدّة ، ذلك أنّ الذاكرة الجمعيّة للإسرائيليين لا تعرف شيئًا عمّا حصل بين الأطراف المتحاربة منذ الهدنة عام ١٩٤٨ وحتّى اتفاقيّة أوسلو سنة ١٩٩٣ . لقد وَصفني واحدٌ من نخبة المؤرخين في إسرائيل ذات مرّة بأني «مدلّس» وذلك لأنّي قلتُ إنّ ديفد بن غورين ، أول رئيس وزراء في إسرائيل ، لم يسع للتوصّل إلى سلام مع العالم العربي بعد حرب ١٩٤٨ ، وقد دهشتُ بالمعنى الإيجابيّ للدهشة حين طفق الراوي في المسلسل يؤكّد على أنّ هذا هو بالفعل ما كان من موقف بن غورين تجاه قضيّة السلام ، وهو عينُ ما ذهبت إليه في كتابي «نشوء الصراع العربي الإسرائيلي ، ١٩٤٧-١٩٥١» والذي نشر قبل عرض المسلسل بعدة سنوات . لكنّ السرديّة وإن تشابهت في إحدى الجزئيات إلا أنّها تخلص إلى رأي مختلف عمّا وصل إليه موريس وآفي شلايم وأنا من أنّ فرصة السلام قد ضاعت من بين أيدينا بسبب تعنّت إسرائيل ، وتقفز إلى رأي المؤرخ الصهيونيّ إيتمار رابينوفتش ، سفير إسرائيل إلى واشنطن ورئيس جامعة تل أبيب حينها ، والذي ادّعى فيه أنّ السلام كانَ أمرًا «عسير التحقّق» .(٢٢)

في المحصّلة ، فإنّ تلك الحلقات التي عالجت حرب ١٩٤٨ قد أشارت بالفعل إلى بعض النتائج التي نجدها عند «المؤرخين الجدد» ، وأبانت عن رغبة

لعرض ما يراه الطرف الآخر ، إلا أنّه يلزم التنويه إلى أنّ هذه الإشارات واللفتات لم تكن القضيّة الكبرى في ذلك المسلسل وأنّها قد أتت ضمن إطار الصهيونية الرسميّة العامّ . فقد تناولت الحلقات التصورات الإسرائيلية لما حدث في العام ١٩٤٨ ، ولم يحصل المشاهد إلا على جرعات بسيطة حول مأساة الفلسطينيين ووجهة النظر الفلسطينية حول القضيّة .

لقد ساد طابعٌ من حزن في الفصول التي تناولت أحداث العام ١٩٤٨ ، ويظهر ذلك في الموسيقى الشجيّة المرافقة للمشاهد وفي اختيار شهود العيان اليهود الذين اختيروا بعناية لنقل صوتٍ واحد للمأساة . ولا شكّ في أنّ حرب عام ١٩٤٨ قد قُدّمت في المسلسل بوصفها حدثًا مأساويًا بكلّ معنى الكلمة في تاريخ الشعب اليهوديّ . والحقّ أنّ هذا أسلوب مختلف كلّ الاختلاف عمّا ظهر في أفلام وثائقيّة أخرى كان فيها ذلك العام عرسًا من الفرح أصابته مسحةٌ من حزنٍ عابر . بيدَ أنّ هذا الحزنَ الذي ينقله المسلسل ليس له ارتباط بقسوة الحرب وعبثيتها ، وإنما كان يتعلّق بحاجة المرء للتضحية بأبنائه في سبيل الوطن . وكما أنّ الصهيونية الليبرالية ترى أنّ ما حصل للشعب الفلسطينيّ لم يكن سوى ظلم أصغر لتصويب ظلم أكبر (أي ما تعرض له اليهود من إبادة في أوروبا) ، فإنّ الانطباع الأخير الذي يتركه المسلسل يتلخّص في أنّ المأساة الكبرى في حرب ١٩٤٨ هي ما لحق بالمجتمع اليهودي في فلسطين ، وهي مأساةٌ حقيقيّة فيها من قصص الخسارة والحرمان ما يجعل المأساة الفلسطينية أمرًا هيّنا مقارنةً بها . وعلى غرار الصهيونية الليبرالية أيضًا في معالجتها لاستخدام العنف وكيف أنّها لجأت إليه في تردّد لمواجهة العداء العربيّ ، فإنّ الأفلام ترسم لنا كذلك ميلًا يهوديًا لتقليب النظر في نتائج الحرب العادلة ولكن ضمن نموذج الجنود الذين «يطلقون النار وينتحبون بعدها» ، وهو تعبير آخر برز كموضوع أساسيّ في حوارات بين جنود إسرائيليين بعدَ حرب ١٩٦٧ . ولعل المرء يجدُ أثناء مشاهدة المسلسل أنّ أيّ مخرج آخر كان سينتقي مقاطعَ من شأنها أن تُظهر ابتسامات النصر وحماسة الحربْ على وجوه الجنود الإسرائيليين بعد تدميرهم واستيلائهم

على قرية فلسطينية أخرى . ولكنّ مشاهدي مسلسل «تكوما» لم يروا سوى وجه ملتاع لمجتمع بلغ الغايةَ من الأخلاق والتمدّن وجد نفسه ، من دون سابق خطأٍ منه ، في معمعة هذه الحرب . ولم أشاهد فيما رأيت من عروض تلفزيونية وطنيّة لأحداث على هذه الشاكلة مثل هذا التركيز في المقاطع المصوّرة والطاقة المبذولة لإظهار ذلك الاكتراب الأخلاقيّ على ما هو في واقع الأمر جريمةٌ ضد الإنسانيّة .

يظهر علاوة على ذلك أنّ هنالك طريقة محدّدة اتُّبعت في اختيار شهود العيان الفلسطينيين واليهود . فقد كانوا في الظاهر أناسًا عاديّين من العامّة ، ولكنّهم ليسوا كذلك . فعلى الجانب الإسرائيلي نرى أنّ الشهودَ يتمتّعون بقدرات حواريّة عالية ، وهم عادةً من الضباط الكبار الذين يقدّمون بأسلوب جزلٍ وإحساسٍ عميق وصفًا لما مرّوا به من تجارب . أمّا الشهود الفلسطينيون فقد كانوا عادة شيوخًا من عرب إسرائيل في الأغلب (أي ليس ممّن عاشوا حياتهم كلّها في مخيمات اللاجئين) يسردون ذكرياتٍ هشّة برطانة عبريّة معتمدين كثيرًا على الشعارات ومفتقرين أحيانًا إلى الوضوح والاتّساق . ويخيّل إليّ أنّ هذا الأمر لم يأت مصادفةً ، وحتّى لو حدثَ من دون قصدٍ واعٍ ، فإنّ هذا الاختيار يعدّ وسيلة للتقليل من أهمّية وجهة النظر الفلسطينيّة ، وذلك لو أنّ أحدًا كان يرغب في تقديمها لاختار أن يظهر الفلسطينييون بصورة أخرى غير هذه .

أمّا فصول مسلسل «تكوما» التي عنيت بفترة الخمسينات ، ولاسيّما ما كان يرتبط بتعامل الدولة مع اليهود المهاجرين من الدول العربية والمواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل ، فقد قدّمت أيضًا بعض الإضاءات مابعد الصهيونيّة في هذا الصدد . لكنّ الدور الصهيونيّ في تشجيع المجتمعات اليهودية المحليّة في العالم العربي على الهجرة إلى إسرائيل لم يطرق إلا قليلًا ، مع أنّ الأوهام التي نشرها الصهاينة نقلت بشكل كافٍ . لقد كانت القضيّة الأساسيّة هنا هي استيعاب المهاجرين بعد مقدمهم إلى إسرائيل أو الإخفاق في ذلك . لقد كانت معاملة الإسرائليين الأوائل للمهاجرين الجدد تنضوي على توجّه

سلبيّ من كلّ ما هو عربيّ، وقد تجلّى هذا التوجّه لاحقًا على شكل سياسات كولونيالية في التعليم والحرب. كما أنّ عملية التهميش على المستوى الجغرافي والاجتماعي والمهنيّ قد برزت بوضوح في قصص أولئك الذين نجحوا فيما بعد في تحقيق مستوى معيشيّ أفضل. أمّا الرسالة هنا فهي أنّ إسرائيل قد كانت أرضَ الفرصِ المتاحة للجميع.

وقد اشتمل المسلسل في هذا السياق على دليل جديد جدّة حقيقيّة تجدر الإشارة إليه. أعتقد أنّ القليل من الإسرائيليين قد كانوا على علم بأنّ التعويضات العامّة التي تلقّتها إسرائيل من ألمانيا قد جرى توزيعها بشكلٍ غير منصف على المواطنين اليهود في الدولة. لقد ساعدت هذه التعويضات في رفع مستوى المعيشة لليهود الأشكنازيين لكنّ المزراحيين لم يشركوا في هذا الخير، ونجم عن ذلك توسيع الفجوة السيوسيو-اقتصادية بين الفئتين. فيخبرنا أحد اليهود العراقيين في المسلسل كيف أنّه عاين التطوّرات الماديّة في الحياة العامّة في تل أبيب من ثياب جديدة وطعام وفير في المتاجر وسيّارات ومرافق عامّة، بينما لم يكن يشهد في الحيّ الذي عاش فيه سوى الركود والحرمان المتوصل.

ولعلّ أشدّ التعليقات قسوةً في هذا الفصل من المسلسل حول موضوع استيعاب المهاجرين وكان له في رأيي أبلغ أثر وأعمقه وأحاط بجوهر قضيّة المهاجرين المزراحيين هو ما جاء على لسان سيّدة يهوديّة يمنيّة الأصل هاجرت إلى إسرائيل في الخمسينات. فحين جُمعَت هذه المرأة أمام الكاميرا مع سيّدة أشكنازيّة كانت قد درست على يدها قبل أربعين سنة، واجهتها بسؤال عن سبب اختيارها للعمل مع فئة محرومة ومهمّشة كالمزراحيين، وقالت لها: «أفعلت ذلك لأنّك صهيونية أم لشعورك بأن إنسانيّتك تحتّم عليك هذا الواجب؟» وقد أتى الجواب من معلّمتها مرتبكًا وغير واضح، ولكنّه نقل انطباعًا بأنّ الأيديولوجيا قد كانت دافعًا أكبرَ من الدافع الإنسانيّ، وهذا ما أدّى إلى لجوء المستوطنين اليهود الأوائل إلى شيء من القسوة في تعاملهم مع المهاجرين الجدد.

في مشاهد أخرى يظهر أنّ بعض اليهود المزراحيين قد شعروا أنّ الخطاب الصهيونيّ قد حجبَ ما كان يجري من تلاعب وخداع . أفرد المسلسل حلقة خاصّة حول المواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل بعنوان «المتشائل» ، وهو عنوان كتاب لإميل حبيبي «الوقائع الغريبة في اختفاء أبي النحس سعيد المتشائل» ، وقد كانت هذه الحلقة إلى حدّ بعيد أفضل فصل في المسلسل بأكمله ، لأنّها الوحيدة التي لم تلعب لعبة «التأرجح والتوازن» التي سبق أن تحدثنا عنها .(٢٣) فلم يشعر المخرج هنا بدافع لإظهار «الجانب الآخر» من قصة التمييز ضد الفلسطينيين في إسرائيل ، بل ترك انطباعًا بأنّه لم يكن ثمة طرف آخر ، وأنّه لم تكن ثمة ظروف تخفّف من حالة الإساءة والاحتقار التي تعرّض لها المواطنون الفلسطينيون عبر ثمانية عشر سنة من «حالة الطوارئ» (١٩٤٩-١٩٦٦) . وعليه يرى المشاهدون كيف جرى طرد أهالي القرى من بيوتهم بناءً على اعتبارات أمنيّة في بداية الخمسينات . كما اعترف الحكّام العسكريون بأنّهم قد كانوا أشبه بملوكٍ ذوي حصانة إذ نكّلوا بالسّكان المحليين بشكل يوميّ . أمّا ما غاب مع الأسف في هذا التحليل في حلقة «المتشائل» فهو الإحالة إلى وضع الفلسطينيين في إسرائيل في التسعينات ، إذ نقل صورةً لعمليةٍ شبه حتميّة من التحديث والأسرلة للأقليّة الفلسطينية في إسرائيل . ولكنّ هذا الجزء على أيّة حال ، وجزءًا آخر عن السلوك الإسرائيلي خلال الانتفاضة الأولى ، قد أثارا بلبلة سياسيّة دفعت بالمغنّي الإسرائيلي يهورام جاعون إلى ترك دوره في المسلسل كراوٍ أساسيّ كي لا يُظنّ أنّه يدعم المقاتلين الفلسطينيين .

المثير في الأمر أنّ مسلسل «تكوما» رغم أنّه تجاهل اليمين الصهيوني عمومًا (وحمّل اليسار الصهيونيّ مسؤولية ما حصل من طردٍ ومجازر وتمييز واستغلال إلى جانب العرب) إلا أنّ الليكود هو من قاد الحملة ضد هذا المسلسل الذي وصفه بأنّه «مابعد صهيوني» . كان الليكود في الواقع قد نصّب نفسه حاميًا للمثل الوطنية ومسؤولًا عما فعلت الأمّة الإسرائيلية وما تفعل . ولذا فإنّ وزير الاتصالات حينها ، ليمور ليفنات ، وكان من الليكود ، قد قال إنّه يلزم عرض

جميع تلك الأفعال للأمّة على أنها عادلة وأخلاقية . أمّا أوري بورات ، المدير العام لهيئة البثّ الإسرائيلية ، فقد وعد بعرض أربعة أجزاء أخرى لتعديل ما حدث من «تشويه» لصورة الماضي . ولعلّ ما دعا إلى فورة الغضب الرسميّة هذه هو ما يتمتع به المسلسل من نسب مشاهدات عالية وانتشاره على شكل أشرطة فيديو لقيت رواجًا في المجتمع . ومع أنّ وزارة التربية والتعليم في إسرائيل قد منعت أن يكون «تكوما» ضمن المناهج التعليمية ، إلا أنّ المدارس الثانويّة قد كانت تتسابق للحصول على نسخ من المسلسل لعرضها في الصفوف ، سواءً أحصل ذلك بشكل رسميّ أم غير رسميّ .

ولم يكن مثل هذا الاهتمام المتزايد في تلك الأيام أمرًا يدعو للاستغراب . فقد كان الانطلاق من منظور صهيوني شامل للتعامل مع الماضي أمرًا مضجرًا ناهيك عن تشكيله مخالفة تاريخيّة . لقد كان المعلمون والطلبة على السوّاء يرغبون في النظر إلى الأحداث من زاوية جديدة ، لعل ذلك يجيب عن السبب الذي يجعل الإسرائيليين يستثقلون الفرح في الذكرى الخمسين لتأسيس دولتهم ، ويفضّلون بدل ذلك أن يفكّروا فيما يربط بين تاريخهم وحاضرهم . ولقد تمخّض عن هذا التقصّي إحساس بالألم ولم يترك ثمّة فسحة للفرح ، ودفع الإسرائيليين للتخلّي عن موقفهم التقويّ الذي يعزّ على علمانيّي اليهود ومتديّنيهم . إنّ هذا المسلسل قد وضع المشاهد أمام حالةٍ من التباين بين العنوان المختار له «الميلاد الجديد» والوضع الراهن الذي تعيش به إسرائيل بعد خمسين سنة من تأسيسها من انعدام للاستقرار والأمن ، ذلك أنّ الدولة والمجتمع أخفقوا جميعًا في التصالح مع أولئك الذين طردوهم من بيوتهم وسلبوا أرضهم ودمّروا ثقافتهم . لكنّ القرنَ التالي أثبت رغم ذلك أنّ جعل مثل هذه المصالحة أمرًا ممكنًا سيتطلّب أكثر من مجرّد برنامج تلفزيونيّ يعرض شيئًا من النقد مابعد الصهيوني الملطّف .

الفصل الحادي عشر
انتصار النيو-صهيونية

إنّ المنتمين إلى الحالة مابعد الصهيونيّة يرفضون الصهيونيّة ولا يعدّونها إيديولوجيا سليمة ويصرّون على أنّها ليست مناسبة لمتطلبات زماننا هذا . . . ولكنّهم لا يتبنّون بالضرورة ذلك الموقف القديم المناهض للصهيونيّة . إنّهم يرون أنّ المشاكل الاجتماعية والسياسية والثقافية التي يواجهها الإسرائيليون في الداخل واليهود في الخارج لا يمكن حلّها وفق الخطاب الصهيونيّ كما لا يمكن التخلّص منها باتّباع الأجندة السياسية والأيديولوجية الصهيونية القائمة .

عادي أوفير ، المؤسس والمحرر الأوّل لمجلّة النظريّة والنقد[١]

إن لم تكن الانتفاضة الثانية قد قضت على الحالة مابعد الصهيونيّة من جذورها ، فإنّها قد عملت بالتأكيد على دفنها على الأقل . لقد كان المنتمون لهذه المدرسة حتّى قبل هذه الانتفاضة يجدون صعوبةً في اختراق المجال الأكاديميّ ، أمّا الآن فإنّهم يتجنّبون استخدام هذا المصطلح تمامًا .

نيري ليفنا ، صحفيّة ، هآرتز[٢]

لن يصعب عليك أن تلحظ الأجواء التي أحاطت بيوم الاستقلال هذا العام ، إنّها أجواء من الرضا . . . إنّ ما يفسّر هذه

الحالة من الانشراح هو ما جرى من دحضٍ للأفكار مابعد الصهيونيّة. لقد كانت إسرائيل عند مطلع التسعينات تتعرض لهجمة عنيفة من أصحاب التوجّهات مابعد الصهيونيّة الذين نعموا طوال عشرين سنةً بهالةٍ من الرّواج والانسجام مع العصر. فكلّما كانوا يدّعون قبحنا كانوا يدّعون حسنهم، وكلّما ادّعوا أنّ الشرّ فينا ادّعوا أنّ الصلاح فيهم، وكلّما رأوا أننا أشبه بجنوب إفريقيا رأوا أنفسهم أشبه بنِلسون مانديلا.

إن الهجمات المنهجية لمابعد الصهيونية على الوطن القوميّ لليهود وعلى الحركة القوميّة اليهوديّة وعلى الشعب اليهوديّ نفسه قد ضمن لهم بعض التصفيق من هنا وهناك حول العالم، وذلك أنّ تعاونهم غير الواعي مع أعداء الساميّة، قديمهم وجديدهم، قد فتح لهم أبوابًا في الأكاديميا والإعلام العالميين...

لقد تجلّت للأمريكيين والأوروبيين والعرب والإسرائيليين الآن- أدركوا ذلك أو لم يدركوه- تلك الفجوة الهائلة بين الأبعاد (الإنسانيّة) للظلم الإسرائيلي وتلك الحالة (اللاإنسانية) من الضغط والوحشية التي تحيق بها. لقد وعّت هذه الفجوة الناس وشرحت لهم بعض الأمور التي اضطررنا لفعلها وبيّنت لهم حجم الإنجازات العظيمة التي قمنا بها. وهذا ما أسقط مابعد الصهيونيّة وجعلها شيئًا من الماضي، وهذا هو مصدر الفخر العميق الذي شعرنا به في يوم الاستقلال، وهو ما يوضّح لنا كذلك التحدّي الذي نواجهه في العام السادس والستين لتأسيس دولتنا.

آري شافيط، من كبار مراسلي هآرتز في يوم الاستقلال الإسرائيلي، ٢٠١٣.(٣)

قام أكاديميّ أمريكيّ يهوديّ شاب يدعى يورام حازوني في منتصف التسعينات بتأسيس مؤسسة جديدة باسم مركز شاليم، وهو مركز لصناعة الفكر (ثم صار جامعة مؤخّرًا) يهدف إلى مواجهة ما رآه الأخطار التي تمثّلها مابعد الصهيونية. لقد عمل حازوني لفترة كاتبًا لبنيامين نتنياهو وكان في فريقه الاستشاريّ. وفي العام ١٩٩٦ نشر شاليم العدد الأوّل من مجلته «أزورا: أفكار للأمّة اليهوديّة». أمّا الدعم المالي فقد جاء من مكتب رئيس الوزراء (ومن مموّلين محافظين من الولايات المتحدة) ومن هناك أيضًا جاء بعض كبار كتّاب المجلّة وزملائها.

وقد وضّح حازوني رؤيته فيما يتعلق بالقوّة المفسدة للمدرسة مابعد الصهيونية في مجلة أزورا في صيف عام ١٩٩٦ فقال:

> إنّ الحقائق مابعد الصهيونية قد بلغت درجةً من الوضوح حتّى أنّها باتت تخلق حالةً من «الصواب السياسيّ» الإسرائيلي الذي يسوّغ، كي لا يتفاجأ أحد، بتقييد حريّة الآراء المخالفة... إنّ الثمار الفاسدة للسياسة مابعد الصهيونيّة قد ظهرت أكثر وضوحًا في وزارة الخارجية.. .إنّ الدولةَ اليهوديّة لَهِيَ فكرةٌ سياسيّة في المقام الأوّل، ويمكن للجيوش أن تنال من جسد الدولة، لكنّ الخطرَ الأكبر يقع على مستوى الأفكار.

لقد شيّدت مجلة أزورا البنية الإيديولوجية لعهد جديد في تاريخ دولة إسرائيل بمنح فكرة إسرائيل مقام الكفاح الوجوديّ ضد الفلسطينيين، ولاسيّما أولئك الذين يعيشون في إسرائيل، بالإضافة إلى الأعداء من الداخل، أي كلّ من يحسبُ على الحالة مابعد الصهيونيّة. وقد بدأت المرحلة الأولى من هذا الكفاح في الكنيست أمّا الثانية فقد كانت في ميدان الأكاديميا. لكنّ المنازلة امتدّت إلى السياسة الخارجية أيضًا، على شكل اعتداء على جيران الدّولة وعلى الفلسطينيين تحت الاحتلال، وإلى ميدان النظام التعليمي والإعلام.

وقد أوضح أوفير هايفري محرر هذه المجلّة الجديدة أنّ فريقه يطمح إلى بناء الأكاديميا والإعلام الصهيونيين ، وذلك لأنّ هذين المجالين كانا في رأيه قد اختطفا من قبل المنتمين إلى مابعد الصهيونيّة . وقد بدا المركز وأعضاؤه وقتذاك فئة يكتنفها الغموض على الأقل أو حتّى مثيرة للشفقةِ ، لكن وفي ظرف عقد من الزمن غدَت أجندة هذا المركز تجسّد فكرة إسرائيل في القرن الحادي والعشرين . ولم تكن هذه الفكرة متباينة عن مابعد الصهيونيّة وحسب ، بل كانت مخلوقًا مختلفًا أيضًا عن الصهيونية الليبرالية أو العمّالية التي وجّهت فكرة إسرائيل في القرن الماضي . ولعلّ فحوى هذه الفكرة مألوف لنا اليوم ، فهي نسخة قومجيّة عرقيّة ودغمائية من القيم الصهيونيّة تسقط أمامها كل القيم الأخرى في المجتمع ، وأي محاولة لمعارضة هذا التفسير لفكرة إسرائيل ستتهم بعدم الانتماء إلى الوطن أو حتّى خيانته .

أثر مابعد الصهيونية

فلنبحث أولًا إن كان لمابعد الصهيونية حقًا حضور واسع ومهيمن كما كان يؤكّد مؤسسو مركز شاليم والداعمون لهم . لقد ذكرنا في الفصلين السابقين أنّ التفسير مابعد الصهيوني لماضي إسرائيل وحاضرها قد لقي حظًا وافرًا من المعالجة في الأفلام والإعلام ، ولكنّ حقيقة أنّ منتجي المعرفة قد اعتمدوا عليه ليس مؤشّرًا بالضرورة على أنّ الرسالة التي نقلوها قد كانت مقبولة على نطاق واسع عام ١٩٩٦ من قبل مستقبلي المعرفة . إننا نعلم ونحن الآن في العام ٢٠١٤ أنّ هذه الرسالة قد كانت في واقع الأمر مرفوضة عند الأغلبية الساحقة من الناس ، بيدَ أنّنا لم نكن ندرك هذا في تلك الفترة خلال التسعينات .

كما أنّنا لن نجانب الصواب إن حكمنا على وجه العموم بأنّ الرواياتِ والمسرحيات والأفلام التي تجاوزت السرديّة الصهيونية ونظرتها السلبية عن العرب لم يكتب لها أنّ تصبح من ضمن السائدِ المقبول في إسرائيل ، حتّى في أفضل فترات مابعد الصهيونيّة ، التي لم تمثّل موقفًا ثقافيًا مهيمنًا في إسرائيل ،

ولا كان منتجو أعمالها من بين قادة المشهد الثقافي الإسرائيلي. لكنّ هذا لا ينفي حقيقة أنّ «المؤرخين الجدد»، والشعراء وصانعي الأفلام والمسرحيّين كانوا ينشطون بالفعل ضمن النظام الذي أنتج وشكّل الهوية الثقافيّة للبلاد، وكان بوسعهم من الناحية النظريّة أن يؤثروا على المجتمع لو تمكّنوا من الاستمرار في مسيرتهم النقديّة بعد العام ٢٠٠٠.

إنّ الخلاف الأكاديميّ المتواصل الذي انضمّ إليه آخرون من منتجي الثقافة لم يكن مؤشّرًا على محضِ شقاق أكاديميّ وإنما كان دليلًا على أزمة هُويّة في المجتمع الذي لاحت له احتماليّة السلام عام ١٩٩٣. لقد كان السلام قادرًا على زعزعة التوافق الوطنيّ، والذي كان قائمًا على ضرورة التحرّك الموحّد ضد الأعداء المشتركين. كما أنّ ما تحقّق من نجاح وأمانٍ على المستوى الاقتصادي كان قد حدا بالمجموعات الأقل حظًّا إلى المطالبة بنصيبٍ أكثر عدالة، كما شجّع الفلسطينيين داخل إسرائيل على بيان التعارض القائم بين دعوى ديمقراطية الدولة وإصرارها على الحفاظ على يهوديّة الدولة. لقد تطلّب تحقيق السلام الحقيقيّ تغييرًا جذريًا في الذهنية الإسرائيلية وفي الآراء اليهودية الأساسيّة عن العرب عامّة والفلسطينيين خاصّة. لذا فإنّ عددًا قليلًا من الأشخاص الذين امتلكوا القدر ة على الوصول إلى الناس من منبر الجامعات أو المدارس أو عبر الصحافة والسينما شرعوا في توضيح نقاط مبدئيّة ضروريّة للتغيير. وقد كانت نقطة الانطلاق تكمن في الإقرار بأنّه يمكن تفسير الواقع بطريقة غير صهيونيّة، أو أنّ الهُويّة الثقافيّة لإسرائيل يجب أن تكون على الأقل أكثرَ تعدّديّة مما هي عليه.

تتشكّل الهوية الثقافية لمجتمع ما وفق الواقع التاريخي والقائم وطريقة تفسير هذا الواقع لدى أصحاب السلطة والتأثير على المستوى الاجتماعيّ-السياسيّ. وفي تلك الفترة التي عاصرت هذا الفصل الاستثنائيّ في تاريخ إسرائيل كانت هويّة الأمّة الثقافيّة تؤخذ على أنّها منتج ثقافيّ شكّله التراث وجغرافيا الإنسان في أرض فلسطين والسعيُ القومي (أي الصهيونيّ) لتغيير هويّة الأرض. وقد

رفضت الصهيونيّة منذ البداية الهويّة الفلسطينيّة لفلسطين ونجحوا مستخدمين القوّة والسلطة في تهويدها . لكنّ بعض الناس والمجموعات وقفوا في وجه الهويّة الصهيونيّة ، وهؤلاء هم الفلسطينيون ، وبعض اليهود الذين جُلبوا من الدول العربية ، وعدد قليل من الأفراد ، كهذا الكاتب ، الذين ولدوا في الدولة بعد تأسيسها وأعلنوا معارضتهم لها في التسعينات .

ولقد كان الاحتجاج على الهوية الصهيونيّة للأرض والمجتمع تتعرّض باستمرار للاحتجاج ، وليس ذلك بفضلِ «المؤرخين الجدد» أو الروائيين المناهضين للصهيونيّة فقط ، فقد كانت هنالك عوامل أخرى ، كالمطالب السياسيّة للمجموعات المهمّشة ، واستمرار الاحتلال في الضفّة الغربية وقطاع غزّة ، وتجميد عملية السلام . كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في إطلاق عمليّة من شأنها تحويلها إلى فكرةٍ مفارقة للتاريخ (أناكرونيّة) أو إلى مفهومٍ لا يمكن تطبيقه إلا باستخدام العدوان مثلما يفعل المستوطنون . وقد بدأت هذه العمليّات التي تتّسم بالرفض والانتقاد عام ١٩٧٧ حينَ بدأَ الاحتجاجُ على تفوّق اليهود الأشكيناز ، وتواصلت مع اندلاع حرب لبنان عام ١٩٨٢ ثم الانتفاضة الأولى ، ووصلت إلى ذروتها عندما اغتيل إسحاق رابين وأجريت الانتخابات في أيار ١٩٩٦ جاء إلى السلطة على إثرها تيّارٌ صهيونيّ أشدّ تعنّتًا ليقدّم نسخةَ الليكود من الصهيونيّة .

وعليه فإنّ هنالك بعض الصحّة فيما أصرّ عليه مركز شاليم ، وكان ما ذهب إليه القائمون عليه مخالفًا للواقع ولا يصف سوى طريقٍ محتملٍ كان يمكن للمجتمع اليهودي في إسرائيل أن يسلكه في منتصف التسعينات ، ولكنّه لم يفعل ، وما توقّف الأمر هنا ، بل كان مصير من دعوا إلى هذا الطريق أن قمعوا وأُلجمت أفواههم شيئًا فشيئًا . ولم يكن حازوني ورفاقه هم من بدأوا هذا الهجوم المضادّ ، وإنّما الصهاينة الليبراليون الذين أخذوا على عاتقهم طمس عقول أولئك الذين يتمثّل واجبهم ومسؤوليتهم في إنتاج المعرفة لنفع المجتمع بأسره .

ردود فعل أوليّة

رأت الصهيونيّة الرسميّة أنّ التفسير مابعد الصهيونيّ للماضي قد جمع حوله الكثيرين في الجامعات الإسرائيلية ومراكز النشاط الثقافي في إسرائيل في التسعينات، وقد سادَ اعتقاد بأنّه ورغمَ أنّ كل مؤرّخ علمٍ في المعسكر الصهيونيّ قد وظّف من أجل دحض النسخة مابعد الصهيونية من الماضي، إلا أنّ هذه الأخيرة هي التي حازت شرعيّة لها في العالم الغربي. وعندها نما افتراض خاطئ بأنّ النجاح الأكاديميّ الذي حققته مابعد الصهيونيّة يعني أنّ قطاعات واسعة من الشعب الإسرائيليّ تؤيّدها كذلك. ولوهلة هي الأسرع في تاريخ الدولة، ناقش البرلمان الإسرائيلي مبادرات قانونية مابعد صهيونيّة اقترحت أن تتحوّل إسرائيل من دولة يهوديّة إلى دولة لجميع المواطنين. صحيحٌ أنّه لم تكن هنالك أدنى احتماليّة للموافقة على هكذا مبادرات، ولكنّ القانون لم يمنع طرحها على الأقلّ. وعليه، وفي ظرف فريدٍ من نوعه، فقد وضعت تلك المقترحات على أجندة الكنيست. ولكن تبقى هذه الأحداث استثناء نادرًا، بينما القاعدة السائرة هي أنّ المعالجة النقدية للماضي والحاضر، والتي تميل لذلك إلى أن تكون أكثر دفاعًا عن الفلسطينيين، لم تفلح في خلق حالة من القبول الواسع لمجرد رؤية غير صهيونية للمستقبل، ناهيك عن رؤية مناهضة للصهيونية.

وحين بات من الواضح أنّ هنالك مجموعة غير قليلة من الأكاديميين الإسرائيليين ليسوا متقيدين بالخطّ الأيديولوجي الرسميّ بدأت مؤسسات أكاديميّة وأكاديميون يتبعون التوجّه الرسميّ السائد بردّة فعل ضدّهم. ونظرًا إلى أنهم الأغلبيّة، فإنّه يمكن دعوة هذه المجموعة الأخيرة بالصهاينة الكلاسيكيين، والذين لن يتعرضوا لاحقًا للانتقاد من قبل أكاديميي مابعد الصهيونيّة وحسب بل من أكاديميّي النيو-صهيونية أيضًا على شاكلة أولئك المرتبطين بمركز شاليم الذي ساعدهم على تحديد أطرهم الجديدة بطريقة أوضح.

الصهاينة الكلاسيكيون هم أولئك اليهود في إسرائيل الذين لم يكونوا لا

غير صهاينة ولا مناهضين للصهيونية ، كما أنّهم ليسوا أصوليين ولا أرثوذكسيين متشدّدين . وانطلاقًا من العام ١٩٤٨ وحتّى في الفترات التي لم تكن فيها الصهيونية الكلاسيكية في أفضل حالاتها على المستوى السياسيّ كما حدث في السبعينات ومنتصف التسعينات ومطلع القرن الحادي والعشرين ، فإنّها قد استمرّت في شغل حيّز بارز بل ومسيطر أيضًا كجماعة سوسيو-أيديولوجية في الأكاديميا والإعلام في إسرائيل . فقد كان العديد ، إن لم نقل الغالبيّة ، من أولئك الذين كانت لهم السطوة في المجالات الأكاديمية والجدليّة في إسرائيل قد عرّفوا عن أنفسهم بأنهم صهاينة مخالفين بشكل جازم لأيّ جانبٍ من ثنائيّة التطرّف في المجال السياسيّ في إسرائيل .

ولفترة طويلة من الوقت لم تكن هنالك ثمّة حاجة ليتحدّث خطباء من الصهيونية الكلاسيكية ليوضّحوا مواقفهم حول الماضي التاريخي ، وكان بروز ما سمّي حينها بالمدرسة الفكرية مابعد الصهيونية التي أرغمت رعاة الصهيونية الكلاسيكية على محاولة ترسيخ تفسيراتهم التأريخية ويقينيّاتهم الأخلاقية . ويجدر التذكير هنا بالارتباط الوثيق بين الذاكرة الجمعيّة والتصوّر الذاتي للأخلاق ، وعليه فإنّه لا عجب من أنّ الانتقاد مابعد الصهيونيّ للماضي قد أطلق شرارة جدال عامّ يمكن من خلاله استخلاص الكثير عن موقف الصهيونية الكلاسيكية من التاريخ . إنّه موقف وجّه سياسات حكومة نتنياهو الأولى ، وحكومات باراك وشارون وأولمرت ، أي حتّى ربيع عام ٢٠٠٩ . وقد قال العديد من هؤلاء المنتمين إلى تيار الصهيونية الكلاسيكية في معرض التجريح إنّ الفضيلة الوحيدة التي ألفوها في مدرسة مابعد الصهيونية هي أنّها دفعتهم إلى إعادة تعريف فهمهم للصهيونية والماضي الإسرائيلي وتجليته وتحديثه .

وقد اتسم الهجوم الذي شنّه المفكرون الأوائل على الموقف مابعد الصهيوني بالحنق الشديد ، وما كان منهم إلاّ أن اطّرحوا تلك الأعمال الفكرية الجديدة واصفين إيّاها بأنها محض سعي أيديولوجي لنزع الصبغة الصهيونية عن إسرائيل ، أو أنّها مناورة فكرية تقليدية يخوضها يهود يبغضون ذواتهم لخدمة

العدوّ . حتّى أنّ يوآف غلبر ، مدير مؤسسة هرتزل للأبحاث ودراسة الصهيونية في جامعة حيفا ، قد شبّهني وزملاء لي بأعوان النازيين . كما عبّر عن مثل هذه الآراء أمنون روبنشتاين أحد القضاة الليبراليين البارزين في إسرائيل والذي خدمَ وزيرًا للتعليم كذلك في إحدى الفترات ، حيث سارع إلى الكتابة عام ١٩٩٥ في هآرتز عن مفكري مابعد الصهيونية يتّهمهم بأنّهم ينكرون الهولوكوست ويكرهون إسرائيل ويرغبون في اجتثاث الصهيونية ،[٤] وقال إنّ أعمالهم «تمثّل حملة ضارية على ثوابت الشعب اليهوديّ وأرضه وحقّ هذا الشعب في الوجود عليها . . . إنّها ليست أعمالًا أكاديميّة وإنّما هجوم أيديولوجي مباشر .» وعلى هذا جرى نيسيم كالدرون ، أستاذ الدراسات الثقافية الليبرالي ، حيث أيّد ما ذهب إليه روبنشتاين ووصف مقالته تلك وكتابًا لاحقًا له حول الموضوع ذاته بعنوان «من هرتزل إلى رابين : الصورة المتغيّرة للصهيونية» بأنهما مثالٌ على تنوير (الصهيونية) في حربها ضدّ ظلاميّة مابعد الصهيونية .[٥]

اشتدّ الهجوم ضراوة في النصف الثاني من التسعينات ، حتّى أنّ مفكري مابعد الصهيونيّة وصفوا بأنّهم لا يهاجمون الصهيونية وحسب ، بل إنّهم كما ذهب اثنان من أبرز الأكاديميين في إسرائيل ، عازمون على تدمير الخطاب الأكاديمي في إسرائيل بأسره . هذان الأكاديميان هما أنيتا شابيرا ، عميدة التأريخ الإسرائيلي ، وموشيه ليساك أحد أهمّ علماء الاجتماع الإسرائيليين ، وقد عمدا إلى وصف مابعد الصهيونية على أنّها طريقة ونظريّة مفسدة ،[٦] وانضمّا إلى فريق من المؤرخين وعلماء الاجتماع الإسرائيليين ونشروا عام ٢٠٠٣ مجلّدًا ضخمًا بعنوان «ردّ على زميل مابعد صهيونيّ .»[٧] وقد صوّر هذا الكتاب مفكري مابعد الصهيونيّة على أنّهم باحثون رديئون ويهودٌ يعانون من كراهية الذات يتعاونون بقصد أو غير قصد مع أعداء الساميّة . أمّا ألحنان ياكيرا ، أستاذ قسم الفلسفة في الجامعة العبرية ، فقد أفردَ كتابًا كاملًا من أجل إثبات الرابط بين منكري الهولوكوست ، والمعادين للساميّة في الماضي والحاضر ، ومابعد الصهيونية . وقد حمل هذا الكتاب هذا العنوان الدراميّ : «مابعد الصهيونية ،

مابعد الهولوكوست : ثلاث مقالات عن النكران والنسيان وتقويض شرعية إسرائيل .[٨]

وإن كان الأمر قد استغرق بعض الوقت ، إلا أنّ الأكاديميا الصهيونية قد كانت جازمةً فعلًا بحاجتها لوضع حدّ لتأثير مابعد الصهيونية . وقد كانت هذه العملية «عملية إنقاذ» على حدّ تعبير ديفد أوهانا أحد الفرسان الجدد للصهيونية والذي انضمّ بنفسه إلى هذه العمليّة في أواخر التسعينيات . (وله كتاب هو الآخر ذو عنوان دراميّ أسماه «آخر الإسرائيليين» .)[٩] وقد كان الهدف من عملية الإنقاذ هذه هو تخليص الصهيونيّة من أعدائها من النيو-صهاينة جهةَ اليمين ، وأعدائها مابعد الصهاينة جهةَ اليسار . كما أنّها عمليّة انطلقت باسم الليبرالية والهيومانيّة إلى جانب الصهيونيّة . فقد رأى هؤلاء المنقذون الذين نصّبوا أنفسهم لهذه المهمّة أنّ الصهيونيّة حركة قوميّة هيومانيّة ليبرالية اشتراكيّة جلبت التحديث والتقدّميّة إلى فلسطين البدائية ، وجعلت الصحراء جنّة ، وأعادت بناء المدن في الأرض بعد خرابها ، وجاءت بالتطوّر الزراعي والصناعي لنفع الجميع ، عربًا ويهودًا . كما تدّعي هذه النسخة من الصهيونيّة أنّ سبب العداء لها يعود إلى تطرّف إسلامي من جهة ، واستعمار بريطاني محابٍ للعرب من جهة أخرى ، بالإضافة إلى الثقافة المحليّة التي تميل إلى العنف السياسيّ . لكنّها ورغم كل التحدّيات وأمام مقاومة محلية غاية في الوحشيّة ، بقيت ملتزمة بمبادئها الإنسانية في السلوك الفردي والجمعيّ ومدّت يدها من دون تردّد إلى جيرانها العرب غير أنّهم أصروا على ردّها . كما أنّ الصهاينة في هذه الرواية تمكّنوا بشكل أقرب إلى المعجزة من تأسيس دولة رغم عداء العالم العربي لهم من حولهم ، تلك الدّولة التي لم تتوان عن استيعاب مليون يهودي طردوا من العالم العربي ، وقدمت لهم على الرغم من ضيق حقيقيّ في المساحة والحال فرص التقدم والاندماج في الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط . لقد كانت دولة تلتزم نهج الدفاع عن ذاتها وتحاول دومًا احتواء عداء العرب المتزايد لها وعدم اكتراث العالم بها . إنّها الدولة التي استقبلت اليهود من منافيهم التي

ربت عن المئة ، وجمعتهم وجعلت منهم شعبًا يهوديًا واحدًا . لقد كانت الصهيونية حركة أخلاق وعدل تسعى نحو الخلاص ، ولكنّها مع الأسف وجدت أناسًا آخرين على أرضها ، ومع ذلك منحتهم فرصة لمستقبل أفضل ، ولكنّهم رفضوا ذلك بجهالة . وقد تعرّضت هذه الصورة الحالمة للتهديد والشرخ بسبب التبعات المشؤومة لحرب ١٩٦٧ والاضطراب السياسي عام ١٩٧٧ الذي أوصل اليمين الصهيوني إلى سدّة الحكم . وبعد حرب ١٩٦٧ وبسببها كانت الدولة عرضة للسير في طرق سلبيّة كمحاولة التوسّع أو بروز التطرّف الدينيّ في اليمين ، أو الشطح نحو الشكّ في الذّات وكراهيتها في اليسار المتطرّف . لكنّها تغيّرات قابلة للتعديل والتصويب ويمكن وقفها من خلال الرجوع إلى القيم الصهيونية القديمة والتقليدية كالهيومانية والديمقراطية والليبرالية .

رجوع القهقرى

بالرغم ممّا نشره هؤلاءِ في كتبهم من انفعالات غاضبة ، إلا أنّ وجهة النظر مابعد الصهيونية استمرّت بالوجود حتى العام ١٩٩٩ تقريبًا وكان يعبّر عنها عدّد لا بأس به من الأكاديميين وصانعي الأفلام والمشتغلين في سلك التعليم . وقد كانت مقدرة الإعلام المحليّ على استيعاب الأصوات الناقدة بل والاستماع إليها أحيانًا نابعةً إلى حدّ كبير من المزاج السياسيّ العامّ الذي ساد في الدولة ، وهو مزاج يتّسم بالإيجابيّة ولاسيّما في سياق اتفاق أوسلو الواعد ، مما جعل الاتّجاه التقليديّ السائد يميل إلى قبول الآخر نوعًا ما . أمّا وقد فشل اتّفاق أوسلو فقد ارتدّ المجتمع إلى حالة من التشدّد والانغلاق ، وما عادت تلك الفسحة لآراء اليسار النقدية قائمة ، فليس ثمّة سوى يمينٍ الآن . لقد أمست إسرائيل في حالة حرب .

بدأ التراجع في تلك الحالة الإيجابية مع اغتيال رئيس الوزراء إسحاق رابين عام ١٩٩٥ ، فحلّت السوداويّة مكانها وازدادت عدم الثّقة في الفلسطينيين ، كما بدأ الحشد نحو اليمين والنكوص على أهداف اتفاقية أوسلو والعزوف عن

تطبيقها . أمّا ذلك الرواج لأولئك «المؤرخين الجدد» ونتاجهم مابعد الصهيوني فقد بدأ أيضًا بالتراجع والزوال حتّى ناله الرفض وصارت هذه الفئة وأعمالها تمثّل خيانة للوطن . لقد كان اندلاع الانتفاضة الثانية في نهاية أيلول عام ٢٠٠٠ بمثابة إعلانٍ قطعيّ بنهاية «العقد مابعد الصهيوني» وما جلب معه من جدل حول تاريخ العام ١٩٤٨ . أو حريّ بنا أن نقول للدقّة إنّ ذلك عائد إلى الرواية الإسرائيلية عن أسباب هذه الانتفاضة ووصفها العامّ لها والتي ترتّب عليها انحسارٌ لتلك الحالة النادرة في تاريخ دولة إسرائيل .

ولم تكد الأخبار الأولى بخصوص المظاهرات الفلسطينية الحاشدة تنتشر في الأيام الأولى من تشرين الأول لعام ٢٠٠٠ حتّى عاد الصحفيّون والأكاديميون والسياسيون إلى حلقةِ الإجماع الصهيونيّ ، وهو إجماع جديد تشكّل بعد الفوضى الذي جاء بها اغتيال رابين وعزّزها بشكل كبير قبول وسائل الإعلام الإسرائيلية الرسميّة بلا تردّد ولا تحقّق الرواية الحكومية التحريضيّة حول أسباب تفجّر العنف ، وعكوفها بعد ذلك على ترويجها على أوسع نطاق . فتدّعي هذه الرواية أن الانتفاضة قامت بتشجيع من ياسر عرفات ومنظّمة التحرير الفلسطينية ، وأنّه ومنظّمته مسؤولان مسؤوليّة كاملة عن إفشال قمّة كامب ديفد عام ٢٠٠٠ ، وهي القمّة التي كان يفترض أن تضع الرتوش الأخيرة على اتفاق أوسلو ليقدّم كلٌّ من عرفات وباراك في حضرة الرئيس الأمريكي كلنتون للعالم التسوية النهائية لما سُمّي «المسألة الفلسطينية» .

لقد كانت إسرائيل في وجهة نظر المجتمع اليهوديّ ونخبته السياسيّة قد بذلت كلّ ما يمكن لتحقيق السلام ولكنّها لم تلقَ سوى التطرّف والتعصّب ، وأنّ الحكومة قد ألفت نفسها مرغمة على خيار الحرب وترك السلام لأنّ الفلسطينيين برهنوا على أنّهم الأعداء ، مسوّغةً قسوة الرد الإسرائيلي على الانتفاضة الثانية وسد أيّ أفق للسلام في تصوّر العامّة . وقد كان انتخاب أرئيل شارون عام ٢٠٠١ وحصوله على أغلبيّة ساحقة حينها تأكيدًا على حجم التأييد الشعبي للسياسات الجديدة للدولة ، كما جاءت هجمات الحادي عشر من سبتمبر

لتسهّل مهمّة الحكومة للتشنيع على عرفات ووصفه بالإرهابي الأكبر المرتبط بأسامة بن لادن ، وأنّ الردّ الإسرائيلي على الانتفاضة يأتي في سياق «الحرب العالمية على الإرهاب» . ولعبت الأكاديميا ووسائل الإعلام دورها المعهود فكانت أدوات أساسيّةً قدّمت الدعامة المهنيّة وحتّى البحثيّة لهذه التفسيرات .

اندلعت الانتفاضة إذن في المناطق المحتلة وفي إسرائيل نفسها أيضًا حيث قامت أعداد كبيرة من المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل بالانضمام إلى الانتفاضة من خلال مظاهرات لم تشهد لها إسرائيل مثيلًا في نطاقها وشدّتها منذ ١٩٤٨ . وقد كان لهذه الانتفاضة أثرٌ كارثي على الحراك الساعي لترسيخ النقد مابعد الصهيوني . وفي غضون بضعة أسابيع بعد تشرين الأول عام ٢٠٠٠ جرت إعادة تشكيل الخطاب العامّ في إسرائيل وفق خطوط إجماع يحرم الخروج عليها ، وفُرض خطاب الوحدة الجديد على الجميع . وهذا ما حدا ببعض «المؤرخين الجدد» مثل بيني موِرس وبعض الفلاسفة من مدرسة مابعد الصهيونية كإيلان غور-زئيف وغيرهما الكثير إلى إصدار بيانات اعتذارية مؤكّدين فيها على ولائهم للصهيونية ومعلنين انعدام ثقتهم في الفلسطينيين وعداءهم للأقليّة الفلسطينية في إسرائيل . وقد علّقت صحيفة ماكور ريشون اليمينية الأسبوعية على هذا التحوّل الذي جرى لغور-زئيف تقول : «لقد كان اليدَ اليمنى للفيلسوف مابعد الصهيوني سيّئ الذكر عادي أوفير . . .ولقد مرَ في عملية تحوّل فلسفيّة وأيديولوجيّة» . كما قال غور-زئيف بنفسه للصحيفة : «كنت جزءاً من حالة رائجة يعوزها التسامح ، كنت قريبًا من التعاون معها وأن أصبح أحد أهمّ أبطالها» ، ثمّ أعلنها قائلًا : «لقد كنّا ندعو إلى شكل جديد من معاداة الساميّة» .(١٠)

بدا الخطاب العامّ وكأنه يتنفّس الصعداء ، فقد ولّى عقدٌ من التفكك والفرقة في إسرائيل ، وسادت مكان ذلك حالة من الوحدة التي ضمّت إليها حتى حركة المستوطنين في المناطق المحتلّة . وقد انعكست هذه الحالة حديثة الولادة من التوافق في التشكيلات السياسية في القرن الحادي والعشرين . ففي

العقد الأول من الألفية الجديدة أدار النظام السياسيّ في البلاد حزب سمّي «كاديما» (إلى الأمام) ، أسّسه أرئيل شارون ليجمع بين العمل والليكود فرقاء الماضي ، وكتب له نجاحان مبهران في انتخابات ٢٠٠٦ و ٢٠٠٩ . ومن الناحية الأيديولوجية ، فإن الليكود وكاديما والعمل قد تحرّكوا وفق فهم مشترك لفكرة إسرائيل ، وعادت الكلمة العليا لتفسيرهم لها بعد أنّ تحوّلت الأنظار لفترةٍ قصيرة إلى النسخة مابعد الصهيونية من تلك الفكرة .

ولم يتبقّ منذ العام ٢٠٠٠ فصاعدًا أي أثر للحضور المبهر للرؤية مابعد الصهيونية ، إذ حل مكانها تفسير جديد للصهيونية وصار محلّ إجماع الأحزاب الأساسية في الكنيست . لكنّ هذا الانتصار المدوّي وجد نفسه في مقام التنافس مع نسخة أخرى من الصهيونية أشدّ تعنّتًا وتصلبًا ، وهي نسخة أسميتها أنا بالنيو-صهيونية ، وقد مثّلها في انتخابات عام ٢٠١٢ في الكنيست حزب صاعدٌ يُدعى حزب البيت اليهودي . لقد كانت قوّة هذا الحزب الجديد وما يمثّله من شكل أكثر تطرفًا من الصهيونية نابعة من تجمّعات المستوطنين في الضفة الغربية وفي بعض البؤر ضمن حدود ما قبل ١٩٦٧ وهي مناطق شهدت تصاعدًا كبيرًا لحركات التطرف اليهودية في الأعوام الأخيرة . وعلى الرغم ممّا بدا من تعاون بين الصهيونية الكلاسيكية والنيو-صهيونية في الميدان السياسيّ ، إلا أنّ صدامًا على المستوى الثقافي قد احتدم بينهما فيما يتعلّق بدرجة التديّن التي يجب أن تسودَ في المجتمع والأساليب الأكثر نجاعةً لتحقيق المشروع الصهيوني في ظلّ التحديّ الذي يمثّله الواقع القائم وحقيقة أنّ أعداد الفلسطينيين في أرض إسرائيل تفوق أعداد اليهود . لكن وبما أنّ هذه النقاشات بقيت حول التكتيكات والأساليب وأنّ الاتجاهين كانا يشتركان في الإصرار على عدم إجراء أية تغييرات في ملف الاحتلال أو قمع الفلسطينيين داخل إسرائيل ، فقد تبدّد الشعور بالقلق حول مصير الدولة اليهوديّة ، ولذلك حُقّ لآري شافيط أن يتنفّس الصعداء في مقالته تلك في الذكرى السادسة والخمسين لقيام الدولة والتي اقتبسنا كلامه منها مطلع هذا الفصل .[11] لقد

رأى شافيط أنّ الشرخ الأيديولوجي في الدولة لم يكن إلا فِعلةَ مابعد الصهيونية ، ولكنّ الهزيمة التي حاقت بها قد جعلت من الممكن قيام دولة يهوديّة أقربَ إلى الكمال المنشود .

أمّا الإعلان عن الوفاة المبكّرة (كما يرى البعض) أو التي طال انتظارها (عند الكثيرين من الإسرائيليين) للحالة مابعد الصهيونية فقد جاء ولا عجبَ في هاَرتز الصهيونية الليبرالية وذلك في سياق تقييم أثر الانتفاضة الثانية على إسرائيل والتي كانت حينها تدخل عامها الثاني .[١٢] وقد أشار توم سيغيف الذي نشر عام ٢٠٠١ كتابًا بالعبريّة عن مفكري مابعد الصهيونية إلى أنّ مابعد الصهيونيّة قد تعرّضت للنفي إلى الخارج ويمكن أن يكون لها حضور واسع في المنفى .[١٣] ولعله كان على صواب ، ولكنّ القضيّة هنا هي أنّ سيغيف المتابع الحثيث للحياة الثقافية والفكرية في إسرائيل قد خَلص إلى أنّ مابعد الصهيونية قد لقيت حتفها هناك في عقر دارها في إسرائيل .

أمّا المناهضون للصهيونيّة فلم يجزعوا لاندثار مصطلح كان يجمعهم مع أولئك الذين لم يكونوا معارضين حقيقيين للصهيونية ، وكانت وفاة مابعد الصهيونية بالنسبة إليهم فرصةً تعينهم على الانسحاب إلى تلك العزلة التي فرضوها على أنفسهم كفئةٍ غريبة الأطوار من الأكاديميين والناقدين الذين كان ينظر إليهم المجتمع إمّا كزمرة منَ المجانين في أحسن الأحوال أو كحفنة من الخونة في أسوأها . وقد أوضحَ أمنون راز كاركوزكِن في مقابلة في هاَرتز أنّه كان يمقت مصطلح «مابعد الصهيونية»- مع أنّه قد كان ولّما يزل لسوء طالعه يُنسَب إليها ، وذلك لأنّا في العام ٢٠٠١ ، كما في العام ١٩٩٤ حين شرعنا في استخدام المصطلح ، عددناه من ضمن أولئك الذين لم يتهيّبوا التشكيك في جوهر الصهيونية وفكرة إسرائيل . ونظرًا للقلّة من امتلكوا الجرأة لركوب هذا المركب ، فإنّ بعض الكتّاب قد حازوا من الجلَد أو الأناة ما جعلهم يصنّفونهم بعد ذلك إلى مناهضين للصهيونية أو مناهضين «أقلّ مناهضة» للصهيونية . أمّا في الغرب فقد شُغل اليسار على الدّوام بالتأكيد على اختلافاته عنِ الحلفاء الأقربين بدل الأعداء الأبعدين .

وعلى خطى سيغيف قام شلومو ساند بنشر كتابه عن مابعد الصهيونية في لحظة حرجة عام ٢٠٠١ حين خبا ألقُها ولم يعد لها قبول . ولكنّه كان نزّاعًا نحو الإبقاء على شيء من الأمل فيقول متفائلًا : «ما يقال عن موت مابعد الصهيونية ليس إلا شائعات متسرّعة» . ولعلّه لم يجانب الصواب في ذلك بالنّظر إلى رواج كتبه التي ينتقد فيها الفرضيات التاريخية الأساسية التي تقوم عليها فكرة إسرائيل ، وبالأخصّ تلك الفرضيّة التي تدّعي أنّ الأصل الحقيقيّ والجينيّ للمستوطنين الصهاينة يعود إلى اليهود الذين عاشوا في فلسطين في العصر الروماني . وقد حثّني ساند في العام ٢٠٠١ على أن أتحلّى بمقدار أكبر من الصبر ، مقتنعًا أنّ العملية ستستمر وتنجح . وبالفعل ، هذا ما حدث على مستواه الشخصيّ ، أمّا بقية الأكاديميا فقد كانت مع الأسف تسير في اتجاه معاكس .

خذ أيضًا ذلك التعليق الذي صدر عن يوسي يونا أستاذ الفلسفة السياسية في جامعة بن غورين والذي يقول فيه إنّه وحتّى في ذروة نجاح مابعد الصهيونية «كان هنالك مقابل كل أكاديميّ مابعد صهيوني عشرة إن لم يكن مئة من الأكاديميين الصهاينة»(١٤) ، علمًا أنّه قد أشير إلى أنّ جامعته قد كانت في العام ٢٠٠١ آخر معاقل مابعد الصهيونية وذلك لأنها استمرت في إصدار مجلة «هاجر» التي ترأس تحريرها عالم الجغرافيا مابعد الصهيوني أورن يفتاشيل . وقد حاولت الحكومة عام ٢٠١٢ أن تضيّق الخناق على المعقل الأصغر ضمن المعقل الأكبر ، أي قسم الدراسات السياسيّة والحكومة في الجامعة ، لكنّ جهودها قد باءت بالفشل .(١٥)

أمّا الجانب الأخير الذي يعنينا في هذه القضيّة هو أن نرى كيف جمعت الأكاديميا الرسميّة في إسرائيل ، والتي كانت تحرص دومًا على صورتها خارج إسرائيل كميدان يتمتع بقيم الليبرالية والديمقراطية ، بين ما تعلن عنه من قيم نبيلة ورغبتها في أن تكون جزءًا من تلك الحالة من الإجماع الصهيوني ، علمًا بأنّ سياسيّي إسرائيل ودبلوماسييها قد تركوا التظاهر حتّى بتلك القيم . لقد

أحكمت الدولة سيطرتها مجدّدًا على الأكاديميا كما سأوضّح أكثر في خاتمة الكتاب ، فصارت أداةً هذه المرّة في حملة تعرف باسم «وسم إسرائيل» والتي تهدف إلى التصدّي إلى ما وصفته حكومات نتنياهو المتعاقبة بالجهود المتزايدة لنزع الشرعية عن الدولة اليهوديّة . وقد ضيّقت هذه الحملة الخناق أكثر وأكثر على أولئك الأكاديميين الذين لم يعيدوا يريدون سوى التمتّع بالحدّ الأدنى من حرية الفكر والتعبير وممارسة شيءٍ من نقد الذات ، وهما أمران صارا يعدّان في المجتمع (وفق استبيانات عديدة) قيمًا أو أهدافًا لم تعد ثمّة حاجة لها .

وآمل أن يوضّح الفصل القادم كيف جرى تفسير فكرة إسرائيل على هديِ الأبحاث الجديدة حول حرب ١٩٤٨ كواحد من المؤشّرات العديدة التي تعطي فكرة عن التوجّه المستقبلي للدولة اليهوديّة . غير أنّ مهمّتي التي تثقل عليّ في هذا الفصل هي الحديث عن موت مابعد الصهيونية ، وسأقوم بذلك بتسليط الضوء على ثلاثة تطوّرات رئيسية ، في السياسة والتشريع والتعليم ، كانت بمثابة نذير بصعود النيو-صهيونيّة في إسرائيل . لعل البعض يقول إنّ مابعد الصهيونية لم تكُن سوى صرعةٍ عاشها بعض أفراد الطبقة المثقّفة في إسرائيل ، وإنّ معظمهم تركوا الحراكَ بكل أشكاله واحتجبوا وتركوا مواقعهم بين المتحمسين لمابعد الصهيونية والمؤيدين لها بمجرد أن لاح لهم خطر يتهدد وظيفتهم أو حتى حياتهم . لكن وبما أنّها قد شغلت مكانًا على طاولة النقاش والبحث ، فإنّ أولئك المثقفين قد لفتوا الأنظار إلى تصوّر مختلف محتمل لإسرائيل ولفلسطين أيضًا . إنّ ما تبقى بين أيدينا بغيابهم ليمثّل معضلة العالم بخصوص إسرائيل ، وهذا ما بدأت به كتابي وبهذا سأختمه .

العودة إلى الوراء- أفول التعدّدية السياسيّة

أسهمت مابعد الصهيونية بخلق حالة من التعددية في الخطاب السياسي في إسرائيل خلال التسعينات رغمّ أنّها لم تتمتّع بتمثيل سياسيّ- ربّما باستثناء الحزب الشيوعيّ واثنين من الأحزاب الفلسطينيّة التي كانت لها

أجندات سياسية مشابهة . بيدَ أنّ هذه التعددية اختفت ، وتقلّصت باختفائها الفجوات التي تفصل بين الأحزاب السياسية المختلفة إلى الحدّ الذي بات فيه من الصعب تمييز ما يفرّق بينهم في القضايا الأساسية في أجندة إسرائيل للقرن الحـــادي والعشرين . فمعظم هذه الأحزاب كما ذكرنا قد صارت في جعبة حزب كاديما رغم حداثته حين كان أرئيل شارون ما يزال ناشطًا في الحياة السياسيّة .

ما حصل كان ذروة عملية طويلة بدأت عام ١٩٩٦ حين قرّر حزبا العمل والليكود عقب اغتيال رابين اعتماد نظرة موحّدة للماضي والحاضر ، حيث تمتدّ إسرائيل وفق هذه النظرة على أجزاء من الضفة الغربية ومنطقة القدس الكبرى ، وتقوم إلى جانب منطقة فلسطينية ذات إدارة ذاتية أو حتّى دولة . كما كان من المفترض أن تضمّ هذه الدولة الموسّعة مرتفعات الجولان السوريّة . وبدأت بالفعل ترجمة هذا التصوّر إلى تحرّكات فعليّة وتجلّى ذلك في الطريقة التي قامت بها الحكومات المتعاقبة بتفسير اتفاق أوسلو لعام ١٩٩٣ . لقد كان الواقع الذي خلقته هذه الحكومات في منتصف التسعينات قائمًا على مسلّمتين اثنتين لدى إسرائيل . الأولى هي أنّ إسرائيل ما قبل ١٩٦٧ هي أمرٌ خارج نطاق التفاوض ، أي رفض طرح القضايا المتعلقة بمستقبل اللاجئين أو الحديث حول دور إسرائيل في خلق هذه المعضلة ، هذا عدا عن الرفض القاطع لإشراك الفلسطينيين داخل إسرائيل في أي مباحثات إسرائيلية فلسطينية حول المستقبل . أمّا المسلّمة الإسرائيلية الثانية فهي أنّ أجزاء من الضفة الغربية ، التي سترسم حدودها لاحقًا ، ستكون جزءاً لا يتجزأ من إسرائيل ؛ وقد باتت هذه الأجزاء في العام ٢٠١٣ أكثر وضوحًا وهي تشكّل قرابة ٤٠ بالمئة من الضفّة الغربيّة .

أمّا في ما يتبقّى من مساحة لما كان أصلًا يعرف بفلسطين الخاضعة للانتداب ، فسيكون للإسرائيليين سيطرة على محيطها أما الفلسطينيون فسيُمنحون فيه قدرًا من الإدارة الذاتية . الحقيقة هي أنّ هذه الخطّة كانت قد صيغت بعد أيام فقط من حرب حزيران ١٩٦٧ كما بيّنتُ في سياق آخر ،

وحازت على شرعية دوليّة باعتبارها خطّة سلام، والأدهى أنّ بعض السياسيين الإسرائيليين قد حازوا بفضلها على جوائز نوبل للسلام. كما اقتنع بهذه الخطّة لوهلة شريكٌ فلسطيني، فتشكّلت السلطة الفلسطينية عام ١٩٩٤، وكان من المتوقّع منها أن تبارك مخطّطًا أشبه ببانتوستانٍ فلسطينيّ على أقلّ من ٦٠٪ من الضفة الغربية بالإضافة إلى ٦٠ بالمئة من قطاعِ غزّة حتّى العام ٢٠٠٥ ثم القطاع كاملًا بعد ذلك. أما العاصمة فستكون في أبو ديس (أحد الأحياء على السفوح الشرقية لجبال القدس)، مع إسقاط قضيّتي اللاجئين وحل المستوطنات اليهوديّة.

لم يغب البعد الاقتصاديّ كذلك عن هذا التصوّر، إذ كان يفترض أن يكون عابرًا للحدود بين الكيانين، يعتمد على اقتصاديات رأس المال والسوق الحرّ ويربط بين إسرائيل و«فلسطين» المستقبلية. وبموجب بروتوكول باريس، الملحق الاقتصادي لاتفاق أوسلو والذي تمّ التوقيع عليه عام ١٩٩٤ فإن إسرائيل وفلسطين ستكونان وحدة اقتصاديّة، وذلك من خلال التواصل عبر مصالح الجمارك واتباع سياسة ضرائب مشتركة. وقد جرى ضمان هذه الوحدة من خلال قرار يقضي بتأجيل أي مباحثات حول العملة الفلسطينية. كما منح البروتوكول إسرائيل حقّ رفض أي مخطط تنموي تضعه السلطة الفلسطينية. وقد عنى كلّ ذلك أنّ القولَ الفصل في الاقتصاد الفلسطيني سيكون تبعًا للسياسات النقدية والتنموية الإسرائيلية وعملتها الرسميّة. كما كان للإسرائيليين وفق هذا البروتوكول الكلمة العليا في كافة الشؤون الأخرى المتعلقة بالاقتصاد الفلسطيني، كالتجارة الخارجية والتصنيع.

وسرعان ما ظهرت الآثار الكارثية لاعتماد النموذج الإسرائيلي للمجتمع الرأسمالي في المناطق الفلسطينية. فمع انخفاض إجمالي الناتج القومي وغياب القواعد الديمقراطية كانت اتفاقيات أوسلو/باريس وصفةً لتحويل المناطق التابعة للسلطة الفلسطينية إلى بؤر فقر مدقع تحت السيطرة الإسرائيلية. ولعل أوضح مثال على هذا هو منطقة بيت حانون الفاصلة بين إسرائيل وقطاع غزة، حيث

افتتح الإسرائيليون هناك بمباركة من أمريكا والاتحاد الأوروبي مجمعًا صناعيًا ، ولكنّه كي لا تغرّنا المسمّيات ، لم يكن سوى خطّ إنتاج يعتمد على اليد العاملة الفلسطينية بينما كان جميع أصحاب العمل من الإسرائيليين الذين يغتنون ولا يدفعون للعمّال سوى أزهد الأجور . وقد وضعت إسرائيل رؤى مشابهة لإنشاء مثل هذه المشاريع على الحدود مع الأردن والضفة الغربية ، ولعل هذا ما يجعل أصحاب المصانع يرون أنّهم ينتمون إلى معسكر السلام . وهنالك جانب آخر لرسملة عملية السلام ويتمثل في الدعم الذي قدّمه عدد محدود من الفلسطينيين الذين وجدوا فرصة لتحقيق مكاسب مادّية من مثل تلك المشاريع الاقتصادية .

وقد أدرك المراقبون الحصيفون أنّ اجتماعَ الحرمان الاقتصاديّ وغياب التقدّم الحقيقيّ على الجبهة الوطنيّة سيدفع الفلسطينيين إلى الانتفاض على ما خلقته اتفاقيات أوسلو ، كما لم يكن في ذلك الواقع الذي تشكّل أيّ دافع يدعو الإسرائيليين إلى تغيير ما آلت إليه الأمور بعد أوسلو . لقد كانت غالبيةُ اليهود في إسرائيل ترى أنّ السلام قد كان قائمًا على منطق في غاية الوضوح ، وهو المنطق ذاته الذي أكّد عليه رئيس الوزراء الراحل إسحاق رابين ، إذ كان يرى أنّ الفلسطينيين كانوا عالقين في وضع يرثى له قبل أوسلو ، فعُرضت عليهم خطّة لتحسين حالهم- ليس تحسينًا كبيرًا وإنّما أفضل قليلًا لأنّ العلم الفلسطيني سيرفع على غزة وأريحا والرملة وسيكون فيها وجود للشرطة الفلسطينية . لكنّ الفلسطينيين لم يروا الأمور هكذا ، إذ وجدوا أنّ المطروح عليهم هو سلطة غير ديمقراطية أتت محل الاحتلال الإسرائيلي مدعّمة بأجهزة أمنيّة فلسطينية . ولكنّ الإسرائيليين رأوا أنّ ذلك هو السلام ما دام قد توقّف الإرهاب ولم يعد الفلسطينيون يلقون بالقنابل عليهم ، فالسلام في نظرهم هو ما يحقق الأمن اليوميّ لهم ، وقد تعزّز هذا في العام ٢٠٠٥ عبر عملية أوسلو .

وقد اشترك الحزبان السياسيّان الرئيسيان حينها في هذه النظرة للمستقبل وفي الطريقة الأمثل لبلورتها ، إذ ارتأوا أن يأتي الحلّ من خلال جعله أمرًا واقعًا

على الفلسطينيين ، وهو توجّه قد تجلّى واتّضح بعد أنّ تمّ الانتهاء من اتفاق أوسلو . وقد كانت سياسة الأمر الواقع هذه تتمتّع بتأييد عريض من قبل الشارع اليهودي في إسرائيل وما تزال ، وليس أدلّ على هذا التأييد إلا نتائج الانتخابات التي جرت عام ١٩٩٦ حين ذهبت أصوات غالبيّة الناخبين للأحزاب التي تعهّدت بفرض واقع أوسلو على الفلسطينيين ، بل وبشروط أكثر قسوة ، وهي تلك الشروط التي اقترحها الليكود . وهذا المزاج الشعبي العام هو ما وجّه أيضًا حكومة باراك التي أعقبت حكومة نتينياهو الأولى عام ١٩٩٩ ، حيث لم يفلح هذا الأخير في الحفاظ على منصبه بسبب ضعف كفاءته على العموم والتراجع الذي حصل على مستوى إدارة البلاد في عهده . وهكذا فإنّ المنهجية لم تتغيّر مع حكومة إيهود باراك عام ١٩٩٩ وفرق كبار المفاوضين فيها (التي ضمّت جنرالات سابقين من أمثال ماتان فيلنائي وداني ياتوم ويوسي بيليد) وذلك حتّى رغم إحجام الليكود عن المشاركة في تلك الحكومة .

وعليه فإنّه عندما اندلعت الانتفاضة الثانية كانت هنالك حالة من إجماعٍ سياسيّ في إسرائيل ، وحين تسلّم شارون رئاسة الوزراء عام ٢٠٠١ فإنه قد حافظ على ذلك الإجماع ، إلا في قضيّة واحدة- إذ لم يكن شارون راغبًا في إبقاء المستوطنين في قطاع غزة وذلك لأنّه يفضّل التركيز على تحويل الضفة الغربية إلى إسرائيل المستقبل . ومثلما قالت الصحفية الإسرائيلية أميرة هاس ، فإنّ الغالبية الساحقة من يهود إسرائيل عند تلك النقطة لم يعد لديهم أي اهتمام بمسألة فلسطين . وهذا ما أثبتته الحملة الانتخابية التالية ، إذ أسقطت قضية فلسطين من أجندات مختلف الأحزاب ، إذ قدّ تمّ الانتهاء منها بكلّ ما تعنيه الكلمة .

النسخة النيو-صهيونية لفكرة إسرائيل

هذه النظرة الجيوسياسية قد كانت محلّ إجماع حتّى عند حزب شاس المزراحي المتطرّف وحزب أغودات اسرائيل الأشكنازي المتطرف ، لكنّ هذه النظرة إلى المستقبل لم تكن معنيّة بمجرّد وضع حدود ما أو التعامل مع تطلعات

الفلسطينيين وحقوقهم الوطنية ، إذ ارتبطت كذلك بقضايا تتعلّق بهوية المجتمع وجوهره . هنا تبرز الرؤية النيو-صهيونية ، التي نجدها في مجتمع المستوطنات ومؤيدي الحزب الديني القومي (المفدال) ، والأحزاب اليمينية المتطرفة ، واليمين العلماني الجديد الذي كانت تربطه علاقات مالية وأيديولوجية وثيقة مع اليمين الجديد في الولايات المتحدة . كما أخذَ بهذه الرؤية حزب يميني جديد للمهاجرين الروس ستزداد قوّته وسيلعب دورًا أساسيًا في بضع سنين لاحقة وهو حزب اسرائيل بيتنا بقيادة أفيغدور ليبرمان .

كان للتكتّل النيو-صهيوني عقب انتخابات ١٩٩٩ وجود في حكومة باراك بواقع ستة وزراء ، وهذا قليلٌ بالتأكيد مقارنة بما كانوا قد أحرزوه في حكومة نتنياهو . لقد أمكن لهم المشاركة في حكومة باراك بسبب تحوّل طرأ على اهتماماتهم ، إذ انتقلوا عن القضايا المتعلقة بالحدود السياسية ورسم المناطق إلى المسائل السوسيو-ثقافية . ومع أنّه لم يقم في نظر هؤلاء أيّ اعتبار لشبه الدولة التي عرضها باراك على الفلسطينيين ، إلاّ أنّهم قرروا عدم الإصرار على تطبيق رؤيتهم بحذافيرها ، أي العمل على طرد العرب من الضفة الغربية وإنشاء الهيكل الثالث مكان مساجد المسلمين في قلب القدس .

لقد كانوا بعبارة سوسيولوجية بسيطة يسعون بجدّ إلى الحدّ من التوتّر الخارجي وزيادة التوتّرات الداخليّة . لقد كانت إسرائيل في الفترة السابقة لأوسلو تعيش في تعددية عرقية وثقافية ويشهد المجتمع فيها انقسامات كبيرة حول قضايا ثقافية وقانونية وأخلاقية ويسود الجدل بخصوص الكثير مما يتعلّق بالتعليم . لقد كانَ اليهود على قلبٍ واحدٍ في نظرتهم للفلسطينيين أينما كانوا ولكنّ قلوبهم قد كانت شتّى في كل قضيّة أخرى . فحين غاب التهديد الخارجي أو الوجوديّ ذهبت فئات المجتمع الإسرائيلي على اختلافها إلى إبراز هويّاتها الفرعية على حساب هوية الدولة ، وبدا ذلك في النقاشات حول الضرائب والالتزام بالواجبات المدنية العامة أو بأسلوب التعامل مع القضايا المشتركة في المجتمع . كما تجلّى هذا الأمر في انتخابات عام ١٩٩٦ حين كانت

المصالح المحددة للمواطنين الإسرائيليين من يهود إثيوبيا أو روسيا أو شمال إفريقيا، أو علمانيّي تل أبيب أو الإسرائيلين الفلسطينيين هي التي توجّه أصوات الناخبين في عملية انتخاب طائفيّ. فقد عقدت انتخابات تلك السنة بعد مراجعة على قانون الانتخابات تتيح للإسرائيليين التصويت بشكل منفصل مرة لانتخاب رئيس وزراء ومرّة للحزب. وهكذا صار بوسعهم تقسيم ولاءاتهم من خلال التصويت بشكل واقعيّ لأحدِ اثنين عادةً من المرشّحين لرئاسة الوزراء والتصويت العاطفي للحزب الذي يمثّل المصالح الضيقة كلّ حسب فئته. لكنّ هذا التقسيم قد كان من الخطورة بمكان حتّى تمّ إلغاء هذا البند من قوانين الانتخابات عام ٢٠٠١.

لكنّ انتخابات ١٩٩٩ على أية حال قد شهدت ترسيخًا لحالة التشظّي تلك، وكان عامل الجذب الأكبر في النيو-صهيونية للأغلبية اليهودية في إسرائيل هو بساطتها، واعتمادها خطاب الثقة لا الإرباك فيما يتعلق بالمستقبل. كما أنّ التكتيك الأساسيّ الذي اتبعته هو تقديم نفسها كراعٍ لوحدة المجتمع الإسرائيلي الذي حلّ به ما حلّ من تفكك وانشقاق وأن مفتاحها لتحقيق ذلك هو نسخة واضحةٌ لا مراء فيها من اليهوديّة كحركة قوميّة لم ينجح متحدثو صهيونية حزب العمل ولا مفكروها في ترسيخها في المجتمع. لقد دخل الصهاينة الجدد الانتخاباتِ على أنّهم القوّة التي ستحقّق الوحدة في المجتمع بحيث يضعون حداً لهذا الشقاق في التفسيرات المتباينة لليهودية كدين وكحركة قوميّة على السواء. وقد رأى مفكرو مابعد الصهيونية أنّه لا بد أن يكون انقسام المجتمع على ذاته دافعًا للتأكيد على ضرورة أن تكون الدولة لجميع مواطنيها لا الجنوح إلى ربط الدولة بفئة بعينها على حساب الفئات الأخرى. أمّا الصهاينة الجدد فقد ذهبوا إلى أنّ نسيج التدين والقوميّة لليهوديّة لكفيل بصون وحدة المجتمع الإسرائيلي ووضع حدّ لحالة التشرذم فيه.

وقد تشكّل هذا التوجّه النيو-صهيوني في أربع عمليات متوازية: تعزيز حالة التطرّف لدى المجموعات القوميّة المتدينة في إسرائيل (ومعاقلها هي

المستوطنات وشبكةٌ واسعة من اليشيفات(*) التي أسستها الدولة في إسرائيل) ، وصهينةُ اليهود المتشددين الذين كانوا في السابق مناهضين للصهيونية ، وفرض حالة من العزل العرقيّ لأطياف من المجتمع اليهودي المزراحي ، بسبب ما حصل من دفعهم نحو الأطراف الهامشية جغرافيًا واقتصاديًا من المجتمع ، وأخيرًا الإسراع في دمج إسرائيل في تيّار العولمة الرأسمالية ، على طريقة المحافظين الجدد أو بالأحرى اليمين الأمريكي الجديد (وهو ما انجذب إليه تحديدًا المهاجرون الروس) .[١٦] وهكذا فإنّ الرؤية التي جمعت بين تلك المجموعات الأربعة هي السعي لإقامة دولة يهودية عرقيّة تمتدّ على معظم أراضي فلسطين التاريخيّة .

لكنّهم اختلفوا وتفرّقوا حول قضية الدّين . فجماعة المهاجرين الروس والتي كانت تشكّل حينها سدس المجتمع اليهودي أرادت دولة علمانية قوميّة ، بينما ابتغت المجموعات الأخرى ثيوقراطيّة تمكّن الدولة من حلّ مشاكلها الخارجية والداخلية . وكان القادة الدينيون هم أهمّ فئة ضمن هذه المجموعات ، سواء الحاخامات اليهود أم المشعوذون أم من يمارسون الطب الشعبيّ أم السياسيون أم المشتغلون في سلك التعليم . وقد سادت بين هذه النخبة المتديّنة الجديدة نظرةُ ازدراء تجاه العلمانيين اليهود وتجاه غير اليهود في إسرائيل ، حتّى أنّه تنتشر في بعض أوساط هذه الفئة من المتشدّدين اليهود نظرة لليهود العلمانيين تصفهم بما يدعى «حمار المشياح(**)» : فهم قد قاموا بوظيفتهم بحمل اليهود وإعادتهم إلى

(*) يشيفا (Yeshiva) وتعني بالعبريّة الجلوس ، وهي تشير إلى مفهوم الحلقات أو الزوايا العلميّة المخصّصة لدارسة العلوم الدينية ، ولكنّها في إسرائيل المعاصرة تعني تلك المدارس الأكاديمية المعنيّة بتدريس التوراة والتلمود بمراحل ومستويات مختلفة . (المترجم)

(**) وذلك حسب التفسير اليهودي لما ورد في سفر زكريا في العهد القديم من أنّ المشياح المخلّص يأتي على ظهر حمار : «اِبْتَهِجِي جِدًّا يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ ، اهْتِفِي يَا بِنْتَ أُورُشَلِيمَ . هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ . هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ» (زكريا ٩ :٩) وتستخدم هذه العبارة في العبريّة المعاصرة للإشارة إلى شخص غير ذي قيمة يقوم بما يؤمر به ثم لا يؤبه له . (المترجم)

الأرض المقدّسة، فلا نفع لهم الآن ويمكن المساواة بينهم وغير اليهود في المعاملة. فغير اليهود في نظرهم ليسوا سوى حيوانات يمكن لليهود أن ينتفعوا بها ويستغلوها، وقد يخافون منها أحيانًا، ولكن لا يمكن لليهود بحال أن ينزلوا بأنفسهم إلى مقامها. لقد برز مثل هذا التفكير اليهودي القروسطي والذي نجده في كتابِ سيفي راشِلفسكي «حمار المشياح» وغيرها من الكتب، من أجلِ خلق حالة من التوازن وإضفاء نوع من التلطيف في تلك البيئة المعادية لغير اليهود، وهي تستخدم هنا كأساسٍ لأيديولوجية عنصرية حديثة تكون محورًا للإقصاء/الدمج في المستقبل، والهدف هو إسرائيل نقيّة من اليهود العلمانيين ومن غير اليهود.(١٧)

صيغت هذه الفكرة وتعزّزت في أوساط المفكرين القوميين المتدينين ولاسيّما الحاخامات، وكان يجري الحديث حولها باسم الصهيونية لا اليهودية وارتبطت بالمفهوم الصهيوني عن تحقيق الغاية (Hagshama) والذي يعني في التفسير القديم غاية واحدةً لا ثانيَ لها: عمارة أرض إسرائيل. اعتبر الصهاينة الجدد بدايةً أنّ الاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان هو أسمى تجليات حبّ الوطن وشعروا بأنّهم يتابعون مشاريع الاستعمار السابقة لهذه الأرض والتي بدأت نهاية القرن التاسع عشر. ولكنّ أهداف الاستيطان قد تحقّقت كلّها تقريبًا، وهكذا تحوّل مفهوم تحقيق الغاية الآن إلى إعادة توجيه النشاط الاستيطاني للتركيز على المدن الإسرائيلية التي فيها وجود فلسطينيّ، كالرملة واللد ويافا وعكّا. وقد نجم عن هذه التحرّكات صدامات عنيفة وتوتّر كبير في مناطق كان الفلسطينيون واليهود قد تعايشوا فيها فيما سبق. ونرى أنّ الذين يحرّضون على مثل هذه الأفعال هم بعض الحاخامات الذين يصدرون فتاوى تحرّم تأجير البيوت أو بيعها للعرب، وفتاوى أخرى تحرّم حتّى مصاحبة العرب وتحرّم بالضرورة الزواج منهم.

تصاعدت هذه الطاقة النيو-صهيونيّة وتوجّهت لمحاولة فرض حضور دينيّ أكثر تشدّدًا في المجال العام وفي القضاء والتشريعات، واستهدفَت المحكمةَ العليا

على الأخصّ بسبب محاولتها منعَ استغلال الدين في المجال العام. لقد تمكّن اليهود العلمانيون في بعض المناطق كتل أبيب وحيفا من ردّ مثل هذه المبادرات، أمّا أولئك الذين يعيشون في القدس فقد قرّروا الرحيل عنها وبدأوا حياةً جديدة لهم في الضواحي.

كما أنّ نظرة النيو-صهيونية عن الماضي أكثر قوميّة ورومانسيّة من النظرة الصهيونية، فهي ترى أنّ العصر الذهبيّ المجيد لإسرائيل هو عصر الهيكل الثاني وهذا هو ما تلزم إعادة بعثه. وتجدر الإشارة بشكل سريع في هذا الصدد إلى التشابه الصادم بين الصهاينة الجدد وأتباع حزب بهارتيا جاناتا الهندي. فكلا الفريقين يسعيان إلى هدم ماض قريب يمتدّ لمئات السنوات لصالح ماضٍ بعيد قام قبل آلاف السنوات. ولذلك فإنّ الصهاينة الجدد يفكّرون جدّيًا بإعادة بناء الهيكل الثالث مكان الحرم القدسيّ ويعملون على إعداد كوادر متخصّصة للعمل هناك حين يتحقق ذلك، ولكنّ الاختلاف بينهم يدور حول كيفية تحقيق هذا الهدف، فمنهم من يرى ضرورة هدم المسجدين في جبل الهيكل ومن يرى أنّ تدخّل السماء هو الذي سيحسم أمرَ هذا الخطّة.(١٨)

جيل المستقبل: التعليم في إسرائيل في القرن الحادي والعشرين

كان النجاح الأكبر للصهاينة الجدد إلى جانب وجودهم الفعّال في كل حكومة إسرائيلية منذ العام ١٩٩٦ هو سيطرتهم الممتدّة على نظام التعليم في إسرائيل. ففي حين كانوا يتقاسمون الوزارة في التسعينات مع حزب ميريتس الصهيوني اليساري إلا أنّ هذا انتهى بخروج هذا الحزب من صلب المشهد السياسيّ. ونلاحظ هنا كيف أنّ هذه الإدارة الثنائية لنظام التعليم بوزير يساري ونائب له من الصهاينة الجدد هي من مخلّفات تلك الفترة مابعد الصهيونية من إنتاج المعرفة في إسرائيل. لقد كانت الكفّة في المجال الأكاديمي راجحة خلال التسعينات للتوجّه مابعد الصهيونيّ، أمّا في مجال السياسة فكان الثقل ما يزال لصالح الصهيونية الكلاسيكية، ونظرًا إلى المعارضة القوية للنيو-صهيونية فإنّ

السيطرة في مجال التعليم لم تحسَم بشكل قاطع لطرف دون آخر حينها . وما أنْ آذن عقد التسعينات بالأفول حتى تلاشت تلك التوجّهات مابعد الصهيونية في المجال الأكاديمي وفي النظام التعليميّ ، واستؤنف إنتاج المعرفة في إسرائيل وفق العقيدة الصهيونية الكلاسيكية ، مع ميل متزايد كذلك إلى صبغ التاريخ بتوجهات نيو-صهيونية . بقيت وزارة التربية والتعليم في إسرائيل طيلة النصف الأول من القرن الحادي والعشرين تحت السيطرة الكاملة لليكود ، حيث جرى التخلّص من جميع المناهج التي كانت متأثّرة ولو من بعيدٍ بالجهود الأكاديمية مابعد الصهيونية . وقد شاركت اللجنة الخاصّة بالتعليم في الكنيست في هذه العملية بكل حماسة ، ولذا لم يكن هنالك ما يدعو ليكون هنالك وزير من أقصى اليمين من الصهاينة الجدد لتنفيذ الإستراتيجية الجديدة .

وشرَع وزراء التربية والتعليم الليكوديّون بالتعاون مع زمرة من الأكاديميين كثيرٌ منهم من جامعة بار إيلان الدينية الحكوميّة وجامعة أريئيل المنبثقة عنها في الضفة الغربية المحتلة ، في جعل التفسير النيو-صهيوني لفكرة إسرائيل الأساس الأيديولوجي لنظام التعليم الرسميّ في البلاد . وقد وضع الصهاينة الجدد الكثير من المواد التعليمية (من كتب دراسية ومناهج وغيرها) التي ستترك أثرًا على الجيل القادم من اليهود في إسرائيل ، وهو أثرٌ من شأنه أن يخرّج جيلًا عنصريًا إقصائيًا مسكونًا بالطهوريّة العرقيّة . ووفقًا للأبحاث التي أجراها دانيِل بار-تال من جامعة تل أبيب ، وبعده نوريت بيليد ألحنان من الجامعة العبرية فقد كانت الرسالة الواضحة التي غرزتها تلك المناهج التعليميّة للطالب هو أن يخاف من الآخر في داخله ومن حوله- وهذا الآخر ليس إلا العالم العربي حول إسرائيل ، والأحياء الفلسطينية ، والمواطنين الفلسطينيين داخل إسرائيل ، والمهاجرين من غير اليهود . ومن الأمثلة التي تدلّ على وجود هذا النوع من الرسائل بالفعل هو الكتاب المدرسيّ «قصّة سنين خلت- اليوبيل الذهبي لإسرائيل» والذي يقدّم سردًا للأحداث التاريخية التي شهدتها الدولة منذ تأسيسها عام ١٩٤٨ .(١٩) إذ سقط ذكر الفلسطينيين في الكتاب عمومًا ، إذ لا

ذكر لهم فيما يتعلق بحرب ١٩٤٨ ، ولا ذكر لهم كمواطنين في إسرائيل تحت الحكم العسكريّ حتى عام ١٩٦٦ ، ولا كشعب يخضع للاحتلال في الضفة الغربية وقطاع غزّة منذ عام ١٩٦٧ ، بالإضافة إلى أنّ قارئ الكتاب لن يعرف أيّ شيء عن قضيّة اللاجئين الفلسطينيين . أمّا ما بيّنه الكتاب للقرّاء فهو وجود الإرهاب الفلسطينيّ الذي برز في الستينات لأسبابٍ غير مفهومة .

الجانب المهمّ الآخر هو بث الروح العسكرية في النظام التعليمي في إسرائيل . فقد أعلنت الوزارة عام ١٩٩٨ عن خطة شاملة جديدة لتعزيز ارتباط الطلبة بمؤسسة الجيش ، وذلك عبر متابعة الأطفال من مرحلة رياض الأطفال حتى الثانويّة بطريقة تضمن استعدادهم الجيّد «لبيئة العسكريّة وقيمها» وتساعدهم على «التعامل مع المواقف الصعبة وتطوير مهاراتهم القيادية في أرض المعركة» .[٢٠] كما تمّ اعتماد مستوى اللياقة البدنية اللازم للالتحاق بالجيش كشرط للتخرّج من الثانويّة ، كما سيشمل نظام التعليم في المستقبل جزءاً إلزامياً أساسياً يتعلق بالمشاركة في المناورات الحربية ودروس العقيدة العسكرية . أما تحقيق ذلك فسيكون من خلال تكثيف الدروس الخاصّة بالصهيونية ودراسات أرض إسرائيل . كما توجد خصوصيّة للسنوات الثلاثة الأخيرة من الدراسة الثانويّة ، إذ تهدف الخطّة إلى «زيادة تحمّس وجاهزّية الطلاب للالتحاق بجيش الدفاع الإسرائيلي» ، بحيث يتمّ التركيز في السنة الأولى على «التزام الفرد وارتباطه بوطنه» ، لينتقل في السنتين المتبقيتين إلى «المشاركة الفعلية في حياة العسكريّة» .[٢١] لقد كان هذا في واقع الأمر معمولًا به باستمرار في المدارس الإسرائيلية ، ولكنّه لم يحتّل سوى جزء هامشي من حياة الدراسة ، كما أنّ معالمه كانت قد وضعت من قبل الخطّ السائد للصهيونية التقليدية . أمّا الطالب الآن فيتعلم التاريخ الإسرائيلي وفق التفسير النيو-صهيوني وتتشكّل رؤيته للمستقبل وفق هذا التفسير . ومع أنّ الجامعات كانت أفضل حالًا من المدارس في تلك الفترة ، إلاّ أنّه لم يكن في وسع أستاذ الجامعة مابعد الصهيونيّ ، حتى قبل تغييب مابعد الصهيونية من المجال الأكاديمي ، أن يغيّر

الكثير ، حتّى لو تمتّع هذا الأستاذ بفرصةٍ للتعبير عن آرائه .

وفي حين شرعت الدولة بتطبيق خطط التعليم النيو-صهيونية ، فإنّ المنتجات النهائية لمرحلة مابعد الصهيونية لم تكن قد وصلت بعدُ إلى وزارة التربية والتعليم إلا بعد أن تسلّم إيهود باراك رئاسة الحكومة (١٩٩٩-٢٠٠١) . والقصّة هي أنّ الأمر استغرق سنوات عديدة حتى طبعت الكتب التي تمّ التوصية بطبعها عام ١٩٩٣ ، فوصلت الكتب حين جهزت إلى وزير التربية والتعليم الصهيوني اليساريّ من حزب ميريتس ، والذي كان له نائب من الصهاينة الجدد ، وذلك ضمن الجهود التي بذلها باراك للحفاظ على تحالف مستحيل في الحكومة . فما حصل إذن هو أنّ المدارس كانت تتبنّى بالتدريج النسخة الجديدة من النيو-صهيونية من جهة ، وتتلقّى كتبًا دراسيّة فيها أثرٌ من مابعد الصهيونيّة من جهة أخرى . وقد نجم عن هذا التناقض ضجّة واسعة وصلت أصداؤها إلى الصفحة الأولى من النيويورك تايمز .(٢٢) والحقيقة أنّ تلك الكتب كانت بها مسحةٌ وحسب من الأفكار مابعد الصهيونية التي لو ظهرت في بداية التسعينات لما اكترث بها أحد ، ولكنّها حين دخلت الصفوف بعد التسعينات فقد عدّتْ أقرب إلى الهرطقة وازدراء الدين . ولم تلبث تلك الكتب على أية حال حتّى سحبت من النظام التعليمي بأكمله .

لا ضير مع ذلك أن نلقي نظرة على تلك الكتب لعلّنا نأخذ فكرة عن الأثر الذي كان يمكن أن يتركه التحدي مابعد الصهيونيّ على مسار إسرائيل لو تحقّق . ويمكن بدايةً أن نتبيّن مقدار الأمل وربما السذاجة لدى أولئك الذين أعدوا تلك الكتب بالنّظر إلى ماء جاء على لسان أحد أفراد لجنة الإعداد ، أفنر بن أموس من جامعة تل أبيب ، حيث أخبر هآرتز عام ١٩٩٦ عن هدف المشروع فيقول :

> لقد سادت في تدريس التاريخ]في إسرائيل [في الماضي نسخةٌ من التاريخ تدّعي أنّ لنا نحن]الإسرائيليين [حقًا لا جدال فيه في الأرض التي رجعنا إليها بعد ألفي سنة من النفي ، وأننا حين

وصلناها وجدناها خلوًا من الناس. أمّا في يومنا الحاضر، فإنه لا يمكن تدريس التاريخ بمعزل عن النقاشات الحاصلة في الدوائر الأكاديمية والمراجع المتخصصة. إن علينا أن ندرج النسخة الفلسطينية في قصة تاريخ إسرائيل، وذلك كي يتسنّى للطلبة أن يعرفوا أنّ هنالك مجموعة من الناس قد تأثّروا سلبًا بالحركة الصهيونية وحرب الاستقلال [عام ١٩٤٨].(٢٣)

لعل أكثر الحقائق التي تدعو إلى الأسى العميق وخيبة الأمل الكبيرة عند النظر إلى العقد الذي شهد صعود مابعد الصهيونية هو غياب تأثير هذه الحركة التامّ عن التأثير على النظام التعليمي في إسرائيل. وقد توصّلت إلى هذه النتيجة عند النظر إلى تلك الفترة بعين العام ٢٠١٣ وأنا أكتب هذا الكتاب وأبحث في مابعد الصهيونيّة في تلك الفترة. وبالرّغم من، أو بالأحرى بسبب استحالة الجمع بين سيطرة مابعد صهيونية وأخرى نيو-صهيونية على النظام التعليمي في تلك الأيام من حكومة إيهود باراك، كانت الغلبة للنيو-صهيونية التي فرضت تأثيرها الملموس والمتواصل حتّى السنوات الأولى من الألفيّة الجديدة. وعندما جاء نتنياهو على رأس حكومة جديدة عام ٢٠٠٩ (ومجدّدًا عام ٢٠١٢) كانت هنالك مجموعتان من المواد التعليمية الإلزامية والاختيارية المتوفّرة للمدرسين في دولة إسرائيل وكانت هذه الموادّ تعبّر عن وجهة النظر النيو-صهيونية.

والأسوأ من ذلك حتّى هو غياب أيّ تأثير لمابعد الصهيونية في مجال التشريعات في إسرائيل، خاصّة فيما يتعلق بالتشريعات الخاصة بحقوق الإنسان والحقوق المدنية في «الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط».

شرعنة الأبارتايد: النسخة النيو-صهيونية

شهد القرن الحادي والعشرون موجة مكثّفة ومندفعة من التشريعات ضد الفلسطينيين في إسرائيل، ولم تكن الانتفاضة الثانية سوى ذريعة لتمرير مثل

هذه التشريعات ، إذ كان الدافع الأساسيّ وراءها هو الهاجس الديمغرافي لدى إسرائيل في عمق كيانها ، والذي لم تفلح معدلات الولادة الطبيعية ولا معدلات الهجرة في خلق حالة من التوازن الديمغرافيّ بما يضمن لليهود التفوّق والحصرية في مجتمعهم .

وقد جاء التعبير عن هذه الفوبيا بوضوح في الاجتماع السنويّ المخصّص للحديث حول «الأجندة الوطنيّة» والذي يعقد في مركز الدراسات متعدّد المجالات في هرتسليا (وقد صار الآن جامعة خاصّة) على أطراف تل أبيب الشماليّة . لقد كان هذا المكان منذ ثمانينات القرن العشرين بمثابة بيت للأصدقاء القدامى من مشاهير الأكاديميين الإسرائيليين الذين ينتمي معظمهم إلى حزب العمل . وكان أولاء الأكاديميون ينشرون بشكل سنويّ تقريرًا حول حالة الأمّة بناءً على خطابات يقدّمها إليهم كبار السياسيين في البلاد بالإضافة إلى الجنرالات العسكريين والقادة الإستراتيجيين . ويتمّ بناءً على هذا التقرير السنويّ المعتمد من قبل الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة وضع الأجندة الوطنيّة لبضعة سنوات مقبلة .[٢٤] وصار التقرير يشتمل منذ التسعينات فصاعدًا توصيات ضمنيّة بنقل الفلسطينيين من إسرائيل حين أو إن تضاعفت نسبتهم بين السكّان (من ٢٠ بالمئة إلى ٤٠ بالمئة) وتوصيات أخرى بإعادة تفعيل عمليات تعزيز القوميّة اليهودية في نظام المدارس ، وهو ما تبنّته جميع الحكومات بكل اندفاع وحماسة كما سبق ورأينا .

أمّا التوصية الأولى فقد احتاجت عدّة سنوات حتّى طبّقت ، إذ كان يحتاج تطبيقها على ما يبدو صدمة على غرار ما حدث في تشرين الأول لعام ٢٠٠٠ من أحداث داخل إسرائيل دفعت إلى تفعيل مثل هذه التصوّرات . لقد قرّر الفلسطينيون داخل إسرائيل في ذلك الشهر الخروج في مظاهرات عارمة دعمًا للانتفاضة الثانية سقط فيها ثلاثة عشر مواطنًا فلسطينيًا برصاص الشرطة الإسرائيلية في ردّ عنيف لها على المظاهرات . ومع ذلك فإن معظم وسائل الإعلام قد رأت أنّ هذه المظاهرات مظهرٌ للخيانة والغدر عند الفلسطينيين ، كما

ألقى السياسيّون الإسرائيليون اللوم على الفلسطينيين وقادتهم وحمّلوهم مسؤولية الأرواح التي سقطت في تلك الاحتجاجات.

غيرَ أنّ تلك المساعي الرامية لإقرار تشريعات مقترحة لمبادرات إقامة نظام شبيه بالأبارتايد وتمريرها كي تأخذ شكل القانون لم تفلح وظلّ الأمر هكذا حتّى العام ٢٠٠٩، عندما تلاشى هذا الرادع الذاتيّ بإعادة انتخاب نتنياهو. ولا بدّ من الإقرار هنا أنّه حتّى الحكومات السابقة التي ترأسها أشباه السياسيّين خلفًا لشارون من أمثال إيهود أولمرت وتسيبي ليفني قد كانت تفسح المجال لسياسات كانت الدولة تحجم عنها خلال التسعينات، وقد ترتّب على ذلك قيام إسرائيل بشنّ حربٍ مدمّرةٍ واسعة النطاق على لبنان عام ٢٠٠٦ وأخرى على قطاع غزّة في آخر العام ٢٠٠٨.

أمّا على المستوى المحليّ فقد تولّت حكومة نتنياهو كبر توجيه هذه العدوانية نحو الفلسطينيين داخل إسرائيل واليهود المعارضين في المجتمع، وصار الكنيست ميدانًا لتشريع التوجّهات النيو-صهيونيّة ضد هاتين الفئتين، ونظرًا للخطورة الأكبر للأولى فإنّها كانت أكثرَ تضرّرًا من هذه التشريعات الجديدة، ولاسيّما أنّ تعداد الفلسطينيين في إسرائيل يربو عن مليون ونصف المليون يعيشون أصلًا في ظل نظام من القمع ليس معروفًا ولا مشاهدًا مع الأسف خارج إسرائيل. ولم يشفع لهؤلاء الفلسطينيين حتى جمعيّة حقوق المواطن في إسرائيل (ACRI) المجمع عليها في إسرائيل والتي أكّدت وجود تدهور في ظروف حياة هذه الأقلية واعتداء على حقوقها منذ العام ٢٠٠٠، كما جاء في تقريرٍ للجمعية عام ٢٠١٢ وصف يلخّص واقع حياة هؤلاء المواطنين الإسرائيليين:

> يُضاف إلى عدم احترام حق المواطنين العرب في المساواة عدمُ مقدرتهم على الوصول إلى الخدمات وما يمارس عليهم من تضييق في المجتمع وتهميش اللغة العربية في المجال العمومي ممّا يمسّ بكرامة خمس سكّان إسرائيل ويخلق حالةً من الشعور بالتمييز والاغتراب والنقص ممّا يؤثر سلبًا على شعورهم بالانتماء إلى

المجتمع الإسرائيلي. كما أنّ غياب اللغة العربية على المستوى المعنويّ يشي بغياب شرعية وجود العرب في المجال العام.[٢٥]

وسأورد فيما يلي عرضًا لبعض القوانين التي أدّت إلى شكل إسرائيل الحاليّ عام ٢٠١٤. هذه هي إسرائيل التي يجدر التبشير بها داخل إسرائيل وخارجها كمصداق لما رآه يوسف غورني وآري شافيط أنجح مشروع للتحديث والتنوير في التاريخ الحديث.

لعل أشدّ هذه القوانين فظاعة هو قانون النكبة لعام ٢٠٠٩، والذي ينصّ على أنّ أيّ شخص يتّخذ من يوم استقلال إسرائيل مناسبة للحزن والحداد فإنّه سيتعرّض للاعتقال. وقد خضع هذا القانون لتعديل طفيف جرّاء ضغوطات دوليّة، فأُلغيت عقوبة الاعتقال وحلت مكانها عقوبة بحرمان أي مؤسسة تحيي ذكرى النكبة من أيّ تمويل حكومي، مع العلم أنّه ما من مدرسة فلسطينية ولا مركز ثقافي فلسطيني ولا مؤسسة ولا بيت فلسطيني في إسرائيل إلا ويحيي ذكرى النكبة.

صدر تعديل في العام ٢٠١١ على قانون الجنسية لعام ١٩٥٢، وعرف هذا التعديل باسم قانون إسقاط الجنسيّة بموجب أعمال تعرّف بالتجسّس والإرهاب، إلى جانب قوانين مشابهة أخرى تتيح للدولة سحب جنسيّة أي شخص يتهم بالإرهاب والتجسس. ومن المعروف أنّ أي دعم للنضال الفلسطيني ضدّ الاحتلال يدخل في باب الإرهاب وفق القانون الإسرائيلي.

هنالك قانون آخر من العام ٢٠١١ يعرف بقانون لجان القبول، والذي يشرّع ممارسة شائعة في إسرائيل تمنع المواطنين الفلسطينيين من العيش في بعض المناطق التي يرغب المواطنون اليهود في أن تبقى خالية من العرب. ويتيح هذا القانون للتجمعات القائمة أو الجديدة ذات الأغلبية اليهودية أن ترفض قبول المواطنين الفلسطينيين الراغبين في العيش بينهم، وذلك على أساس «الملاءمة الاجتماعيّة»، أي على أساس الاختلاف في العرق أو القوميّة.

بقي أن نشير نهايةً إلى أنه قد تمّ طرح مسودّة قانون في الكنيست في أحد

الأيام من شأنه أن يعطي الأفضلية لليهود (وحدّدهم القانون بأولئك الذين خدموا في الجيش الإسرائيلي) في الخدمات العامة والوظائف والرواتب والبيوت، وذلك في ترسيخ لأثر قانون آخر يتعلق بتكليف كل مواطن غير يهوديّ بأن يقدّم قسم الولاء لدولة إسرائيل «اليهودية والديمقراطية».(٢٦)

وليس ما ذكرت آنفًا سوى أمثلة معدودة على أسوأ ما وصلت إليه الحال على مستوى التشريعات منذ العام ٢٠٠٠ حتّى الآن، إذ ما زال الكنيست يشرعن الممارسات التمييزية والسياسات غير الرسميّة، لأنّ إسرائيل تدرك أهميّة وضع الأساسات القانونية لنظام الأبارتايد ولاسيّما أنّ الحكومات الأخيرة ومن ضمنها الحكومة التي انتخبت عام ٢٠١٢ تتبنّى خطّة ضمّ المنطقة ج التي تمثّل ٤٠ بالمئة من الضفة الغربية كآخر عملية من التوسّع الجغرافي لإسرائيل، مع أنّ ذلك يضع المزيد من الفلسطينيين في المعادلة الديمغرافيّة. وسيفرض القانون الإسرائيلي في تلك المنطقة، ولا بدّ من أجل ذلك وضع بنية تحتية عنصريّة للشكل الأوسع وربّما النهائي لدولة إسرائيل.

لم يسلم ناشطو مابعد الصهيونية من هذا الاستهداف القانوني أيضًا، ولعل أهمّ قانون في هذا الشأن هو قانون منع المس بدولة إسرائيل بواسطة المقاطعة لعام ٢٠١١، والذي جرّم تحت طائلة العقوبة بالسجن لفترات مطوّلة أي دعم لمقاطعة إسرائيل أو أي تحرّك خارج الدولة يعدّ في باب محاولة تقويض شرعية الدولة. وقد اقترح قانون جديد يحدّ من الدعم الأجنبي لمنظمات حقوق الإنسان والحقوق المدنية في الدولة، إلا أنّه لم يقرّ بعد.

نختم هذا الفصل بالإشارة إلى أن الواقع التشريعي في إسرائيل يعكس الموقف الأيديولوجيّ للسلطة الحاكمة فيها. فلم يعد ثمّة قضايا يلفّها الغموض، وولّى زمن الندم ولم يعد هنالك من متّسع للنقاشات حول فكرة إسرائيل، كل هذا قد انقضى وحلت مكانه الفرحة الغامرة في يوم الاستقلال كما عبّر عنها شافيط وغيره من كبار الصحفيين.

وبما أنّ النظم التشريعية والسياسية والتعليمية قد أضحت كلّها تحت التأثير

شبه الكامل لهذه النسخة الجديدة المتّقدة حماسًا من نسخة إسرائيل ، فإنّ نظر المرء قد يتوجّه قبل الإعلام والجامعات ليرى إن كانت هنالك ثمّة محاولة للشدّ العكسيّ أو أيّ أمل في ردّة فعل ما . أمّا الإعلام ، فقد سار على خطّ واحد في ردّات الفعل بعد العام ٢٠٠٠ بما لا يترك مجالًا لمزيد من النقاش حوله . أمّا الجامعات ، فسأرجع في نهاية هذا الكتاب إلى هذا الميدان وأوضّح على سبيل المقارنة الجهود الفكريّة المبكّرة لمعالجة تاريخ وتأريخ العام ١٩٤٨ الذي شهد تأسيس الدولة من جهة (إذ إنّ الحالة الفريدة التي شهدتها الدولة اليهودية في التسعينات لم تكن سوى نتيجة جهود تلك الثلّة من المؤرخين الجادّين الذين درسوا تاريخ ذلك العام بالتحديد) ، والأبحاث الجديدة من جهة أخرى ، وذلك كي نرى كيف أنّ تلك الرحلة الخجولة لدراسة الماضي والتي كان يحدوها الأمل بإيجاد مستقبل مختلف قد انتهت كما لو أنّه لم يكن لها سابق وجود .

الفصل الثاني عشر
المؤرخون الجدد من الصهاينة الجدد

لا يمكن للقارئ الحصيف]لأعمال المؤرخين الجدد [أن ينكر معظم الحقائق التي يقدمها هؤلاء المؤرخون حول السياسات التي انتهجتها الصهيونية في الماضي . . . ولكنّ النتائج التي كانوا يسعون وراءها تهدف إلى تقويض شرعيّة الآباء المؤسسين للأمّة الذين وافتهم المنيّة ولم يعودوا بيننا . . . ولا يسعنا بحال أن نُغفل المهالك التي تترتّب على هكذا هجوم . . . لن تستطيع أيّ أمّة أن تحافظ على حيويّتها إن كانَ العامّة يرونَ أنّها قائمة على سرديّة تاريخيّة من الإشكالات الأخلاقيّة . [علاوة على ذلك] إنّ الجدّة فيما قدّمه المؤرخون الجدد لا يكمن في الحقائق وإنّما في زاوية النظر . . . فهذه ليست بحقائق ولكن تقييمات أخلاقيّة متعمّقة .

دانيَل بِلسر ، مجلة تخيلِت ، ٢٠٠٠[١]

فترةُ قصيرة وحسب لا تعدو عقدين فصّلت بين ظهور الأعمال النقدية التي وضعها «المؤرخون الجدد» فيما يتعلق بتاريخ عام ١٩٤٨ واختفائها من المشهد الأكاديمي . ولا ريب أنّ سبب هذا العمر المقتضب يعود إلى أنّ حرب ١٩٤٨ ليست مجرّد قصّة ذات ارتباط وثيق بالأوضاع السياسيّة الراهنة وحسب ، بل لكون تاريخ هذه الحرب قد صار أسطورة تأسيسيّة . ويخبرنا لوي ألتوسير أنّ الأساطير المؤسّسة هي تلك التي يسهل على المجتمع تلقّيها والتي

يجري بناءً عليها بناء النظام الاجتماعي وتحصينه .[٢] وتقدّم هذه الأساطير السرديّة التي تسوّغ وجود الدولة ، وتعتمد استمراريّة سلطانها على استمرار ارتباطها بالنظام الاجتماعي القائم . ولو نظرنا إلى إسرائيل لوجدنا أنّ النظام الاجتماعي هو هو لم يتغيّر ، بالرغم من الرواج والأهمّية التي حازها خطاب مابعد الصهيونية لفترة وجيزة من الزمن ، وهذا ما يفسّر عودة المجتمع بسرعة كبيرة إلى معتقداته التي لطالما اعتنقها . وبما أنّ تاريخ ١٩٤٨ يرتبط كذلك بقضايا الحرب والسلام والعلاقات مع الفلسطينيين والتوجّه المستقبليّ بأكمله للدولة ، فإنّ أي خلاصة بحثية و أكاديميّة بشأنها قد كانت وما تزال بالغة الأهمّية لفهم الراهن السياسيّ ، وهذا ما أدركه المفكّرون أنفسهم والسياسيّون المعنيّون بعمليّة السلام .

أودّ أنْ أشير في هذا الفصل الأخير إلى الأثر الذي تركه الانتقال من نسخة مابعد الصهيونية لفكرة إسرائيل إلى النسخة النيو-صهيونية على المجتمع الأكاديمي في إسرائيل ، وخاصّة في ميدان التأريخ . يصعبُ الخوضُ في تحديد الباعث وراء إنتاج سرديّة إذ ما يزال هذا ضربًا من الألغاز ، ولكنّا معنيّون بالخوض في السرديّة نفسها لا الجري وراء البواعث التي دعت إلى خلقها أو مراجعتها . ولذا فإني قد اقتصرت هنا على تسليط الضوء على مظاهر انعكاس التغيّر في الوضع السياسيّ على السرديّة التي برزت في الأعمال التي أنتجها المؤرخون بخصوص حرب ١٩٤٨ . ومن المعلوم أنّ مبادئ الأخلاقيّات الأكاديميّة تحتّم على هؤلاء المؤرخين أن لا تتأثر أعمالهم بما يطرأ من تغيّرات على المزاج الشعبي أو التوجه السياسيّ العامّ . ولكنّ الحالة في التأريخ الإسرائيلي لعام ١٩٤٨ الآن يدلّ على أنّ كتابة التاريخ ، في هذا الصراع خصوصًا ، تستبطن وتمثّل الخلافات الأيديولوجية والتطورات السياسية ولا تختلف في هذا كثيرًا عن الأوساط الثقافية الأخرى إلاّ من زاوية أنّ هذه الأوساط أو أشكال الخطاب الأخرى لا تتظاهر بالموضوعيّة أو الحياد .

وكنّا قد أشرنا في الفصل السابق إلى أنّ إجماعًا صهيونيًا دافقًا قد برز

مجدّدًا في حضور قويّ بعيد اندلاع الانتفاضة الثانية، مع أنّه كان قد خبا حتى كاد يختفي أيام أوسلو. لقد صيغ الخطاب العامّ في إسرائيل بنهج جديد يتّبع خطوط إجماع صارمة لا يمكن تجاوزها. وهكذا وكما كانت الظروف والبيئة السياسيّة بدايةَ التسعينيات تغري المؤرخين في إسرائيل بفتح طاقةٍ على السرديّة الفلسطينية بل واقتراح إمكانية قبول بعضٍ مقولاتها الأساسيّة، فإنّ الظروف الجديدة بعد العام ٢٠٠٠ قد حرثت أرضًا خصبةً لجيل جديد من المؤرخين لخنق هذه السرديّة وسجنها خلف جدرٍ محصنة من النفي من جهة، وتحصين الهويّة الجمعية وحمايتها من تجدّد الصراع.[٣]

وتحسن الإشارة هنا على أنّه في الوقت الذي استعاد فيه هذا الإجماع الصهيوني حضورَه في إسرائيل ببالغ السرعة فإنّ السرديّة التأريخية الجديدة والتي كانت قد شرعت بفرض نفسها حتّى قبل العام ٢٠٠٠ لم تؤدِّ إلى إعادة إنتاج دقيق للسردية الصهيونية الكلاسيكيّة. فالتاريخ لا يعيد نفسه كما هو معروف وكذا التأريخ أيضًا. وعليه فإنّ سرديّة جديدة/قديمة أتت إلى الحيّز العام جرى تحديثها لتلائم التغيّر الحاصل في الواقع السياسي من جهة ولتستوعب المعلومات الجديدة المستفادة من سجلات الأرشيف الإسرائيلي من جهة أخرى.

لقد كان التأريخ الجديد صهيونيًا في توجّهه الأيديولوجي ومزاجه وصبغته ولكنّه تجنّب إسقاط الحقائق وتشويهها ونفيها كما سادَ في التأريخ الصهيوني الكلاسيكي. وقد تمكن مفكرو مابعد الصهيونية و «المؤرخون الجدد» الذين اعتمدت جهودهم على مصادر الأرشيف الإسرائيلي بالقدر المتاح لهم في تلك الفترة من تسليط الضوء على حقائق جديدة تتعلق بما حصل من طرد ومجازر وجرائم حرب ارتكبت عام ١٩٤٨ وهي حقائق ليس بوسع جيل الصهاينة الجدد تجاهلها. ولعلّ أهمّ ما ساعد على بروز مابعد الصهيونية هي تلك الأدلّة الجديدة والحسّاسة من أرشيف جيش الدفاع الإسرائيلي والهاغانا التي صارت متاحةً للعامّة عام ١٩٩٨ والتي رأى فيها المؤرخون المتخصصون بأمّ أعينهم وفي وثائق

رسميّة فظاعة عمليات التطهير العرقيّ التي جرت عام ١٩٤٨ . و حتى أولئك المؤرخون «القوميّون» أو المستشرقون ممّن استنكفوا عن قبول المصادر العربية أو الفلسطينيّة ولم يعتبروا سوى بالمصادر الإسرائيلية قد باتوا غير قادرين على إنكار عمليات الطرد المقصودة والواسعة التي تعرض لها الفلسطينيون .(٤)

لذا فإنّه لا فرق كبيرًا من ناحية الحقائق بين الرواية النيو-صهيونية لما حدث عام ١٩٤٨ ورواية مابعد الصهيونية أو المؤرخين الجدد ، وإنّما وجه الفرق يكمن في طبيعة ردّة الفعل أو شكل التفسير لتلك الحقائق . ففي حين رأى المؤرخون الجدد في تلك الأحداث انتهاكات تمسّ حقوق الإنسان والحقوق المدنيّة للأفراد ووصفوها بأنّها أعمال وحشيّة وجرائم حرب ، نجد أنّ البحوث الجديدة تراها أحداثًا عاديّة بل وربّما رأتها أحيانًا أفعالًا يستحق الجيش الإسرائيلي الثناء عليها . فما كان في عرف مفكري مابعد الصهيونية فصولًا تدعو للخجل في التاريخ الإسرائيلي كان في نظر البحوث الجديدة أمرًا مسوّغًا .(٥)

تزامن عند الصهانية الجدد القبول بالحقائق التي قدّمها التأريخ الجديد مع الرفض القاطع (منهم ومن غالبية المجتمع الإسرائيلي) للتقييمات الأخلاقية المعاصرة التي يتوصّل إليها أولئك المؤرخون الجدد بناء على النتائج التي لديهم فيما يتعلق بجرائم إسرائيل عام ١٩٤٨ وعلى رأسها طرد الفلسطينيين من أرضهم . إذ لم يكتف الصهاينة الجدد برفض التفسير الذي يقدّمه المؤرخون الجدد ولكنّهم شرعوا كذلك في انتقادهم وتوبيخهم على أسس أخلاقيّة نظرًا لأنّهم يعملون على تقويض شرعيّة الدولة . ويعبّر عن هذا التوجّه بشكل مختصر وواضح ذلك الاقتباس الذي أوردناه مطلع هذا الفصل .

إنّه اقتباس يلخّص لنا طبيعة التفاعل النيو-صهيونيّ مع المؤرخين الجدد : القبول بالحقائق الأساسية التي تم الكشف عنها مع التشنيع عليهم على أرضيّة أخلاقيّة . هذا التناقض أدّى إلى أمر أقرب إلى تقسيم المهامّ بين الصهاينة الجدد من المفكّرين في عملية إحكام السيطرة على إنتاج المعرفة في إسرائيل ،

ولاسيّما فيما يتعلق بالسرديّة «الأكاديمية» لحرب ١٩٤٨ . ففئة منهم عنيت بنقد الأساس الأخلاقيّ للتأريخ النقديّ في الحالة مابعد الصهيونية ، وفئة أخرى عكفت على إعادة النظر في الأدلّة بغيةَ تشكيل أو إعادة تشكيل سرديّة صهيونية قديمة/جديدة لحرب ١٩٤٨ بطريقة تعكس المزاج العام الذي ساد بعد العام ٢٠٠٠ في الدولة والتوصّل إلى نسخة أحدث لتفسير لفكرة إسرائيل .

نقد المؤرخين الجدد والجدل الأخلاقي

بالرغم من أنّ الحالة مابعد الصهيونيّة ومعها الروح النقدية في المجتمع الإسرائيلي قد أخمدت وهمّشت في الفترة التي أعقبت اندلاع الانتفاضة الثانية إلا أنّ الهجمة ضد المؤرخين الجدد (باستثناء بيني موريس) لم تنقطع منذ ذلك الحين ولم تتراجع حدّتها ، وفي هذا مفارقة عجيبة . فقد استمرّ اتّهام أيّ نقد للصهيونيّة مهما ضَؤل مداه وأثره بأنّه خطرٌ وخيمٌ على يهوديّة الدولة . ومنذ العام ٢٠٠٠ صار يعدّ التشكيك في السردية الوطنيّة عمومًا وتلك السرديّة المتعلقة بالعام ١٩٤٨ خصوصًا تهديدًا أيديولوجيًا لا بدّ أن تتصدّى له الأكاديميا أيًا كان مصدره داخليًا أو خارجيًا . بل ووصل الأمر حدّ إقرار عددٍ من القوانين في الكنيست الإسرائيلي كما ذكرنا في الفصل السابق تقضي بقطع الدعم عن أية مؤسسة أكاديمية أو تعليمية تحيي ذكرى النكبة ، كما تفرض عقوبات شديدة على الأكاديميين الذين يدعمون الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية لإسرائيل . وتواصلت الحملة مستهدفةً سحبَ جميع المواد التعليمية التي تشتمل على شيءٍ من النقد من النظام التعليميّ . ثمّ تأسست منظمة غير حكوميّة جديدة تدعى إم ترتسو (إن أردتم) تهدف بشكل أساسيّ إلى أن تكون عين الرقيب على ما يكتبُ ويُدرّس في المجال الأكاديميّ من مواضيعَ يمكن أن تصنّف على أنها مابعد صهيونية أو مناهضة للصهيونيّة . كما صدر عن هذه المنظّمة كتيّب خاص بالنكبة ينكر ما ذكره التاريخ الجديد حولها بطريقة مبتذلةٍ خبيثة حتّى أنّ الأكاديميا الرسميّة نفسها عدّت ما جاء في الكتيّب كلامًا لا

اعتبار له أو بالأخرى محرجًا . وقام بدعم جهود هذه المنظمة منظمة أخرى تدعى منظمة مراقبة الأكاديميا في إسرائيل والتي تضمّ في مجلسها عددًا من أبرز المؤرخين وأساتذة العلوم السياسيّة في إسرائيل وتعمل من خلال فرق عمل تابعة لها في كل جامعة على التخلّص من كلّ أثرٍ متبقّ لمابعد الصهيونية . وبعد فترة ليست بالقصيرة بدأت هذه المنظّمات تجني ثمار جهود الترهيب التي بذلتها وذلك ما أكّده أور كاشتي المختصّ بالشأن التعليمي في هآرتز إذ يقول :

ثمّة تغيّر كبيرٌ حصل خلال السنوات الأربعة الماضية ، إذ قام اليمين بشنّ حملة ممنهجة لنزع الشرعيّة حينًا والتهديد المباشر أو غير المباشر أحيانًا آخرى وفرضت عقوبات حقيقية ضد كلّ من تسوّل له نفسه أن يزعزع تلك النظرة التي ارتضاها اليمين . . . لقد سادت حالةٌ من نزع الشرعيّة عن الآخر قبل ثلاثة أعوام وذلك عبر نشرِ منظمة إم ترتسو ومعهد الإستراتيجيات الصهيونية دراسات شبه علميّة عن التحيّز مابعد الصهيونيّ الذي يُزعم أنّه شائع في الأكاديميا الإسرائيلية . وقد ترسّخت تلك الحالة على يد داعمي تلك المجموعات في الحكومة ولاسيّما وزير التربية والتعليم جدعون ساعر وتواصل دعمها والعناية بها من قبل منظمات يمينية كمنظمة يسرائيل شيلي .

ولكنّ الأكاديميا التي وجدت نفسها تواجه هذه الحملة اليمينية التي تستهدف إعادة تشكيل الواقع بالكاد حرّكت ساكنًا ، مع أنّه يفترض أنّها تقوم على قيم الشكّ العلميّ والتسامح والتعدّدية ، ولم يكن لها من صوت يسمعه العامّة على الأقل . وهكذا أخذت أعداد الأكاديميين الذين يرون الحراك العامّ جزءاً من مهمّتهم بالتراجع كأفراد ، أمّا المؤسسات وهيئات التدريس في الكليات والجامعات المختلفة والأكاديمية الإسرائيلية للإنسانيّات والعلوم لم تفتأ تحاول منع صدور أيّ حديثٍ عن ذلك الوجه من المجتمع

الإسرائيلي الذي يزداد قبحًا . إنّ الرقابة الذاتية والرغبة في الانسجام أكثر جدوى من القمع .

هكذا كانت الحالة عام ٢٠١٣ ولكن حتى ذلك الحين كانت حملة الهجوم على المؤرخين الجدد متواصلة حتّى بعد أنْ تلاشى تأثيرهم ، إذ أضحى لهذه الحملة بعد آخر يعكس جهود النيو-صهيونية منصبّة في إثبات أخلاقيّة المشروع الصهيونيّ . وفي حين دار الجدل في الأعوام القليلة الأولى من عمر مابعد الصهيونية حول الحقائق ، فإنّه قد انتقل الآن إلى «كشف» ما تنضوي عليه الأعمال النقديّة في مجال التاريخ وعلم الاجتماع منذ أواخر الثمانينات . ولعل أفضل مثال على الحالة الأولى هو أفرايم كارش الذي اتّهم المؤرخين الجدد بفبركة الحقائق ، وذلك في كتاب له بعنوان «فبركة التاريخ الإسرائيلي : «المؤرخون الجدد» » من دون أن يتطرّق إلى القضية الأخلاقيّة .[٦] ولا بدّ أن نلاحظ في واقع الأمر أنّ مقالة «تيخليت» التي سبق أن أوردنا اقتباسًا منها تشتمل على توبيخ لكارش لعجزه عن الدخول في مواجهة أخلاقيّة وأيديولوجية مع المؤرخين الجدد والانشغال بدلًا من ذلك في إنكار «حقائق لا يمكن دحضها» .[٧] وقد رأى محررو هذه المجلّة أنّ الأكاديميا في إسرائيل لم تعد لتسمح للمؤرخين الجدد أن يحدّدوا الأجندة البحثية فيما يتعلق بالعام ١٩٤٨- وهذا جانب آخر من النقد قد غاب عن التفاعل الصهيونيّ المبكّر مع القضيّة .

انطلقت الجهود المتحمّسة لخوض هذه المواجهة الأخلاقية خارج إسرائيل ولاسيّما أنّ صوتَ مفكّري مابعد الصهيونيّة هناك قد ترك أثرًا أعمقَ وأكثر استدامة . وقد صدرت في الولايات المتحدة عدّة كتب تمثل وجهة نظر النيو-صهيونية فيما يتعلق بحرب ١٩٤٨ ، وذلك في السنوات التي أعقبت أفول حركة المؤرخين الجدد ، ولعل ألمع مثال على ذلك هو مجموعة من المقالات من جمع وتحرير أنيتا شابيرا وديرِك بنسلر تحت عنوان «المراجعة التاريخيّة الإسرائيلية : من اليسار إلى اليمين» .[٨] وقد أشار محرّرا الكتاب في المقدمة إلى أنّ المؤرخين الجدد ، واصطلحا على تسميتهمم بالمراجعين التاريخيين ،

باستثناء موريس ، قد كانوا منخرطين في هجوم على الصهيونية نفسها . أمّا من تزعّم التحرّك على الجبهة الاخلاقية فقد كان أستاذ الفلسفة السياسيّة مايكل والتز الذي نذر نفسه لهذه المعركة . فانطلاقًا من رؤيته للصهيونية كحركة تحرير بلغت ذروة الكمال الأخلاقيّ فإنّه قد وجد في الجدل حول حرب ١٩٤٨ صراعًا وجوديًا ضدّ قوى الشرّ(٩) ، ولكنّه لا يتجنّب الخوض في الحقائق ويلجأ عوضًا عن ذلك إلى استخدام فكرة «التعقيد» كي يقتل النقاش في هذا الجانب . وهكذا يصبح الحديث حول طرد قرابة مليون من الفلسطينيين من أرضهم ، والتمييز ضد خمسة ملايين آخرين ، وفرض السيطرة عبر الاحتلال ، كل هذا أصبح من قبيل القضايا التي يشوبها التعقيد . وبالأسلوب نفسه قام المؤرخ الصهيوني دانيل غُتفاين الأستاذ في جامعة حيفا باطّراح الحقائق التي قدّمها «المؤرخون الجدد» مدّعيًا أن لا جديدَ يذكر فيها ، وتعامل مع مابعد الصهيونية على أنّها العدوّ المبين ، كيف لا وهي الحركة التي تضمّ كما يقول مفكرين مابعد حداثيين عدميّين ينزعون إلى خصخصة الذاكرة القوميّة المقدّسة لخدمة مصالحهم الضيّقة أو الشاذّة بالأحرى .(١٠) وهنالك آخرون كما رأينا يتّهمون المؤرخين الجدد بالخيانة من دون أيّ مواربة .(١١)

ولا بدّ قبل الانتقال إلى دراسة أعمال مؤرخي النيو-صهيونيّة من بضعة كلمات بشأن موريس ، ذلك المؤرخ الذي انتمى حينًا لتيّار التأريخ الجديد ثمّ تحوّل عنه فيما يدعوه هو «نقطة التحوّل» عام ٢٠٠٠ . يمكن القول بإنّ موريس يمثّل منهجين في النيو-صهيونيّة ، وذلك في اتّجاهها الوضعيّ من جهة ، وفي تسويغها من الناحية الأخلاقية (في الكتابات السياسيّة والمقابلات) للتطهير العرقيّ الذي جرى عام ١٩٤٨ . فلم يكن موريس ليحيد بنفسه عن تقديم أدلّة تورّط السرديّة الصهيونيّة ، فهذا كتابه «نشأة مسألة اللاجئين الفلسطينيين ، ١٩٤٧-١٩٤٩» يقدّم أوّل توثيق منهجي بالأدلّة المستفادة من وثائق تابعة لجيش الدفاع الإسرائيلي لعمليات تهجير كبرى حدثت خلال حرب ١٩٤٨ . وحتّى حين كشف عام ١٩٩٨ عن المزيد من الوثائق التي تظهر أنّ عمليات التهجير قد

جرت بطريقة مدروسة ومنهجيّة وعلى نطاق أوسع مما أوحت به الوثائق التي كانت متوفّرة قبل عقد من الزمن، فإنّ موريس، الباحث الوضعيّ، شرع فيما أشار إليه هو بعملية وضع الأمور في نصابها الصحيح، وقام بمراجعة كتابه ليدرج فيه تلك الأدلّة الجديدة.[١٢] وحين صدرت الطبعة الجديدة من الكتاب عام ٢٠٠٤ كانت الانتفاضة الثانية ما تزال مشتعلة، ولذا فإنّ تلك الأدلّة التي كانت فيما سبق تعدّ أدلّة إدانة وتجريم بخصوص ما حدث عام ١٩٤٨، صارَت في خضمّ الانتفاضة أمرًا مستحسنًا، ذلك أنّ المزاجَ العامّ قد بات أكثر تشنّجًا تجاه الفلسطينيين خلال تلك الفترة. وفي ذلك الجوّ المشحون صار من السّهل تسويغ العمليات العسكرية الوحشية ضد الفلسطينيين في الانتفاضة، كما لم تعد قضيّة التهجير القسريّ التي حدثت عام ١٩٤٨ أمرًا ذا بال. أمّا موريس الذي كيلت له الاتّهامات قبلًا بأنّه مابعد صهيونيّ «مبغضٌ لإسرائيل» غدا الآن مثالًا للصهاينة الجدد وذلك انطلاقًا من موقعه الذي يمكّنه من تقديم المبرّرات لعمليات التهجير التي حدثت عام ١٩٤٨ و ١٩٤٩. وفي مقابلة أجراها معه آري شافيط في هآرتز في التاسع من كانون الثاني ٢٠٠٤ قدّم موريس التسويغ المطلق لما حدث من تطهير عرقيّ عام ١٩٤٨ إذ قال: «ما كان يمكن للدولة اليهوديّة أن تقوم لها قائمة هنا لولا ما حدث من طرد الفلسطينيين.»[١٣] والأدهى من ذلك هو عتابه على بن غورين لعجزه عن «تطهير» «أرض إسرائيل بأكملها، حتى نهر الأردن»، لأنه لو فعل «لنعمت دولة إسرائيل بالاستقرار لأجيال مديدة.»[١٤]

الوجه الجديد لحرفة كِتابةِ التاريخ

في كتابٍ لموريس بعنوان «نظرة تاريخيّة على الحرب العربية الإسرائيلية الأولى» نشر عام ٢٠٠٨، نراه وبطريقة أكثر فظاظة وبشكلٍ يغرقُ في التبسيطية بل ويقع في التطرّف يصف التطهير العرقي الذي جرى عام ١٩٤٨ بأنّه مجرّد دفاع عن النفس وخيار «بين التّدمير أو الوقوع ضحيّةً للتدمير» ويصرّ فوق ذلك على أنّ حرب ١٩٤٨ تعدّ من بين تلك «الحالات التاريخيّة التي يكون التطهير

العرقيّ فيها مسوّغًا.»[١٥] ففي هذا الكتاب تصبح حرب ١٩٤٨ دفاعًا عن النفس ضدّ هجوم جهاديّ على الدولة اليهوديّة وكأنّه هجومٌ من تنظيم القاعدة، وأنّ الدّولة اضطرّت للدفاع عن نفسها بأي وسيلة ممكنة. والواقع أنّ المزاج العام بعد العام ٢٠٠٠ بات يميل إلى مقاربة المقاومة الفلسطينية عام ١٩٤٨ مع ما تقوم به المنظمات الإرهابية من أفعال في الحاضر.[١٦]

هذه النظرة مهما تعدّدت أشكالها وصورها تمثّل بكل وضوح ذلك التوجّه النيو-صهيونيّ في الأعمال التي تتناول العام ١٩٤٨ في الأكاديميا الإسرائيلية والكتب الحديثة التي أعادت معالجة هذا الموضوع. فبعض هذه الكتب الجديدة تقدّم دفاعًا أخلاقيًا عن الحرب بمقاربةٍ دينيّة. ولعلّ مقدّمة كتاب «حرب استقلال إسرائيل، ١٩٤٨-١٩٤٩» وهو عملٌ ضخم يجمع في مجلّدين عددًا كبيرًا من المقالات والدراسات بتحرير ألون كاديش تعطينا مثالًا واضحًا على ذلك. يقوم كاديش، وهو رئيس سابق لقسم التاريخ في الجامعة العبرية، بإضفاء صبغة دينيّة إلهيّة على المساعي اليهوديّة في حرب ١٩٤٨، واصفًا نتيجة الحرب تارّة بأنّها ظفر «العدل» وقهر «الظلم» في معركة حالت دون وقوع هولوكوست جديد[١٧]، ومشيرًا تارة أخرى إلى العام ١٩٤٨ بأنها الحلقة الأخيرة التي تمّ بها «خلاص الأرض ورجوع اليهود إليها وتجدّد استقلالهم عليها».[١٨] هذه الأنطولوجيا التي حرّرها كاديش وما اشتملت عليه من عشرات المقالات التي تركّز على الجوانب العسكريّة في الحرب لتمثّل بجلاء ذلك المزج بين الخطاب الصهيونيّ الدينيّ وعملية إعادة تشكيل الرواية التاريخيّة بالاعتماد على السجلّات الأرشيفية والمناهج الوضعيّة، وهذه هي عين المنهجيّة النيو-صهيونيّة. بل قد يذهب أحدهم للقول بأنّ استدعاء عقيدة الخلاص المسيانيّ والحديث عن التهديد الوجوديّ وسيلتان يعزى إليهما النجاحُ في تهويد فلسطين ومسخ وجهها العربيّ، ليس في المناطق التي مُنحتها إسرائيلُ بموجب قرار التقسيم عام ١٩٤٧ وحسب بل في ما يتعدّى ذلك، وأنّ ذلك قد بات الآن أمرًا واقعًا مفهومًا من الناحية الأخلاقيّة باعتباره الهدف الأساسيّ الذي دار في خلد

القيادة الصهيونيّة عام ١٩٤٨ .

هذان الجانبان (الوعد الإلهي ومواجهة التهديد الوجودي) كانا قد شكّلا فيما سبق موضوعةً فرعيّة ضمنيّة في «التاريخ القديم» حول العام ١٩٤٨ والذي دوّن قبل ظهور أعمال المؤرخين الجدد ، والفارق هو أنّ التاريخ القديم كما أشرنا من قبل قد كان أكثر تحفّظًا في التطرّق إلى قضايا تتعلق بالتهجير أو المجازر . والفارق الآخر بين مؤرخي الصهيونيّة الكلاسيكيّة ومؤرخي النيو-صهيونيّة (والمؤرخين الجدد) هو أنّ معظمهم لم يكونوا مؤرخين متخصّصين وإنما كانوا صحفيين ومثقّفين ينتمون إلى النخبة السياسيّة . ومع هذا فقد طالعَنا أحدُ أبرز من عملوا على السرديّة النيو-صهيونية مؤخرًا بكتاب كامل ليبرّئ ساحة التأريخ الصهيونيّ المبكّر لعام ١٩٤٨ ويثبت وجه الصحّة والعلميّة فيه .(١٩)

أمّا مؤرخو النيو-صهيونيّة المختصون بعام ١٩٤٨ فكانوا في الغالب طلّاب دراسات عليا أو باحثين غِرارَ حديثي عهدٍ في مجتمع المؤرخين المتخصّصين ، ولكنّهم مع هذا قادرون على الوصول إلى الوثائق التي تمّ الكشف عنها من أراشيف جيش الدفاع الإسرائيلي عام ١٩٩٨ ، بل وحازوا كذلك على الثّقة التي تمكّنهم من الوصول إلى موادّ محظورة وسريّة للغاية لا يمكن بحال أن يطّلعوا عليها لو كانوا باحثين لهم توجّه لانتقاد الصهيونيّة . والمثير كذلك هو أنّ وزارة الدفاع الإسرائيليّة تتولّى نشر معظم أعمال هؤلاء الباحثين ، وهي أعمال تكتب باللغة العبريّة . أمّا محصول جهودهم البحثيّة فقد كان ضخمًا يشي ببروز خطاب جديد وموضوعات لم تطرق من قبل ، إذ كان هنالك انتقال بشكل عامّ من الحديث عن الأبعاد البشريّة في الحرب إلى إبعادها العسكريّة ، حيث جرى إعادة تقييم شاملة من جميع الزوايا الممكنة لحملات عسكريّة ظُنّ أنّها أشبعت بحثًا من ذي قبل . كما راجت موضوعات حديثة كموضوع المجتمع المدنيّ اليهوديّ في زمن الحرب ، وهكذا تحولت الأبحاث عن النّظر في أمر الفلسطينيّ الضحيّة وشرعت في تناول التماسك البطوليّ للمجتمع اليهوديّ عام ١٩٤٨ .(٢٠)

هذا وقد صدرت أعمالٌ أخرى تضع اللوم على الفلسطينيين للحال الذي آلت إليه أمورهم ، وذلك تبعًا لمقولات باحثين بارزين ناؤوا بأنفسهم عن «التاريخ الجديد» في كتب كتلك التي ألّفها رئيس معهد هرتزل للأبحاث والدراسات الصهيونية في جامعة حيفا ، يوآف غلبر .[٢١] ولكن في حين كان موضوع «لوم الفلسطينيين» فرعيًا وضمنيًا في تلك الأعمال ، فإنّها باتت في الأعمال الجديدة أكثر وضوحًا ومباشرة ، وذلك كما في كتابات تامر غورن والتي ركّز فيها بشكل خاصّ على مسؤوليّة الفلسطينيين عن نزوحهم من حيفا .[٢٢] برزت كذلك موضوعات أخرى من قبيل العمل التطوعيّ اليهودي في الخارج ومصير العاملين في هذا المجال ، الدّور الذي قامت به المستوطنات ، المسائل اللوجستية وقضايا البنية التحتيّة ، السياسة والجيش ، وتكاليف الحروب وغيرها من موضوعات لا تخلو من جدّة . بيدَ أنّ بعض هذه الجهود البحثيّة الجديدة تعودُ إلى موضوعات أكثر ارتباطًا بالسردية الصهيونية الكلاسيكية ، كإعادة النظر في حرب ١٩٤٨ وتقديمها كحرب تحرير ضد بريطانيا ، وهي أعمال تعيد التأكيد كذلك على الادّعاء الصهيوني حول «طهارة السلاح» ولكن هذه المرّة بالنسبة إلى القوات البريطانيّة وليس الفلسطينيين ، وذلك بخلاف مؤرخي مابعد الصهيونية الذين كانوا يعملون على دحض هذه الأسطورة .[٢٣]

وتظهر العديد من هذه الأعمال سابقة الذكر في أنطولوجيا كاديش التي تحدثنا عنها أيضًا ، والتي يدلّ عنوانها «حرب استقلال إسرائيل ، ١٩٤٨-١٩٤٩» على النزعة التأريخية النيو-صهيونيّة التي أسقطت المصطلح المحايد «حرب ١٩٤٨» الذي جرى المؤرخون الجدد على استخدامه ، واصطلحوا عوضًا عنه على «حرب الاستقلال» أو «حرب التحرير» ، من دون أن يسألوا على أيّة حال عن ذلك الاستقلال عمّن كان أو ذلك التحرير من قبضة من حصل . وعند مناقشة هذه القضيّة تحضرني دومًا ذكريات مع الفلسطينيين في حيفا مسقط رأسي ، حيث كنّا نلتقي ونسير عبر حديقة في وسط حيفا تدعى حديقة التحرير ، والتي كانت تعني في الواقع أمرًا من قبيل تحرير حيفا من سكّانها

الأصليين على يد المستوطنين الذين حلّوا مكانهم .

والحقيقة أنّ كتاب ألون كاديش يجمع في مجلّديه أفكارًا أساسيّة من التأريخ النيو-صهيوني وإستراتيجياته . ومن هذا مثلًا ، خاصّة فيما يتعلق بعمليات التهجير ، بيانُ أنّ ذلك أمرٌ شائع بل حتميّ في الحروب ويجري التعامل معها بعد ذلك من وجهة تكاد تكون تقنيّة . وهذا ما نجده بأوضح تجلّياته في مقالة كتبها أستاذ الجغرافيا في جامعة حيفا أرنون غولان (والتي نشرت عام ٢٠٠٣ في مجلة شؤون إسرائيلية وفي أنطولوجيا بعنوان «فلسطينيو إسرائيل : أقليّة عربية في دولة يهوديّة» بعنوان «الإصلاح اليهودي للمدن العربية سابقًا ودمجها في النظام الحضري الإسرائيلي (١٩٤٨-١٩٥٠)» .[٢٤] ومع أنّ غولان قد كان في السابق من أوائل من حاولوا الردّ على أعمال المؤرخين الجدد فإنّا نجده في هذه المقالة يتراجع عن إنكاره التطهير العرقيّ ويقول :

> إنّ السياسة التي جرى تطبيقها فيما يتعلق بالقرى العربية المحتلة هي التدمير الكامل وطرد من تبقّى من سكّانها . وكانت التحرّكات تطبّق دائماً وفقاً للتفسير الصارم لخطة دالِتْ . . . كما برزت ظواهر التخريب المتعمّد والانتقام .[٢٥]

فالحقائق معروضة على طاولة البحث ليعاد سردها بواقعيّة ومن دون أيّ تحرّج أخلاقيّ . ويمضي غولان قائلًا إنّ كلا الطرفين قد مارسا سياسة الطرد نفسها ، وأنّ ذلك أمرٌ متوقّع في الحرب ، وهذا ادّعاء غريبٌ لا أساس له أبدًا ولكنّه مع ذلك يبدو جذّابًا . ويجدر التذكير هنا بأنّ هذه ليست المحاولة الأولى لغولان في خلق حالة من المواساة بين الضحايا ، إذ سبق أن قدّم بين يدي ذلك في أطروحته لنيل درجة الدكتوراة عام ١٩٩٣ . ففي هذه النسخة من تاريخ عام ١٩٤٨ نرى أنّ الحرب قد أدّت إلى وجود لاجئين من العرب واليهود ، ولذلك فإنّ الأمر برمّته يدور حول ضحيتين متساويتين . وبخلاف ما يذهب إليه معظم الكتّاب من المساواة بين الضحايا من الطرفين ولكن بالإشارة إلى اللاجئين اليهود من الدول العربية ، فإنّ غولان يشير بالتحديد في هذا السياق إلى بضعة

مئات من اليهود الذين كانوا يقطنون مستوطناتٍ جرى تفكيكها فيما صار يعرف الآن بالضفة الغربية وإلى سكّان الحيّ اليهودي في البلدة القديمة في القدس، وهي مناطق ضُمّت إلى الأردن بموافقة يهوديّة مسبقة. وفي حين يبدي غولان انزعاجه من غياب سلطة تضمنُ الفعالية والتنسيق في عمليات توزيع غنائم الحرب بعدما قامت إسرائيل بشكل منهجي بنهب ممتلكات الفلسطينيين وبيوتهم وأراضيهم وحساباتهم البنكية، إلا أنّه يشير في الوقت ذاته إلى أنّ طرد الفلسطينيين قد كان السبيل الوحيد لاستيعاب المهاجرين اليهود بعد حرب ١٩٤٨.[٢٦] كما تظهر منهجية غولان هذه في إضفائه الشرعيّة على سياسة إسرائيل في منع اللاجئين من العودة.

ولا غرابة إذن في أنّ العديد من فصول كتاب «حرب استقلال إسرائيل» تعيد رسم الخطوط العريضة الأساسيّة للأحداث التي تناولها المؤرخون الجدد من قبل، ولكنّ النتائج مختلفةٌ كلّ الاختلاف. فمثلًا، يؤكّد داني هداري في الفصل المخصّص له من الكتاب (كما يفعل المؤرخون الجدد) على الأثر الكبير لخطة دالت في تسريع عمليات التطهير العرقي في فلسطين[٢٧] ونجده يفعل ذلك بمصطلحات أقلّ حدّة وألطف وقعًا (كإشارته إلى الجزء من الخطة التي تفصّل العمليات الخاصّة بتدمير القرى الفلسطينية بعبارة «المهمّة العسكريّة الخطيرة») ولكن من دون أيّ محاولة للتستّر على أعمال لم يكن للكتّاب الصهاينة الكلاسيكيين إلا أن يحجموا عن مناقشتها.[٢٨] ثمّ إنّه لا يكتفي بالإشارة إلى أنّ القوات اليهوديّة قلّما احترمت ذلك البند في الخطّة والذي يقضي بإتاحة الفرصة لبعض القرى الفلسطينية بالاستسلام، بل ونجده يثني كذلك على قوّات الجيش لما أبدوه من تفسير حرفيّ صارم للخطة، مرجعًا ذلك إلى ديدن الجيش الإسرائيلي في أخذ «زمام المبادرة» دومًا.[٢٩] كما يتناول قصة قرية أم الزينات، تلك القرية التي تلقّت وعدًا بالحماية ولكنّها مع ذلك دمّرت وطرد أهلها منها رغم عرضهم بالاستسلام. ويتبع هداري المنطق نفسه عند مناقشة سياسة إطلاق النار على سكّان القرى الذين حاولوا العودة إلى قراهم

بعد طردهم منها ، إذ يعالج هذه الجزئية وغيرها باعتبارها مسألة عسكريّة بحتة . أضف إلى هذا إشادته الرفيعة بجهود جيش الدفاع الإسرائيلي في طرد العرب من منطقة الجليل بين أيار وتشرين الأول عام ١٩٤٨ . والمثير للفضول هنا هو أنّ الصهاينة الجدد يحجمون تمامًا عن استخدام مصطلح «التطهير العرقي» ولكنّهم لا يجدون غضاضة في استخدام مصطلح «نزع الصفة العربية» (De-Arabisation) في هذا السياق . أمّا في الخطاب الصهيوني الكلاسيكي فلم يكن يرد أي ذكر للعرب أصلًا ، ولم يكن من الممكن التفكير بمثل هذا المصطلح إطلاقًا ، إذ كانت الأرض في نظر الصهيونية الكلاسيكية «خالية» من الناس ، وكانت المهمّة تتعلق باستعمارها وحسب ، ولم يحدث إلا قليلًا أن جرت الإشارة إلى أنّ عملية الاستعمار فيها احتاجت إلى إزالة السكّان المحليين منها .

سأذكر هنا مجموعة قليلة وحسب من الأمثلة العديدة التي من شأنها بيان النزعة النيو-صهيونيّة لإعادة السّرد الفجّة لأحداث كان من شأنها لو نوقشت فيما مضى أن تثير عدم ارتياح على الأقلّ ، أو كان سيسقط ذكرها كليّة بكلّ بساطة . فلنأخذ مثلًا الكاتب أوري مِلشتاين الذي يورد ذكرًا مفصّلًا لعمليات النهب الواسعة للبيوت الفلسطينية ، لا لينتقد هذه الأفعال ، ولكن ليتحدّث عن غياب التنظيم بين أعضاء الهاغانا وفشل التنسيق فيما بينهم .(٣٠) كما يمكن أن نجد في أنطولوجيا كاديش سابقة الذكر فصلين آخرين يقدّمان أمثلة عن المعالجة النيو-صهيونيّة للسياسات العدوانية المنهجية التي اتبعتها القوات الصهيونية في المدن الفلسطينيّة أو التي اختلط اليهود فيها مع الفلسطينيين لطرد السكّان الفلسطينيين منها بشكلٍ مقصودٍ ومدبّر . فالفصل الذي كتبه يوآف بيليغ حول العمليات التي جرت في نيسان ١٩٤٨ في يافا يجمع بين النتيجة التي توصّل إليها المؤرخون الجدد بأنّ المواجهات العسكرية في المدينة وما حصل من طرد خمسين ألفًا من سكانها الفلسطينيين كان أمرًا يمكن تفاديه ، ولكنّ قادة الهاغانا لم يكونوا راغبين في بقاء الفلسطينيين فيها . وهنالك صورة أخرى ترشح من الفصل المخصّص لموشيه أرنوالد والذي يصف فيه عملية طرد السكان

الفلسطينيين من القدس الغربية في الفترة نفسها . فالذي يجمع بين الكاتبين هو أنّهما لا يجدان بأسًا في هذه السياسات ، ولا يظهران أيّة إشارة كانت على تحفّظ أخلاقيّ كما هو الأمر مثلًا عند المؤرخين الجدد .[٣١] ففي الصفحات الأخيرة من مقالة بيليغ مثلًا نجد وصفًا لعملية قامت بها الأرغون «لتطهير مواقع العدوّ» من خلال «القصف المتواصل لحيّ العجمي وغيره من الأحياء العربيّة وسط المدينة بهدف تدمير معنويّات السكان وخلق حالة من الفوضى والذعر لإرغامهم على الفرار منها» .[٣٢] وكذا الهدف كما يقول أرنوالد فيما قام به اليهود للسيطرة على القدس الغربيّة ، إذا كانت الخطّة ترمي إلى «التسبّب في هروب السكان من الأحياء العربيّة خارج البلدة القديمة ، وحصر السكّان العرب فيها» .[٣٣] كما يشير إلى أنّ هذه الهجمات قد جعلت «كثافة السكان في البلدة القديمة في أيار ١٩٤٨ لا تطاق» ، إذ ارتفع عدد السكان فيها ضعفين أو ثلاثة .[٣٤] وبالرغم من «فداحة» الظروف المعيشية وانعدام النظافة في البلدة القديمة ، وبالرغم من «تفشّي حمّى التيفوس في الثامن من أيار ونشوب أعمال شغب بسبب نقص الطعام والطحين» إلا أنّ سكّان البلدة القديمة لم يغادروها لأنّهم في رأي الكاتب كانوا يشعرون بالأمان .[٣٥] والحقيقة أنّ السكان والمهاجرين في البلدة القديمة قد ظلّوا فيها لأنّهم لم يطردوا منها ولأنّهم كانوا تحت حماية قوّات الجيش الأردنيّ التي أحبطت كل المحاولات الإسرائيلية لاحتلالها . أمّا في مناطق أخرى فقد كان الوضع مختلفًا تمامًا ، إذ جرى فعليًا طرد السكّان العرب جميعًا من القدس الغربيّة نتيجة هذه العمليّات .

العديد من الكتّاب الذين ساهموا في أنطولوجيا كاديش أو معظمهم بالأحرى يركّزون إمّا على العمليات العسكرية والجوانب التي كان لها الأثر الفصل على مسار الحرب ، أو على القضايا الأبرز في الجدل الدائر حول تاريخ عام ١٩٤٨ . ولو أخذنا الموضوع الذي طرقه أهارون كلاين عن سجناء الحرب عام ١٩٤٨ لوجدنا أنّه موضوع ثانويّ مقارنة بالموضوعات الأخرى[٣٦] ، ولكن لا ضيرَ مع ذلك في أن نمضي بعض الوقت مع هذا الفصل ، لاسيّما أنّه يجلّي لنا

العديد من السّمات التي اشترك فيها مؤرخو النيو-صهيونية . لقد كان بوسع كلاين الوصول إلى وثائق جيش الدفاع الإسرائيلي الخاصّة بأسرى الحرب ، وكان ما كشفه يؤكّد إلى حدٍّ كبير ما توصّل إليه سلمان أبو ستة في دراسته التي اعتمدت بشكل حصريّ على شهادات شفهيّة وتقارير من أرشيف منظمة الصليب الأحمر (وهي مصادر ترد كذلك من بين مصادر كلاين) .(٣٧) ويذكر أبو ستّة أن سجناء الحرب قد كانوا في أغلبيتهم من مواطني الدولة الجديدة بموجب القانون الدوليّ وأنّهم تعرّضوا للسجن والتطهير العرقيّ ذلك أنّهم اقتلعوا من قراهم بشكل دائم مع السماح لهم بالبقاء ضمن حدود إسرائيل ، كما أنّ حوالي خمسة آلاف منهم قد تعرّضوا وبشكلٍ منهجيّ للاعتداءات المتواصلة والعمالة القسريّة .(٣٨)

لا يعترض كلاين على السياسة التي انتهجتها إسرائيل مع أسرى الحرب عام ١٩٤٨ ويرى أنّه لم يكن بالإمكان تفادي ما جرى ، ولكنّه يشير بشكل عابر إلى أنّ ضباط المخابرات كانوا مخوّلين باتّخاذ قرارات ميدانيّة بإعدام فلسطينيين يقعون تحت الأسر خلال العمليات العسكريّة ، وفي هذا ما يؤكّد على شهادات شفهيّة يتناقلها الفلسطينيون عن إعدامات ميدانيّة كانت تقع في قرى وأحياء محتلّة في فلسطين . ومع أنّه ينقل بعض الحالات الوحشية والإعدامات الميدانية التي كانت تقع في معسكرات اعتقال أسرى الحرب إلا أنّه يصرّ على أنّها حوادث منفصلة عارضة ويعزوها إلى مشاكل لوجستية من شأنها أن تقع بالضرورة حين يجري سجن آلاف الناس . كما يذكر كلاين في هذا الفصل المعنون «حرّاس المعسكر» (شومري همحانوت) أنّ معظم الحرّاس قد كانوا أعضاء في عصابتي شتيرن والأرغون ، ولعلّه يريد التنويه إلى أنّه في حال حدوث أي تجاوزات تنضوي على عنفٍ مبالغ فيه فإنّ مصدره أولئك المتشدّدون من «اليمين المتطرّف» .(٣٩) ووفقًا لكلاين فقدْ كان أيّ شخص يزيد عمره عن عشر سنوات ويثير الشبهة عرضةً للاعتقال كسجين حرب .(٤٠) وقد بدا أنّ كلاين رغم تعبيره غير المباشر عن هواجس تتعلق بأعمار أسرى الحرب من الأطفال قد أشار إليهم

بلفظ الأطفال حينًا وحينًا آخر بالجنود وذلك في محاولة منه ربّما لسدّ الباب أمام أي نقد محتمل . وبالتالي نجدُ أنفسنا أمام تفسير عجيب نوعًا ما ، حيث يظهر أنّ الأطفال القصّر كانوا لا يخضعون للاعتقال إلا بعد أن تتعرّض أمهاتهم للطّرد . وهذا أمرٌ صحيح لا شكّ فيه ، ذلك أنّ القوّات الصهيونية كانت تفصل جميع الأطفال الذكور والمراهقين الذين تجاوزوا سنّ العاشرة عن أمهاتهم قبل عملية الطّرد ، ولكنّ الهدف من ذكر هذا عند كلاين هو الإشارة إلى أنّ سجن الصغار كان إجراءً إنسانيًا يهدف إلى عدم ترك أولئك الأطفال وحدهم بلا مرعى .(٤١) أمّا فيما يتعلق بفكرة العمالة القسريّة بأكملها نرى كلاين يشيد بالجيش الإسرائيلي أيّما إشادة لما قام به من استغلال فعّال ومفيد للسجناء الذين وقعوا تحت قبضتهم . لقد كان معظم الأسرى من المراهقين والشباب في مطلع العشرينات من العمر وليسوا جنودًا ، وكانوا مع ذلك يجبرون على الأعمال الشاقّة .(٤٢) وسأضع بين يدي القارئ فقرة تتحدث عن إنشاء معسكرات العمل القسريّ ، وذلك وفق وثائق من جيش الدفاع الإسرائيلي ما كان لها أن تتوفّر لأحد المفكّرين الناقدين ، لتوضّح لنا المنهجية النيو-صهيونية في التأريخ والتي تشتمل على توليفة من مقاربة فجّة واقعيّة تقنيّة جامدة تتعارض بشدّة مع حالة الامتعاض الأخلاقيّ التي كانت لتنشأ لدى مفكّري مابعد الصهيونيّة لو تناولوا هكذا معلومات حتّى لو لم يعبّروا عنها بشكل مباشر في كتبهم التاريخيّة :

> لقد كان الآلاف من أسرى الحرب من العرب يمتلكون إمكانات مهنيّة عظيمة ، وكان سوق العمل الإسرائيلي يعاني نقصًا بالغًا في العمالة ، وكان النظام العسكريّ بحاجة ماسّة إلى قواعد [عسكريّة] جديدة ويلزمه بناء العديد من المعسكرات . وقد كان هنالك إدراك بأنّ توظيف أسرى الحرب سيحلّ جزءًا من المشكلة وسيغطّي جانبًا من احتياجات جيش الدفاع الإسرائيلي وهذا ما أدّى إلى اتخاذ قرار بإنشاء معسكرين مخصّصين لعمالة الأسرى ، الأول في الصرفند والثاني في تل لتفنسكي [ما يعرف اليوم بمستشفى تل

هشوميرا . وقد انتهى بناء المعسكرين في أيلول ١٩٤٨ . كما افتتح معسكر عمالة آخر لعدّة أشهر في منطقة أم خالد قرب نتانيا . . . لقد كان بناء معسكرات العمالة خطوةً جبّارة في استغلال القوّة العاملة من أسرى الحرب الذين كانت أعدادهم في تزايد مستمرّ.[٤٣]

وأخيرًا يشيد كلاين بالجيش تارّة أخرى وهذه المرّة لنجاحه في ضبط الأمور مع الإشارة إلى أنّ الوضع قد كان فوق طاقتهم ، فيقول : «بالرغم من حداثة عهد النظام العسكري داخل جيش الدفاع الإسرائيلي وعدم استعداده للتعامل مع هذه الأوضاع . . . إلا أنّه نجح في تنظيم نفسه بطريقة معقولة وتمكّن من التوصّل إلى حلّ لمسألة السجناء» .[٤٤] وفي نهاية تشرين الأول أو مطلع تشرين الثاني من عام ١٩٤٨ أضحت عمالة أسرى الحرب أمرًا منهجيًا تدعمه إجراءات وأنظمة ونماذج وتقارير . ولكنّا لا نجد بتاتًا فيما يرويه كلاين أية إشارة من قريب أو بعيد للفظائع التي تكشفها لنا مثلًا الفقرة التالية من شهادةٍ شخصيّة من أحد الناجين الفلسطينيين دُوّنت مباشرة بعد الحرب :

وُضِعنا في شاحنات انتظار . . . ونُقلنا إلى أم خالد تحت الحراسة . . . ومن هناك إلى العمل القسري . كان علينا أن نكسّر الصخور ونحملها طوال النهار ، وكان طعامنا اليومي يقتصر على حبة بطاطس واحدة في الصباح ونصف سمكة مقددة في المساء . وكانوا يضربون أي واحد لا يطيع الأوامر . بعد ١٥ يوماً ، نقلوا ١٥٠ رجلاً إلى معسكر آخر ، وكنت واحداً منهم . وكانت صدمة بالنسبة إليّ أن أترك شقيقَي خلفي . عندما تركنا الآخرين ، طُلب منا الوقوف صفاً واحداً وخلع ملابسنا . كان ذلك مذلاً لنا فرفضنا وأُطلق الرصاص علينا . وقُرأت أسماؤنا وكان يتعين علينا الرد بالقول «سيدي» وإلاّ . . . نُقلنا إلى معسكر آخر في قرية إجليل حيث أُجبرنا فوراً على ممارسة العمل القسري الذي كان يقضي

بنقل الحجارة من المنازل العربية المهدمة ، وبقينا يومين من دون طعام ، ثم أعطونا كسرة من الخبز الجاف .(٤٥)

كما يغفل كلاين الحديث عن ظروف المعسكر اللهم إلا ما قاله عمّا كانوا يحصلون عليه من طعام جيّد وأجرٍ مقابل عملهم .(٤٦) ويستشهد كلاين في معرض إثبات هذا الادّعاء الأخير بإحدى وثائق جيش الدفاع الإسرائيلي فيها خلاصة ما قاله الجيش لوفد من الصليب الأحمر ، وذلك من دون الإشارة لوثائق من الصليب الأحمر نفسه تعرض شهادات قدّمها السجناء وتعطي صورة مغايرةً تمامًا لما ورد في تقرير الجيش .(٤٧) غيرَ أنّ كلّاين على أية حال لا يعرض تجربة المعسكر على أنّها تجربة إيجابية لأولئك الذين عايشوها ، وذلك بخلاف محرّر الكتاب الذي يعلّق في مقدّمته على مقالة كلاين قائلًا إن «بعضهم [أي أسرى الحرب الفلسطينيين] قد كانوا سعداء بلا شكّ إذ كانوا يعملون في أماكن كانوا يعملون فيها من قبل لصالح الإنجليز» .(٤٨)

لقد بات النموذج النيو-صهيوني للتأريخ الآن جزءاً أيضًا من النظام التعليمي في إسرائيل . ففي أواخر التسعينات مثلًا ثار نقاشٌ حول كتابين دراسيّين يشيران من بعيدٍ إلى عمليات طرد الفلسطينيين عام ١٩٤٨ واختلفَ في أمرِ إدراجهما في المناهج الدراسيّة ، وبعد جدالات حادّة في اللجنة الخاصّة بالتعليم في الكنيست صدرَ القرار بمنع تدريسهما . لكنّ الأمرَ تغيّر بين عام ١٩٩٩ والعام ٢٠٠٠ ، فما كان محرّمًا في تلك السنة لم يعد كذلك في التي بعدها ، وذلك لأنّ المنهاج الرسميّ لوزارة التربية والتعليم صار يشتمل على كتاب يدرّس الطلاب أنّ الجيش الإسرائيلي بدأ بعد شهر ونصف من اندلاع الحرب بطرد الفلسطينيين وتدمير قراهم وذلك كي لا يتمكّنوا من العودة إليها . وبما أن ١٥ أيار يُعدّ التاريخ الرسمي لقيام الحرب ، وهو اليوم الذي دخلت فيه الجيوش العربية فلسطين (علمًا أنّ تطبيق خطة دالِتْ لا يعدّ جزءاً من الحرب) ، فإنّ مضيّ شهر ونصف على اندلاع الحرب سيوافق على الأغلب مطلع تموز .(٤٩) وحتى لو وضعنا جانبًا ذلك التفسير العجيب الذي يشير إلى أنّ عمليات الطرد قد بدأت لأنّ السكان توقّفوا عن الرحيل طوعًا ،

فإنه ليس ثمة معطيات تاريخية تدعم هذه الرواية ؛ بل إنّ جميع الأدلّة الموجودة حاليًا في أرشيف الجيش الإسرائيلي تدلّل على أنّ عمليات الطرد المنهجية التي تسببت بتهجير أكثر من ثلاثة أرباع اللاجئين كانت قد حدثت فعلًا بحلول تموز. ولكنّ المدهش أكثر هو أنّ عمليات الطّرد هذه قد أضحت أمرًا معترفًا به بلا مواربة في المناهج المدرسيّة.

ويخلص العالم التربويّ دانيال بار طال بعد دراسة شاملة للكتب المدرسية الخاصّة بالتاريخ والجغرافيا والتربية المدنية والتي تتطرق إلى حرب ١٩٤٨ من المنهاج المدرسيّ إلى أنّ وجهة النظر الصهيونية فيما يتعلق بالنزاع هي النّظرة السائدة وأنّ تلك الكتب تنقل صورًا تتعامل مع اليهود كضحايا وصورًا أُخرى نمطية سلبية عن العرب.[٥٠] كما يدعم كتّاب آخرون تلك النتيجة التي ترى أنّ للصهيونية القول الفصلَ فيما يتعلق بالتعليم المتعلق بحرب ١٩٤٨.[٥١]

ولعل أفضل سبيل لبيان التحوّل الذي طرأ على الخطاب الصهيوني هو عرض اقتباسين مختلفين لأنيتا شابيرا في سياق حديثها عن طرد الفلسطينيين. ففي مقال لها نشر في مجلة نيو ريببلك عام ١٩٩٩ كتبت تقول:

> لقد أدى الذعر العربي إلى الهجرة، كما أدّى إلى انهيار مؤسسات المجتمع الفلسطيني. وكان كلّما ازداد حجم الهجرة وتصاعد، ازداد معه إغراء الفكرة في ذهن القادة الإسرائيليين والقادة العسكريين، وليس ذلك لأنّ الحركة الصهيونيّة كانت تخطّط لطرد الفلسطينيين من البداية، ولكن لأنّ ذلك الخيار البعيد (بالرغم من رغبة البعض الشديدة به) قد حاز قبولًا في سياق سلوك كلا الطرفين خلال الحرب.[٥٢]

وبعد انقضاء خمس سنوات على وصف شابيرا لعملية تهجير الفلسطينيين على أنها «خيار بعيد» لم تقلّب القيادة السياسية والعسكرية في إسرائيل النّظر فيه إلا في وقت متأخر من ربيع عام ١٩٤٨ (حتّى لو كان لدى البعض «رغبة شديدة» بذلك) صارت فجأة تتحدّث عن التهجير بصورة واقعيّة مباشرة من

دون الإشارة إلى أنّ ما حدث كان رهنًا بسلوك الطرف العربيّ في ذلك الحين . فعندما كتبت شابيرا سيرة يغال ألون أشارت إلى أنّه «قد كان أشدّ المناصرين لعملية نقل الفلسطينيين حتّى أنّه قام بعمليات طرد واسعة النطاق لهم في حرب الاستقلال» وأنّه «لم يبد أي تردّد في طرد العرب بأعداد كبيرة» . كما تقتبس عن ألون برضًا وتأييد ما قاله في محاضرة عامّة له عام ١٩٥٠ عن أنّ «المبرّر الأزليّ» (أي الحقّ الأزليّ للشعب اليهودي بالعيش على أرضهم من دون «أغراب») هو مصدر شرعيّة طرد الفلسطينيين بالجملة من أرضهم . ثم تضيف إلى ذلك أن ألون «قد بذل ما بوسعه لا ليستعمر أرض إسرائيل وحسب بل وليضمن كذلك جلاء السكان عنها» .(٥٣)

كما يمكن بيان الاحتضان الرسميّ أو السائد لفكرة طرد الفلسطينيين كحدث إيجابيّ وكعملية لا بدّ منها للحصول على الحقوق اليهوديّة من خلال الإشارة إلى أنّ «الحرم الافتراضيّ» للمركز الإسرائيلي للتكنولوجيا التربويّة ، وهو منظمة غير حكومية لها شراكة مع وزارة التربية والتعليم وغيرها من الهيئات ، يشتمل في موقعه الإلكترونيّ العديد من المراجع حول عمليات طرد الفلسطينيين عام ١٩٤٨ .

وإليكم مثالًا أخر عن حقائق كانت من قبلُ تردّ وتنكر وصارت الآن يؤخذ بها وتقبل . كان المؤرخون الجدد في أواخر التسعينات قد نجحوا في دحض وصف حرب عام ١٩٤٨ بأنها حرب داود اليهودي ضدّ جالوت العربيّ ، تلك الأسطورة التي لعبت دورًا مهمًا في خلق العداء ضد العرب والفلسطينيين وبناء شعور إسرائيليّ بالقوّة التي لا تقهر والتي تكاد تكون مجاوزةً للطبيعة . ومع مطلع القرن الحادي والعشرين ، قام جيش الدفاع الإسرائيلي بنشر وثيقتين تظهران أنّ القوّات الإسرائيلية قد كانت تتمتع بقوّة عسكريّة بما يعادل ضعفي ما لدى الطرف المقابل خلال حرب ١٩٤٨ ، وهي حقيقة باتت مقبولة على نطاق واسع الآن ، ولكنّها تعرض بطريقة ترسّخ الاعتقاد بتلك الأسطورة بدل أن تزعزعه ، وهذا ما نجده في الاقتباس الآتي عن ليا سيغال من مدرسة الصهيونية الجديدة إذ تقول :

تخبرنا هاتان الوثيقتان أنّ حرب ١٩٤٨ لم تكن حربَ القلّة ضدّ الكثرة ، فهذا أمرٌ لا يمكن إنكاره الآن . ولكن لم يعتقد الناس أنّ هذا يفنّد أسطورة القلّة ضدّ الكثرة؟ كيف يمكن لجيش يمثّل ٦٥,٠٠٠ إنسان أن يهزم جيوش أمّة يبلغ تعدادها ٣٥ مليون إنسان؟ الجواب إذن هو أنّ تلك الحرب قد كانت حرب نوع ضد كم» .(٥٤)

ثم تضيف قائلةً إنّ أي تفسير مغاير سيكون قطعًا من مدرسة مؤرخين من أمثال «إيلان بابيه وآفي شلايم» اللذين أصبحا بمحض إرادتهما ناطقين باسم البروباغاندا الفلسطينية .

يتّضح لدينا إذن أنّ الانتقال في إسرائيل من فترةِ السلام الحالمة إلى نذر الحرب المشؤومة قد انعكس في جهود التأريخ والجدل الأيديولوجيّ داخل المجتمع اليهودي في إسرائيل . وقد أشرت في الفصل السابق إلى أنّ هذا جزءٌ من تأرجح عامّ شهدته فكرة إسرائيل كسرديّة تاريخيّة منذ بروز حركة «التاريخ الجديد» . ولكنّ نقد مفكري مابعد الصهيونية لسلوك إسرائيل في الماضي والحاضر والذي بلغ أحيانًا حدّ التشكيك في الشرعية الأساسية والأخلاقيّة للأيديولوجية الصهيونيّة قد اندثرَ ليحلّ مكانه موقف نيو-صهيونيّ يتقيّد بالمبادئ الأساسية للأيديولوجيا الصهيونية الكلاسيكيّة .

يدلّ هذا التأرجح على القبضة المحكمة للأيديولوجيا على مجال التأريخ المتخصّص في إسرائيل ، إذ كان نصيب الأيديولوجيا واضحًا كل الوضوح في بداية التسعينات وذلك حين جرى النقاش الأكاديمي في إسرائيل حول ما جرى عام ١٩٤٨ ليس على الساحة الأكاديميّة وحسب بل وربّما بشكل أكبر في الميدان العامّ ، حيث وظّف خطاب الوطنيّة والإنسانيّة لتسويغ كلا الموقفين . إنّ التأريخ الإسرائيليّ المتخصّص فيما يتعلق بالعام ١٩٤٨ يعدّ مثالًا واضحًا على الطبيعة المتحيّزة للمشروع التأريخيّ وذلك نابعٌ من مركزيّة العام ١٩٤٨ في السرديّات القوميّة للفلسطينيين والإسرائيليين على السواء . فالحركة الصهيونية ترى في ذلك العام معجزةً حقيقيّة بينما لا يجد الفلسطينيون فيه سوى نكبة

كارثيّة ولدت على إثرها دولة إسرائيل ومشكلة اللاجئين ، وهما أمران باقيان ما بقي هذا الصراع .

إنّ الحديث حول أفول مابعد الصهيونيّة وما زامنه من صعود النيو-صهيونيّة في ميدان الأبحاث المتعلقة بتاريخ عام ١٩٤٨ يساعدنا في فهم أمور أخرى عدا عن أثر الأيديولوجيا على الأكاديميين في مجتمعات يسودها التوتّر كالمجتمع الإسرائيلي . الأول هو تقديم مؤشّر على التوجّهات الفكرية والثقافية في المجتمع اليهودي في إسرائيل ، وهي جوانب تكون عادة عرضة للإهمال لصالح التركيز شبه الحصري على السياسات الحكومية والإستراتيجيات العسكريّة على أنّها المحدّدات الوحيدة لموقف الدولة حيال وضع ما . والثاني هو التأكيد مرّة أخرى على أنّ الصراع على الذاكرة سيبقى عاملًا أساسيًا في تشكيل واقع الصراع الإسرائيلي الفلسطينيّ وسيؤثر على أية فرصٍ للتسويّة قد تسنح في المستقبل .

وأودّ أن أضيف أخيرًا أنّ الإجماع السائدً حاليًا في إسرائيل وما يقدّمه من مسوّغات كثيرة لما حدث في حرب ١٩٤٨ يحملُ الكثير من التبعات السياسيّة بالغة الأهمّية . إنّها حالة تظهر أن إسرائيل غير راغبة في التصالح مع الماضي ومع الفلسطينيين ، ويكشف صورةً لإسرائيل واثقة بأنّ سياسات التطهير العرقي وسلب الآخرين ما يملكون يمكن تسويغها أخلاقيًا والمضيّ بها سياسيًا ما دام هنالك في الغرب سياسيون وأكاديميون ينأون عن إخضاع إسرائيل لتلك القيم والأحكام التي يطبقونها وبوحشيّة على دولٍ أخرى في العالم العربي والإسلاميّ .

خاتمة

الحملة الرسميّة الإسرائيلية
وسم إسرائيل ٢٠١٣

الجبهة الداخلية

أطلقت ليمور ليفانت وزيرة الثقافة والرياضة ، والتي كانت من قبل وزيرة للتعليم ، جائزة للفنّ الصهيونيّ وذلك في العام ٢٠١٠ ، بحيث تقدّم الجائزة لفنّانين أبدعوا أعمالًا في خدمة الصهيونيّة وإبراز قيمها وتاريخ الحركة الصهيونية أو عودة الشعب اليهودي إلى أرضهم التاريخيّة ، بغض النظر وفقًا للوزيرة عن المجال الثقافي لأولاء الفنانين ، إذ يمكن المشاركة في مجال فنون التمثيل والفنّ التشكيلي والسينما وغير ذلك ، وذلك «في سعي منّا لنوضّح أنّنا نقف ضدّ حملات المقاطعة وأنّنا ننحازُ إلى الثقافة الصهيونيّة .»[١]

وقد حازت مصمّمة الرقصات نوا ورتهايم على الجائزة تقديرًا لعملها «ميلاد العنقاء» ، والذي قيل فيه إنّه «يؤكّد تلك الروابط بين الإنسان ومحيطه ، وهو ما عملت الصهيونيّة على بيانه .» لقد كانت تلك الرقصة من نوع الرقصات «المحدّثة والمتناغمة مع الطبيعة- كما هي الصهيونية» .[٢] لذا فإنّ الصهيونيّة ليست هي الموضوع في الرقصة على وجه التحديد ، ولكنّ لم يكن لدى من ابتكرها اعتراض على ربطها بالصهيونيّة ما دام يتلقّى جائزة بمقدار ٥٠ ألف شيكل ، وهذا قدرٌ من المال جيّد في إسرائيل .[٣]

كما تلقّت فنينا غري جائزةً عن مسرحيّة لها بعنوان «قصّة حبّ في أرض إسرائيل» وترجمَت هذه المسرحية لدى الحديث عنها في الخارج بتغيير طفيف

على العنوان ليصبح «قصّة حبٍّ إسرائيليّة» . وهي مسرحيّة تقدّم حكايةٍ يسقطُ فيها أي نقدٍ ذاتي على شاكلة ما كان يظهر في الحالة مابعد الصهيونيّة ، وتقع أحداثها في الفترة ما بين الهولوكوست وصولًا إلى حرب ١٩٤٨ بين العرب والإسرائيليين ، والتي يدعوها الإسرائيليون حرب الاستقلال . وتتجاهل المسرحيّة ذكر العرب أو الفلسطينيين في حديثها عن السنوات الثلاثة الأولى بعد الهولوكوست في فلسطين ، ولا يظهرون سوى مرّة واحدة كجماعة من البدو يباركون مقدم اليهود كما تخيّل ذلك تيودور هرتزل في روايته الطوباويّة عن فلسطين ، والفرق أنّ هذا العربيّ في رواية هرتزل قد كان مواطنًا من حيفا اليهوديّة ، أمّا في المسرحيّة فيكون شيخًا في الأودية الشمالية ينادي على المستوطنين «يا إخوتي» . وتشبه المسرحية في أحداثها وخلفيتها ما كان يعرض من أعمال المسرح الصهيونيّ المبكّر حول حرب ١٩٤٨ ، فتظهر هنا كحرب تحريرٍ في مواجهة همجيّة عربيّة لا يمكن فهم كنهها ، كما تصف ما كان من بطولةٍ رغمَ كل المصاعب . كما تدخل السرديّة الكبرى في المسرحيّة من خلال نشرات الأخبار التي تخبر «القصة الحقيقية» لما حدث في فلسطين بين عامي ١٩٤٥ و١٩٤٨ . وعليه فهي رواية جديرة بالفعل بالجائزة السنويّة للفنّ الصهيونيّ ، وفي هذا مؤشّر كافٍ على الطريقة التي يروّج فيها لفكرة إسرائيل على المستوى المحلّي .(٤)

ومن ثمّ كان هنالك الفيلم الصهيونيّ ، ويفوز بجائزته المغنّي ديفِد «دودو» فيشر الذي نال شهرة كبيرة كمغنٍّ في إسرائيل (وفي برودوي في نيويورك) ثم شقّ طريقه نحو صناعة الأفلام الوثائقيّة الصهيونيّة ، وكان آخرها في العام ٢٠١١ بعنوان «ستة ملايين وواحد» والذي يخلصُ فيه عبر عرض قصّة شخصيّة إلى أنّ قيام دولة إسرائيل كان هو الحلّ الأمثل لحرقة الهولوكوست . وقد رُشّح الفيلم عام ٢٠١٢ لجائزة أوفير (وهي بمثابة الأوسكار الإسرائيلي) لأفضل وثائقي . وهنالك نعوم ديمسكي من مدرسة معاليه للتلفاز والفيلم والفنون في القدس ، والذي تلقّى ٤٠ ألف شيكل عام ٢٠١٣ من الوزيرة ليفانت جائزةَ

فيلمه «لديّ الجرأة لأتكلّم» والذي يحاول فيه أن ينقل «مفهومًا جديدًا لارتباط الهولوكوست ودروسه بالحاضر».(٥)

أمّا في مجال الموسيقى فقد تلقّى دورون تويستر جائزة عن مقطوعته «نحن شعبك». وقد يفترض المرءُ أن لا شيءَ يمكن أن يكون صهيونيًا في الموسيقى ذاتها، أي في اللحن أو التأليف، وعليه فإنّ الجائزة لا بدّ أنّها منحت بناءً على عنوان المقطوعة. كما صار الشعر الصهيونيّ الآن ينشر في مجلّة جديدة متخصّصة تُدعى «نفسٌ جديد» (Meshiv Ruah) مكرّسة «للشعر الوطنيّ الدينيّ». ويبدو أنّ هنالك فنًا تشكيليًا صهيونيًا أيضًا، فقد فاز يوآف بن-دوف وسيرغيو دانيل شيرتكو بجائزة عن عملهما «روح الأمل». وعن هذا يكتب الناقد ألون إيدان متهكّمًا في هآرتز يقول: «لقد كان هذا العمل مبهجًا [للوزارة] بشكل خاصّ وذلك لأنّه يدمج بشكل مستمر بين نجمة داود والنشيد الوطنيّ الإسرائيلي «الأمل» ويبثّ المعاني الكونيّة والوطنيّة للصهيونيّة».(٦)

ولم يكن من المستغرب في العام اللاحق أن يحصد الجائزة الكاتب إبراهيم جبريل يشوع، والذين كان ناشطًا حتى العام ٢٠٠٠ في اليسار الليبرالي الإسرائيلي إلى جانب أموس أوز وديفِد غروسمان. وقد صرّحت الوزيرة ليفانت أنّ أعمال يشوع قد قدّمت الدليل على أنّ «الصهيونيّة قادرة على أن تكون مصدر إلهام لأعمال أدبيّة جيّدة ومتميّزة» مضيفةً أنّ «كل هذه الأعمال تعبّر ومن زوايا مختلفة عن الرواية الصهيونية التي توحّد الناس في إسرائيل. إنّنا نتحدّث عن أعمال فنيّة بالغة الأهمّية تثري الثقافة الإسرائيلية». وقد كان رئيس لجنة الجائزة حاييم توبول(*)، عازف الكمان على سطح الصهيونيّة، والذي أشرف على ميزانية بلغت ٥٣ مليون شيكل لتشجيع الثقافة الصهيونيّة في إسرائيل.(٧)

(*) حاييم توبول، ممثل مسرحي وسينمائي شهير، عرف بدوره في أداء دور تيفيا، بائع الحليب الفقير أبي البنات الخمسة وذلك في مسرحية «عازف الكمان على السطح» (Fiddler on the Roof) والتي أخرجت فيلمًا ببطولة توبول أيضًا وذلك في عام ١٩٧١. المترجم

ويُحسب لبعض الفنّانين أنّهم أعربوا عن امتعاضهم ممّا تقوم به الحكومة من تشجيع التوجّه الصهيونيّ في الثقافة والفنّ . فقد كتبت مجموعة منهم بيانًا لوزيرة الثقافة وقت إطلاق الجائزة عام ٢٠١١ جاء فيه قولهم «هذه الجائزة تشجّع على إنتاج فنّ موجّه لخدمة أغراض سياسيّة . إنّنا نطالب بإلغائها وتحويل ميزانيّتها لدعم الميزانيّة المتهالكة التي يفترض أن تدعم الفنّ الحرّ في إسرائيل .»(٨) بيدَ أنّ الحكومة لم تصخ لمطالبهم ، بل وطرأت زيادة على الميزانية المخصّصة للجائزة في في الموسم ٢٠١٣-٢٠١٤ .

ثمّ إنّ الفوزَ بالجائزة قد كان أنجع الطرق ليسقط المرء عن نفسه أيّ اتهامات حامت حوله في الماضي عن الانتماء لمابعد الصهيونيّة ، وهذا عين ما حدث لفرقة هَبلويم الموسيقيّة . حملت هذه الفرقة عند إنشائها اسم إحدى الحركات الصهيونيّة الاستعماريّة الأولى خلال القرن التاسع عشر ، وكانت تحسب على «اليسار المتطرف» خلال التسعينات . ولكنّها لم تجدْ أيّ غضاضة في إظهار تحمّسها للفوز بالجائزة (هذا إن لم تجد فيه أيضًا شكلًا دقيقًا ومعقّدًا من الاحتجاج) وعمدت من أجل ذلك إلى كتابة أغانٍ تلبّي متطلبات الفوز بالجائزة ، ومن جملة ما كتبوه أغنية عن رغبة اليسار في الماضي عن التنازل للفلسطينيين عن بعض الأراضي :

ربما علينا أن نعطي العرب كل شيء
ربما تأمرنا الصهيونية بترك بالأماكن العفنة
وبناء كلّ شيء من جديد(٩)

ويبدو مع ذلك أنّ الأغنية لم تزل مابعد صهيونية ، ولعل هذا ما يفسّر عدم نجاح الفرقة في الحصول على الجائزة عام ٢٠١٣ .

وفي حين أخذت الوزارات الرسميّة على عاتقها مهمّة دعم الصهيونيّة في النتاج الثقافيّ ، فإنّ بعضَ مؤسّسات أخرى أقل بروزًا عنيت بشكل خاص بالتنبيش عن بقايا مابعد الصهيونية في الثقافة المحلية والأكاديميا والإعلام . ومن ذلك مثلًا منظّمة غير حكومية تدعى الرّقيب (Monitor) تعمل تحت شعار «نحو

مسؤوليّة أكبر للمنظّمات غير الحكوميّة» تقوم على وضع قائمة تفصيليّة تدعى «مؤشر المنظمات غير الحكوميّة» وتدرج فيها مئات المجموعات التي تتناول بعض القضايا المتعلقة بإسرائيل بنفس مابعد صهيونيّ، ويوضّح هذا المؤشّر مقدار الدعم الماليّ الذي تلقّته هذه المجموعات من الخارج. فنرى مثلًا عشر مجموعات تمّ وسمها بأنّها تسترعي متابعةً خاصّة، علمًا بأن هذا المؤشّر يشتمل على جميع المنظمات الإنسانيّة والمدنيّة في إسرائيل، بالإضافة إلى الفروع المحليّة لمنظمة العفو الدوليّة. ويبدو أنّها مجموعات وهيئات ما تزال تعمل بنشاط، وإنّني لعلى ثقة في أنّ التاريخ سيسجّل لهم أنّهم حافظوا على بديل سلميّ هيومانيّ اشتراكيّ مقابل الطريقة التي جرى فيها ترسيخ فكرة إسرائيل في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين. ولكنّ هذه المنظّمات غير الحكومية ما تزال تحصى على أصابع اليد ربّما، كما أنّ المعركة الدائرة حول فكرة إسرائيل كما يلاحظ بعض المراقبين قد انتقلت بالفعل إلى الخارج.(١٠)

وسم إسرائيل: النسخة الدوليّة

في العام ٢٠٠٧ كانت صورة غال غادوت، ملكة جمال إسرائيل، وهي شبه عارية، وصورة أخرى لأربعة شباب ممشوقي البنيان وبالكاد يلبسون شيئًا أيضًا، هي وجه إسرائيل في الحملة التي انطلقت برعاية الحكومة والوكالة اليهودية باسم «وسم إسرائيل». أمّا تلك الفتاة (ملكة جمال إسرائيل عام ٢٠٠٤، والتي لعبت دورًا في الفيلم الهوليوودي الشهير «السرعة والغضب» (Fast and Furiuos) عام ٢٠٠٩) فقد كان الهدف من استخدام صورتها هو جذب الشباب الأمريكيّ للدولة اليهوديّة بوسمها الجديد، أمّا أولئك الشباب الأربعة فكانت صورتهم بمثابة ترويج لتل أبيب على أنّها عاصمة المثليّة الجنسيّة في إسرائيل. ولا أدري كيف يمكن أن تكون ردّة فعل تيودور هرتزل أو حتّى ديفد بن غوريون ومناحيم بيغن على عرض الصهيونية بهذه الطريقة ويكأنّها استحلامٌ على مشاهد شبه إباحيّة. ولكنّ صنّاع القرار في إسرائيل كانوا قد رأوا أنّ أيّ

شيء وكلّ شيء مقبولٌ ومناسب إن كان سيؤدي في نهاية المطاف إلى الحيلولة دون تشويه صورة إسرائيل. وقد دافع الفريق المحليّ عن هذه الصورة قائلًا إنّها «ساعدتنا على إيصال رسالتنا إلى جيل الشباب، والذكور منهم خاصّة، والوصول إلى قسم من الناس لا يكترثون لأمر إسرائيل ولا يتعاطفون معها».[١١] ولكنّ الحقيقة أنّ الحملة كانت تستهدف النّاس من شتّى الأصناف والاهتمامات من خلال صور تحاكي ميول وتفضيلات كل الفئات. فإنْ أصبحت فكرة إسرائيل جائزةً على المستوى المحليّ، فإنّها قد أصبحت في الخارج سلعةً من السلع.

بدأت هذه الحملة في صيف عام ٢٠٠٥، وذلك بعد أن فرغ وزير الشؤون الخارجية، ومكتب رئيس الوزراء، ووزير الماليّة، من مناقشات استمرّت سنوات ثلاثة مع رؤساء تنفيذيين في شركات تسويق أمريكيّة وتمّ الاتّفاق على حملة وسم إسرائيل التي تستهدف إعادة رسم صورة البلاد من أجل جعلها مقبولة وحديثة بدلًا من كونها عسكريّة ومتديّنة. وقد خُصّصت مبالغ طائلة (سيكشف عنها بعد عدّة سنوات) لتسويق فكرة إسرائيل في الخارج بغيةَ التصدّي لما وصفته النخبة السياسية والأكاديمية في إسرائيل بأنّه حملة عالميّة لتقويض شرعيّة الدولة اليهوديّة، وذلك في حملة مضادّة ضخمة جداً يعمل على إدراتها فريق متكاملٌ من المتخصصين في هيئة سمّيت «مجموعة وسم إسرائيل».[١٢]

وكان أوّل ما دفع به النظام في هذه الحملة هو وزارة الخارجية وحملاتها الدبلوماسيّة، ولكن كانت هنالك حاجة أيضًا إلى فريق أكاديميّ ولاسيّما في حقول العلوم السياسيّة والعلاقات الدولية والتاريخ. وقد استفادت هذه الفرق من دروس الماضي في سياق دراسة معاداة الساميّة، وشرعوا بإنشاء سرديّة حول أصول هذا التحدّي الجديد لفكرة إسرائيل والذي جاء هذه المرّة على شكل دعوات للمقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات الاقتصادية. وقد كانت المرحلة الأولى في السعي لتحديد هذه الأصول تتسم بالوصف لا بالتحليل،

ولكنّها نجحت رغم ذلك في تحديد نقطة ولادة هذا التحدّي ، وتزعم أنّها مؤتمر الأمم المتحدة العالمي لمكافحة العنصريّة ، والذي عقد في ديربان في جنوب إفريقيا في مطلع أيلول ٢٠٠١ . ووفقًا للسرديّة الأكاديميّة الأوليّة ، فإنّ ذلك الاجتماع قد كان معنيًا بشكل كبير بقضيّة فلسطين ، وشكّل نقطة انطلاق لحملة عالميّة لتقويض شرعيّة إسرائيل ، ولم يفت فريق العمل في حملة وسم إسرائيل أن يستفيدوا من حقيقة أنّ هذا الحملة قد ولدت في الثامن من أيلول ، أي قبل ثلاثة أيام من هجمات الحادي عشر من أيلول ، وما كان منهم إلا أن ربطوا بين الحدثين ورأوا فيهما هجومًا على العالم الحرّ .

ولقد أشار بنيامين نتنياهو صراحةً وفي غير مناسبة إلى هذا الرابط بين هجمات الحادي عشر من أيلول وانطلاق ما يدعى حملة تقويض الشرعيّة . ففي خطاب له في الكنيست في ٢٣ حزيران ٢٠١١ على سبيل المثال تحدّث نتنياهو عن ذلك التحالف المأفون بين الإسلام الراديكاليّ واليسار الراديكاليّ في الغرب ضدّ العالم الديمقراطي الحرّ والذي تمثّله إسرائيل خير تمثيل . ثم رأينا أيضًا أنّه قد ضمّ إلى مؤتمر ديربان وهجمات ٩/١١ أمورًا أخرى من قبيل قرار محكمة العدل الدولية في لاهاي ضد جدار العزل العنصري الإسرائيليّ عام ٢٠٠٤ ، وبعدها بعدّة سنوات قضية سفينة مافي مرمرة ، تلك السفينة الدوليّة التي حملت على متنها مساعدات إنسانية عازمةً على الوصول إلى قطاع غزّة المحاصر في ربيع عام ٢٠١٠ .

لقد كانت المهمّة الأساسية لحملة وسم إسرائيل هي جعل إسرائيل تبدو للعالم كأنّها جنّة على الأرض وحلمٌ صار حقيقة ، وأن ترتبط إسرائيل بكل ما هو جميل وممتع ومتقدّم تقنيًا . هذه هي النسخة الجديدة من فكرة إسرائيل ، وكان رسلها مؤسسات جديدة ضخمة تمثّل وجهها للعالم . ومن هذه المؤسسات «مشروع ديفيد» في أمريكا الشماليّة ، والتي نشطت في الترويج للحملة بين طلبة الجامعات . ومن بين الأنشطة العديدة التي قامت بها حاولت هذه المؤسسة أن تعالج النظرةَ إلى إسرائيل على أنّها واحدة من أكثر الدولِ المكروهة في العالم وأنّها في مرتبة دول كإيران وكوريا الشماليّة ، والتركيز بدل ذلك على أنّها من

بين الدول الخمس وعشرين الأولى التي يشعر سكّانها بالسعادة للعيش فيها .(١٣) وقد كان هدف المشروع إقناع الجميع بأنّ إسرائيل من أكثر البقع سعادةً في العالم وذلك بسبب إنجازاتها التقنيّة المتطوّرة .

وقد شعر فريق «وسم إسرائيل» أنّ تاريخ إسرائيل جانبٌ مهمّ يمكن الاستفادة منه في تلميع صورة إسرائيل في القرن الحادي والعشرين :

> إن تحدثنا عن المعالم الآثريّة سنجد أنّ إسرائيل موطن لأهم المعالم التاريخية والدينية في العالم ، كالحائط الغربيّ وكنيسة القيامة والمسجد الأقصى ومعبد البهائيين في حيفا . كما تتمتّع إسرائيل بمقاييس متقدّمة لجودة الحياة ، ولاسيّما أنّ قيمها الديمقراطية تضمن العيش المشترك والمشاركة السياسية لجميع المواطنين وتمثيل المرأة والأقليّات الدينية والعرقيّة .(١٤)

وقد حاول القائمون على مشروع ديفِد بالتوصّل إلى تفسيرهم الخاصّ لهذا التباين القائم بينَ إمكانات إسرائيل وما بوسعها تقديمه للعالم وتلك الصورة السلبية العالقة بها :

> إننا لندرك أنّ هنالك بعض التصوّرات الخاطئة التي تغزو الإعلام بخصوص إسرائيل ، إذ يرى الكثير من الناس حول العالم أنّ إسرائيل مجرّد دولة يسودها العنف كغيرها من الدول في مستنقع من عدم الاستقرار والحرب الذي تغرق فيه المنطقة بأسرها . كما تدورُ نقاشات في الصحف والتلفاز والإنترنت عن الصراع العربي الإسرائيلي ونرى كيف يصفه البعض بأنّه حرب طاحنة لا نهاية لها ، وهكذا فإنّ صورة المجتمع الإسرائيلي الذي يتسم بالتنوّع والتشويق تغيب في هذه المعمعة التي يرتفع فيها صوت اثنين وعشرين دولةً تركّز على جانبٍ واحد وحسب من قصّة إسرائيل .(١٥)

وبناء على ذلك حدّدت مهمّة فريق «وسم إسرائيل» :

> كيف لنا أن نغيّر هذه التصوّرات؟ كيف يمكننا أن نؤثر على

النقاشات العالميّة التي تتعلق بإسرائيل؟ كيف نناقش ونبرز إنجازات المجتمع الإسرائيليّ وميّزاته مع عدم الجنوحِ إلى إنكار نقاط الضعف والتقصير؟ ما الذي يجب أن يحدث كيَ لا تبقى صورة إسرائيل مرتبطة ببؤرة العنف والصراع من حولها؟(١٦)

وقد ظهر الجواب على هذه الأسئلة في الموقع الرسميّ لوزارة الشؤون الخارجية الإسرائيليّة، إذ اقترحت الوزارة تركَ الاعتماد على الحقائق والمعلومات والحجج الأخلاقية والتركيز عوضًا عن ذلك على خلق وسم لإسرائيل والتسويق له كمنتج من المنتجات. وقد تكلّم جدعون مير المسؤولُ في وزارة الخارجية الإسرائيلية عام ٢٠٠٧ في حوار مع صحيفة هآرتز وقال إنّه يفضّل رؤية اسم إسرائيل «في قسم «الستايل» والموضة في الصحيفة» وأن ذلك بالنسبة له «أفضل من ظهوره على الصفحة الأولى». (١٧)

أمّا المعنى العمليّ لذلك فهو أن تتجنّب أية حملة علاقات عامّة لصالح إسرائيل ذكر أي أمر عن الصراع الدائر أو التطرق إلى القضيّة الفلسطينية، وهكذا بالفعل كانت التوجيهات التي قدّمت لإحدى المؤسسات الأخرى المعنيّة بالتسويق لدولة إسرائيل الفتيّة. فبدأت مجموعة في كاليفورنيا عام ٢٠٠١ تدعى «إسرائيل القرن ٢١» بالعمل على «إعادة توجيه الحوار حول إسرائيل» و «تسليط الضوء على الجهود الإسرائيلية التي أسهمت بقدر لا يمكن إنكاره بتحسين الوضع الصحيّ والبيئة والتكنولوجيا والثقافة والقيم الديمقراطية في العالم أجمع». والحقّ أنّ ما تلقّته هذه المؤسسة من إيعازات توصي بعدم التطرق إلى الحرب أو الفلسطينيين يذكّرني بتلك الحلقة المشهورة من المسلسل الكوميدي فولتي تاورز، حين يحاول صاحب الفندق جاهدًا عدم ذكر الحرب العالميّة الثانيّة أمام النزلاء الألمان. أمّا الجانب الآخر من المعادلة فقد عبّر عنه خير تعبير خبير العلاقات العامّة في الفريق في الساحل الشرقي في الولايات المتحدة حين نصح زملاءه بالتوقّف عن محاولة الفوز في أيّ جدلٍ ضد الفلسطينيين، إذ يقول في مجلة جيويش ويك «إنّ إثبات صواب إسرائيل وخطأ

الفلسطينيين قد يكون مرضيًا عاطفيًا للمدافعين عن إسرائيل ، ولكنّه لن يكون فعّالًا بالضرورة في تغيير صورة إسرائيل في أذهان الناس» .[١٨] كما يشير هذا الخبير ، وهو بالمناسبة نائب الرئيس التنفيذي في مؤسسة «إسرائيل القرن ٢١» إلى الإستراتيجية الخاطئة المتمثّلة في الحديث عن إسرائيل بالإحالة إلى صراعها مع الفلسطينيين ، فيقول : «إنّك تحصر نفسك في هذا النقاش في دائرة ضيّقة ، حيث لا تكسب إسرائيل سوى جزءٍ من القضيّة ، أمّا نحن فعلينا أن نحاول أن نوسّع هذه الدائرة ونتحدث أكثر عن إنجازات إسرائيل .»[١٩]

حدث بعد فترة قصيرة أن دمجت كلّ الجهود المتشعّبة للمنظمات والأفراد تحت إدارة واحدة ، وذلك في قرار تنفيذي تم التوصّل إليه في المؤتمر الأول من نوعه لحملة وسم إسرائيل بتنظيم من وزارة الخارجيّة ، حيث عقد هذا المؤتمر عام ٢٠٠٥ في تل أبيب ، وكان بمثابة الإطلاق الرسميّ للحملة . وقد عيّنت وزيرة الخارجية تسيبي ليفني إيدو أهاروني على رأسِ مكتب إدارة الحملة وخصّصت له ميزانيّة بلغت أربعة ملايين دولار أمريكيّ ، وثلاثة ملايين أخرى كميزانية ثابتة للحملة الدعائية في الخارج (هاسبارا)(*) بالإضافة إلى أحد عشر مليون دولار أمريكيّ لدعم جهود وزارة السياحة للترويج لإسرائيل في أمريكا الشماليّة .[٢٠] كما خُصّصت الأموال لدعم الحملة في أوروبا . ومن الجدير بالذكر أنّ السياسيين في إسرائيل قد عزموا على التركيز أكثر على الولايات المتّحدة لشعورهم بأنّ جهود تقويض الشرعيّة قد آتت أكلها ونجحت هناك ، وذلك بخلاف ما قد يعتقده المرء من أنّ الإسرائيليين يرون في الولايات المتّحدة حصنًا حصينًا دائمًا للتحيّز لصالح إسرائيل ، ولكن يظهر أنّ الأمر بخلاف

(*) تعني هاسبارا كما هي مستخدمةٌ في هذا السياق تلك الحملة الإسرائيلية المنظّمة في الخارج في مجال العلاقات العامة والدعاية لنشر معلومات إيجابيّة عن دولة إسرائيل وما تقوم به والتصدّي لمحاولات تشويه صورتها وتقويض شرعيّتها في العالم ، وهو مصطلح يستخدم على المستوى الرسميّ في إسرائيل للإشارة إلى جميع هذه الجهود على اختلاف أشكالها . (المترجم)

ذلك . وسنرى قبل أن نفرغ من هذا الفصل كيف حاول الأكاديميون إقناع السياسيين بأنّ البلوى قد اجتاحت المملكة المتّحدة وأنّه يجدر أن تكون هي المستهدف الأساسي لحملة «وسم إسرائيل» .

عمدَ أهوراني إلى توظيف أمهر الكفاءات في عالم الدعاية والتسويق ، ومنهم الأخَوان ساعَتجي (ويُقال إنّهما قدّما خدماتهما من دون مقابل) وخبراء في مجال العلاقات العامّة من أمثال ديفد سارانغا ، وهو المسؤول السابق لشؤون الإعلام والشؤون العامة في القنصلية الإسرائيلية في نيويورك . وقد صرّح سارانغا للمجلّة الأبرز في هذا المجال ، بي آر ويك بأنّ إسرائيل تستهدف في حملتها مجموعتين أساسيّتين هما «الليبراليون» والشباب من عمر السادسة عشرة حتى الثلاثين (وهذا ما يفسّر تلك الإعلانات التي تظهر فيها صور لملكة جمال إسرائيل وهي بالكاد تضع شيئًا على جسدها ، وصور أولئك الشباب المثليين الرشيقين بملابس السباحة) . وفي العام ٢٠٠٥ وقّع مكتب أهاروني اتفاقية مع شركة تايلور نلسون سافوريس (TNS) المتخصّصة في مجال أبحاث التسويق لتعمل على اختبار مفاهيم جديدة لوسم إسرائيل في ثلاث عشرة دولة ، كما صدرَ قرارٌ بدعم برنامج لوحات دعائية تجريبيّ في تورونتو .[٢١]

كان يعمل في قلب هذا الفريق أيضًا أعضاء من شركة BAV والتي تعدّ أضخم قاعدة بيانات وسوم في العالم ، إلى جانب عددٍ من أفضل خبراء الدعاية والتسويق . ويتركّز اختصاص شركة BAV في تحديد جوانب التعلق العاطفي بالوسم في المجتمع المستهدف . ويقول فيرن أوبنهايم ، وهو استشاري الدعاية والتسويق وعضو في مجموعة «وسم إسرائيل» ، إنّ البيانات التي تقدمها BAV ستكون جزءاً من إستراتيجية طويلة المدى ستشتمل كذلك على أبحاث وعمليات تقييم مستمرّة : «إننا نسعى لنكون مصدرًا يمكن للجميع الاستفادة منه ، وهذه هي الطريقة التي يقوم بها فريق إدارة في شركة بإدارة وسم ما» .[٢٢]

ديفد سيبل هو خبيرٌ آخر من بين أولئك الخبراء ، وكان يعمل مع شركة يونج أند روبيكام ، وهو الذي أخبر الدبلوماسيين أنّ إسرائيل ليست من بين الدول

المفضّلة في العالم لأنّ النّاس ، في الولايات المتحدة على الأقل ، «يعرفون الكثير عن إسرائيل ، الكثير من الأشياء غير المناسبة . فهم يتصورون أن إسرائيل دولة يلفّها البؤس وتمزّقها الحرب ، ولا يتصوّرون إسرائيل متطورة تقنيًا تعجّ طرقها بالمقاهي المليئة بالنّاس .»[٢٣] ولذا فإنّ التوّجه في العام ٢٠٠٥ قد تحوّل بناء على ذلك إلى الترويج لإسرائيل وكأنّها فرعٌ عن المجتمع الأمريكيّ . وقد تولّت هذه المهمّة شركة يونج أند روبيكام ، وفي هذا يقول ديفد سيبِل مجدّدًا : «إنّ الأمريكيين لا يرون إسرائيل مشابهةً للولايات المتّحدة» .[٢٤] لقد كانت إسرائيل كوسم ذات حضور قويّ في أمريكا ، ولكن الأمر باختصار هو أنّه «من الأفضل أن يكون الوسم معروفًا على أن يكون محبوبًا تنقصه الصلة بالنّاس» . ويضيف ديفِد أنّ الأمريكيين «لا يرون صلة لإسرائيل في حياتهم ، ولذا فإنّهم لا يكترثون بها ، وهذا الأمر صحيح على وجه الخصوص بين الأشخاص الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ و ٣٤ عامًا ، وهي الفئة المستهدفة الأكبر» .[٢٥]

وقد عزمت حملة «وسم إسرائيل» على تغيير هذا الواقع فعمدت إلى اختبار جوانب يجدر إبرازها في المجتمع الإسرائيلي ووضعتها مباشرة في تناول الأمريكيين . فبدأوا أولًا بترتيب رحلة مجانيّة لكتّاب متخصّصين في مجال العمارة ، وتبعهم بعد ذلك كتّاب مختصّون بعالم الطعام والنبيذ . وكان الهدف من هذه الجهود هو «أن يرى الأمريكيون وجهًا آخر لإسرائيل عدا عن تلك الصورة القاتمة التي ترد في عناوين الأخبار ، ونقل صورة أخرى مغايرة عن إسرائيل «المنتجة النابضة بالحياة والثقافة والتطوّر» كما يقول غاري روزنبلات من مجلة جويش ويك ، والذي لخّص الخطّة للسنوات المقبلة بهذا الشكل :

> فكروا بإسرائيل كمنتج يحتاج إلى تجديد كامل لجعله أكثر منافسة في السوق . ما نحتاجه هو قصصٌ أقلّ عن أسباب بناء العازل الأمني ، وتركيزٌ أكبر على العلماء الذي يقومون بأبحاثهم عن الخلايا الجذعية بأكثر التقنيات تقدّمًا أو خبراء الحاسوب الشباب الذين اخترعوا للعام تقنية الرسائل الفوريّة .[٢٦]

ولم تكتف الحملة بتوظيف خبراء العلاقات العامة والتسويق من الولايات المتّحدة ، بل أعلنت الحكومة كذلك عن رغبتها في وجود انخراط أكبر من الإسرائيليين . وقامت الحملة متجاهلة دبلوماسييها العارفين بالاعتماد على برنامج تلفزيونيّ ربحيّ للبحث عن دعاة جدد لفكرة إسرائيل وحمل هذا البرنامج اسم «السفير» ، وتقوم فكرته على منافسة بين المشاركين في تصفيات على مدى ثلاثة عشر أسبوعًا ، وينال الفائز عرض عملٍ مع مجموعة مناصرة صهيونيّة تدعى «إسرائيل في القلب» وذلك لرفد الدبلوماسيين بأفضل الكفاءات الإسرائيلية الشابّة . أمّا عن مبادرات مؤسسة «إسرائيل في القلب» فقد كان منها مثلًا إرسال يهودٍ إثيوبيين للحديث في كنائس الأمريكيين من أصول إفريقية في الولايات المتّحدة (وهذا الأمر في سخفه يشبه مثلًا أن ترسل أمريكيّين من أصول إفريقيّة من أحياء الولايات المتّحدة الفقيرة المهمّشة إلى بركستون(*) للحديث عن «الحلم الأمريكيّ») . وقد أوكلت هذه المهمّة فيما بعد إلى طلبةٍ من المدارس الثانويّة في إسرائيل .(٢٧)

كما أوعزت وزارة الشؤون الخارجية للفنّانين الإسرائيلين والفرق المسرحيّة وفرق الرّقص ممّن لهم جولات فنّية حول العالم بدمج «وسم إسرائيل» في أعمالهم وعروضهم . وقد حصل هذا على سبيل المثال عام ٢٠١٢ في جولة لشركة الرقص الإسرائيلية «بتشيفا» في الولايات المتحدة وبريطانيا ، إذ وصفت الوزارة تلك الجولة بأنّها جزء من حملة «وسم إسرائيل» وراقصي الفرقة بأنّهم «أفضل سفراء إسرائيل إلى العالم» .(٢٨)

أمّا وزراة السياحة فذهبت أبعد من ذلك أيضًا ، إذ لم تكتف بتسويق إسرائيل على أنها الأكثر راحة وإمتاعًا وتسليةً في العالم ، وصوّرتها عام ٢٠٠٩

(*) في المملكة المتّحدة وتحديدًا في جنوب لندن والكثير من قاطنيها من أصول إفريقية وكاريبية ، وكانت مسرحًا للعديد من المظاهرات في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي نظرًا للأوضاع المعيشية والأمنيّة المتردّية فيها . (المترجم)

بأنّها قد نجحت بظروف أقرب إلى المعجزة في التخلص من فلسطين والفلسطينيين وأنّها أخذت مرتفعات الجولان هديّة من سوريا . وقد كانت هذه رسالةَ الخرائط المحدّثة التي استخدمتها الوزارة حول العالم في الإعلانات والملصقات ، كتلك التي ظهرت في محطات مترو الأنفاق في لندن ، والتي تظهر فيها إسرائيل الكبرى بلا حدود ولا مرتفعات جولان سورية ولا مناطق فلسطينية ، وقد أثار نشر هذه الخرائط المئات من المظاهرات التي تسبّبت بإزالتها من مترو لندن .(٢٩)

نشرت صحيفة غلوبز ، وهي يوميّة إسرائيلية تُعنى بعالم المال والأعمال ، تقريرًا عام ٢٠١٠ بأنّ وزارة الخارجية قد خصصت مئة مليون شيكل (ما يزيد عن ٢٦ مليون دولار أمريكي) لبناء وسم إسرائيل وتسويقه في الأعوام القادمة . وقد كان الهدف الأساسي من هذه المبالغ هو التصدّي للجهود المتزايدة لنزع شرعيّة إسرائيل والتي تظهر في شبكات الإعلام الاجتماعي والإنترنت . وقد أبدت الوزارة تفاؤلها عمومًا بشأن نجاح حملاتها ، وذلك أنّ وحدة الأبحاث فيها قد أكّدت على أنّ متصفحي الإنترنت يرتبطون بالمحتوى الذي يهمّهم ، بصرف النظر عن هوية المصدر أو توجّهه السياسيّ .(٣٠)

وهنالك تعاون بدأ على جبهة أخرى عام ٢٠١٠ للتأثير على مجتمع المثليين الجنسيين من خلال التأكيد على أنّ تل أبيب وجهة محبّبة صديقة للمثليين من كلا الجنسين وأنّها وجهة مفضّلة لمجتمع المثليّين ومزدوجي الميول والمتحولين جنسيًا من أوروبا . وقد تعاون في هذه الحملة كلّ من وزارة السياحة وهيئة تشجيع السياحة في تل أبيب ، وأكبر منظّمة لمجتمع المثليين ومزدوجي الميول والمتحولين جنسيًا في إسرائيل «أغوداه» ، وأطلق على الحملة اسم «اللحظةَ المثليّة في تل أبيب» . وقد هاجم البعض الحملة ووصفوها بأنّها حملة من قبيل حملات «الغسيل الورديّ» وشبّهوا استغلال حقوق المثليين لشرعنة الاضطهاد المستمر للفلسطينيين بما جرى في القرن التاسع عشر من توظيف لحقوق المرأة لتسويغ الاستعمار .(٣١)

خططٌ ورؤى جديدة: ترويج جديد لوسم جديد

بالرغم من كلّ التحرّكات والأنشطة فإنّ تقارير النجاح لم تكن مقنعةً حتى لأولئك الذين أعدّوها. ولذا طُلب من جهةٍ جديدة أخرى المشاركة في فريق العمل لمعرفة ما يحول دون تحقيق النّجاح وتحديد ما يجدر القيام به من تحرّكات جديدة. وقد ذكرنا من قبل أنّ الوكالة اليهودية تعمل مع العديد من المؤسسات البحثية، ومن بينها مؤسسة رؤوت التي زعمت في العام ٢٠١٠ أنّ إسرائيل تشهد تهديدًا متصاعدًا في المجال الدبلوماسي والعلاقات الدولية. وقد وصفت التقرير الصادر عن بعثة الأمم المتحدة لتقصّي الحقائق فيما يتعلق بنزاع بغزّة والتي ترأسها ريتشرد غولدستون من جنوب إفريقيا بأنّه أوضح مثال على حملة تقويض الشرعيّة الإسرائيلية يكشف لنا أصولها ومنطقها وعواقبها المحتملة.[٣٢]

لقد ورد في تقرير غولدستون اتهامٌ غير جازم لكلّ من إسرائيل وحماس بارتكاب جرائم حرب خلال الهجوم الإسرائيلي على غزّة في نهاية العام ٢٠٠٨، ثم وبضغوط صهيونيّة كبيرة، تراجع غولدستون، وهو يهوديّ، عن بعض النتائج التي توصّلت إليها البعثة. وفي مطلع العام ٢٠١٠ وصفت المؤسسة التقرير بأنّه خلاصة جهودٍ بُذلت لتعريض إسرائيل «لانتقادات حادّة متزايدة حول العالم» وقالت إنّ هذا النقد في بعض الأحوال «قد تجاوز الحدّ المشروع من نقد السياسات الإسرائيلية إلى التشكيك في حقّ دولة إسرائيل بالوجود». ونرى أنّ تقرير هذه المؤسسة والذي صدر بعنوان «تحدّي تقويض الشرعية: خلق جدار حماية سياسيّ» يربط بين تقرير غولدستون والاستنكار الدولي لحرب إسرائيل الثانية على لبنان عام ٢٠٠٦. وتذهب مؤسسة رؤوت إلى أنّ هذا الاستنكار الدوليّ إنما هو نتاج أيديولوجية إسلامويّة راديكاليّة مصدرها إيران التي يساندها كلّ من حزب الله وحماس.

والمشكلة كما يوصّفها التقرير تكمن في «نقصٍ مفهوميّ» بين القوى الأيديولوجيّة في الدولة اليهوديّة، فإسرائيل قد فشلت في تسويق نفسها كدولة يهودية ديمقراطية تسعى لتحقيق السلام، وهذا ما حقّق النجاح الكبير للحملة

الغاشمة التي تبغي تقويض شرعيّتها . وقد حذّرت رؤوت أنّه وفي حال استمرار هذه الحملة فإنّ إسرائيل قد تضحي دولة منبوذةً ، وأنّه لن يكون هنالك حلّ للقضيّة الفلسطينيّة ، وأنّ حل الدّولة الواحدة سيفرضُ نفسه على السّاحة . وحين نبّهت الهيئات الصهيونيّة لخطورة حلّ الدّولة الواحدة ، فإنّها كانت تقصدُ بذلك ما حذّر منه رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت عام ٢٠٠٧ من أن تصبح إسرائيل دولة فصل عنصريّ وفق هذا السيناريو .(٣٣) كما ترى مؤسسة رؤوت أنّ «نقطة التحوّل في هذا السياق هو أن يتمّ الانتقال من حلّ الدولتين إلى حلّ الدولة الواحدة كإطار توافقيّ لحلّ الصراع الإسرائيلي الفلسطينيّ» ، ولكن حتّى التوصل إلى اتّفاق شامل ودائم لن يكفل إنهاء حملة تقويض شرعيّة إسرائيل ، وذلك أنّ للحملة هدفًا أساسيًا كما ترى رؤوت وهو إنكار حقّ إسرائيل في الوجود .

إذن ما الذي يتوجّب عمله؟ يخلص تقرير مؤسسة رؤوت إلى «أنّ التصدّي لشبكةٍ ما يكون من خلال خلق شبكة مضادّة» . إنّ العقيدة الإسرائيلية في ميدان الدبلوماسية والسياسة الخارجيّة تحتاج إلى مراجعة عاجلة : «سيلزم تخصيص الكثير من الموارد ، ولكن لا بدّ من الاعتراف أيضًا بوجود «تضارب في الوسوم»» : «إنّ إعادة وسم إسرائيل ضرورةٌ إستراتيجية ، ولكن «ما لا يقل أهمّية عن ذلك هو وسم الطرف الآخر» . فبما أنّ أعداء إسرائيل قد نجحوا في وسمها كدولة «تستخدم العنف وتخرق القوانين الدوليّة ولا تحترم حقوق الإنسان» فإنّ على إسرائيل أن تفرض عزلة على من يسعى لتقويض شرعيّتها وأن تعمل مع المنظّمات غير الحكومية وتحرّك الجهات الداعمة لإسرائيل دوليًا وأن تعزّز علاقاتها مع «النخب السياسية والمالية والثقافية والإعلامية والأمنيّة» .

وهذا يعني بعبارة أخرى ، وفقًا لرؤوت/الوكالة اليهوديّة على الأقل ، أنّ كل ما في العالم من أموال وخبراء لن يتمكّنوا من خلق وسم جديد لإسرائيل يجعلها دولةَ سلام ووجهةً لمن ينشد المتعة . وقد يظنّ أحدهم أنّ اتباع سياسة أكثر شراسةً قد يُساعد في ذلك ، ولكن هيهات . كلّ ما أرادته رؤوت من

الحكومة هو البحث عن سبلٍ للضغط على النخب في الغرب لنشر صورة مختلفة عن إسرائيل على أملِ أنْ تقدّم المجتمعات اليهوديّة المطلوب منها .

هنالك مجموعة أخرى لها ارتباط بالوكالة اليهوديّة (أو بالأحرى أنشأتها الوكالة عام ٢٠٠٢) تدعى مؤسسة سياسات الشعب اليهودي والمعنيّة بالتصدّي للتحدّيات على مستوى الأمن القومي الإسرائيليّ . وبالرّغم من أنّها مؤسسة تضمّ عدداً من المختصين بالديمغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والبروباغاندا ، إلا أنه يجري التعامل معها كوحدة عسكريّة في سياق حرب على جهود تقويض شرعيّة إسرائيل . أمّا الوثيقة الأساسيّة التي أعدّتها المؤسسة عن الموضوع ، وهي ما رشحَ عن مؤتمر مستقبل الشعب اليهوديّ الذي عقد عام ٢٠١٠ ، فقد نوّهت إلى أن جهود تقويض الشرعية «لا بدّ أن تُؤخذ لا على أنّها تهديد لإسرائيل وحسب ، بل وللوجود اليهودي في كلّ مكان» .[٣٤] وعلى الشاكلة ذاتها سار مؤتمر حالة الأمّة الذي عقد في مركز الدراسات متعدّد المجالات في هرتسليا حيث وصف حملة الترويج لإسرائيل بأنّها حرب ، أو بالأحرى «حرب غير متكافئة . . . تجري على ميدان الأفكار» . وبما أنّ إسرائيل كانت حصينة ضدّ الهزائم العسكرية أو الاقتصاديّة ، فإنّ أعداءها باتوا يحاولون هزيمتها بسلاح الأفكار ، وقد كانَت الكفّة تميل لصالح الأعداء لأنّهم ذوو قوّة على كافّة الجبهات .[٣٥]

كانت هذه المؤسسة البحثية التابعة للوكالة اليهوديّة قبل ثلاث سنوات قد وصفت قلقها السابق بخصوص دمج اليهود في أمريكا في مجتمع غير اليهود بأنّه حرب غير متكافئة ، ورأت أنّ فئة الشباب من يهود أمريكا «ينأون بأنفسهم عن الارتباط بإسرائيل» . وقد أكّد على هذا بيتر باينرت في مقالة له لقيت صدىً كبيرًا حين صدروها في مجلة «نيويورك لمراجعة الكتب» في عام ٢٠١٠ ، ولكنّ باينرت وعلى غرار نورمَن فينكلستين قد عزى هذا الأمر إلى عدم رغبة الشباب اليهود في أنْ يُظنّ فيهم أنّهم مؤيدون للسياسات الإجراميّة لدولة إسرائيل .[٣٦] وهذا تفسير لا يمكنُ أن يردَ على بالِ الوكالة اليهوديّة ، فهي لا

ترى من سبب لذلك إلا أنّ اليهوديّة الإصلاحيّة التي تتمتّع بحضور كبير في الولايات المتحدة لم تحظَ بتقدير كافٍ في إسرائيل ولم يسمح لها بقبول اعتناق غير اليهود لليهوديّة على أرض إسرائيل . وفي حين كانت تدعو مؤسسة رؤوت إلى تبني شكلٍ أكثر حزمًا من الضغط ، فإنّ الوكالة اليهوديّة كانت تسعى لأن تظهر إسرائيل أكثر انفتاحًا فيما يتعلق بالشؤون اليهوديّة .

ونظرًا إلى أنّ حملة وسم إسرائيل لم تؤت أكلها المنشودة في العام ٢٠١٠ فقد كان لا بدّ من الاعتماد على أكاديميين من داخل إسرائيل ، رغمَ أنّهم كانوا منخرطين بالتصدّي لمفكّري مابعد الصهيونيّة على الجبهة الداخليّة . في البداية كانت الريادة لجامعة بار إيلان ، وهي معهد وطنيّ دينيّ ، ثم انضّمت إليها جامعة تل أبيب ، وكان الهدف هو الوقوف على سبب بقاء شرعيّة إسرائيل تحت التهديد . وكان من بين أوائل من انطلقوا في بحثٍ عن إجابة عددٌ من الجنرالات المتقاعدين ورؤساء هيئات أمنيّة يعملون في مؤسسات أكاديميّة أو شبه أكاديميّة تقدّم خدماتها للجامعات أو للمخابرات الإسرائيلية ، وذلك كمركز مائير عاميت للمعلومات الاستخبارية ومكافحة الإرهاب قرب تل أبيب ، والذي أشار إلى الشبكة ذاتها من الأعداء التي أشار إليها السابقون واللاحقون والتي تتألف من إسلام راديكاليّ ومجموعات من مناهضي الصهيونيّة ومعادي الساميّة .

وقد أكّد نائب وزير الخارجية الإسرائيليّ على فكرة المؤامرة التي حاكها «حكماء ضدّ الصهيونيّة» وذلك في خطاب له ألقاه أمام الوكالة اليهوديّة في تشرين الأول ٢٠١٠ ، قال فيه إنّ أعداء إسرائيل يوظفون عملاء لهم يعملون تحت مسمّى الدفاع عن حقوق الإنسان وهدفهم تقويض شرعيّة الأمّة ، وتبنّى موقف الوكالة للتعامل مع هذه المعضلة ، ودعا لإيجاد «شبكة مضادّة تتألف من منظمات يهوديّة وغير يهوديّة ومؤسسات أكاديميّة تتكاتف معًا في جبهة واحدة للتصدي للحملة التي تستهدف شرعيّة إسرائيل ولوصفِ الحقيقة في العالم كما هي .»(٣٧)

كانت الحكومة بحلول العام ٢٠١١ قد أنفقت الملايين في سبيل إنشاء مراكز دراسات إسرائيلية في عديد الجامعات حول العالم وابتعاث أعداد من خريجي المراحل الثانوية في إسرائيل، أكثرهم وسامةً وفصاحة، لتسويق إسرائيل الشابّة ذات الصبغة الغربيّة. كما شُكّلت فرقٌ للإعلام الاجتماعي ليعملوا على منصّات تويتر وفيسبوك والمدوّنات المختلفة على مدار الساعة ليتصدّوا لأيّ شيء يبدو معاديًا لإسرائيل. أمّا جماعات الضغط من شاكلة آيباك (لجنة الشؤون العامّة الأمريكيّة الإسرائيليّة) في الولايات المتحدة، فقد شرعت في عملٍ مماثل في القارّة الأوروبيّة. كلّ ذلك جرى في حملةٍ تتّسم بدقّة عسكريّة. وقد عبّر عن ذلك اللواء إيتان دانغوت حين قال: «إنّ حرب الدفاع عن الشرعيّة وحشد الرأي العام ليست أسهل من تلك التي نخوضها في المعارك... هنالك ثقافة من الكذب والتشويه والفبركة».(٣٨) ورغم أنّه كان في معرض الحديث عن حماس، ولكنّه أشار إلى أنّها ظاهرة عالميّة.

وفي العام ٢٠١١، وفي المؤتمر السنويّ لما يدعى «حالة الأمّة» والذي ينظّمه كما أسلفنا مركز هرتسليا، كان موضوع تقويض شرعيّة إسرائيل قد اختير موضوعًا أساسيًّا للمؤتمر. وشرع المتحدّثون في الهجوم على هذه الحملة ووصفها بأنها من أدواء «مابعد الحداثة اليساريّة» التي تسعى إلى «السيطرة على مصادر الإنتاج المعرفي كي تتحكّم بالحقيقة»، مؤكّدين على أنّ مقالًا في الغارديان البريطانيّة أو لوموند الفرنسيّة لن يكفي لتحويل أولاء إلى الصهيونيّة. كما عبروا عن انزعاجهم من حقيقة أنّ اللومَ يُوجّه إلى إسرائيل مهما فعلت، وأكّدوا في النهاية أنّ على الإسرائيليين أن لا يخرجوا خلافاتهم إلى العلن وأن يحاولوا تقديم صورة إسرائيل متماسكة غير مشتّتة.(٣٩)

لم صبّ الأكاديميون العاملون مع الوكالة اليهوديّة جام غضبهم على الأمم المتحدة والنظم القانونية في الغرب والأكاديميا الغربية ملقين عليهم لوم ما يجري من حملات ضدّ إسرائيل. ونالت بريطانيا النصيب الأكبر من هذا اللوم وذلك لدورها الأساسيّ في حملة تشويه فكرة إسرائيل لما فيها من أعدادٍ متزايدةٍ من

المسلمين . ولكنّ هذا لا ينفي كما أشاروا وجود مؤسسات يمكن الثقة بها من أمثال «تيسكو» تحافظ على وفائها للنسخ القديمة والجديدة من فكرة إسرائيل :

> من المعلوم أنّ بريطانيا عاصمةُ للتواصل العالميّ ، وهي موئل أهمّ المنظّمات غير الحكومية في العالم .ولكنّ المجتمع اليهوديّ فيها ضعيف ، ولذا نرى منظمات كمنظمة العفو الدولية وأوكسفام منخرطتين بتقويض شرعيّة إسرائيل . أمّا الحكومة فهي أكثر تعاطفًا معنا . فما الذي يجب فعله إذن؟ لا بدّ أن نواجه من يشكّك في شرعيّة إسرائيل أيًا كان ، حتّى أولئك الأساتذة الإسرائيليين [الذين يدعمون حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات الاقتصادية ، BDS] ونتصدّى لهم كأنّنا في حالة حرب . فلا بدّ من استهدافهم ومحاربتهم بدل الانخراط في نقاشات فكريّة معهم ، ويلزم اللجوء إلى كلّ ما نستخدمه من قبل من وسائل لإيقافهم . هذه معركةُ إسرائيل لتبقى قائمة تدافع عن نفسها .(٤٠)

قدّم معهد هارولد هارتوغ لأبحاث الحكومة ودراسة السياسات في جامعة تل أبيب أكثر التحليلات شموليّة في هذا الشأن حتّى الآن ، فأصدر في العام ٢٠٠٨ وثيقة سياسة توجيهيّة بعنوان «وسم إسرائيل : تسويق الدولة في ظلّ صراع دائم» . ولكنّ الوثيقة بدت عاجزة كما عجز من قبلها الكثير من الباحثين البارزين ، من أمثال ألان ديرشوفتز الذي يتردّد كثيرًا على جامعة تل أبيب ، على ابتكار تحرّكات مضادّة جديدة لم تختبر من قبل . فقد اقترح رومي هاسمان وهو مؤلف الوثيقة الاعتماد على أداة متعدّدة المجالات تجمع بين الإدارة الإستراتيجية والتسويق ومنهجيات الوسم مستفيدة في الوقت ذاته من المبادئ الدبلوماسية والأيديولوجيّة للدولة ، على أن يكون أساس هذه التوليفة تلك الفكرة اليهودية عن إصلاح العالم (تيكون أولام) والتي تعبّر وفق نيل غاندَل رئيس معهد هارتوغ «عن مسؤولية الشعب اليهودي الأخلاقيّة أمام العالم» .

ويعتقد غاندل أنّ أمام إسرائيل فرصة لتحسين صورتها عبر إبراز مساهماتها في مجالات الإغاثة الإنسانية والتنمية ، وتعزيز عملها مع العالم النامي .(٤١)

ويشرح هاسمان في ملخّص ورقته ثلاث خطوات أساسيّة يحسن بإسرائيل اتّباعها لتسويق الدولة :

١ . تأسيس مجلس وطنيّ لعمليات التواصل : يكون تابعًا لمكتب رئيس الوزراء ويرأسه المتحدّث الرسميّ الأول باسم الحكومة ويهدف إلى إدارة ومراقبة شبكة المتحدثين الرسميين باسم الحكومة والتنسيق بين مواقفهم فيما يتعلق بالسياسة والأمن والوضع الاقتصادي والاجتماعيّ .

٢ . تسويق الأمّة : ولتحقيق ذلك يلزم أن تكون وزارة الشؤون الخارجيّة ذراع عملية التسويق الدوليّة لدولة إسرائيل ، وتشرف بهذه الصفة على تنسيق جهود تسويق إسرائيل وأعمال المتحدثين الرسميين والإعلاميين والتواصل مع وسائل الإعلام والصحافة الأجنبية ومراقبة الإعلام العالميّ . كما ستكون الوزارة مسؤولة عن المتابعة مع جميع سفارات إسرائيل وقنصلياتها وبعثاتها الدبلوماسية وممثليها حول العالم .

٣ . تأسيس وحدة ارتباط مع جيش الدفاع الإسرائيلي : وتعمل هذه الوحدة على التنسيق مع مكتب المتحدث باسم جيش الدفاع الإسرائيلي ، وأي وحدات عسكريّة أخرى تعمل في مجال البحوث والتوجيه المعنوي وشبكة المتحدثين باسم الجيش الإسرائيلي وإذاعة الجيش الإسرائيلي (غاليه تساهل) . ويعمل مكتب المتحدث الرسمي باسم جيش الدفاع بصفة تنفيذية عند التعامل مع وسائل الإعلام الأجنبية وذلك وفق توصيات وزارة الشؤون الخارجية وبتوجيه من المجلس الوطنيّ لعمليات التواصل .(٤٢)

ثم يختم هاسمان الملخّص بهذا التنويه :

بما أنّه تستحيل تغطية جميع الأسواق في آن واحد فإنّه لا بدّ من تحديد الأولويات ، وقد فعلت الورقة هذا من خلال تسويق الأمّة حسب الدولة بناءً على مقدار قوّة العلاقة التي تربط كل دولة بدولة إسرائيل .(٤٣)

لقد نقلت هذا الاقتباس السابق على طوله لأنّه يمثّل لنوع المعرفة التي تنتجها الأكاديميا النيو-صهيونيّة حول إسرائيل ونحن نسير في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين . فإن كان الماضي قد أعيدت كتابته وفق سرديّة صهيونيّة ، فإنّ الحاضر يُصوّر على أنه صراع بقاء . لقد انتهى ذلك التحدّي الداخليّ رغم ما مثّله من أهمّية وأمل ، رغمَ بعض المؤشّرات التي ما تزال تدلّ على استمراره حيًا وذلك في أعمال بعض المنظمات التي تتحلّى بالشجاعة مثل منظمة «ذاكرات» (زوخروت) ، ونيو بروفايل ، وتعايش ، وغيرها من المنظّمات التي تشكّل أقليّة في المجتمع . كما بقي في المجال الأكاديميّ والإعلامي والثقافي بعض الأفراد الذين ما يزالون يمتلكون الجرأة رغم الرقابة الشديدة والمضايقات لتقديم تفسيرات بديلة عن الماضي والحاضر ، ويتعاملون بشكل عضويّ مع القصص التي يحكيها سكان الأرض الأصليون عن الماضي ويطلقون حملات توعية عن الواقع الراهن .

بيدَ أنّ محضَ القوّة لدى الدولة اليهوديّة وما تمتلكه من قدرة على زعزعة أمن المنطقة إن لم أقل العالم هو ما يؤزّ تلك المحاولات لفهم فكرة إسرائيل في القرن الحادي والعشرين ، علمًا أنّ معظم هذه المحاولات تحدث خارج الدولة المحصنة لإسرائيل ، مع وجود بعض الشركاء المؤثرين في هذه الجهود ممّن كانوا فيها وغادروها . وما يجري الآن هو أنّ الفلسطينيين يسعون لإعادة تعريف أنفسهم بعد قرن من الحرمان والشتات والاستعمار ، أمّا بقية العالم فيحاول أن يفهم مستقبل طبيعة نوايا هذه الدولة التي قامت عام ١٩٤٨ بمباركة من المجتمع الدولي وإهمال لرفض السكّان الأصليين في تلك الأرض التي أخذت بالقوّة .

وهنالك قضيّة واحدة واضحة للجميع ، بفظاعتها أو عظمتها حسب النّاظر إليها : إنّ فكرة إسرائيل قد أضحت كائنًا تدبّ فيه الحياة ، دولةً بسبعة ملايين نسمة واقتصادًا متقدّمًا وجيشًا قويًا وثقافة خصبة وجيلًا ثالثًا من المستوطنين صاروا أصيلين في هذه الدولة مع مرور الوقت .

برز في السنوات القليلة الماضية نموذجان تقدّميان في سياق السعي الأكاديمي/الحراكيّ لتوصيف ظاهرتي الصهيونية وإسرائيل بأكثر الأشكال دقّة وأخلاقيّة . الأول هو نموذج الاستيطان الاستعماري والثاني هو نموذج الفصل العنصري (الأبارتايد) ، وكلاهما من الناحية العملية يناقضان المنهجية الإسرائيلية الرسمية والبحثية السائدة التي تصرّ على النظر إلى الصهيونيّة بوصفها حركة تحرير قوميّة وتعتبر إسرائيل دولة ديمقراطية ليبرالية .

ولكنّ هذين النموذجين رغم نفعهما إلا أنّهما غير كافيين ، وذلك لأنّهما يستخدمان حالات تاريخيةً ذات نهاية معروفة ويطبقانها على واقع سارٍ ومستمرّ ، والمعروف في الدراسة التقليدية للكولونيالية ، أنّ الدولةَ الكولونيالية المستوطِنة تضع تاريخها الكولونيالي وراء ظهرها . ومع هذا فإنّ هذين النموذجين يمثّلان أفضل ما لدينا إلى أن نجد نموذجًا غيرهما . وتجدر الإشارة هنا إلى أنّنا نواجه مصاعب من قبيل ما يواجهه الأكاديميون والخبراء والمثقفون الذين يحاولون بيان طبيعة ووجهة الثورات في العالم العربي والتي تعرف بثورات الربيع العربي ، إذ إننا في صدد ظواهر مفتوحة المآلات لم نصل إلى ختامها بعد .

لقد وصلت الضغوطات الخارجيّة ذروتها في صيف عام ٢٠١٣ حين أقرّ الاتّحاد الأوروبي فرض عقوباتٍ جزئية على إسرائيل ، واهتزّت تلك الصورة التي رسمتها إسرائيل لنفسها منذ العام ١٩٤٨ ، بأنّها واحة الاستقرار والمدنية والأخلاق في صحراء قاحلة من الهمجية والبدائية والتعصّب . وحتّى أولئك الإسرائيليون الذي تظاهروا في صيف ٢٠١١ في تل أبيب محتجّين بأعداد تصل إلى نصف مليون على الأوضاع المعيشية المترديّة قد أقرّوا بأنّ هذه الصورة قد تغيّرت ، ليس في العالم وحسب ، بل وفي أذهانهم هم أيضًا ، وذهبوا

يهتفون : «تل أبيب ميدان التحرير الجديد» وتوعّدوا الحكومة عام ٢٠١٣ بميدان تحرير جديد لأنها لم تلبِّ بعد انتخابها عام ٢٠١٢ أيًا من المطالب المتعلقة بتحسين ظروف الإسكان والتوظيف والتعليم .

إنّ القوى التي تسيطر على دولة إسرائيل ما تزال حتّى الآن تجاري الوجه الأقبح من الربيع العربيّ ، وخاصّة ذاك الذي يتمثّل في الحكومة السوريّة التي تستخدم طيرانها العسكريّ لقصف أي مواقع تعدّها تهديدًا إستراتيجيًا للدّولة . وتأمل النخبة في إسرائيل أن يؤول الربيع العربي إلى صحراء إسلاميّة مهلكة كي تستعيد إسرائيل صورتها التي رسمتها عن واحةِ الأمان في المنطقة ، ولكنّ هذا لن يحصل .

وحتّى في هذا المشهد المضطرب من العنف والفوضى في هذا المخاض التاريخي الجديد نرى أنّ الرأي العالميّ لم يكفّ عن شجب الاضطهاد الإسرائيلي المستمر للفلسطينيين ، كما أنّ صورة أخرى تترسّخ أكثر وأكثر بأنّ إسرائيل دولة كولونياليّة من إرث القرن العشرين ما تزال قائمةً لأنّها تخدم أغراض الولايات المتحدة ولأنّها تلعب دورًا مهمًا في الاقتصاد الرأسمالي العالميّ . فلم يعد هنالك أي بعدٍ أخلاقيّ في الدعم العالميّ المقدم لها ، وحين يبدأ الجانب الوظيفي من الدعم بالتراجع ، فإنّ الكفّة ستميل لتحقق السيناريو الذي رآه كلّ من مفكري مابعد الصهيونية ومفكري النيو-صهيونية على السواء والذي يتمثّل في دولة منبوذة تقوم على نظام فصل عنصريّ . ولقد كنّا وضعنا هذا الكتاب آملين أن لا يتحقّق مثل هذا السيناريو المرعب ، وإنْ كنّا نشعر على وجل وضيق بأنّ هذا ما يحصل فعلًا أمام أعيننا .

تمهيد:

السجال حول فكرة إسرائيل

(1) Yosef Gorny, Thoughts on Zionism as a Utopian Ideology, Modern Judaism, 18: 3, (October 1998), p. 241.

(2) Yossef Barslevsky, Did You Know the Land? : The Galilee and the Northern Valleys, Volume A, Ein Harod, Israel: Hakibbutz Hameuhad, 1940, p. xi (Hebrew)

(٣) هآرتز ١٣ تموز ١٩٩٤ .

(٤) هكذا جاء وصف المناظرة في إحدى الصحف اليوميّة : «ادّعى بابيه أنّ الصهيونيّة حركة كولونيالية ، قائلًا إنّ المساواة بين الأمرين صار شائعًا في إسرائيل ، وذلك لأنّ المنتمين إلى الصهيونيّة هم أساتذة في الجامعات الإسرائيلية .» والنتيجة كانت مناظرة تميل أكثر إلى الجوانب النظريّة . «أيمكن أن يكون هذا أمرًا مملًا؟ كيف وإن علمت أنّ أكثر من ٦٠٠ شخص ملأوا قاعة الجامعة تاركين تلك المبارة التي أنهت فيها بلغاريا حلم ألمانيا في كأس العالم؟» تسفي غيلات ، إيديعوت أحرونوت ، ١٣ تموز ١٩٩٤ .

(٥) انظر لمزيد من التفصيل كتابي :

Out of the Frame: The Struggle for Academic Freedom, London: Pluto, 2010

(6) Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man, New York: Free Press, 1992

(7) Gorny, Thoughts on Zionism as a Utopian Ideology .

(٨) جزءٌ من حملة أطلقتها وزارة المعلومات في إسرائيل تُدعى «وجوه إسرائيل» وانطلقت في العام ٢٠٠٠ .

(9) Omar Barghouti, Boycott, Divestment, Sanction: The Global Struggle for Palestinian Rights, New York: Haymarket Books, 2011.

(10) Edward Said, Orientalism, New York: Vintage, 1979, pp. 5-28. See also the discussion in Tikva Honig-Parnass, False Prophets of Peace: Liberal Zionism and the Struggle for Palestine, New York: Haymarket Books, 2011.

الفصل الأول:

التاريخ «الموضوعي» للأرض والشعب

(1) Der Wacht am Rhine and quoted in Michael Berkowitz, Zionist Culture and West European Jewry Before the First World War, Cambridge: Cambridge University Press, 1993, p. 20

(2) Naftali Arbel, ed., The Great Epochs in the History of Eretz Israel, Volume I: A Land Without People, Tel Aviv: Revivim, 1983 (Hebrew)

(3) Noam Chomsky, Hegemony or Survival: America's Quest for Global Dominance, New York: Metropolitan Books, 2003

(4) Gabriel Piterberg, The Returns of Zionism: Myths, Politics and Scholarship in Israel, London and New York: Verso, 2010, pp. 132-4. See also Yaakov Katz, Explaining the Term the Heralders of Zion, Shivat Zion, 1 (1950), p. 93 (Hebrew)

(5) Shmuel Almog, Pluralism in the History of the Yishuv and Zionism, in Moshe Zimmermann et al., ed., Studies in Historiography, Jerusalem: Zalman Shazar Centre, 1978, p. 202 (Hebrew).

(6) Israel Kolatt, On Research and the Researcher of the History of the Yishuv and Zionism, Cathedra, 1 (1976), pp. 3-35 (Hebrew).

(7) Almog, Pluralism in the History of the Yishuv and Zionism

(8) See Norman Finkelstein, Disinformation and the Palestine Question: The Not-So-Strange Case of Joan Peters From Time Immemorial, in Edward Said and Christopher Hitchens, ed., Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question, London: Verso, 1988, pp. 33-70

(9) D. F. Merriam, Kansas Nineteenth-Century Geologic Maps, Transactions of the Kansas Academy of Science, 99 (1996), pp. 95-114.

(10) J. B. Harely, Deconstructing the Map, Cartographica, 26:2 (Summer 1989), p. 1.

(11) Martin Gilbert, The Atlas of the Arab-Israeli Conflict, New York: Oxford University Press, 1993

(١٢) المصدر السابق .

(13) Ilan Pappe, A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples, Cambridge: Cambridge University Press, 2003, pp. 105-7.

(١٤) من إعداد الحكومة البريطانية في فلسطين في كانون الأول ١٩٤٥ وكانون الثاني ١٩٤٦ وقُدّم للجنة UNSCOP.

(15) Salman Abu-Sitta, Atlas of Palestine, 1948, London: Palestine Land Society, 2004

الفصل الثاني:

الغريب إذ يصبح إرهابياً: الفلسطينيون في الفكر الصهيوني

(1) Edward Said and Jean Mohr, After the Last Sky, New York: Columbia University Press, 1998, p. 4

(٢) من إخراج ميشيل بارزان للقناة الإسرائيلية الأولى بالتعاون مع مؤسسة Doc en Stock ، كانون الثاني ٢٠١٢ .

(3) Barbara Smith, Roots of Separatism in Palestine: The British Economic Policy, 1920-1948, London and New York: I. B. Tauris, 1993

(4) The Book of the Second Aliyah, Tel Aviv: Am Oved, 1947

(٥) المصدر السابق .

Mendel Zinger From Barodi to Eretz Israel, p. 128

(٦) المصدر السابق .

(٧) المصدر السابق .

Moshe Beilinson, Rebelling Against Reality, p. 48, and Ben-Gurion's anniversary speech, p.17

(٨) المصدر السابق ، Zinger, From Barodi to Eretz Israel

(٩) المصدر السابق ، Natan Hofshi, The Pioneers of Zion, p. 139

(١٠) المصدر السابق ، Yona Hurewitz, From Kibbush Ha avoda to Settlement, p. 210

(11) Natan Hofshi, A Pact with the Land, The Book of the Second Aliyah, p. 239

(12) The Book of the Second Aliyah, p. 17

(١٣) المصدر السابق ، Alexander Zaid, The Genesis, p. 169

14 Michal Sadan, The Hebrew Shepherd, PhD Thesis, Tel Aviv: Tel Aviv University, 2006

(15) Zaid, The Genesis, pp. 169-70

(١٦) المصدر السابق .

(17) Natan Shifris, The Memoirs of a Factory Worker, The Book of the Second Aliyah, p. 191

(١٨) المصدر السابق

(19) Israel Kadishman, Neither by Might, Nor by Force, The Book of the Second Aliyah, p. 293.

(20) Yossef Rabinowitch, Entries from the Rehovot Diary, The Book of the Second Aliyah, p. 234.

(٢١) المصدر السابق ، ص٢٣٥ .

(٢٢) انظر مثلًا في هذه المراجع

Yair Baumel, Blue and White Shadow: The Israeli Establishment Policy and Action, The Formative Years 1958-1968, Haifa, Israel: Pardes, 2007 (Hebrew).

(23) Ilan Pappe, The Forgotten Palestinians: A History of the Palestinians in Israel, New Haven, CT: Yale University Press, 2011, pp. 126-7.

(24) Anita Shapira, The Dove's Sword: Zionism and Force, Tel Aviv: Am Oved, 1992, (Hebrew).

(25) Marie Syrkin, A Land of Our Own: An Oral Autobiography, New York: Putnam, 1973, p. 242.

(26) Ilan Pappe, The Rise and Fall of a Palestinian Dynasty: The Husaynis, 1700-1948,

Berkeley, CA: California University Press, 2011, pp. 212-42.

(27) Shai Lachman, Arab Rebellion and Terrorism in Palestine, 1929-1939: The Case of Izz al-Din al-Qassam and His Movement, in Elie Kedourie and Sylvia Haim, ed., Zionism and Arabism in Palestine and Israel, London and New York: Frank Cass, 1982, pp. 53-69.

(٢٨) وهي نظرة جاء بها عزرا دانين أحد أبرز المستعربين في الحركة الصهيونية وأخذتها عنه أجيال من المؤرخين الإسرائيليين من بعده .

Ezra Danin, Documents and Photos from the Archives of the Arab Gangs, 1936-1939, Jerusalem: Manges, 1981 (Hebrew).

(29) Jenny Laval, Haj Amin and Berlin, Tel Aviv: Hakibbutz Hameuhad, 1996 (Hebrew).

(30) Benny Morris, 1948: A History of the First Arab-Israel War, New Haven, CT: Yale University Press, 2010.

(31) Benny Morris, Israel's Border Wars, 1949-1956: Arab Infiltration, Israeli Retaliation, and the Countdown to the Suez War, New York: Oxford University Press, 1997.

(32) Jillian Becker, The PLO: The Rise and Fall of the Palestine Liberation Organization, London: Weidenfeld and Nicolson, 1984.

(33) Morris, Israel's Border Wars.

(34) Avi Shlaim, The Iron Wall: Israel and the Arab World, New York: Norton, pp. 143-56.

(35) Ze ev Schiff and Ehud Ya ari, Intifada: The Palestinian Uprising - Israel's Third Front, New York: Simon and Schuster, 1990.

(36) Yehoshua Porath, The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1918-1929, London: Frank Cass, 1974, and The Palestinian Arab National Movement, 1929-1939, London: Frank Cass, 1977.

(37) Yehoshafat Harkabi, Arab Attitudes to Israel, New York: Wiley and Sons, 1974, p. 1.

(38) Matti Steinberg, Unending Quest: The Development of Palestinian National Consciousness, Tel Aviv: Dekel, 2000.

(39) Moshe Shemesh, The Palestinian Entity, 1959-1974: Arab Politics and the PLO, London: Frank Cass, 1988; Avraham Sela, The Decline of the Arab-Israeli Conflict: Middle East Politics and the Quest for Regional Order, Albany, NY: State University of New York Press, 1997; and Shaul Mishal, The PLO Under Arafat: Between Gun and Olive Branch, New Haven, CT: Yale University Press, 1986.

(40) Noam Chomsky, Powers and Prospects: Reflections on Human Nature and the Social Order, New York: South End Press, 1999.

(41) Pappe, Forgotten Palestinians, pp. 50-63.

(42) Sammy Smooha, Arab-Jewish Relations, Ephrain Yaari and Zeev Shavit, eds, Trends in Israeli Society, Tel Aviv: Open University, 2001, p. 238 (Hebrew).

(43) Sammy Smooha, Israel, Pluralism and Conflict, Berkeley, CA: University of California Press, 1978, p. 31.

(44) Sammy Smooha, The Orientation and Politicisation of the Arab Minority in Israel, Haifa, Israel: The Arab-Jewish Centre, 1984.

(45) Uri Ram, The Changing Agenda of Israeli Sociology: Theory, Ideology and Identity, New York: State University of New York Press, 1994.

(46) Calvin Goldscheider and Dov Friedlander, Reproductive Norms in Israel, in Usiel Oskar Schmelz and Gad Nathan, ed., Studies in the Population of Israel, Volume 30, Jerusalem: Magnes Press, 1986, pp. 15-35.

(47) Elia Zureik, Prospects of the Palestinians in Israel: A Review Article, Journal of Palestine Studies, Part I, 22: 2 (Winter 1993), pp. 90-109 and Part II, 22: 4 (Summer 1993), pp. 73-93.

الفصل الثالث:

حرب العام ١٩٤٨ بالكلمة والصورة

(1) Netanel Lorch, The Edge of the Sword: Israel's War of Independence, 1947-1949, New York: Textbook Publishers, 2003, p. 1.

(٢) المصدر السابق ، وانظر كذلك :

Alon Kadish, ed., Israel's War of Independence, 1948-1949, volumes I-II, Tel Aviv: Ministry of Defence Publications, 2004 (Hebrew).

(3) Porath, The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement.

(4) Shemesh, The Palestinian Entity.

(5) Lorch, The Edge of the Sword; Jon and David Kimche, Both Sides of the Hill: Britain and the Palestine War, London: Secher and Warburg, 1960.

(6) Gershon Rivlin and Elhanan Oren, ed., The War Diary, 1948, Volume I, Tel Aviv: Ministry of Defence Publication, 1982, p. 9 (Hebrew).

(7) The Hebrew Encyclopaedia, Volume Six.

(٨) المصدر السابق .

(9) Anita Shapira, Walking Along the Horizon, Tel Aviv: Am Oved, 1989, p. 54 (Hebrew).

(10) Ben-Zion Dinur's introduction in the opening pages of Yehuda Slutzky, The History of the Hagana, volumes I-III, Tel Aviv: Ministry of Defence Publication, 1982.

(11) Cathedra, 1 (1976).

(12) Amiztur Ilan, The Prophecy of a Jewish State and Its Realisation, 1941-1949, Ha-Ziyonut, 10, p. 279 (Hebrew).

(13) Michael Cohen, Palestine and the Great Powers, 1945-1948, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1982; Ilan Pappe, Britain and the Arab-Israeli Conflict, 1948-1951, London: Macmillan, 1988.

(14) David Ben-Gurion, When Israel Went to War, Tel Aviv: Am Oved, 1975 (Hebrew).

(15) David Greenberg, The Cinema, Tel Aviv: Am Oved, 1967, p. 212 (Hebrew).

(16) Nurith Gertz, Hirbet Hiza a and The Morning After, Tel Aviv: Hakibbutz Hameuhad, 1983, p. 168 (Hebrew).

(17) Nurith Gertz, A Story from the Movies, Tel Aviv: Open University Press, 1993, p. 21 (Hebrew).

(١٨) من إخراج ثورولد ديكنسون عام ١٩٥٥ ، وانظر نقدًا للفيلم في :

Ella Shohat, Israel: Cinema: East/West and the Politics of Representation, Austin, TX: University of Texas Press, 1989, pp. 58-64.

(19) Gilbert, Atlas of the Arab-Israeli Conflict.

(٢٠) «كانوا عشرة فقط» من إخراج باروخ دينار ١٩٦١ .

(21) Shohat, Israeli Cinema, pp. 70-1.

(٢٢) وقد تناولت هذا القرار البريطاني في كتابي : Pappe, Britain and the Arab-Israeli Conflict

(٢٣) إخراج يوسي ميلو ١٩٦٧ .

(24) Shohat, Israeli Cinema, pp. 120-1.

(٢٥) إخراج ناثن أكسلرود ١٩٦٣ .

(٢٦) والتز مع بشير من إخراج أري فلومان ، أما حرّاس البوّابة فمن إخراج درور موريه .

(٢٧) الفيلم من إخراج مناحيم غولان ويقوم الفيلم أصلًا على قصّة من قصص الأطفال كتبتها يميما أفيدار وهي من كتّاب قصص الأطفال المشهورين ، وكان الشرّير في القصّة الأصلية ألمانيًا ، أما في الفيلم فكان النازيّ والعربيّ .

(٢٨) من إخراج غيل سادان عام ١٩٩٨ .

(٢٩) من إخراج نيسيم دايان عام ١٩٨٩ .

الفصل الرابع:

روّاد ما بعد الصهيونية

(1) Daniel Florentine, Conversations with Maxim Ghilan, Tel Aviv: Yaron Golan Publication, 1998 (Hebrew).

(٢) المصدر السابق .

(3) Eli Aminov, Judaism, Zionism and Israel Shahak, in Haoketz (Haoketz.org), (1 December 2011). See also, The Life of Death: An Exchange, by Israel Shahak with a reply by Timothy Garton Ash, New York Review of Books, 34:1, (29 January 1987), and Morton Nezvinsky, In Memoriam: Israel Shahak, Washington Report on Middle East Affairs, (August/September 2001).

(4) Israel Shahak, Jewish History, Jewish Religion, London: Pluto, 2010.

(٥) المصدر السابق ص ٧٩ و٨٩ .

(٦) المصدر السابق ص١٢٥ .

(٧) في العام ٢٠١٠ أصدار إيفرون كتابًا عن حياته وإنجازاته بعنوان «Athens and the Land of Oz» أمّا عن الحركة الكنعانية فانظر :

Yaacov Shavit, The New Hebrew Nation, London and New York: Routledge, 1987.

(٨) يديعوت أحرونوت ، ٨ كانون الأول ١٩٧٨ ، وأعيد نشره المقالة في كتابه إيفرون سابق الذكر

(٩) Avraham Shapira, Conversations Between Soldiers, Tel Aviv: The Kibbutz Movement, 1967 وانظر تحليل ذلك أيضًا في Piterberg, The Returns of Zionism, pp. 232-333

(10) Boaz Evron, A National Reckoning, Tel Aviv: Devir Publications, 1988

(١١) وقد قال ذلك في المؤتمر الثاني للحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي عام ١٩٠٣ . انظر :

Index Books, London, 1978.

(12) Evron, A National Reckoning, pp. 328-32.

(١٣) ليس هنالك العديد من المصادر عن حياة هذا المفكّر الأريب عدا ما جاء في مقالة عنه في نيويورك تايمز (١٩ آب ١٩٩٤) بعنوان «Yeshayahu Leibowitz, 91, Iconoclastic Israeli Thinker» . أمّا

كتابه الأهمّ باللغة الإنجليزيّة فهو : Judaism, Human Values and the Jewish State, Cambridge,

MA : Harvard University Press, 1995 ، وله كتاب صدر بعدها بعام عن موسى بن ميمون .

(14) Yeshayahu Leibowitz, After Qibiya, Beterm, 1953/1954 (in Hebrew).

(١٥) المصدر السابق .

(١٦) وقد تجد هذه الأفكار في فيلم «حراس البوابة» ٢٠١٢ من إخراج درور موريه .

(١٧) هآرتز ٢٨ أيلول ٢٠١٢ ، إسحاق لاؤور :

Israel the Grandfather, and Also a Scientist and a Hero Who Abhorred Heroism

(18) Yeshayahu Leibowitz, Faith, History and Values, Jerusalem: Magnes, 1982, p. 225 (Hebrew).

(١٩) المصدر السابق

(20) Uri Avnery, In the Fields of the Philistines, Tel Aviv: Zemora-Bitan, 1990 (Hebrew).

(21) Uri Avnery, The Other Side of the Coin, Tel Aviv: Shimoni Publications, 1950 (Hebrew).

(22) Nitza Erel, Uri Avnery: Without Bias and Without Fear, Jerusalem: Magnes Publications, 1990 (Hebrew).

(23) Akiva Orr, How Did I Arrive at Politics, the Communist Party and Matzpen, matzpen.org, (1 September 2008) (Hebrew).

(24) Avigail Abarbanel, Beyond Tribal Loyalties: Personal Stories of Jewish Peace Activists, Newcastle, UK: Cambridge and Scholars Publishing, 2012.

25 Akiva Orr with Moshe Machover, Peace, Peace and No Peace, Tel Aviv: Matzpen, 1950.

هنالك نسخة إنجليزية محدودة يمكن الولوج إليها في موقع أور للكتب

akivaorrbooks.org/Hebrew بعنوان The Un-Jewish State: The Politics of Israel.

(26) Michael Warschawski, On The Border, Tel Aviv: Carmel, 1989 (Hebrew)

وصدر الكتاب كذلك بالإنجليزية بالعنوان ذاته مع دار South End عام ٢٠٠٥ .

(27) Ilan Halevi wrote a semi-autobiographical novel, Allers-retours, Paris: Flammarion, 2005.

(28) Uri Davis, Crossing the Border: An Autobiography of an Anti-Zionist Palestinian Jew, London: Books & Books Ltd, 1995.

(29) Uri Davis, Apartheid Israel: Possibilities for the Struggle Within, London: Zed Books, 2004.

(٣٠) وقد حدث هذا أيضًا مع سمادار لافي الذي عمل في عدّة جامعات إسرائيلية قبل أن يجد نفسه مرغمًا على المغادرة .

(31) Nitza Erel, Matzpen: The Conscience and the Fantasy, Tel Aviv: Resling, 2010 (Hebrew) . ولاحظ أنّ كلمة Matzpen بمعنى بوصلة وكلمة Matzpun بمعنى ضمير ترجعان إلى جذر واحد في العبريّة

(32) Ran Greenstein, Class, Nation, and Political Organization: The Anti-Zionist Left in Israel/Palestine, International Labour and Working-Class History, 75 (Spring 2009), pp. 85-108.

(33) Yitzhak Rubin (director), Udi Adiv, A Broken Israeli Myth, 2010 (Teknews Media Ltd).

(34) Uriel Tal, Reciprocity Between General and Jewish History, Yahdaut Zemanenu 3 (1986), pp. 3-12.

(٣٥) لعل أفضل المراجع التي تتحدث عن هذه الحركة في إسرائيل كتاب :

Sami Shalom Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel: White Jews, Black Jews, London and New York: Routledge, 2009, pp. 81-140

واقرأ ملاحظاته التي كتبها عن إبيرغال في الصفحات ١٠٠ حتى ١٠٠٧ .

(36) Ilan Pappe, A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples, 2nd edition, Cambridge: Cambridge University Press, 2006, pp. 211-13

(37) Shmuel Noah Eisenstadt, Introduction to the Social Structure of the Mizrachi Communities, Jerusalem: The Szold Institute, 1948; The Social Structure of Israel, Beit Berl Publications, 1958; The Israeli Society: Background, Development and Problems, Jerusalem: Magnes, 1967; and The Transformations in Israeli Society, Jerusalem: Magnes, 1989.

وبالرغم من أنّ العديد من كتبه حول التحديث في دول أخرى وحول نظرية التحديث قد ترجمت إلى الإنجليزية ، إلا أنّ هذا الأخير الذي يتحدث عن إسرائيل هو ما ترجم إلى الإنجليزية حتى الآن فقط

(38) Sholmo Svirsky, Notes on the Historical Sociology of the Yishuv Period, in Uri Ram, ed., Israeli Society: Critical Perspectives, Tel Aviv: Breirot, 1993, p. 80

(٣٩) المصدر السابق ، وانظر أيضًا :

Sammy Smooha, Class, Ethnic and National Cleavages and Democracy in Israel, in Uri Ram, Israeli Society, pp. 172-202 (Hebrew).

(40) Smooha, Class, Ethnic and National Cleavages and Democracy in Israel, p. 183.

(41) Baruch Kimmerling, Zionism and Territory: The Socio-Territorial Dimensions of Zionist Politics, Berkeley, CA: University of California Press, 1983

ولشابيرا كتاب في غاية الأهمّية في هذا الصدد بعنوان :

Elite Without Successors: Generations of Leaders in the Israeli Society, Tel Aviv: Poalim, 1984

(42) Yonathan Shapira, The Historical Origins of Israeli Democracy, in Uri Ram, Israeli Society, p. 52 (Hebrew).

(43) Baruch Kimmerling, State-Society Relations in Israel, in Uri Ram, Israeli Society, p. 336 (Hebrew).

(44) Shapira, Elite Without Successors.

(45) Baruch Kimmerling's last book was Politicide: The Real Legacy of Ariel Sharon, London: Verso, 2006.

(46) Erel, Matzpen

(47) Maxime Rodinson, Israel: A Colonial-Settler State?, New York: Monad Press, 1973.

(48) Anita Shapira, Visions in Conflict, Tel Aviv: Am Oved, 1988 (Hebrew).

(49) Ran Aaronson, Settlement in Eretz Israel - A Colonialist Enterprise? Critical Scholarship and Historical Geography, Israel Studies, 1:2 (Fall 1996), pp. 214-29.

(50) Gershon Shafir, Land, Labour, and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict, New York: Cambridge University Press, 1989.

(51) Deborah S. Bernstein, Constructing Boundaries: Jewish and Arab Workers in Mandatory Palestine, Albany, NY: State University of New York Press, 2004; David De Vries, Diamonds and War: State, Capital and Labour in British-Ruled Palestine, London: Berghahn Books, 2010.

الفصل الخامس:

الاعتراف بالمأساة الفلسطينية نظرة جديدة على حرب ١٩٤٨

(١) جمعت هذه المعلومات من مقالة كتبها شاي هازكاني بعنوان «البحوث التي أثبتت أنّ العرب قد هاجروا عام ١٩٤٨» والتي نشرت في هآرتز في ملحق نهاية الأسبوع في ١٧ أيار ٢٠١٣ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(5) Rony Gabbay, A Political Study of the Arab-Jewish Conflict: The Arab Refugee Problem, Geneva: Librarie Droz, 1959.

(٦) هازكاني «البحوث التي أثبتت أنّ العرب قد هاجروا عام ١٩٤٨» .

(٧) المصدر السابق .

(8) Noam Chomsky and Ilan Pappe, The War on Gaza, Penguin: London, 2010, pp. 19-56.

(9) Simha Flapan, The Birth of Israel: Myths and Realities, New York: Pantheon Books, 1988, pp. 3-6.

(١٠) المصدر السابق .

(١١) المصدر السابق .

(١٢) المصدر السابق .

(١٣) المصدر السابق ص٣٣ .

(١٤) المصدر السابق ص٥٥-٨١ .

(١٥) المصدر السابق ٨٢-١١٨ .

(16) Israel Baer, Israel's Security: Yesterday, Today and Tomorrow, Tel Aviv: Maarachot, 1966 (Hebrew).

(17) Flapan, The Birth of Israel, p. 19.

(١٨) المصدر السابق .

(١٩) المصدر السابق ص ١١٩-١٥٢ .

(٢٠) المصدر السابق ١٥٢-١٨٧ ،

(٢١) المصدر السابق ١٨٧-٢١٢ .

(22) Benny Morris, The New Historiography, Tikkun, 3, (November/December 1989), pp. 19-35, reprinted in Benny Morris, 1948 and After, Oxford: Clarendon Press, 1990, pp. 1-34.

(٢٣) ظهرت النسخة الإنجليزية من النقد الذي قدّمه شباتي تيفيث بمقالة بعنوان «Charging Israel with Original Sin» في مجلة Commentary في أيلول ١٩٨٩ . وتجد عرضًا جيدًا عن تلك الفترة في ما كتبه آفي شلايم حول العام ١٩٤٨ وذلك في :

Ilan Pappe, ed., The Israel/Palestine Question: A Reader, London and New York: Routledge, 1999 (2006), pp. 287-304.

(٢٤) انظر محاضرة أهارون شاي وديفد تال عن التاريخ الجديد في مؤتمر معهد فان لير بعنوان «التاريخ الجديد في إسرائيل» آذار عام ١٩٩٦ .

(25) Avi Shlaim, Collusion Across the Jordan: King Abdullah, The Zionist Movement and the Partition of Palestine, Oxford: Clarendon Press, 1988, pp. iii-vi.

(٢٦) المصدر السابق .

(27) Pappe, Britain and the Arab-Israeli Conflict, 1948-51.

(٢٨) المصدر السابق .

(29) Pappe, Britain and the Arab-Israeli Conflict, pp. 26-7.

(30) Ilan Pappe, The Making of the Arab-Israeli Conflict, 1947-1951, London and New York: I.B. Tauris, 1992.

(٣١) المصدر السابق .

(32) Pappe, The Making of the Arab-Israeli Conflict, pp. 16-46.

(33) Walid Khalidi, Plan Dalet: Master Plan for the Conquest of Palestine, Journal of Palestine Studies, 18:69 (Autumn 1988), pp. 4-20.

(34) Ilan Pappe, Were They Expelled?: The History, Historiography and Relevance of the Refugee Problem, in Ghada Karmi and Eugene Cortan, ed., The Palestinian Exodus, 1948-1988, London: Ithaca Press, 1999, pp. 37-62.

(35) Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine, London: Oneworld, 2006, pp. 1-10.

(36) Shlaim, The Iron Wall.

(37) Tom Segev, 1949: The First Israelis, New York: Owl Books, 1998.

(38) Meron Benvenisti, Sacred Landscape: The Buried History of the Holy Land Since 1948, Berkeley, CA: University of California Press, 2002.

(39) Meron Benvenisti, Sons of Cypresses: Memories, Reflections and Regrets From a Political Life, Berkeley, CA: University of California Press, 2007.

(٤٠) انظر .Ilan Pappe, Out of the Frame

الفصل السادس:

بروز الأكاديميا مابعد الصهيونية ١٩٩٠-٢٠٠٠

(١) يمكن العثور على إشارة عابرة بشأن هذا المؤتمر في :

Zionism: A Contemporry Controversy ، deh Boker, Israel: The Ben Gurion Heritage Centre, 1996, p. 8 (Hebrew)

(٢) من المفيد الرجوع إلى كتاب (Flase Prophets) لمؤلفه (Honig-Parnass) و كتاب (The Challenge of Post-Zionism: Alternatives to Fundamentalist Politics in Israel, London: Zed Books, 2003)

(3) Lawrence Stone, The Past and Present Revisited, London: Longman, 1989, p. 8.

(4) Hanan Hever, The Post-Zionist Situation, in Gil Eyal, ed., Four Lectures on Critical Theory, Jerusalem: Van Leer, 2012, pp. 73-94 (Hebrew).

(5) Edward Said, New History, Old Ideas, Al-Ahram Weekly, (21-7 May 1998).

(٦)

(٧)

(8) Perry Anderson, Scurrying Towards Bethlehem, New Left Review, 10, (July/August 2001), p. 11.

(9) Oren Yiftachel, Ethnocracy and Geography: Territory and Politics in Israel/ Palestine, Middle East Report, geog.bgu.ac.il/members/yiftachel/paper3.html

(10) Sarah Ozacky-Lazar, The Military Rule as a Mechanism of Control of the Arab Citizens, Hamizrah Hahadash, 42, (2002), pp. 57-69 (Hebrew).

(11) Dan Rabinowitz, Natives with Jackets and Degrees: Othering, Objectification and the Role of the Palestinians in the Co-existence Field in Israel, Social Anthropology, 9: 1, (2000), p. 76.

(12) Hillel Cohen, The Present Absentees: The Palestinian Refugees in Israel Since 1948, Jerusalem: Van Leer Institute, 2000 (Hebrew); Yoav Peled and Nadim Rouhana, Transitional Justice and the Right of Return of the Palestinian Refugees, Theoretical Inquires in Law, 5:2, (2004), pp. 317-32.

(13) Sharon Groves, Interview with Marcia Freedman, Feminist Studies, (22 September 2002).

(14) Yuval Yonay, A Queer Look at the Palestinian-Jewish Conflict, Theory and Criticism, 19, (Autumn 2001), pp. 269-75 (Hebrew).

(15) Eyal Gross, Theo Meintz is Gone, from his blog Eyalgross.com/blog, (14 June 2013) (Hebrew).

(16) Michael Shalev, Labour and the Political Economy in Israel, New York: Oxford Uni-

versity Press, 1992; and Jonathan Nitzan and Shimshon Bichler, The Global Political Economy of Israel, London: Pluto, 2002.

(17) Baruch Kimmerling, State Building, State Autonomy and the Identity of the Society - the Case of Israel, Journal of Historical Sociology, 6:4, (December 1993), pp. 369-429.

(18) Yael Zerubavel, Recovered Roots: Collective Memory and the Making of Israeli National Tradition, Chicago: Chicago University Press, 1995.

(19) Nachman Ben-Yehuda, The Masada Myth: Collective Memory and Mythmaking in Israel, Madison, WI: Wisconsin University Press, 1995.

(20) Shlomo Sand, The Invention of the Jewish People, New York: Verso, 2009; Piterberg, The Returns of Zionism.

(21) Amnon Raz-Karkozkin, Exile Within Sovereignty: Towards a Critique of the Negation of Exile in Israeli Culture, parts 1-2, Theory and Criticism, 4/5, (1993/94), pp. 23-56 and pp. 113-32 respectively (Hebrew).

وانظر كذلك لنقاش مفصل حول هذه المقالات .The Returns of Zionism, pp. 127-30

(22) Gur Elroi, Immigrants: Jewish Immigration to Eretz Israel, Jerusalem: Yad Ben Zvi, 2004 (Hebrew).

(23) Zeev Sternhell, The Founding Myths of Israel: Nationalism, Socialism, and the Making of the Jewish State, Princeton, NJ: Princeton University Press, 1998.

(24) Lev Greenberg, The Arab-Jewish Drivers Union Strike, 1931: A Contribution to the Critique on the National Conflict Sociology, in Ilan Pappe, ed., Jewish-Arab Relations in Mandatory Palestine: A New Approach to the Historical Research, Givat Haviva: The Institute of Peace Research, 1995 (Hebrew); David De Vries, Idealism and Bureaucracy: The Roots of Red Haifa, Tel Aviv: Hakibbutz Hameuhad, 1999 (Hebrew); Deborah S. Bernstein, Constructing Boundaries.

(25) Shulamit Carmi and Henry Rosenfeld, The Emergence of Militaristic

Nationalism in Israel, International Journal of Politics, Culture and Society, 3: 1, (1989), pp. 5-49.

(26) Uri Ben-Eliezer, The Making of Israeli Militarism, Bloomington, IN: Indiana University Press, 1998.

(27) Yagil Levy, Israel's Materialist Militarism, New York: Lexington Books, 2007.

(28) Hagit Gur-Ziv, Statements on Silence: The Silence of Israeli Society in the Face of the Intifada, Tel Aviv: The Centre for Peace, 1989 (Hebrew); Nurit Peled- Elhanan, Palestine in Israeli School Books: Ideology and Propaganda in Education, London and New York: I.B. Tauris, 2012; Diana Dolev, Academia and Spatial Control: The Case of the Hebrew University Campus on Mount Scopus, Jerusalem, in Haim Yacobi, Constructing a Sense of Place: Architecture and the Zionist Discourse, London: Ashgate, 2004, pp. 227-45.

ومن الشخصيات الرائدة كذلك (Rela Mazali) ومن كتاباتها الأخيرة في هافنتغتون بوست في ٢٥ حزيران ٢٠١٠ مقالة بعنوان «A Call for Liveable Futures» .

(29) Uri Ram, Israeli Society.

(٣٠)

(31) Shoshana Madmoni-Gerber, Israeli Media and the Framing of Internal Conflict: The Yemenite Babies Affair, New York: Palgrave Macmillan, 2010.

(٣٢) لقراءة أعمال إفرات باللغة الإنجليزية انظر الكتاب المشترك بين ثلاثة من المؤلفين :

Meron Benvenisti, Nadav Harel, Gideon Levy et al., A Civilian Occupation: Th Politics of Israeli Architecture, London: Verso, 2003

(33) Alexander Kedar, The Legal Transformations of Ethnic Geography: Israeli Law and the Palestinian Landholder, 1948-1967, Journal of International Law and Politics, 33: 4, (2001), pp. 923-1,000.

(34) Haim Bereshit, Givat Aliya as a Metaphor: Three Aspects, Theory and Criticism, 16, (2000), pp. 233-8 (Hebrew).

(35) Ilan Gur-Ze ev, The Thirty-First Floor: The University Tower and the Phallocentrism of Zionism, Theory and Criticism, 16, (2000), pp. 239-43

(Hebrew).

(36) Jonathan and Daniel Boyarin, Powers of Diaspora: Two Essays on the Relevance of Jewish Culture, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 2002; and for more on Hever, see Honig-Parnass, False Prophets, p. 197.

(37) Sharon Rotbard, White Cities, Black Cities, Tel Aviv: Babel, 2005 (Hebrew).

(38) John Arthur and Amy Shapiro, ed., Campus Wars: Multiculturalism and the Politics of Difference, Boulder, CO: Westview, 1994.

(٣٩) انظر مـقـالة (Tamara Traubman) بعنوان «The Ratio of Mizrachim in the Academia» في صحيفة هآرتز ١٨ تشرين أول ٢٠٠٧ وهنالك تقديرات أقلّ أشار إليها (Yifat Biton) في مقابلة مع صحيفة Makor Rishon في ٢٠ أيار ٢٠١١

(40) Mira Ariel and Rachel Giora, An Analysis of Impositive Speech Acts: Gender Biases in the New Israeli Cinema Discourse, in Nurith Gertz, Orly Lubin and Judd Ne eman, eds, Fictive Looks: On Israeli Cinema, Tel Aviv: Open University Press, pp. 179-204 (Hebrew).

(٤١) من ورقة لها في مؤتمر AAUP حول المقاطعة الأكاديمية في شباط عام ٢٠٠٦ ويمكن الاطلاع عليها في الموقع الرسمي aaup.org

42 Anat Matar, Israeli Academics Must Pay Price to End Occupation

في هآرتز ٢٧ آب ٢٠٠٩ .

الفصل السابع:

ذكرى الهولوكوست في إسرائيل

(1) Noam Chomsky, Fateful Triangle: The United States, Israel, and the Palestinians, Cambridge, MA: Southend, 1999, p. 99

(2) Avraham Burg, The Holocaust Is Over: We Must Rise from Its Ashes, New York: Pal-

grave Macmillan, 2009, p. 252.

(3) Israel Shahak, letter to the editor, Kol Ha ir, (19 May 1989).

(٤) المصدر السابق .

(5) Shahak, Jewish History, p. 71.

(6) Israel Shahak and Norton Mezvinzky, Jewish Fundamentalism in Israel, London: Pluto, 2004, p. 105 and in Jewish History, p. x.

(7) Shahak, Jewish History, p. 71

(٨) وقد تكررت هذه الأفكار بالإنجليزية في مقالة لإيفرون في مجلة الدراسات الفلسطينية بعنوان «The Holocaust: Learning the Wrong Lessons» أما الاقتباس فأخذ عن العبرية في مجلة Iton من مقالة لإفرون بعنوان «الهولوكوست- خطر على الشعب» العدد ٧٧ (أيار/حزيران ١٩٨٠) .

(٩) المصدر السابق .

(١٠) المصدر السابق .

(١١) Yehuda Elkana, In Favour of Amnesia في هآرتز ، ٢ آذار ١٩٨٨ .

(١٢) المصدر السابق .

(١٣) المصدر السابق .

(١٤) انظر بالإنجليزية «The Politics of Memory» في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس ، في ٧ تشرين أول ١٩٩٣ .

(15) Peter Novick, The Holocaust in American Life, Boston: Mariner Books, 1999; Norman Finkelstein, The Holocaust Industry: Reflections on the Exploitation of Jewish Suffering, London: Verso, 2003; and Lenni Brenner, Zionism in the Age of Dictators, Westport: Lawrence Hill and Co, 1983

(16) Novick, The Holocaust in American Life, p. 10.

(17) Finkelstein, The Holocaust Industry, p. 47.

(18) Tom Segev, The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust, New York: Picador, 2000

كما يمكن الاطلاع على استنكار أشدّ صراحة في مقالة لموشيه زيمرمان في هآرتز بعنوان «The Zionist Di-lemma» في ٢٨ تشرين أول ٢٠٠٤ .

(19) Brenner, Zionism in the Age of Dictators, p. 125.

(20) Segev, The Seventh Million, p. 33.

(٢١) المصدر السابق

(22) Hava Eshkoli-Wagman, Yishuv Zionism: Its Attitude to Nazism and the Third Reich Reconsidered, Modern Judaism, 19: 1, (February 1999), pp. 25-6.

(٢٣) المصدر السابق

٢٤ نشر كتبه في ألمانيا ثم نقلت إلى العبريّة ، وق دتجد أحدث آرائه في كتاب بالعبرية بعنوان «ألمان ضد ألمان: مصير اليهود ، ١٩٣٨-١٩٤٥» تل أبيب ، آم أوفيد ، ٢٠١٣ .

(٢٥) ادّعت صحيفة يروشاليم التابعة لإيديعوت أحرونوت أنّ زيمرمان قد قارن المستوطنين الشباب بحركة شبيبة هتلر (٢٢ أيلول ١٩٩٥) فرفع زيمرمان قضيّة ضدّ الصحيفة غير أنّه خسرها في ٣ شباط ٢٠٠٥

(26) Brenner, Zionism in the Age of Dictators.

(٢٧) المصدر السابق ص٩٣ .

(28) Joseph Massad, The Last of Semites, Al Jazeera English, (21 May 2013).

(29) Brenner, Zionism in the Age of Dictators, p. 93 and Segev, The Seventh Million, p. 31.

(٣٠) المصدر السابق .

(31) David Ben-Gurion's Speech, Labour Party Archives, Beit Berl, Mapai Secretariat, (7 December 1938).

(32) Segev, The Seventh Million, p. 83.

(33) The Seventh Million: The Israelis and the Holocaust, directed by Benny Brunner, 1995.

(34 Marek Edelman, Resisting the Holocaust: Fighting Back in the Warsaw Ghetto, London: Ocean, 2004; Idith Zertal, Israel's Holocaust and the Politics of Nationhood, Cambridge: Cambridge University Press, 2005.

(35) Benedict Anderson, Imagined Communities, London: Verso, 1983; Eric

Hobsbawm and Terence Ranger, The Invention of Tradition, Cambridge: Canto Books, 1983.

(36) Edelman, Resisting the Holocaust.

(37) Zertal, Israel's Holocaust and the Politics of Nationhood, p. 35.

(٣٨) المصدر السابق ص٥٤-٥٦ .

(٣٩) المصدر السابق .

(40) Anderson, Imagined Communities, p. 57.

(41) Primo Levi, The Drowned and the Saved, New York: Abacus, 1988, pp. 78-85.

(42) Zertal, Israel's Holocaust and the Politics of Nationhood, p. 27.

(٤٣) المصدر السابق .

(44) Hannah Arendt, Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil, New York: Viking, 1968.

(٤٥) انظر :

Yair Auron, The Banality of Indifference: Zionism and the Armenian Genocide, New York: Transactions Publishers, 2001.

(46) Ilan Gur-Ze ev, The Morality of Acknowledging/Not-acknowledging the Other's Holocaust/Genocide, Journal of Moral Education, 27:2, (1998), p. 161.

(47) Adi Ofir, On Hidush Ha-Shem : The Holocaust as an Anti-Theological Tract, Politika, 8, (1986), pp. 4-5 (Hebrew). Hilul Ha-Shem means sacrilegious. Ha-Shem is one of God's names, and Hidush means Renewal.

(٤٨) انظر : Eyal Sivan, Yizkor .

(49) Nurith Gertz, The Early Israeli Cinema as Silencer of Memory, Shofar: An Interdisciplinary Journal of Jewish Studies, 24:1, (Fall 2005).

(٥٠) المصدر السابق .

(٥١) انظر التلخيص المتميّز الذي كتبه ملتون فيروست في مجلة الدراسات الفلسطينية بعنوان «After the Fact: A Review of The Seventh Million» (شتاء ١٩٩٥) صفحة ٩٤ وانظر أيضًا كتاب

سغيف، المليون السابع ص١٢٣-١٤٠ .

(52) Hanna Yablonka, The Development of Holocaust Consciousness in Israel: The Nuremberg, Kapos, Kastner, and Eichmann Trials, Israel Studies, 8:3, (Fall 2003).

(53) Idith Zertal, From Catastrophe to Power: The Holocaust Survivors and the Emergence of Israel, Berkeley, CA: University of California Press, 1998.

(54) Yosef Grodzinsky, Good Human Material: Jews Against Zionists, 1945-1951, Tel Aviv: Maariv, 1998 (Hebrew).

(٥٥) انظر في : Pappe, The Making of the Arab-Israeli Conflict, 1947-1951, p. 31.

(56) Grodzinsky, Good Human Material.

(57) Aviva Halamish, The Exodus Affair: Holocaust Survivors and the Struggle for Palestine, Albany, NY: Syracuse University Press, 1998.

(58) M. M. Silver, Our Exodus: Leon Uris and the Americanisation of Israel's Founding Story, Detroit, MI: Wayne State University Press, 2010.

(٥٩) انظر Pappe, The Making of the Arab-Israeli Conflict, 1947-1951, pp. 24-5.

(60) Arendt, Eichmann in Jerusalem, p. 229

(٦١) انظر الاقتباس والنقاش في :

Nicholas Patruno, Understanding Primo Levi, Miami, FL: University of South California Press, 1995, p. 122.

(٦٢) انظر :

Yablonka, The Development of a Holocaust Consciousness in Israel and Zertal, Israel's Holocaust and the Politics of Nationhood, pp. 69-71.

(٦٣) المصدر السابق ص١٩٦-١٩٨ .

(٦٤) اقتباس في مقابلة معه مع يديعوت أحرونوت في ١٨ حزيران ١٩٨٢ .

(٦٥) أموس أوز «Hitler is Already Dead Mr. Prime Minister» في يديعوت أحرونوت في ٢١ حزيران ١٩٨٢ .

(66) Novick, The Holocaust in American Life, p. 158.

(67) Gur-Ze ev, The Morality of Acknowledging/Not-acknowledging the Other's Holocaust/ Genocide .

68 Moshe Zuckermann, Shoah in the Sealed Room: The Holocaust in the Israeli Press During the Gulf War, Tel Aviv: self-publication 1993 (Hebrew).

(٦٩) وقد أقيم هذا الحفل هذه السنة أيضًا في المدرسة .

الفصل الثامن:

فكرة إسرائيل واليهود العرب

(1) Yehouda Shenhav, The Jews of Iraq, Zionist Ideology, and the Property of the Palestinian Refugees of 1948: An Anomaly of National Accounting, International Journal of Middle East Studies, 31:4 (November 1999), pp. 605-30.

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص٦٠٥ .

(٥) انظر بالإنجليـزية Remembering Baghdad Elsewhere: An Emotional Cartography في مـوقع جدلية Jadaliyya.com في ١ نيسان ٢٠١٣ .

(6) Ariella Azoulay, Mother Tongue, Father Tongue, Yigal Nizri, ed., Eastern Appearances: Mother Tongue, Tel Aviv: Babel, 2004, p. 160 (Hebrew).

(7) Smooha, Israel: Pluralism and Conflict, p. 88. See also the apologetic article by Meyrav Wumser, Post-Zionism and the Sephardi Question, Middle East Quarterly, 12:2, Fall 2005, pp. 21-30.

(٨) ورد الاقتباس في :

Sammy Smooha, Israel: Pluralism and Conflict, Berkeley, CA: University of California Press, 1978.

(٩) ورد الاقتباس في :

Sami Shalom Chetrit, The Mizrachi Struggle in Israel, Between Oppression and Liberation, Identity and Alternative, 1948-2003, Tel Aviv: Am Oved, 2004, p. 65 (Hebrew).

(١٠) ورد الاقتباس في .Smooha, Israel: Pluralism and Conflict, p. 88

(١١) أريا جالبلوم في هآرتز ٢٢ نيسان ١٩٤٩ .

(12) Ilan Pappe, Edward Said's Impact on Post-Zionist Critique in Israel, Adel Iskandar and Hakem Rustom, ed., Edward Said: A Legacy of Emancipation and Representation, Berkeley, CA: University of California Press, 2010, pp. 321-2.

(13) Eli Avraham, The Media in Israel: Centre and Periphery - The Coverage of the Development Towns, Tel Aviv: Breirot, 1993, p. 32 (Hebrew).

(14) Edward Said, Zionism from the Standpoint of Its Victims, The Edward Said Reader, Moustafa Bayoumi and Andrew Rubin, ed., New York: Vintage, 2000, pp. 68-114; Ella Shohat, Sephardim in Israel: Zionism from the Standpoint of Its Jewish Victims, Social Text, 19/20, (Autumn 1988), pp. 1-35.

(١٥) جمعت هذه الأفكار في أنطولوجيا من تحرير موشيه بهار وتسفي بن دور ،

Modern Middle Eastern Jewish Thought: Writings on Identity, Politics, and Culture, 1893-1958, Boston: Brandeis University Press, 2012.

(16) Moshe Behar, Is the Mizrachi Question Relevant to the Future of the Entire Middle East, Kedma.org, (January 1997) (Hebrew).

(17) Sami Shalom Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel: White Jews, Black Jews, London and New York: Routledge, 2013.

(١٨) انظر Yehouda Shenhav, ed., Colonialism and the Post-Colonialist Condition, Jerusalem: Van Leer, 2004 (Hebrew).

(١٩) الاقتباس في :

Lorenzo Veracini, Settler Colonialism: A Theoretical Overview, New York: Palgrave Macmillan, 2010, p. 1

وانظر كذلك :

Patrick Wolfe, Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology, London: Bloomsbury 1998; and Edward Cavanagh, Settler Colonialism and Land Rights in South Africa: Possession and Dispossession on the Orange River, New York: Palgrave Macmillan, 2013.

(20) Ella Shohat, The Invention of the Mizrachim, Journal of Palestine Studies, 29:1, (Autumn 1999), pp. 5-20.

(21) Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel.

(22) Yossi Yonah, Yonit Naaman and David Machlev, ed., Rainbow of Opinions: A Mizrachi Agenda for Israel, Jerusalem: November Books, 2007 (Hebrew).

(٢٣) من قصيدة بعنوان «أنا لاجئ عربي» .

(24) Smadar Lavie, Arrival of the New Cultured Tenants, Times Literary Supplement, (14 June 1991).

(25) Yoav Peled, Towards a Redefinition of Jewish Nationalism in Israel? The Engima of Shas, Ethnic and Racial Studies, 21:4, (1998), pp. 703-23.

(٢٦) تراوبمان ، هآرتز .

(27) Chetrit, Intra-Jewish Conflict in Israel.

الفصل التاسع:

اللحظة الثقافية ما بعد الصهيونية

(١) الاقتباس من Yigal Nizri, Foreword: From a Noun to Us in Nizri, Eastern Appearance, p. 27.

(٢) المصدر السابق .

(3) Dror Mishani, The Mizrahi as a Linguistic Abberation in Nizri, Eastern Appearance, p. 86 (Hebrew).

(4) Sami Shalom Chetrit, Poems in Ashdodit, Tel Aviv: Andalus, 2003 (Hebrew).

وأشدود هي مدينة مجدل الفلسطينية التي طرد منها أهلها ونشأ فيها شتريت .

(5) Ilan Pappe, Post-Zionism and Its Popular Culture in Rebecca L. Stein and Ted Swedenburg, ed., Palestine, Israel, and the Politics of Popular Culture, Durham, NC: Duke University Press, 2006.

(6) Albert Swissa, Bound, Tel Aviv: Hakkibutz Hameuhad, 1985 (Hebrew), and Yerach Gover, Zionism: The Limits of Moral Discourse in Israeli Hebrew Fiction, Minneapolis, MN: University of Minnesota Press, 1994.

(7) Yitzhak Laor, The People, Food Fit for a King, Tel Aviv: Hakibbutz Hameuhad, 1994 (Hebrew).

(8) Yitzhak Laor, In the Spring: After the Reserve Service (Early Stories), Tel Aviv: Keter, 2000, p. 137 (Hebrew).

(9) David Grossman, The Yellow Wind, New York: Picador, 2002, and Sleeping on a Wire: Conversations with Palestinians in Israel, New York: Picador, 2003.

(10) Dina Goren, The Media in Israel, Skira Hodshit, 8-9, (August/September 1984), pp. 57-67 (Hebrew).

(11) Issam Abu Riya, The Arab Minority and the Israeli Media in Issam Abu Riya et al., ed., Exclusion and Negative Images, The Israeli Civil Rights Report, 2002 (Hebrew).

(12) Calev Ben-David and David Wainer, The Controversy Over Israel's Business élite, Bloomberg Businessweek, (7 October 2010).

(13) Yaron Ezrahi, Rubber Bullets: Power and Consciousness in Modern Israel, New York: Farrar, Straus and Giroux, 1997.

(14) Waltz with Bashir, directed by Ari Folman, 2008; The Gatekeepers, directed by Dror Moreh, 2012.

(15) Ezrahi, Rubber Bullets.

الفصل العاشر:

مابعد الصهيونية في المسرح والسينما

(1) Hanoch Levin, The Labour of Life: Selected Plays, trans. Barborn Harshaw, Stanford, CA: Stanford University Press, 2003.

(2) Dan Urian, The Arab in Drama and Israeli Theatre, London and New York: Routledge, 1997.

(3) Ilan Pappe, A Text in the Eyes of the Beholder: Four Theatrical Interpretations of Kanafani's Men in the Sun, Contemporary Theatre Review, 3, (1995), pp. 157-74.

(٤) مثل فيلم «A Trumpet in the Wadi» من إخراج شمويل هسفاري ١٩٩٨ .

(٥) أخرج فؤاد عوض وإيران بانيل نسخة محلية من روميو وجولييت في مسرح الخان في القدس (الإسرائيلية) ومسرح القصبة في القدس (الفلسطينية) .

(٦) حظرت المسرحية عام ١٩٩٨ وعرضت في مسرح خاص عام ١٩٨٩ .

(٧) في مقابلة في يديعوت أحرونوت في كانون أول ٢٠٠٩ .

(٨) عرضت في شباط ١٩٧٨ .

(٩) رام ليفي في حوار مع بابيه في زخروت ، ١٩ تشرين الثاني ٢٠١٢ .

(١٠) وله أكثر من عشرين فيلمًا ، لعلّ أشهرها هو «Stretcher's Journey» عام ١٩٧٧ ويتحدث عن رحلة إلحاق الشباب بالوحدات الخاصة في جيش الدفاع الإسرائيلي

(١١) انظر ماثيو ألبرت في Canadia Journal of Sociology Online (تشرين الثاني ٢٠٠٢) .

(١٢) وقد تناول لاؤور هذا الفيلم وغيره في كتابه «نحن نكتبك يا أرضنا» عام ١٩٩٥ (عبري) .

(13) Said, Zionism from the Standpoint of Its Victims .

(١٤) من إخراج جدعون غناني وكتب النص بيني براباش .

(١٥) من إخراج عشير تلاليم ١٩٩٤ .

(١٦) كما منع الفيلم لفترة من قبل وزارة الثقافة في فرنسا .

(١٧) انظر مراجعة ديفد هوفمان للفيلم في الواشنطن بوست ، ١٢ تشرين الثاني ١٩٩٢ «Through the Veil of Exile» .

(١٨) انظر تقرير روني سنغر في هآرتز ٢٢ نيسان ٢٠٠٤ .

(١٩) وهو من أغزر المخرجين إنتاجًا في إسرائيل ، إذ أخرج منذ العام ١٩٩٨ أكثر من اثنين وعشرين فيلمًا ، والعديد منها أفلام طويلة تدور حول موضوع الصراع العربي الإسرائيلي .

(20) Ilan Pappe, Israeli Television's Fiftieth Anniversary Series: Tekumma: A Post-Zionist View?, Journal of Palestine Studies, 27: 4, (Summer 1998), pp. 99-105.

(21) Walid Khalidi, All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948, Washington: Institute for Palestine Studies, 2006.

(22) Itamar Rabinovich, The Road Not Taken: Early Arab-Israeli Negotiations, New York: Oxford University Press, 1995; Shlaim, Collusion Across the Jordan; Pappe, The Making of the Arab-Israeli Conflict, 1947-1951.

(23) Emile Habibi, The Secret Life of Saeed the Pessoptimist, New York: Interlink, 2001.

الفصل الحادي عشر: انتصار النيو-صهيونية

(1) Adi Ofir, The Work of the Present: Essays on Contemporary Israeli Culture, Tel Aviv: Hakibbutz Hameuhad, 2001, pp. 257-8 (Hebrew).

(2) Neri Livneh, The Rise and Fall of Post-Zionism in Haaretz, (19 September 2001). The English version appeared a day later as Post-Zionism Only Rings Once .

(٣) شافيط ، «بعد مابعد الصهيونية» في هآرتز ١٨ نيسان ٢٠١٣ .

(٤) أمنون روبنستاين «مابعد الصهيوني ، من هو؟» في هآرتز ، ١ أيلول ١٩٩٥ ، وانظر كذلك كتابه :
"From Herzl to Rabin: The Changing Image of Zionism" New York: Holmes and Meyer Publishers, 2000.

(5) Livneh, The Rise and Fall of Post-Zionism .

(6) Anita Shapira, The Past Is Not a Foreign Country: The Failure of Israel's New Historians to Explain War and Peace, New Republic, (29 November 1999).

(7) Tuvia Friling, ed., An Answer to a Post-Zionist Colleague, Tel Aviv: Yedioth Ahronoth, 2003 (Hebrew).

(8) Elhanan Yakira, Post-Zionism, Post-Holocaust: Three Essays on Denial, Forgetting and the Delegitimisation of Israel, Cambridge: Cambridge University Press, 2009.

(9) David Ohana, The Last Israelis, Tel Aviv: Am Oved, 1997 (Hebrew).

(10) The New Anti-Semitism - A Threat to the Spirit of Freedom and Humanity, Makor Rish-on, (23 July 2010).

(11) Shavit, Post-Post-Zionism .

(12) Livneh, The Rise and Fall of Post-Zionism .

(13) Tom Segev, Elvis in Jerusalem: Post-Zionism and the Americanisation of Israel, New York: Picador, 2002.

(14) Livneth, The Rise and Fall of Post-Zionism .

(15) The Politics Behind the Closure of the Department of Politics, Haaretz, (5 October 2012).

(16) Nurit Stadler, Is Profane Work an Obstacle to Salvation? The Case of Ultra-Orthodox (Haredi) Jews in Israel, Sociology of Religion, 63:4, (2002), pp. 455-74

(17) Sefi Rachlevsky, Messiah's Donky, Yiedoth Ahronoth: Tel Aviv, 1998.

(18) Pappe, The Forgotten Palestinians, p. 260.

(19) Daniel Bar-Tal and Yona Teichman, Stereotypes and Prejudice in Conflict: Representations of Arabs in Israeli Jewish Society, Cambridge: Cambridge University Press, 2009; Peled-Elhanan, Palestine in Israeli School Books.

(٢٠) وزارة التربية والتعليم، اليوبيل الذهبي لإسرائيل ١٩٩٨ . وقد كانت هنالك تغطية للكتاب في

الأسوشيتد بريس وهنالك مراجعة عنه في مجلة معهد الخليل للدراسات السياسية والدينية

(٢١) المصدر السابق .

(22) Ethan Bronner, Israel's History Textbooks Replace Myths with Facts, New York Times, (14 August 1999).

(٢٣) هآرتز ، ٢٩ آذار ١٩٩٨ .

(٢٤) وقد ظهر ملخص لهذا التقرير في هآرتز ٢٧ آذار ٢٠٠١ .

(٢٥) يمكن العثور على التقرير في الموقع الإلكتروني acri.org.il

(٢٦) حول هذه القوانين انظر Pappe, The Forgotten Palestinians, pp. 4-5.

الفصل الثاني عشر: مؤرخو النيو-صهيونية

(1) Daniel Pilser, Making History, Techelet, (9 March 2000), p.1 (Hebrew).

(2) Louis Althusser, Essays on Ideology, London and New York: Verso, 1984.

(3) Ilan Gur-Ze ev and Ilan Pappe, Beyond the Destruction of the Others Collective Memory: Blueprints for a Palestinian/Israeli Dialogue, Theory,

Culture and Society, 20: 1, (February 2003), pp. 93-108.

(4) Yoav Gelber, Independence Versus Nakba: The Arab-Israeli War of 1948, Tel Aviv: Devir, 2004 (Hebrew).

(5) Friling, An Answer to a Post-Zionist Colleague

(6) Efraim Karsh, Fabricating Israeli History: The New Historians, London and New York: Routledge, 2000

(7) Pilser, Making History, p. 1.

(8 Anita Shapira and Derek J. Penslar, ed., Israeli Historical Revisionism: From Left to Right, London and Portland: Frank Cass, 2003, pp. iv-vi.

(9) Michael Walzer, History and National Liberation, in Shapira and Penslar, Israeli Historical Revisionism, pp. 1-8.

(10) Daniel Gutwein, Left and Right Post-Zionism and the Privatisation of Israeli Collective Memory, in Shapira and Penslar, Israeli Historical Revisionism, pp. 9-42.

(11) Martin S. Kramer, Ivory Towers on Sand: The Failure of Middle Eastern Studies in America, Washington: Washington Institute for Near East Policy, 2001; and Gelber, Independence Versus Nakba.

(12) Benny Morris, Correcting a Mistake: Jews and Arabs in Palestine/Israel, 1936-1956, Tel Aviv: Am Oved, 2000 (Hebrew).

(13) Benny Morris, The Survival of the Fittest, interview in Haaretz, reproduced by The Journal of Palestine Studies, 33: 3, (Spring 2004). p. 168.

(١٤) المصدر السابق ص١٦٩ .

(١٥) المصدر السابق ص١٦٨ .

(16) Morris, 1948.

17 Alon Kadish, ed., Israel's War of Independence 1948-1949, 2 vols., Tel Aviv: Ministry of Defence Publications, 2004, pp. 11-13 (Hebrew).

(١٨) المصدر السابق ص١٤ .

(19) Mordechai Bar-On, A Memory in a Book: The Early Israeli Historiography of the War of Independence, 1948-1958, Tel Aviv: Ministry of Defence Publications, 2001, p. 60 (Hebrew).

(20) Mordechai Bar-On and Meir Hazan, eds, People at War: A Collection of Studies on the Civilian Society During the War of Independence, Jerusalem: Yad Ben Zvi, 2007 (Hebrew).

(٢١) يذهب غلبر إلى أنّ حرب ٤٨ قد اندلعت بسبب رفض الفلسطينيين قرار التقسيم وما كان عند العرب من رغبة لتدمير الدولة اليهودية ، ويرى أنّ كل ما قامت به القوات اليهودية مسوغ أخلاقيًا بعمومه لأنّه محض دفاع عن النفس . انظر :

Yoav Gelber, Why Did the Palestinians Run Away in 1948?, History News Network, (17

June 2002), hnn.us/article/782.

(22) Tamir Goren, Separate or Mixed Municipalities? Attitudes of Jewish Yishuv Leadership to the Mixed Municipality During the British Mandate: The Case of Haifa, Israel Studies, 9: 1, (Spring 2004), pp. 101-24.

23 Yakob Markovizky, The Gahal-Recruitment Abroad in the War of Independence, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 525-38; Alon Kadish, Settlements Prepare for War, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 801-48; Jonathan Fine, Basic Problems in Government and Logistics, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 679-710; Amir Bar-Or, The War of Independence: The Supervision of the Political Institutions over the Hagana Organisation, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 711-58; and Haim Barkai, The Real Cost of the War of Independence, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 759-92.

(24) Arnon Golan, The Reshaping of the Ex-Arab Space and the Construction of an Israeli Space (1948-1950), in Kadish, ed., Israel's War, p. 912.

(25) Arnon Golan, The Transformation of the Settlements Map in the Areas Abandoned by the Arab Population as a Result of the War of Independence in the Territory on which the State of Israel was Founded, 1948-1950, University of Haifa, 1993 (Hebrew).

(26) Benny Morris, The Survival of the Fittest ; Morris, 1948

27 Dani Hadari, The War of Independence in the North, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 119-70.

(٢٨) المصدر السابق ص١٣١ .

(٢٩) المصدر السابق ص١٣٣ .

(30) Uri Milstein, The Looting by Harel, NEWS1, 28 February 2005.

31 Yoav Peled, The Campaign in Jaffa and the Surrounding Area, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 389-422; and Moshe Arnewald, The Military Campaign in Jerusalem in the War of Independence, November 1947-April 1948, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 341-88.

32 Peled, The Campaign in Jaffa, p. 417.

33 Arnewald, The Military Campaign, p. 362.

(٣٤) المصدر السابق ص٣٥٩ .

(٣٥) المصدر السابق .

(36) Aaron Klein, The Arab POWs in the War of Independence, in Kadish, ed., Israel's War, pp. 567-86.

(37) Salman Abu-Sitta, report on Israeli website Zochrot, zochrot.org, (19 May 2002) (Hebrew).

(38) Ilan Pappe, The Ethnic Cleaning of Palestine, pp. 200-4.

(٣٩) لعل غياب الحساسية التي ظهرت في اختيار كلاين للكلمات وتسببت في الأذى لأيٍّ ناج من الهولوكوست تعود إلى فرط استحضار واستغلال ذكرى الهولوكوست في إسرائيل ، أو قد يكون هذا مجرد جهل منه ، كما أنّ استخدام عبارة «مخيمات العمل الشاق» تظهر غياب هذه الدقة . انظر Klein, The Arab POWs, p. 577.

(٤٠) المصدر السابق ص٥٦٨ .

(41) Ilan Pappe, The Tantura Case in Israel: the Katz Research and Trial, Journal of Palestine Studies, 30: 3, (Spring 2001), pp. 23-5.

(42) Klein, The Arab POWs, pp. 568, 576.

(٤٣) المصدر السابق ص٥٧٦ .

(٤٤) المصدر السابق ص٥٨٣ .

(٤٥) نمر الخطيب ، نكبة فلسطين ، دمشق ، ١٩٥٠ .

(46) Klein, the Arab PoWs, p. 580.

(٤٧) ليس عجيبًا أن لا نجد اهتمامًا لدى كلاين بشهادات الأسرى ، إلا أنّ هذه هي الدراسة الوحيدة من نوعها التي تسقط تمامًا شهادات الأسرى ، فتخيّل مثلًا لو كانت هنالك دراسة عن أحد مخيمات الأسرى في اليابان من دون التعرض لشهادات الأسرى الشفوية أو المكتوبة

(48) Kadish, Israel's War, p. 24.

(٤٩) وهذا كذلك الأساس الذي اعتمد عليه غلبر في كتابه «Independence Versus Nakba» والذي شجّع على اختيار المنهاج .

(50) Daniel Bar-Tal, Living With the Conflict: Socio-Psychological Analysis of the Jewish Society in Israel, Jerusalem: Carmel, 2007, p. 443 (Hebrew).

(51) See Sami Adwan and Ruth Firer, The Narrative of the Palestinian Refugees During the War of 1948 in Israeli and Palestinian History and Civic Education Textbooks, Paris: UNESCO Publications, 1997.

(52) Anita Shapira, The Past Is Not a Foreign Country .

(53) Anita Shapira, Yigal Allon: A Biography, pp. 154, 375.

(54) Leah Segal, Between Myth and Reality: Few Against Many?, Hazofeh, (24 February 2004) (Hebrew).

خاتمة: وسم إسرائيل ٢٠١٣

(١)انظر mcs.gov.il ويمكن التعرف على القائمة الكاملة للفائزين بالجائزة في هذا الموقع ولكن باللغة العبرية .

(٢) «وزارة الثقافة تقدم جائزة للفنون «الصهيونية» ، هآرتز .

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(٥) المصدر السابق .

(٦) المصدر السابق .

(٧) هآرتز ٢٨ نيسان ٢٠١٣ .

(٨) هآرتز ٦ كانون الأول ٢٠١١ .

(٩) هآرتز ٢٥ أيار ٢٠١٣ .

(١٠) انظر ngo-monitor.org.il

(11) Sarah Schulman, A Documentary Guide to Brand Israel and the Art of Pinkwashing.

Mondoweiss, (30 November 2011), mondoweiss.net/2011/11/adocumentary-guide-to-brand-israel-and-the-art-of-pinkwashing.html.

(١٢) المصدر السابق .

(13) davidproject.org.

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) المصدر السابق .

(١٦) المصدر السابق .

(17) Schulman, A Documentary Guide .

(١٨) المصدر السابق .

(١٩) المصدر السابق .

(٢٠) المصدر السابق .

(٢١) يديعوت أحرونوت ٢٧ تموز ٢٠١١ .

(22) Gary Rosenblatt, Marketing a New Image, Jewish Week, (20 January 2005).

(٢٣) المصدر السابق .

(٢٤) المصدر السابق .

(٢٥) المصدر السابق .

(٢٦) المصدر السابق .

(٢٧) انظر israelatheart.org

(٢٨) هآرتز ١٧ تموز ٢٠١٢ .

(٢٩) الغارديان ٢٢ أيار ٢٠٠٩ .

(30) Schulman, A Documentary Guide.

(31) Schulman, A Documentary Guide.

(32) The Delegitimisation Challenge: Creating a Political Firewall, the Reut Institute, (14 February 2010), reut-institute.org (Hebrew).

(٣٣) هآرتز ٢٨ تشرين الثاني ٢٠٠٧ .

(34) Jewish People Policy Institute, Annual Assessment 2010, Executive Report 7, p. 182.

(35) Vera Michlin, Winning the Battle of the Narrative, the Tenth Herzliya Annual Report, (31 January-3 February 2010), pp. 56-60.

(36) Peter Beinart, The Failure of the American Jewish Establishment, New York Review of Books, (10 June 2010).

(37) Israeli Ministry of Foreign Affairs press report, (21 October 2010); see mfa. gov.il (Hebrew).

(38) Eitan Dangot, Strategies for Countering Delegitimisation and for Shaping Public Perceptions, panel discussion, Countering Assaults on Israel's Legitimacy, The S. Daniel Abraham Center for Strategic Dialogue, Netanya Academic College, (16 April 2012).

(39) The Summary of the Eleventh Herzliya Conference; see herzliyaconference. org.

(٤٠) المصدر السابق .

(41) Rommey Hassman, The Israeli Brand: Nation Marketing Under Constant Conflict, policy paper presented at the Harold Hartog School of Government, University of Tel Aviv, (April 2008).

(٤٢) المصدر السابق ص٥ .

(٤٣) المصدر السابق ص٥٧-٥٨ .

محمّد سعد الدين زيدان

محمّد زيدان أكاديمي ومترجم شابٌ من الأردن مقيم في إسطنبول وهو عضو هيئة تدريس في قسم الترجمة في جامعة إسطنبول ٢٩ أيار . حاصل على درجة الماجستير في دراسات الترجمة من الجامعة الأردنيّة وترجم عدّة كتب إلى العربية ، منها كتاب فلسطين تاريخ شخصي لكارل صبّاغ ، وبيت المقدس في إستراتيجية النبي محمّد لعبدالله معروف .

البريد الإلكتروني : Zeidan.mohamed@gmail.com

تويتر : @mszeidan

الفهرس

تقديم الترجمة العربية : د . عبدالله معروف عمر ٥

تقديم الترجمة العربيّة : إيلان بابيه ٩

تمهيد : السّجال حول فكرة إسرائيل ١٣

القسم الأول: فكرة إسرائيل بين الدرس الأكاديمي والسرد الخياليّ ٣١

الفصل الأول: التاريخ «الموضوعي» للأرض والشعب ٣٣

المؤرخ الصهيوني الموضوعي ٣٣

رسّام الخرائط الموضوعي ٤١

الفصل الثاني: الغريب إذ يصبح إرهابياً: الفلسطيني في الفكر الصهيوني ٤٥

تأريخ الإرهاب الفلسطيني : ١٨٨٢-٢٠٠٩ ٥٤

الفلسطينيون في إسرائيل : ما بين استشراقٍ وإرهاب ٦٤

الفصل الثالث: الحرب عام ١٩٤٨ بالكلمة والصورة ٧١

فيلم رعب للأطفال : ١٩٤٨ في السينما ٨١

دان وسعادية : الأسطورة بأقصى تجلياتها ٨٥

في الأفلام الوثائقية ٩٢

القسم الثاني: اللحظة ما بعد الصهيونية في إسرائيل ٩٥

الفصل الرابع : روّاد مابعد الصهيونيّة ٩٧

الحركات المناهضة للصهيونية : «مصبن» وأخواتها ١١٩

الروّاد الأكاديميون ١٢٤

الفصل الخامس: الاعتراف بالمأساة الفلسطينية نظرة جديدة على حرب ١٩٤٨ ١٤٣
المؤرخون الجدد ١٥١
أهمّية تأريخ عام ١٩٤٨ ١٦٣
نظرة جديدة إلى العقد الأول من عمر الدولة ١٦٥

الفصل السادس: ظهور الأكاديميا ما بعد الصهيونية، ١٩٩٠-٢٠٠٠ ١٦٧
ما بعد الصهيونية؟ ١٦٩
لمَ العام ١٩٩٤ تحديدًا؟ ١٧٥
المنهجية ما بعد صهيونية ١٨٧

الفصل السابع: ذكرى الهولوكوست في إسرائيل ٢٠١
يمكن ليهوذا أن يحقق ما حققته إيطاليا! ٢٠٩
سلف انتفاضة وارسو هو دولة إسرائيل ٢١٥
اليهوديّ المُخجِل : شيطنة الناجين من الهولوكوست ٢٢٠
اتّهام الفلسطينيين بالنازيّة ٢٢٩
الأمّة التي لا يندمل لها جرح ٢٣١

الفصل الثامن: فكرة إسرائيل واليهود العرب ٢٣٥
أفضل من العرب بقليل فقط ٢٣٩
هل نحن عرب؟ ٢٤١
الدولة اليهودية الاستشراقية ومستشرقوها اليهود ٢٤٣
نحن عرب وفخورون بذلك! ٢٥١

الفصل التاسع: اللحظة الثقافيّة مابعد الصهيونية ٢٥٧
الموسيقى مابعد صهيونيّة ٢٥٩

كتابة جديدة؟ ٢٦١

إعلام ما بعد صهيوني؟ ٢٦٦

الفصل العاشر: المسرح والسينما في الحركة مابعد الصهيونية ٢٨١

السينما مابعد الصهيونيّة ٢٨٥

«خطّ النار» : شيءٌ من الإنسانية في قصّة النكبة ٢٩٣

التوجّه النقدي مابعد الصهيوني في الأفلام الوثائقية ٣٠٠

تكوما : الفشل في تحديد الموقع ٣٠٧

الفصل الحادي عشر: انتصار النيو-صهيونية ٣١٩

صعود النيو-صهيونية ٣٢١

أثر مابعد الصهيونية ٣٢٢

ردود فعل أوليّة ٣٢٥

رجوع القهقهرى ٣٢٩

العودة إلى الوراء- أفول التعدّدية السياسيّة ٣٣٥

النسخة النيو-صهيونية لفكرة إسرائيل ٣٣٩

جيل المستقبل : التعليم في إسرائيل في القرن الحادي والعشرين ٣٤٤

شرعنة الأبارتايد : النسخة النيو-صهيونية ٣٤٨

الفصل الثاني عشر: المؤرخون الجدد من الصهاينة الجدد ٣٥٥

نقد المؤرخين الجدد والجدل الأخلاقي ٣٥٩

الوجه الجديد لحرفةِ كتابةِ التاريخ ٣٦٣

خاتمة: الحملة الرسميّة الإسرائيلية وسم إسرائيل ٢٠١٣ ٣٧٩

الجبهة الداخلية ٣٧٩

وسم إسرائيل : النسخة الدوليّة ٣٨٣
خططٌ ورؤى جديدة : ترويج جديد لوسم جديد ٣٩٣

الهوامش ٤٠٣

كتب تتناول القضية الفلسطينية، اسرائيل، والصراع العربي الصهيوني "من منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر"

عنوان الكتاب	بيانات التأليف
اسرائيل وفلسطين	آفي شلايم
الثورة المجهضة	ماجد كيالي
الحياة في بيوت فلسطين	جمال ابو غيدا
السلطان عبد الحميد الثاني وفلسطين	رفيق النتشة
الصهيوني البشع	طاهر القليوبي
القدس في الجغرافيا الروحية الاسلامية	محمد جمال باروت وشمس الدين الكيلاني
القدس في الخطاب الشعري العربي والخطاب الشعري العبري الحديث	د. نهال مهيدات
القدس مفتاح السلام والحرب	عبد المنعم صبحي
القدس والحال الفلسطيني	هيثم الكيلاني
القدس والحكم العسكري البريطاني	عبلة المهتدي
المداخل الاصلية لثقافة القدس	د. زيد الحمد
الوعود البلفورية	علي ابراهيم حطيط
اليهودي اللايهودي	اسحق دويتشر ت. ماهر كيالي
بروتوكولات حكماء صهيون	عجاج نويهض

بيت بين النهر والبحر - محاورات حول الفلسطينيين والعودة	نوري الجراح
تاريخ القدس القديم	خزعل الماجدي
تاريخ فلسطين الحديث	عبد الوهاب الكيالي
تاريخ فلسطين وجغرافيتها 1/ 3	رفيق النتشة
خالدون من فلسطين	نبيل الآغا
صحافة فلسطين والحركة الوطنية	عايدة النجار
صراع المصالح النفطية وتأثيره في نشوء القضية الفلسطينية	د. عصام سخنيني
عائلات وشخصيات من يافا	طاهر القليوبي
عكا عبر التاريخ	مروان الماضي
عن طريق الخداع	ت. ماهر الكيالي
فشل المفاوضات وتغيير قواعد اللعبة	حمادة فراعنة
فلسطين - الحقوق لا تزول	د. سلمان ابو ستة
فلسطين تاريخ شخصي	كارل صباغ
ليلى خالد - أيقونة التحرر الفلسطيني	ت. عبلة عودة
مدينة اللد ... موقعا وشهرة وتاريخا ونضالا	مصطفى الفار
مقاتل المسيحيين نجران 523 م والقدس 614 م	د. عصام سخنيني
من النكبة الى الانتفاضة	بهجت ابو غربية
يافا - مشاهد شوق وحنين	طاهر قليوبي
يافا للأبد	تقديم عدلي الدرهلي
وسطاء الخداع	رشيد الخالدي